فريق متميزون
E-BOOK

حمام البلقان

فلاديسلاف باياس

ترجمة: تسبيح عادل عبد السميع

روايات مترجمة

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

حمام البلقان

(الرواية الحائزة على جائزة أفضل رواية في البلقان ٢٠٠٨)

فلاديسلاف باياس..

ترجمة: تسبيح عادل عبد السميع

عن الرواية..

رواية تاريخية استثنائية. كاتبنا الصربي مفتون بجذوره العثمانية، فيأخذنا تجاه حقبة من تاريخ هذه الدولة. فيحكي لنا قصة صقللي محمد باشا ومِعمار سِنان آغا وما قاما به من إنجازات في تاريخ الدولة العثمانية من حروب وانتصارات وتشييد معماري. وكذلك يأخذنا الكاتب في فصول أخرى لننسجم مع شخصيات معاصرة من الماضي القريب للمجتمع الغربي - قصص يغمس فيها الكاتب قلمه في بئر مذكراته ليحكي لنا مواقفه مع هذه الشخصيات. فقد تبادل كاتبنا الكلمات والجولات مع عظماء الأدب مثل أورهان باموق وجمال الغيطاني، مما يضيف لمسة جديدة ومختلفة للقارئ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كل الأسماء في هذا الكتاب من وحي الخيال.
وكل الشخصيات أيضًا، بما فيها الكاتب العليم بكل شيء.

الحمَّام ..أو مهارة العيش

يُقال إنَّ مَن أدخل عبارة "معجزة الطبيعة" هو الفيلسوف الإغريقي "إبيقور" (341 - 270 ق. م.) والذي آمن بقدسية الطبيعة، لدرجة أن أحد أهم أفكاره تتمثّل في اعتقاده "بأنه من المستحيل الوصول إلى السعادة إن لم يكن الإنسان على معرفة بالطبيعة من حوله". على الرغم من أن "إبيقور" كان مؤمنًا بأن الشعور بالراحة والسعادة هو أعظم هبة مُنحت للإنسان، فإن أفكاره عن السعادة والبهجة ليست متعلقة بالسعادة المبتذلة الناتجة عن الإفراط في الملذات الدنيوية كما يظن بعضهم. ولكنه يقصد السعادة المصحوبة بالارتياح، كتلك التي نشعر بها عند التعافي من مرضٍ ما، أو عند انزياح همٍّ ما. إنها المتعة التي نشعر بها عند غياب الألم الجسدي والاضطراب النفسي. هذا يعني أن الحصول على السلام الداخلي والهدوء الروحاني مترتب على الفردية؛ فكل شخص مسؤول عن سعادته الشخصية وفقًا للطريقة التي يتعامل بها مع المواقف التي تواجهه، وهو مترتب أيضًا على مدى تعلق الشخص بالطبيعة وتأمله إياها.

وكان إيمان "إبيقور" بمذهب المتعة - والذي ينتمي إلى المدرسة "الهيدونية" أو مدرسة اللذة - قويًّا جدًّا، لدرجة أن إيمانه بهذه النظرية لم يكن يتزعزع مهما كان الوضع مأساويًّا. فمثلًا، كان "إبيقور" أحد الفلاسفة الذين عاصروا الإمبراطورية الرومانية في أوج عظمتها، وكان أيضًا ممن شهدوا انهيارها، لذلك من المفترض أن يكون وقع انهيار إمبراطورية الإسكندر الأكبر عليه عظيمًا. لكنه لم يترك لسوداوية الوضع سبيلًا إلى نفسه، وذلك لأنه مؤمن بأن:

"الفلسفة كالطب. فعلى كليهما التخفيف من آلام البشر. فالطب يعالج البشر من الأمراض الجسدية، أما الفلسفة فعليها أن تخفف من همومهم المعنوية، وتقدم حلولًا منطقية لمشاكلهم. فإذا لم يقوما بدورهما فليس لوجودهما أهمية".

ولذا، حتى يومنا هذا، أي شخص قادر على تجنب الشعور بالحزن نتيجة الألم الجسدي أو الاضطرابات الروحانية، وأي شخص يقدس المُتَع الحسية والهدوء الروحاني والسلام الداخلي يُصنف على أنه "إبيقوري" أو على أنه ينتمي إلى "الإبيقورية"، وهي باختصار مدرسة فلسفية، مفادها أن السعادة هي الخير الأوحد والنعمة الأعظم، وأن الألم والخوف هما الشر الأقسى.

كان "أريستبوس" (435 - 355 ق.م.) مؤسس المدرسة القورينائية - أو ما عُرفت أيضًا بالمدرسة "الهيدونية" - هو الأب الروحي لـ"إبيقور". وُلد "أريستبوس" بمدينة "سيرين" أو "قورينائية" والتي تُعرف حاليًا باسم "شحات"، وهي مدينة تتميز بجمال طبيعتها الخلابة تقع بمحافظة الجبل الأخضر بليبيا. وقد كانت إحدى أكثر المستوطنات الهيلينية تقدمًا. ووصفها الشاعر "بيندار" بأنها تقع على قمة تل تجري خلاله ينابيع المياه العذبة التي كانت تُستخدم لري حدائق الأروقة والشرفات. تزين المدينة بساتين الزيتون وكروم العنب ومزارع زهور "السلفيوم" الموشكة أن تنقرض، وتضيف إلى جمالها جمالًا. هذا غير مروجها الخضراء التي تمتلئ بالأغنام، والخيول التي انحدرت من سلالتها الخيول العربية الأصيلة. ازدهرت تجارة القورينائيين على الرغم من معاركهم الشرسة مع المصريين والليبيين، حتى أصبحت "قورينائية" إحدى أغنى المقاطعات الهيلينية. ولذلك لم يكن القورينائيون في حاجة إلى بذل الكثير من الجهد في العمل الشاق؛ فقد اعتادوا على التنعم بحياة مرفهة أتاحتها لهم "الوفرة في المال والموارد الطبيعية". كانت الحياة في مدينة "سيرين" أو "قورينائية" مثالية، لدرجة

أنها تعطي نموذجًا واقعيًّا لمدينة أفلاطون الفاضلة، بل هي الأكثر محاكاةَ للمجتمعات التي جسدها "توماس مور" و"توماسو كامبانيلا" في أعمالهما الأدبية.

ولذلك ليس عجبًا أن مفكرًا وُلد بـ"سيرين" كـ"أريستبوس" جعل المتعة هي الغاية الرئيسة من الحياة. ولذلك ما زال يُشار إليه على أنه رائد هذه المدرسة الفلسفية التي تُعرف الآن بالمدرسة "الهيدونية". وأحد أهم أسس هذه المدرسة هي أن السعادة هي الخير الأوحد، وأن الألم هو الشر الأوحد. ويقول "أريستبوس" إن السعادة والمتعة تُختبران بقوة اندفاع المشاعر:

"فالشعور بالرضا ينتج عن تحرك مشاعرنا بلطف، كالنسيم الذي يدفع أشرعة المراكب في هدوءٍ وبغير أذى. أمَّا اندفاع المشاعر كعاصفة في عرض البحر، فلا ينتج عنه سوى السخط وعدم الرضا. والحالة الثالثة هي السكون التام، حيث لا يشعر الإنسان بشيء على الإطلاق، وهي حالة تعبِّر عن عدم مبالاة الإنسان بأي شيء على الإطلاق، فيكون الرضا والسخط متساويين في نظره. لا يبالي بهذا أو بذلك".

ومع ذلك، لم يؤمن "أريستبوس" أبدًا بأن يُختزل دور الإنسان في تتبع المتع الحسية اللحظية فقط، ولكنه على العكس من ذلك كان يرى أن على الإنسان التحكم في رغباته بحكمة، وأن يكون سيدًا عليها لا عبدًا لها. وعلاقته بعشيقته "لايس" هي خير شاهد على قوة تحكمه بانفعالاته وبمشاعره، حيث قال عنها: "أنا أملك "لايس" لكنها لا تمتلكني".

ومن المدارس التي تتبع منهجًا مشابهًا لـ"الهيدونية" هي مدرسة "اليودايمونيا". وهي مدرسة أخلاقية سُميت على اسم إلهة الرفاهية والرخاء الإغريقية. تؤمن هذه المدرسة الفلسفية بأن السعادة هي الحافز، والسبب، والهدف الرئيس لكل أفعالنا. ثم إنها أيضًا تؤكد أن مبدأ الفردية هو العنصر المشترك بين مختلف مذاهب "الهيدونية"، من الأكثر إغراقًا في اتباع المتع الحسية، إلى أكثرهم عقلانية.

لم يتوقف المفكرون والنخبة، حتى الأفراد العاديون من عوام الناس عن اتباع مدارس المتعة الهيلينستية، حتى بعد انتهاء العصر الهيليني. فقد شهد التاريخ الذي تلا هذه الحقبة عديدًا من الأشخاص الذين كرسوا حياتهم للبحث عن السعادة، مهما كان وضع حياتهم، أو مجتمعاتهم ودولهم صعبًا. حاول هؤلاء الأشخاص أن يحصلوا على الشعور بالرضا بتطبيق أسس مدرسة اللذة على أوسع نطاق، حتى بتطبيق أكثر أسسها عبثية، كالاستمتاع بجمالهم الشخصي، أو جمال أشخاص آخرين، أو الاستمتاع بالموت، سواء موتهم، أو موت الآخرين.

وبذلك فهم خير دليل على نسبية الأخلاق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

قبل البداية

لمدينة "فيشجراد" حياة واقعية مثل الحياة اليومية في أي مدينة أخرى. لكن في الوقت نفسه، للحياة في هذه المدينة جانب آخر يميزها عن معظم مدن العالم. بدأت تجربتي مع "ميتافيزيقيا فيشجراد" أو الجانب الغيبي الخفي لهذه المدينة في أبريل 1977، وذلك قبل أن أرى كوبري "درينا" الشهير الذي يعطي للمدينة أهميتها التاريخية. لاحظت في أسفل دفتري الصغير لشعر "الهايكو" الياباني - الذي ما زلت أحتفظ به حتى الآن - أنني دوَّنت اقتباسًا من الشعر يصف طرقات "فيشجراد" المغطاة بالحصى. كنت قد دونت هذه الأبيات الشعرية بينما أتأمل المشهد من نافذة الحافلة:

تتخلل أشعة الشمس أوراق شجر التنوب
الحجر موجود بين اثنتين منها
تسبِّب فِراقًا في الغابة

أي إن شوارع "فيشجراد" تحفُّها الأشجار من كل جانب.

اعتقد "زاركو شيجوجا" - وهو صديقي منذ أيام الجامعة، والذي يستضيفني أيضًا - أن مشاهدة كوبري "صقللي محمد باشا" الذي يرجع تاريخه إلى 1571 - وهو الكوبري ذاته الذي كتب عنه الروائي "أندريتش" - كافية للاحتفال بهذه المناسبة، لدرجة أنه لم يأخذني لزيارة المعالم الأخرى في مدينته ومسقط رأسه. كان الكوبري حقًّا مدهشًا، لدرجة أن من فرط إعجابي به تمنيت لو من الممكن الاستئثار به لنفسي، وألا يشاركني أحد في الاستمتاع برؤيته. ففي ذلك الوقت، لم أتصور أنني سأتعرَّف أسرار ضواحي "فيشجراد" عن قرب من خلال تجاربي المستقبلية. لذلك لم أستطع أن أستمتع بما كنت أراه. أحد هذه الأسرار هي "جماعة سرية" كانت تثير الجدل. حاولت الانضمام إليها، لكن كان عليَّ أن أنتظر ستًّا وعشرين سنة ليقبلوني عضوًا معهم، والحق، إنها تستحق طول الانتظار. المهم، دفعتني روعة الكوبري إلى إعادة قراءة رائعة "إيفو أندريتش" الأدبية التي ذكر فيها هذا الكوبري، لكنني عند دراستي الأدب، لم أتمكن من ربط روايته بالواقع، فكنت أمرُّ سريعًا على الأجزاء التي يذكر فيها المراحل الأولى من بناء الكوبري، ويصف فيها "طريقة نقل الحجارة من محاجر التلال القريبة من بانجا التي تقع على بعد ساعة سيرًا على الأقدام من المدينة".

خلَّد الأدب هذا الكوبري؛ فهو أحد أهم الكباري التي ذُكرت في أدب البوسنة. وقد أُنشئ على نهر "درينا"، وهو بالأهمية نفسها للكوبري الذي بُني على نهر "زيبا". وقد اتفقت مواصفات الكوبري في قصيدة "الهايكو" التي كتبتها عنه على سبيل المثال مع ما ذكره "أندريتش"؛ فقد كان شعاره في الحياة أن الأمان يكمن في الصمت. بُني الكوبري بحبٍّ، وبأموال الأتراك ومسلمي صربيا، حيث بنى "صقللي محمد باشا" و"يوسف إبراهيم" الكوبري من الحجر الأبيض.

أذكر عندما شكوت إلى صديقي أنني أصبحت أجد صعوبة في الكتابة وتوليد الأفكار، نصحني بألَّا أقلق، فعنده دوائي، لكنه طلب حينها أن ننتظر حتى يصل أحد أشهر الكُتَّاب الأتراك الإسطنبوليين "أورهان باموك" الذي عانى المشكلة نفسها، ليخبرنا بوصفته العلاجية دفعةً واحدة، إذ نصحنا بالذهاب إلى الحمَّام التركي للاسترخاء. الحقيقة، كل ما كنت أعرفه عن مدينة "بانجا" وعن المنتجعات الصحية التي تُدعى "حمام صقللي" أو "حمام فيشجراد" هي أنها مصدر لكربونات الكالسيوم البلورية التي استُخدِمَت في بناء الكوبري، وأن هناك ينبوعًا للاستشفاء على بُعد ثلاثة أميال

من المدينة. فهذا هو المكان الذي اختاره "صقللي محمد باشا" في أواخر أيامه عام 1575 لبناء حمَّام تركي إهداءً للمدينة التي وُلد بها. قرأت في كتيب يرجع تاريخه لعام 1934 أن المياه المشعة المستخدمة في هذا الحمَّام تهطل من الأعلى من ارتفاع 1200 قدم. وقد كانت تُستخدم لعلاج الروماتيزم، والألم العصبي، واضطرابات النساء. كما يذكر الكتيِّب أن مياه "السبا"، أو الحمَّام التركي، تعالج النساء من العقم:
"إذا أنجبت امرأة عقيمة بعد غطسها في مياه الحمَّام، فأهل القرية يُومِئون برؤوسهم قائلين: «والله إذا لم تغطس في مياه الحمَّام ما كانت لتحمل الطفل، فقد شُفيَت بفضل مياه الحمام التركي»".
لذلك اتجهتُ إلى الحمَّام عبر الغابة الكثيفة التي لقبتها بـ"البكر"، بفضل طبيعتها المبهرة، والنباتات والأعشاب النادرة التي لا تنمو سوى هنا، فتجعل الغابة تبدو وكأنها الجنة. ثم التقيت أحد معارفي القُدامى وسعدت كثيرًا برؤيته، وهو "أورهان باموك"؛ أحد أشهر كُتَّاب إسطنبول. لم أتفاجأ كثيرًا عندما عرفت أنه أيضًا يعاني صعوبة في الإنتاج الأدبي، فهو كاتب مشهور بغزارة إنتاجه. ومنذ احترافه الكتابة، لم ينقطع عن النشر أبدًا. وإن حدث وانقطع لمدة طويلة دون أن ينشر كتابًا، يصبح من المُتوقع أن وليده القادم - أي كتابه - سيكون كتابًا ذاخرًا ضخمًا.
أمَّا أنا، فمعدل نشري للكتب أقل من معدله. وعادةً ما تكون متوسطة الحجم. وهذا هو إيقاعي. ومع ذلك، على مدار السنوات القلائل الماضية، لم أنجز ولو حتى كتابًا واحدًا، وقد بات الأمر يثير قلقي بحق. ولذلك لجأتُ إلى زيارة الحمَّام التركي، حيث الحجر الذي أعطى الحياة للماء: مثل هذه الخصوبة هي ما أعادت الحياة لإيماني واعتقادي. من سحر المكان ظننت أنني لم أعد بالدنيا وكأنني بالجنة. تصور! الحجر الذي خطوت عليه تم صقله منذ أكثر من أربعة قرون! حجر لونه لون العشب والطحالب! والمياه التي تغمر نفسك فيها دافئة تساعدك في الاسترخاء والانسجام مع الجو العام للمكان. بدأت أشعر وكأنني أصبحت شبحًا! حي، ولكن ميت!
وبينما نحن في الحمَّام، حاول "باموك" ومُضيفُنا أن يتجاذبا أطراف الحديث، ولكن أعاقهما بخار الماء. ثم صرنا نتحرك كما كانت تفعل القردة في الفيلم الصوفي "بركة" للمخرج "رون فريك". نطفو على سطح المسبح، في حين نحن واقفون في أماكننا. أصبحت الرؤية ضبابية لكثرة البخار. هدوء الحمَّام يساعدك في الاسترخاء فيصفو ذهنك، وهنا يبدأ الإلهام، وتبدأ الأفكار تتشكل وتتولَّد واحدة تلو الأخرى. عندما أشعر أنه انتابني النعاس، أدفع نفسي بقوة لأسبح ضد تيار المياه، حتى أصل إلى أسفل الجبل، لأقف تحت تيار المياه الكثيف الذي يندفع من أعلاه إلى المسبح الصغير، حيث أكون جالسًا في انتظار المياه لتنزل على ظهري. وعلى الرغم من أن انهيال الماء من هذا الارتفاع على الظهر مؤلمًا، فإنه ليس ألمًا مزعجًا بل على العكس يمكن تحمله، والأعجب من ذلك أنه ولَّد لديَّ شعورًا رائعًا لا يمكن تفسيره وكأن هذا الشعور عن امتزاج فريد للتأثيرات النفسية التي تخلقها القدرة على فِهم بواطن الأمور الناتجة من فلسفة "الكابالا"، والهدوء النفسي الذي تخلقه تأملات "الزِن"، والتجلِّي الروحاني الذي يصاحب الصوفية، وتذوق الجمال الذي يركز عليه مذهب الجمالية الأرثوذكسية، ولذة التكفير عن الذنوب الكاثوليكية، وكأنهم قد اجتمعوا معًا في نقطة التقاء واحدة وهي مسبح الحمَّام التركي الذي يجسد روعة الفن الإسلامي فأنتجوا شعورًا عميقًا من اللذة والاطمئنان والاستقرار الروحاني والصفاء الذهني. استثنائية الشعور الذي يخلقه المكان تحاكي ندرة أشجار السرخس المحيطة بنا والتي لا تنمو في أي مكان آخر سوى هنا، وتحاكي أيضًا تميز تاريخ المياه التي ما زالت تنبع من عمق 590 قدمًا في جوف الجبل منذ ثمانيةٍ وثلاثين عامًا فتربط الماضي

بالحاضر ويطغى سحر المكان على صوت العالم فلا يترك مجالاً لأحد بأن يشك في وجوده أو بالتفكير في العالم الخارجي.
لا يمكن مقاومة هيمنة الحضور التاريخي الأصيل للمكان والذي تذوب مفردات هويتك بأجوائه فتفقد وجهتك وتنصهر بجوه العام والذي يجعل إدراكك بالزمان والمكان يتلاشى فتفقد شعورك بذاتك وبكل ما يحيط بك حتى بجسدك وكأنه لم يعد له وجود مادي. أثارت هذه السكينة العديد من التساؤلات بذهني: هل فعلًا زارت المرأة العاقر هذا الحمَّام؟ هل فعلًا قام ذلك الرجل المعروف بالبذور العلاجية التي يعطيها للنساء على خدمتها؟ هل كان هذا الحمَّام قاصرًا على الرجال في ذلك الحين ولكن كان يُسمح للنساء اللائي يعانين من العقم أن ينزلوا به؟ ما هو سر السكينة التي يخلقها هذا المكان الذي بُني بعيدًا عن الأنظار؟ ما نوع السحر الذي يلقيه على البكوات أو البشوات أو الوزراء أو حتى السلاطين بغض النظر عما إذا كانوا زوارًا أو مضيفين فيأسرهم ويستحوذ عليهم؟ سواء كان الرجال أو النساء هم من يقومون على خدمة المستحمين في هذا الحمَّام، فقد ذُكِر في بعض النصوص الضائعة أن ممارسة الحب تحت هذا التيار المائي المندفع من قمة الجبل عند 95 درجة مئوية ليس لها مثيل فهي الأخرى كما الحمَّام تُضاهي جمال "الفالهالا" والجنة.
كان من الممكن أن يكون هذا الحمَّام مقرًا للقوافل. في هذه الحالة، كان سيُدِّر أموالًا طائلة مم ينفق المسافرون. لكن الحمد لله أن طبيعة جغرافية المكان أو ربما القدر أخفاه عن الأنظار فجعله بعيدًا عن صخب الحياة وضجيجها. فوجوده على هذا الارتفاع كان يُثبط عزيمة المسافرين المتعبين من عناء الطريق من تسلقه. ولذلك فإن أحجار الحمَّام تم صقل لونها على الأرجح بمرور الزمن بفعل الطبيعة وليس بفعل الإنسان. ومع ذلك، لا بد من الاعتراف بتدخل الإنسان بصنع الطبيعة أينما وكلما أمكنه ذلك. لذلك يمكن العثور على اقتباسات من مخطوطات قديمة تشابه في وصفها للحمَّام ما نراه اليوم. ذُكِر في إحداها أن "أحد المستثمرين بنى مطعمًا وفندقًا بجوار الحمَّام حيث يستطيع من يريد من الزوَّار المبيت هناك. كانت المناظر الطبيعية التي يستطيع النُزُل الاستمتاع بجمالها من شرفة المطعم بمثابة عرض بانورامي رائع".
لكن تلك المخطوطات كانت قديمة جدًا لذلك لم أستطع التعرف على مصدرها أو كاتبها ولذلك لم أستطع أن أعرف من هو ذلك المستثمر ولم أعرف إن كان يعمل لحسابه الخاص أو لحساب شخص آخر لكنه في كل الأحوال على الأحرى كان مقيمًا بفندقه فلم يكن ليحرم نفسه من التمتع بجمال الطبيعة الأخَّاذ من شرفة مطعمه. والحقيقة فإن الحالة المزاجية الهادئة الساكنة التي يخلقها الاستحمام في ذلك المسبح الملائكي الصغير لم تكن لتكتمل إلا بالذهاب لاستكمال الاستجمام والتعمق فيه والتلذذ به على شرفة مطعم هادئ كهذا المطعم بطبيعته الساحرة. وهذه الشرفة ما هي إلا شرفة بدون زجاج على قمة جبل عالٍ. قضاء الوقت هناك يساعد على صفو الذهن وتنشيط الذاكرة واستعادة حيوية وخصوبة الأفكار أثناء تأمل الإطلالة الرائعة لتلال البوسنة. أما عن الطعام، فيُقَدَّم للضيوف المقبلات المحلية وسمك السلمون الطازج الذي تم اصطياده من النهر المجاور. يُطلب السمك بالتليفون من "زالتيبور" قبل ساعة من الموعد الذي تريد استلامه به. الفريد بخصوص هذا السمك هو أنه يظل طوال الشتاء بلا طعام ثم يبدأ بالتكاثر وتناول الطعام عند حلول الربيع وعادةً ما يتغذى على أطعمة غير مُلوثة لذلك هو صحي جدًا.
أما عن الطراز المعماري، فلا ينبغي الخلط بين الطراز المعماري الحديث لهذا المطعم وبين مقر قوافل القرن السادس عشرٍ والذي ليس موجودًا حاليًا. أما في يومنا هذا، فمن يريد الاستمتاع بمثل هذه

التجربة الفريدة متكاملة بما فيها تجربة الفندق فيوجد فندق أو الأصح مركز تأهيل يُسمَّى "ميدين هير" أو "شجرة السرخس" وهو يقدم جميع سبل الراحة والاستجمام ولكن هذه المرة في مسبح حديث وبالطبع مملوء بالمياه الحرارية الإشعاعية نفسها كالتي في الحمام الأثري القديم. ومصدر إشعاعية هذه المياه هو عنصر الرادون المشع الذي يقوم أطباء وأخصائيو العلاج الطبيعي بوضعه في المياه. ليس من الضروري أن تكون مريضًا لتجرب زيارة الحمَّام. لكن حقيقةً، إن تجربتك لهذا الحمَّام تثبت أنك لم تتخلص بعد من آثار اتباعك لمذهب اللذة أو "الهيدونية".

في كل الأحوال، لم يكن من الممكن بناء مكان بالحمَّام للإقامة، فـ"صقللي محمد باشا" نفسه لم يجعل بالحمَّام "بمسبحه وقبته الجميلة" مكانًا يمكن الإقامة به فبناه "بالقرب من نهر "درينا" مثلما فعل مع الحانة الحجرية ومقر القوافل التي تسع إلى ما يقرب من عشرة آلاف حصان وجمل تحت سقفها". هل تظن أن هذا الرقم مبالغ فيه؟ أنا لا أظن ذلك. وحتى إن كان مُبالغًا فيه، فهو مقارب جدًا للحقيقة، فليس صعبًا على من بنى جسر كذلك الذي بـ"فيشجراد" في السبعينيات من القرن السادس عشر أن يُنشئ مثل هذا المقر للقوافل. ففي عصر "محمد باشا"، احتوت "فيشجراد" على حوالي سبعمائة بيت ومسجد كان يُدعى مسجد "السُليمية" ونافورة وحوالي ثلاثمائة متجر ودار مسؤول عن إطعام الفقراء وتكية للدراويش. يوجد في قرية "سوكولوفيتشي" أو "صقللي" - والتي سُميت على اسم الباشا أو ربما يكون "محمد باشا" هو من لُقب بـ"الصقللي" نسبةً إلى القرية – مسجد اسمه "مسجد الصقللي" وأيضًا يُقال إن الباشا قد شيَّد كنيسة أرثوذكسية لمسيحيي البلدة. وهذا ليس مُفاجئًا، فطبقًا لما ورد بالمصادر المختلفة، إن "محمد باشا" الذي كان وزيرًا بالديوان التركي عام 1557 قام بتجديد البطريركية الصربية ونصَّب "ماكريج" رئيسًا لها وذلك "عندما حلت الفوضى بالأرثوذكسية واهتزت فكرة القومية الصربية في ظل العبودية". وأكد المؤرخون أن "هذه الإجراءات التي اتخذها "محمد باشا" هي ما أدت إلى بقاء الشعب الصربي إلى يومنا هذا" و هذا ليس خيالًا، فالقارئ للتاريخ يعرف أن في ذلك الوقت لم يكن للصرب دولة خاصة بهم، وهذا يعني أنه كان من المحتمل أن ينصهروا مع الأمم الأخرى فتتلاشى قوميتهم ووجودهم. ولذلك، توجه انتماء الصرب إلى الكنيسة الصربية الأرثوذكسية والتي أصبحت بالنسبة لهم بديلًا عن الدولة المستقلة. وهذا هو السبب وراء إجلال صربيا لـ"صقللي محمد باشا"، فقد "كان مسلمًا قوي الإيمان ومواطنًا صالحًا أدى واجبه تجاه وطنه بكل عِزَّة وكرامة" فقد استطاع أن يخلق توازنًا في البوسنة بين الإسلام والأرثوذكسية وجذوره الصربية.

ولذلك فإن أول ما خطر على بالي أن تاريخ الحمَّام وعلاقته الوطيدة بالأتراك هو السبب لوجود الكاتب التركي المعروف والأكثر شعبية وإثارة للجدل "أورهان باموك" عند الحمَّام وخاصة أن الأفكار التي كرس معظم رواياته للتعبير عنها دائمًا ما تحاول معالجة العلاقة التي تربط الشرق بالغرب وبالتالي فهو يقتفي أثر أجداده في محاولاتهم للتوفيق بين هذين القطبين.

وقد أُتيحت لي الفرصة للتأكد من مدى صحة هذه الخاطرة من خلال مناقشاتي معه وليس فقط اعتمادًا على قراءة رواياته. كما أن رائعته الأدبية بعنوان "اسمي أحمر" كانت سببًا آخر وراء اعتقادي بأن الحمَّام هو ملهمه؛ تتحدث الرواية عن الإمبراطورية العثمانية وخصوصًا عن عصر "محمد باشا" وما ترتب عليه من أحداثٍ تاريخية. ولقد تعلمت الكثير من خلال هذه الرواية عن النظام التركي في إدارة البلاد وعن القواعد المتبعة في الحروب وعن اهتمامهم بالفن والجمال داخل الإمبراطورية وغيرها من المعلومات التي لم أكن أعلم عنها شيئًا من قبل. ولذلك، أظن أن "باموك" يستحق أن يَنعم

بمثل هذا الحمَّام أو ربما يجب أن يُهيأ له حمَّام كذلك الخاص بالدراويش حتى يظل يُمَتِّعنا بكتابة مثل هذه الأعمال الأدبية. وفي كل الأحوال، لا يمكن الوصول لهذه الدرجة من النظافة والنقاء الروحي سوى في مثل هذا المكان. حتى ممارسة "الأكشاملوك" لا تُحْدِث الأثر الروحاني نفسه الذي يُحْدِثه الحمام. و"الأكشاملوك" هي عادة بوسنية "حيث يجلس الشخص على العشب بينما يقضي وقته يغني ويتسامر أثناء شرب "البراندي"".

تُرى أي نوع من الكُتاب كنا لنصبح لو أننا لم نقضِ بعض الوقت في الاستمتاع بـ"الأكشاملوك" بعد الاستحمام بذلك المسبح الصغير، مع الأخذ في الاعتبار أننا ندرك تمامًا أن هذا الطقس يحوي في طَيِّه فلسفة "هيدونية" حيث يهدف إلى المتعة هو الآخر؟

واحدة من مشكلات الكُتَّاب التي لا تُعد ولا تُحصى هي خلطهم في معظم الأحيان بين الواقع والخيال وهذا هو السبب الرئيسي وراء انهيار الفاصل بين ما حدث حقًا وبين ما يجربه الكاتب أو يتخيله. وقد جربتُ هذا بنفسي حيث لاحظتُ أنني بدأت في الخلط بين الناس المقربين إليَّ وبين شخصيات تاريخية عمرها ما يقارب الخمسمائة عام، أتفاعل معهم في عقلي كأنهم عادوا إلى الحياة حقًا، وعندما أقرأ عنهم، يتجسدون في مخيلتي وكأنهم صاروا حقيقة وكأنهم أصبحوا جزءًا من عالمي. ثم إنني عندما أختبر أنا وأصدقائي تجربة كتجربة الاستحمام بالحمَّام التركي والذي يرجع تاريخه لمئات السنين، أشعر أننا اتصلنا ماديًا بهذا التاريخ. وكأن الماضي والحاضر امتزجا معًا وصارا شيئا واحدًا. فمثل هذه التجارب هي ما تحطم الحدود الفاصلة بين الماضي والحاضر وبين الواقع والخيال.

وهذا يوضح أهمية "الكلمة" في حياة الكاتب. فهي سبيله لتحقيق حلمه في امتلاك قوة مطلقة تؤهله للتحكم بالزمن، وهذه القدرة التي يشعر بها الكاتب عند استخدامه للكلمات لإعادة صياغة التاريخ وإعادة تشكيله والقوة التي يشعر بها عند تمكنه بالانتقال عبر الأزمنة المختلفة من خلال ما يكتب هو السر وراء وجود الكتب وأحد الدوافع الأساسية وراء تأليفها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

النهاية

تمنى الموت. أجل، هذا صحيح. ببساطة تمنى لو أن يقتله أحد. فقد الكثير من الأشياء والأشخاص على مدار العام الماضي. وبالطبع لم يكن كل هذا من قبيل المصادفة. كل هذا خُطِّط له ونُفِّذ بدقة. لقد اعترف أن خِصمه نفَّذ كل هذا بإحكام ودون أي خطأ، ومن هذا المنطلق، وبِحُكْم الخبرة والمهارة التي نُفِّذت بها هذه الخطة، لم يكن بيده شيءٍ ليفعله. لذلك تمنى الموت، لأن في حالته هذه، الموت أهون مما يعانيه. ولكن يبقى السؤال لماذا يتكلَّف أعداؤه عناء كل هذا التخطيط وإنفاق كل هذا المال، وبذل كل هذا الجهد وتضييع كل هذا الوقت، ليمحوا كل شيء عزيز على قلبه من الوجود، في حين كان من الأسهل والأوفر والأسرع لهم أن يقتلوه بمفرده؟

إنه يعرف السبب لكل هذا في الحقيقة. فكل ما أرادوه هو أن يظل يسأل نفسه هذا السؤال دون أن يجد له إجابة، فيشعر أنه وحيد وغير مرغوب فيه، فيتمنى الموت. فهم يعلمون أن ألمه لرؤية المخلصين له والذين يحبهم وهم يُقتَلون واحدًا تلو الآخر أمام عينيه لن ينتهي، بل سيصاحبه ما بقي من عمره. فلو قتلوه هو أولًا، لما كان ليعاني كل هذه المعاناة التي حرصوا على أن يعانيها. ولأكون أمينًا، فبعد كل هذه العقود في السلطة كان لا بدَّ له من أن يتكهن بمثل هذه النهاية المأساوية لنفسه، أو على الأقل نهاية مشابهة، لأنه ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع. لكن لكل قاعدة شواذ، ولا يلقى الجميع نفس النتائج. طبعًا الكل يبدأ من الصفر، من القاع. لكن مسألة أن كل من يصل إلى القمة سيعود إلى القاع مرة أخرى هي مسألة جدلية. لكن في حالة صاحبنا هذا، فقد سقط إلى القاع. ربما هذا هو قدره كما يقولون، أو قد يكون هو المسؤول الأول عمَّ ا وصل إليه.

وإحقاقًا للحق، لم يكن سقوطه هيِّنًا. فالأمر ليس مجرد أنه فقد سلطته، فهو لم يحل محله أحد، ولم يُطح به مسؤول آخر، حتى إنهم لم يتخطوه في تشكيل السلطة - هذا لا يعني أنه لم يتم التخطيط لحدوث كل هذا - لكن ما أصابه كان أسوأ من كل هذا، حيث فقد كل من أحبهم وأخلصوا له، والآن جاء دوره. الآن هو غارق في دمه ميتًا إثر طعنةٍ تلقاها في قلبه. وقبل أن تنقضي أنفاسه الأخيرة ظل يسترجع كل حياته الماضية، كأنه يريد أن يلخصها قبل الموت، حتى لا ينسى منها شيئًا.

ماذا يريد بعد؟! لقد حصل أخيرًا عليٍ ما كان يتمنى: لقد قتله شخصٌ ما.

عجيب، كيف للموت أن يكون راحة من الدنيا وما فيها! أكيد لم يقتله أعداؤه من باب الشفقة. فقد كان القتل بأبشع صوره ظاهرةً مألوفةً في فترة حكمه. كانت الفروق في الوحشية بين كل جريمة والأخرى طفيفة جدًّا. كان مؤمنًا أن حفاظه على الإمبراطورية يتطلب منه هذه الوحشية في كل أشكالها. فالقتل من وجهة نظر الوزير العظيم ليس من صفاته الخاصة كقائد، ولا حتى كإنسان لا سمح الله، لكنه كان ضروريًّا لحماية النظام، ولم يكن أبدًا بدافع الحفاظ على مركزه وسلطته. وهذه الآلية كانت مُتَّبَعة لقرون، وكانت خاضعة لقانون واحد، وهو أنه غير مسموح لأي شخص أن يحاول أن يُحدِث تغييرًا، مهما تطلع لذلك ورغب فيه. كان القتل تصرفًا عاديًّا، شائعًا، وتلقائيًّا في المعارك والحروب والحملات والفتوحات، تمامًا مثل قولك "مرحبًا" لشخص قابلته في الطريق. وكان القتل منتشرًا في وقت السلم أيضًا، الفرق الوحيد هو أنه كان أقل.

وعلى كلٍّ، فإن سبب شهرة الوزير المُعَظَّم هو أنه عاصر حُكْم ثلاثة سلاطين. لذلك حُقَّ له أن يكون في مثل هذه القوة، وأن يثق بنفسه لهذه الدرجة، فمَن غيره حقَّ ق ما حقَّقه هو؟ من النادر أن ينجح

وزير في الحفاظ على منصبه خلال عصر سلطان واحد، فما بالكم بوزير استطاع الحفاظ على منصبه خلال حكم ثلاثة سلاطين متتالين. وذلك لأن الملوك دائمًا ما يقتلون مَن يستشعرون أنه خطر على حكمهم، أليس أول شيء يفعله أي سلطان يصل إلى الحكم بطرق غير شرعية أن يقتل كل إخوته – حتى إنَّ بعضهم كان يقتل أولاده أيضًا – حتى لا يهدد وجودهم مُلكَه؟ لذلك عادةً ما يكون السلطان وراء كل القتل الذي يحدث.

وليس صائبًا أن أقول إنه فعلًا كان ينتظر الموت. ولكن ببساطة لم يتفاجأ كثيرًا بفكرة أنه سيلقى حتفه مقتولًا. كان على علم بكل شيء يخص الموت، ولن يكون سهلًا أن نجد أحدًا يتفوق عليه في الإلمام بكل شيء يخص الموت. يعلم الأسباب التي تؤدي إلى القتل، والآثار المترتبة على ذلك، حتى إنه على علم بطرق القتل المختلفة. ربما لم يعرف أبدًا مدى فعالية قتله للناس، فلم يُطلِعه أحد من الحكام الذين خدم في عصرهم أو من معلميه على مثل هذا السر، لأن مثل هؤلاء الناس لا يفكرون بمنطقية أبدًا. كل ما يفكرون فيه هو الحفاظ على مصالحهم الشخصية.

تمنِّي الموت لا يعني على الإطلاق التطلع إليه بصدق. لكنَّ هذه الأمنية جعلته ينتظر مواجهة مصيره في حالة من السلم الداخلي والحتمية. وعلى الرغم من أن كل شيء فقد أهميته الآن بالنسبة له، وخاصة الأمور التي تتطلب وقتًا للتفكير.

فإنه لم يعد هناك وقت لأي شيء سوى الموت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

البداية

لما كنت قد أثبتُّ لنفسي أن أفكاري لم تنضب بعد، وأنني ما زلت أزاول الكتابة، فإنني أستطيع الآن أن أفكر في حل لمشكلة حيرتني: بأي من الكتب الثلاثة التي أنوي أن أكتبها عليَّ أن أبدأ؟ سأحدثكم فقط عن كتابي الأول، دون الإتيان على ذكر الكتابين الآخرين الآن، إذ إنني بدأت بالفعل في كتابته. وقد كانت لديَّ أسباب قوية رجحت البداية بهذا الكتاب، أحدها أنني كنت قد بدأت بالفعل في الإعداد لكتابته، وقد بذلت في ذلك جهدًا محمودًا، لولاه ما استطعت العودة إلى الكتابة مرة أخرى.
ومن الأسباب التي رجَّحت كفة هذا الكتاب مَن يُطلق عليهم "الوطنيون المحليون"، وخصوصًا أنني أدركت لأول مرة من خلال إحدى مناقشاتي مع أحد زملائي عن الآراء المتناقضة الموجودة على الساحة - كتلك الموجودة بين المحلية والعولمة - أن المتعصبين للمحلية لم ينعتوني بأنني "كوزموبوليتاني" بشكل يُسيء إليَّ، بل كانوا يُصنفونني "كوزموبوليتانيًّا" بشكل لطيف وغير مباشر، كقولهم عني مثلًا إنني كاتب معروف بعدم تناولي أفكارًا أو قضايا محلية، على الرغم من أن هذا ليس صحيحًا بالمرة. أتعجب كثيرًا في الواقع من استمرارية الناس - منذ بدأت الكتابة وحتى الآن - في الحكم على كتاباتي وفقًا لانطباعاتهم وأهوائهم، وهو ما تنتج عن ه استنتاجات خاطئة، كما أتعجب أيضًا من قدرتي على تقبل هذه الآراء بكل هدوء. فماذا سيحدث إن لم يقرؤوا كتبي؟ وما الفارق الذي ستحدثه قراءاتهم إياها إذا كنت مصنفًا كاتبًا مغمورًا؟ هل سيكفيهم أن أربع روايات من أصل خمس كتبتهم حتى الآن تدور أحداثهم بالكامل، أو على الأقل جزئيًّا ببلجراد أو بموطني، وأن كتبي النثرية السبعة أيضًا (دون حساب هذا الكتاب) تتحدث عن تضاريس وطبيعة نفس المكان، هل سيكون هذا مبررًا كافيًا لهم ومنطقيًّا، حتى يغيروا أفكارهم بخصوص كتاباتي؟ أتعجب حقًّا من أن كل هذا ليس كافيًا لإثبات أني أهتم بالقضايا المحلية كما أهتم بالقضايا العالمية! ومع ذلك، فليس لتصيد الأخطاء نهاية: ربما كانت هذه الكتب في جوهرها أو رسالتها من وجهة نظر هؤلاء غارقة في "الكوزموبوليتانية"، ولذلك فإنهم لن يُغيروا هذا الحُكم، حتى إن دارت الأحداث محليًّا. والحقيقة أنهم لم يرتقوا أبدًا إلى مرتبة الأساطير الوطنية والتي - لأكون صريحًا - لم تكن جزءًا من فكرهم من الأساس.
كان الموضوع المختار موضوعًا شائكًا، فبالإضافة إلى الصعوبات التي واجهتني في هيكلته وتنسيقه وبنائه، واجهتني صعوبات خاصة "بالأيدولوجية" التي سوف أقدمها في الكتاب. أعلم أنه إذا حُمِّل النص "أيدولوجيات" فوق ما يحتمل لن يكون عملًا ذا قيمةٍ تُذكَر. ولذلك قررتُ أن أكتب عن رحلة تغيُّر "شخص صربي" من صورة إلى أخرى. وكان هذا "الشخص الآخر" الذي أصبح عليه هذا الصربي هو ما حمَّسَني. في الحقيقة لم يكن تغير "الصربي" نفسه هو ما أثار اهتمامي في المقام الأول، ولكنَّ فكرة تغير الإنسان من حالٍ إلى حال هي ما شكلت صلب وجوهر الكتاب، ولذلك كان جلُّ تركيزي منصبًّا على عملية التغيُّر نفسها.
ولذلك بدأت بعملية البحث والقراءة، وتجميع المعلومات وانتقاء النقاط المناسبة للموضوع، واستبعاد النقاط غير المتعلقة به، والتي تم ذكرها بإيجاز. ولكن ما زال عليَّ تحديد منهجية معينة تناسب عملية جمع المعلومات، أو على الأقل تساعدني في تنظيم الخطوات التي عليَّ اتباعها لفرز المعلومات، وخصوصًا أن الحقائق - التي تُمثِّل الفكرة المهيمنة على الم وضوع - لا تنفك تنهال عليَّ من كل

حدب وصوب، وعليَّ أن أضيفها إلى المعلومات التي جمعتها من قبل. وبالعادة تظل الحقائق تردُ على المؤلف دون جهد منه، إما بحُكم الخبرة، وإما بحُكم المصادفة، وهذه الوفرة في المعلومات تجعل مهمة تحديد التفاصيل الأكثر أهمية أصعب. ومع ذلك كانت هناك طريقة أخرى لتحديد التفاصيل المهمة التي ستخدم موضوع الكتاب، وهي تتبع خط سير حياة الشخ صية الرئيسة. ولذلك عبر عدة أعوام - وبالتوازي مع استمراري في دراسة الموضوع من عدة زوايا - زرت معظم الأماكن التي زارها "صقللي محمد باشا" أو عمل بها، بدءًا من "فيش جراد" بضواحيها، مرورًا بالمنطقة الأوسع التي تقع شرق البوسنة وغرب صربيا بما فيها من نهر "درينا" الذي فصل البلدين، وكانت أيضًا نقطة التواصل بينهما، ثم إلى الهرسك و"دوبروفنيك" و"فويفودينا" وصولًا إلى وسط المجر، والتي يتصل غربها بوسط إمبراطورية النمسا والمجر القديمة، ثم من هناك إلى فيينا وبلغاريا كلها رغم اتساعها، ثم إلى عاصمة الإمبراطورية العثمانية القديمة "أدرنة"، ومنها إلى إسطنبول أو بيزنطة أو القسطنطينية، حيث يتصل الماضي بالحاضر، ويمتزج القديم بالحديث في هذه المدينة ببحارها: بحر "أدرياتيكا"، وبحر "مرمرة"، و"البحر الأسود"، وبحر "إيجة". أنهيت بحثي في جنوب غرب تركيا بجزر الأمراء، وقد غطيت كل المنطقة باستثناء بلاد الفرس، والتي لم أستطع زيارتها بسبب الحروب التركية. وقد مررت بمثل هذه التجربة من قبل عندما منعتني الحروب القائمة حول صربيا - في يوغوسلافيا والتي لم يعد لها وجود حاليًا - من التجول في موطني وزيارة المعالم المختلفة. (بلجراد، والتي لها أهمية كبيرة بالنسبة لي، هو اسم البلدة التي تبدأ بها الأحداث، والتي سرعان ما سينتهي بها كل شيء أيضًا).

والدراسة الأخرى التي قمت بها أثناء استكشافي البلاد التي مر بها "محمد باشا" كانت زيارة الروائع المعمارية التي صممها وشيدها "خوجة مِعمار سنان" وهو الشخصية الثانية في الكتاب القادم، وهو أحد معاصري "محمد باشا". ثم إنني زرت رجلًا يُدعى "أورهان باموك" و"في بي" الذي قضيت معه معظم الأوقات تقريبًا، وكلاهما يشكلان العمل الموازي للرواية المُخطط لها.

فهؤلاء الأربعة سيشكلون الشخصيات الرئيسة للكتاب نفسه، والذي سيجندهم جميعًا في مؤامرة ضد التاريخ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما قبل النهاية

بالطبع كانت حياته مديدة ومرفهة قبل موته، فقد كان قويًّا وذا نفوذ، لكنه لم ينعم أبدًا بالسكينة والأمان. فكونه شخصية عامة جعل حياته مشاعًا بين الناس، وقلل من الخصوصية في حياته، ولذلك بمرور الوقت لم تعد حياته ملكه. ولو كانت مشكلته فقط بخصوص اختيار الإله - ملك الملوك - أو بخصوص اختيار اتباع أحد رسله، لكان الاختيار أسهل: "مُحمد"، أو "المسيح"، أو ربما كلاهما في الوقت نفسه، لا يشكل هذا فارقًا. ولكن في معظم الأحيان لم تكن له حرية الاختيار، فدائمًا ما يوجد شخص ما، أو على الأرجح شيء ما مهيمنًا عليه، ولا يترك له مجالًا لاختيار أي شيء بخصوص لما أو لمن ينتمي.

وربما لم تكن هذه المشكلة لتمثل لغزًا إذا لم تستمر في التضخم بمرور الوقت، لدرجة أن تسيطر عليه حتى في غضبه. ولأنه لم يكن قادرًا على إيجاد سبب منطقي لما يحدث له، فلم يكن قادرًا على حل هذه المشكلة. ومع تفاقم المشكلة وتراكم المسؤوليات عليه عبر السنين، أصبحت حياته كالجحيم. ومن المحتمل أن دُنُو الموت منه - أو بالأحرى تمنيه له - كان له تأثيره أيضًا، فشعوره باقتراب أجله كان كفيلًا بتغيير منظوره للحياة. هذا ثابت بالتجربة على مر العصور، إن اقتراب الموت قادر على تغيير الأشخاص إلى عكس ما كانوا عليه، وقادر أيضًا على تحويلهم وإخراج أسوأ ما فيهم. ومع ذلك لم يستطع إدراك هذه الحقيقة! كان يظن أن بمقدرته تقبل أسوأ الحقائق، مدفوعًا في ظنه هذا بجهله بهذه الحقائق.

كان هناك تفسيران محتملان لهذه المشكلة، ولكنه لم يأخذ أيًّا منهما بعين الاعتبار. التفسير الأول كان واضحًا ومفهومًا، وهو أنها إرادة الله. ولم يكن ليجرؤ على معارضته أو التفكير بعكسه علانيةً. وعلى كلٍ، فلما كان قد احتفظ بهذا الحوار لنفسه، فليست للعامة ولا لله - كما يرى - علاقة به. أما التفسير الثاني فلم يذهب بعيدًا عن كونه متعلقًا بالله - عز وجل - أيضًا. ويمكن القول إن هذا التفسير وُجِد خصوصًا من أجله، وهو القدر. ولكنه كان يرفض تمامًا أن يؤمن بالقدر، لأنه كان يراه عذرًا واهيًا اخترعه الضعفاء ليُبرروا به ضعفهم.

لكن - ولسخرية القدر - لم يتعرَّف الحقيقة إلا في اللحظات الأخيرة له في هذا العالم. لم يتذوَّق طعم الحقيقة إلا ونصل السكين ينغمس في صدره، لم تدم الشخصية الجديدة بصفاتها الجديدة التي اكتسبها على مدار حياته بالتحكم في حياته فترة طويلة، فقد خسرت في النهاية أمام شخصيته الأصلية التي كانت لديه في صربيا والبوسنة.

لقد كان صربيًّا تركيًّا. صربيًّا تركيًّا.

يا لها من راحة!

أن يموت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

بعد البداية

يَفترض التخطيط المُسبق لبناء الرواية وجود بدايتين ونهايتين، أو بالأحرى نوعين من البداية ونوعين من النهاية. يجب أن تكون واحدة من البدايتين ومن النهايتين متعلقة بالحدث الروائي، كيف ومتى ستبدأ، وكيف ومتى ستنتهي؟ وهذا ربما يكون هو أكثر أسرار الكتاب أهميةٍ للقارئ. أما بالنسبة للمؤلف، فأكثر أسرار الكتاب أهمية هي بداية ونهاية معالجة الأفكار التي حفّزته في المقام الأول لكتابة روايته. ولأكون أكثر دقة، الفكرة أو القضية التي ألهمت المؤلف ليأتي بمثل هذا الكتاب هي العنصر الأكثر أهمية بالنسبة له، فمنها تنطلق الكتابة وباستيفاء معالجتها ينتهي الكتاب.

ومن قبل أن تكتمل الرؤية بخصوص هذا الكتاب وتتضح، أدركت أن الأبطال سيشكلون مادة خصبة وقوية عن الهُويَّة، أو الهُويَّات والتغيرات التي تطرأ عليها، وقد كانت هذه هي نقطة الانطلاق، ومن ثَمَّ يمكن تخمين الهدف الرئيس وراء الكتاب، ما هي الظروف المحيطة، والأحداث التي يمر بها أولئك الذين يعانون ازدواج الهُويَّة؟

كان "صقللي محمد باشا" - والذي يُعرف بالصربية باسم "محمد باشا سوكولوفيتش" - هو السبب والمسبب الذي دفعني إلى كتابة هذه الرواية. أحد المواد المهمة التي كنا ندرسها ف ي المدرسة الابتدائية هي مادة المنطق. تعلمنا منها منطق الحياة والحرب، وأيضًا علمتنا كيف نفرق بين السبب والمسبب. ولكن لم يفهم معظمنا ما الفرق، حتى أولئك الذين نجحوا في استيعاب الفارق فعلوا ذلك بصعوبة.

ومع ذلك، فقد نجحتُ بعد بذل مجهود كبير في فهم الفارق: المسبب دائمًا يكون مُخطَّطًا ومُعَدًّا له مُسبقًا، أما السبب فيحدث فجأة ودون أي تخطيط، أي إنه ببساطة يحدث قضاءً وقدرًا، وليس له تفسير منطقي، يحدث وكأنه ترس في خطة قيد التنفيذ. ومن الأمثلة الأكثر استخدامًا لتوضيح معنى هذا المصطلح ما حدث في الحرب العالمية الأولى، ونسب العائلة المالكة النمساوية المجرية مثلًا، وتاريخ صربيا والبوسنة، وسراييفو – عاصمة البوسنة والهرسك – ومثل وجود منظمة اليد السوداء السرية، والقاتل المحترف/ الوطني "جافريلو برينسيب".

وفي هذه الحالة، فسبب اهتمامي بشخصية مثل "باجيكا سوكولوفيتش" هو أنني وجدت أنه عندما أُخذ إلى تركيا في ظل نظام "الدوشيرمة" - أو ما تُعرف أيضًا "بضريبة الطفل" أو "ضريبة الدم" - كان عمره ثمانية عشر عامًا، وأنه لم يكن طفلًا صغيرًا لدرجة أن ينسى من أين أتى. لذلك أتساءل عن السبب الذي أهَّلَه ليقع عليه الاختيار ليصبح ضمن أفراد الجيش الإنكشاري، على الرغم من كبر سنه، وخصوصًا أنه لم يكن من عادة الأتراك أن يأخذوا الأولاد من ذويهم إذا كانوا كبارًا، فهم لا يُمانعون أن يكون هؤلاء الصبية على علم بأصولهم، ولكن كلما كانوا أصغر كانت ذكرياتهم عن موطنهم أقل، وكان ارتباطهم العاطفي بمواطنهم أقل، وهذا يعني أنه سيصبح من السهل تربيتهم وتدريبهم وضمان ولائهم وإخلاصهم.

وعلى كلٍ، كان هذا هو السبب الحقيقي والحافز الرئيس الذي دفعني إلى الكتابة عن "صقللي محمد باشا". كل ما قرأته عنه، وكل ما وجدته من معلومات ووثائق ومخطوطات عن حياته لم يكن دافعًا كافيًا لكتابة هذا الكتاب (بالطبع ما زلت أخطط لكتابة الكتابين الآخرَيْن)، المعلومة الوحيدة التي سببت فارقًا جوهريًّا في انطباعي عن "محمد باشا" كانت هذه المعلومة: أن الأتراك عندما اختطفوه لم يكن

طفلًا صغيرًا، بل كان على مشارف الشباب، والمعلومة الأخرى بالدليل من مصادر موثوقة لا يمكن إنكارها كالمخطوطات والرسومات وغيرها، هي أنه قرابة عام 1575، وبعدما صار "محمد باشا" ذا نفوذ، شيد الكثير من المباني المشهورة بموطنه الأم بلجراد، من ضمنها مقر للقافلات وسوق عظيم، والعجيب أيضًا أن المكان الذي أعيش فيه منذ عام 2005 بُني على أنقاض هذا السوق. هل هذه مصادفة؟ أن أسكن هنا - على أنقاض أحد إنجازات "محمد باشا" - دونًا عن كل الأماكن الأخرى في المدينة.

عندما أقول عن "محمد باشا" إنه "شيَّد"، لا أقصد أنه بناه بنفسه، بل أقص د أنه كان صاحب القرار والقائم على بناء هذه المنشآت، وأنه من أصدر أوامر البدء، وأنه من موَّل عملية التصميم والبناء من ماله الخاص، وهذا يُسمى إشراف، لكن في عصرنا الحالي يُقال عن الذي يشرف على عملية البناء أن "فلانًا بَنَى". أما من نفَّذ عملية التصميم والبناء فهو المهندس المعماري "سنان".

وبعد هذا الاكتشاف، سواء أردتُ أم لا، وسواء كان هذا مجرد ادعاء أم حقيقة، لكنني شعرت بأنه عليَّ أن أكتب شيئًا عن هذين الشخصين، عليَّ أن أجمعهما معًا في عمل واحد يناقش فكرة ازدواجية الهُويَّة التي جذبتني في المقام الأول، وحفزت بداخلي الرغبة في معالجة قضية ازدواج القومية والاعتقاد الديني. ومع ظهور شخصية المعماري "سِنان" ووجوده في حياة "محمد باشا" عزز كل هذا من فكرة الكتاب، فبدلًا من التركيز على شخص واحد عايَش هذه التجربة، سيسلط الكتاب الضوء على شخصين في مجالين مختلفين، كليهما كان ذا هُويَّة مزدوجة، وكليهما كانا مسيحيين تمت تربيتهما كمسلمين. ووجود "شخصين ذويْ هُوية مزدوجة في جسد واحد" له أكثر من معنى واحتمالية: كان ممكنًا أن أفصل كل شخصية إلى شخصيتين، وكان من الممكن أن أدمج الشخصيتين بكل صفاتهما - ما يتشابه منها وما يختلف - في شخص واحد، فيصبحان شخصين في جسدٍ واحد بحق.

والآن نعود إلى الحديث عن المكان الذي أسكُن فيه، تم تأسيس هذا المبنى بمنطقة "دورتشول" ببلجراد عام 1914، وتم الا نتهاء منه عام 1924، تم بناؤه وفقًا لتصميم "بيتر باجالوفتش" - كما يُدعى - على الطراز الصربي البيزنطي، ممتزجًا ببعض اللمسات من الطراز المعماري لفيينا، ولولا ندرة الطراز المعماري لهذا البناء، كنت سأشير إليه ببساطة على أنه المكان الذي أعيش فيه، أو المكان الذي أكتب فيه هذه الرواية، ولكنَّ هذا المزيج الفريد في التصميم المعماري هو ما أعطى للبناء أهميته. وإذا تطرقت إلى الحديث عن موضوعات أخرى غير الموضوع الأساسي من باب الحرية في الكتابة، فيمكنني إضافة شيء آخر. الصلة بين الماضي والحاضر لا تتجسد فقط في التراث التاريخي للعمارة العثمانية الإسلامية التي خلَّفها "سنان" وراءه، ولكن هذا الرابط يمكن الشعور به أيضًا من خلال الأسماء الصربية التي ما زالت إلى اليوم متأثرة بهذه الحقبة التاريخية. فمثلًا اسمَا "باجو" أو "باجيكا" وهما اسم وزير تركي، والذي كان أحد وزراء الأتراك - ظل في منصبه هذا طوال حياته - وقد عاصر فترة من الفترات التي كانت فيها الإمبراطورية في أقوى حالتها. هذا الاسم هو في الأساس صربي الأصل، وهو يشبه لقب المعماري الصربي "باجالوفيتش"، وأيضًا اسم مؤلف هذا الكتاب "ف. ب." والذي ما زال يُنطق بطريقة مشابهة جدًّا، حتى بعد أن حرَّفته "ماريا تريزا" في "فيفودينا" ليُنطق بطريقةٍ ألمانية، كان قريبًا جدًّا من اسم "باجالوفيتش" و"باجيكا". والبيت الذي أقيم به الآن قائم على أنقاض آثار هذه الثقافة المعادية في الوقت الراهن، وهو يقع بشارِع "الإمبراطور دوشان" الحاكم الصربي الذي يرجع إلى القرن الرابع عشر، وقد كان يلقب "بالمُعَظَّم" وذلك لأنه جعل صربيا - ولأول مرة في تاريخها - ليست فقط دولة قوية على

الجانب التوسُعي، بل جعل منها أيضًا دولة عظيمة، تمامًا كما فعل السلطان "سليمان القانوني" في تركيا بمساعدة وزيره "باجيكا" أو "صقللي محمد باشا" بعد قرنين من حكم "الإمبراطور دوشان".
وهذا هو المبنى الذي أتحدث منه الآن. يوجد بأعلى المبنى برج مربع نُقش عليه بأحرف كبيرة نَقش يقول بأن مالك هذا المبنى هو جمعية القديس "سافا"، وهو أحد أعظم قديسي الصرب، كما أنه أحد أهم الرموز العِلمانية. ويستمر الأمر على هذا النحو (فمثلًا، لم أذكر لكم أن الغازي الصربي - في الحقيقة أقصد الكاتب - قد غزا بالفعل جيشًا من القراء حول العالم في القرن العشرين، ومن ثم أصبح من أكثر الكتَّاب الصرب المعاصرين شهرةً خارج صربيا، وهو أيضًا يقيم بهذا المبنى).
في التاريخ، دائمًا ما يُسلَّط الضوء على الأفضل والأقوى والأقدر على فرض قصته، فالأفضل هو الجدير بأن تُنقل قصته عبر التاريخ. أما هذا الكتاب فله غرض آخر، وهو أن نسأل عما إذا كان أيٌّ من أولئك "المُعظمين" الذين ذُكِروا في الفقرة السابقة قد دخلوا في أي صراعات هنا، أو هل كانوا يقابلون بعضهم بعضًا عادةً؟ ولماذا؟ إذا كانت الإجابة على أيٍّ من هذه الأسئلة بـ"نعم"، إذن سيكون الغرض من الكتاب هو محاولة إيجاد كيف حدث هذا، وما الأحداث التي صارت قبل هذا وبعده، ثم بعد ذلك مرة أخرى لماذا وكيف... وفي هذه الحالة، حتى اسم المكان الذي راودتني به هذه الأفكار، بمنطقة "دورتشول" ببلجراد ذات الاسم ذي الأصول التركية (Dort-jol)، والذي يعني لغويًّا وحرفيًّا أنه هنا كان مكان التجمع، واللقاءات والاجتماعات، لأنه بالتركية هذا الاسم يعني الأربعة طُرُق أو إن شئت قُل تقاطع الطرق.
وباختصار، هذا الكتاب لا يهتم بالحقائق المُطلقة، وإنما يتناول جميع الاحتمالات، ويركز على القضايا المهمشة والقضايا الفرعية والثانوية.
وفي هذه الأثناء يظل التاريخ صامدًا، كتمثال راسخ لا يتزعزع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قبل النهاية

ظن والده أنه إذا نقل عائلته من تلك المدينة الصغيرة ليستقروا بالقرية التي يعيش بها أخوه، سيحمي أولاده من الخطر التركي المحدق بهم، حيث كان الأتراك يختطفون الأطفال الصغار من صربيا ويرسلونهم إلى تركيا، حتى إلى البلاط الملكي، حيث تجري تربيتهم وتدريبهم ليصبحوا من نخبة الجنود بالإمبراطورية. لكنه لم يكن يعلم أن "سنجاق بك إسكندر أورنوسوفيتش" "الهرسكي" تلقى الأوامر من القسطنطينية بأن يطبق "الدوشيرمة"، وأن "يجمع ألف طفل من البوسنة والهرسك ويرسلهم إلى القصور كجزية". وهذا لا يحدث سنويًّا، وإنما على فترات متباعدة. وهذا يعني أن هناك مشاكل إضافية ظهرت على السطح: كان عدد الأطفال المطلوب هذه المرة أكثر من المُعتاد، وذلك لكي يسدوا العجز الذي تسبب به مقتل الكثير من الجنود أثناء الحصار، ولذلك زاد العدد بعد فتح بلجراد عام 1521. ولِكَي يستطيع "البِك" جمع الحصة المطلوبة من الأطفال الذين يتميزون بمهارات ومواهب مميزة، لم يكن أمامه إلا أن يضم الأطفال الكبار نسبيًّا ليرسلهم إلى تركيا، وهو ما لم يكن معتادًا من قبل. ويُمكن رؤية الالتزام بصرامة تطبيق هذا النظام – وخصوصًا هذه المرة – من خلال معاقبة الوالدين اللذين يخفيان أولادهما بالغابات كالعادة، أو اللذين يشوهان وجوه أولادهما ظنًّا منهما أن الإمبراطورية لن تأخذهم إذا كانوا مشوهين. حتى في هذه الحالات المأساوية لم يتوانَ "الآغا" عن مطلبه، حتى إنهم ذهبوا إلى الأديرة وأخذوا الشباب الذين كانوا يستعدون للرهبنة. وكان من بين أولئك الشبان "باجو سوكولوفيتش" الذي أُخذ بالقوة إلى قرية "سوكولوفيتشي" من دير "ميلشفا"، وهو عالم لاهوت أرثودوكسي، ولا يمت إلى الطفولة بصِلة، فهو شاب طويل القامة، يبلغ من العمر ثمانية عشر عامًا. لم تكن الظروف في مصلحته، فبالإضافة إلى تعليمه، كان ينتمي إلى عائلة نبيلة، وكان الأتراك يفضلون أن يكون الأطفال الذين ينتمون إلى العائلات النبيلة كضريبة للدم أو كجزية. ولم تكن دراسته للمسيحية عائقًا في وجه العثمانيين، فهم لا يأبهون بديانته. وعند لحظة معينة اكتشف والده "ديميترجي" مدى خصوصية وضعه، فقد أخبره "محمد باشا" - وهو رئيس الوحدة - عن صدور أوامر خصوصًا لجلب ابنه "باجيكا" إلى عاصمة الإمبراطورية ووهبه لهم كجزية. وقد كان هذا الخبر مريحًا له، فقد واساه شعوره بأن ابنه مقدر له أن يتولى مناصب هامة في الدولة، وقال له إن الدليل على صدق قوله إن الذي طلب ابنه هو شخص من "سوكولوفيتش" خطفته إحدى القوافل التابعة للإمبراطورية منذ نحو بضع وعشرين سنة، واسم هذا الرجل هو "خسرو باشا الدلاتي". وبعد فترة ليست بالطويلة أُختطف أخوه الأصغر أيضًا، وهو الآن يُدعى مصطفى. ولقد ترقى "خسرو" بسرعة في بلاط السلطان، حتى وصل إلى مرتبة يمكنه فيها بصفته باشا اتخاذ قرارات مهمة.

وكل هذه الأشياء كانت أسبابًا إضافية جعلت أباه، وابن عمه الذي كان راهبا بدير "ميليسيفو"، ورئيس الدير "بوزيدار جورزادنيم" يؤمنون بأن محاولاتهم في استرجاع "باجيكا" عن طريق أحد الآغوات قد تفلح، لكن لم ينجحوا في مسعاهم على الرغم من توسلهم وعرضهم الأموال والعطايا. وفي النهاية، وبالرغم من صعوبة الظرف، فإن ما واسى هذا الوالد في محنته أنه الآن لن يخشى أن يؤخذ ولد آخر من أولاده الذكور، وذلك لأن الأتراك يلتزمون بالقواعد التي يسنونها: "يؤخذ طفل ذكر واحد فقط من كل أسرة".

ومع ذلك لم يكن هناك شيء بالطبع بمقدرته أن يخفف من ألم الفراق. وإذا كان من الممكن مقارنة أيهما كان وقع هذا الانفصال عليه أصعب، فبالطبع كان أصعب على "باجيكا". فقد كان هو من سيرحل، الآخرون سيظلون بوطنهم وبين ذويهم، وهذا يعني أنهم لن يعانوا من الشعور بالوحدة الذي كان يؤاسيه وهو يودعهم. وبالإضافة إلى إجباره على ترك موطنه، فقد كان متجهًا صوب المجهول على خلاف عائلته التي ظلت مستقرة حيث تنتمي. وأثناء رحلته الطويلة من صربيا إلى بلغاريا، لم يكن يفكر سوى بكل ما خلَّفه وراءه من أهل ووطن وأصدقاء، وهذا كان يجعله يسترسل في البكاء حزنًا وألمًا، كما كان يفكر أيضًا فيما ينتظره في حياته القادمة، فيرتعد خوفًا. ولفرط إجهاده من كثرة البكاء الذي كان أحيانًا يصير نحيبًا مرة بصوت عالٍ ومرة بصوت مكتوم، وصل إلى مرحلة جفاف دموعه، ولم يعد باستطاعته ذرف حتى دمعة واحدة. لم يكن يسعه سوى أن يحتفظ بحزنه داخله.

ربما لو كان يعلم أنه سيقضي الجزء الأكبر من حياته محتفظًا بالكثير من المشاعر والآراء والمعلومات لنفسه، كان من الممكن أن يهدأ. ولو أنه بنهاية حياته قال - ولو بمحض المصادفة على الملأ - إنه أمضى معظم حياته وحيدًا محتفظًا بين جنبيه بكل معاناته وحزنه وألمه، لما صدقه أحد. كيف لهم أن يصدقوه، كيف لهم أن يصدقوا أن لحياته جانبًا خفيًّا لا يعلمه إلا هو؟ وقد كانت حياته - وإن أنهيت سريعًا - نموذجًا للحياة التي يتطلع إليها أي شخص، فقد كانت لديه الثروة والسلطة والجاه. ثم إنه كان شخصية عامة غاية في الأهمية في الدولة، لدرجة لا يضاهيها أحد، فكانت أخبار حياته مشاعًا بين عوام الناس.

وقد كان كل فرد في الإمبراطورية على علم بكل تحركات الوزير، ابتداءً من إصداره المراسيم العامة وتصرفاته ومظهره، إلى سفره وذهابه إلى الحرب، واستقباله الشخصيات الهامة، ومعاقبة المذنبين، ورحلات الصيد، والله أعلم بالتفاصيل الأخرى التي كانوا على اطلاع عليها، وهذا ما جعل من الصعب تصور أن تكون له حياة خاصة. ولكن على الرغم من ذلك، فقد كان لديه الوقت الكافي لينعم ببعض الوقت ليكون نفسه بغير تكلف أو تصنع.

وساعدت كثرة واجباته العامة - والتي في الحقيقة كان يقوم بها الجهاز الإداري الخاضع له في الإمبراطورية - بالإضافة إلى الإشارة إليه في كل موقف، وربط اسمه بكل شخص وكل شيء – لدرجة أنه في كل مرة يُذكر فيها اسمُه كان الأمر يبدو كما لو كان حاضرًا بنفسه - في الإسهام في تكوين الإيحاء بوجوده في كل مكان. ولذلك كان يتعاطف معه بعض رعاياه المخلصين، لأن لديه الكثير من المسؤوليات على عاتقه. وقد كان هذا مصدر القصص التي تتحدث عن وجود بدلاء للحاكم، فظهور شخص واحد على الدوام في أماكن مختلفة يمكن أن يحدث فقط إذا كان هناك أكثر من نسخة من هذا الشخص، وإذ إن هذا مستحيل، بدأ الناس في اختراع القصص حول وجود أكثر من بديل للحاكم؛ وهو الوزير. وبعد ذلك توسعت أسباب ظهور الحاكم في عدة أماكن في وقت واحد، لتشمل على سبيل المثال تجنب الاغتيال.

صف الخيول وجموع الناس التي التفَّت حول موكبه على مد البصر ساعدته في لملمة أفكاره. في المقام الأول أصبح جليًّا أنه لا سبيل إلى الرجعة عمَّا هو فيه، فالهرب ليس ممكنًا على الإطلاق، ثم تعجب من نفسه، فما الذي سيفعله بمثل هذه الحرية حتى إن استطاع الحصول عليها! فهو يختلف عن غيره. فأسياده الجدد يعلمون جيدًا من هو، فهو لم يصل إلى ذلك المكان كطفل وُجِد بالمصادفة وتم جلبه إلى العاصمة، بل تم انتقاؤه واختياره بحرص بصفته شابًا ذا نسب، فهو معروف باسمه ولقبه ونسبه. وقرار إرساله إلى الإمبراطورية التركية قد صدر بالفعل. وفي هذه اللحظة كان مؤمنًا أنه لم

يُرسل إلى خارج البلاد فقط ليُمحى وجوده، بل لكي يُقهر، لذلك توجب عليه أن يكون ذكيًّا وعمليًّا في تفاعله مع هذا الموقف لكي ينجو. وكما قال له والده إنه سيكون من الجيد لو أنه استطاع التكيف مع هذا الوضع وإحسان استغلاله، ويكون من الأفضل لو أنه نجح أيضًا في الاستفادة من هذا الوضع وقلبه في مصلحته.

وقد ناجى الله راجيًا إياه ألا يتركه، وتمنى لو أن تسعفه ذاكرته. ففي هذه اللحظة "أن تكون نفسه هي كل ما يملك وكل ما ينتمي إليه" تعني "أن عليه تذكر كل التفاصيل". وعلى الرغم من أن ذكرياته بدأت تتسل من بين يديه، فإنها لم تختفِ، فقد انعكست هذه الذكريات على شخصيته فكونت ماهيته الحقيقية. هذه الذكريات التي ظن أنه نسيها، قد تحولت إلى ذاكرة عضوية أثرت في جوهره وجعلته ما هو عليه الآن. لكنه كان يخشى النسيان، لأنه كان يظن أنه إذا نسي سيفقد هُويَّته، ومن ثَمَّ سيفقد نفسه ولن يصبح له وجود. لم يكن يعلم أن الجسد قادر على قراءة المواقف والتفاعل معها كما يفعل العقل، ففي تلك اللحظة لكي يتكيف مع وضعه الجديد بدأ يستعيد ذكريات طفولته، لغته، عقيدته، والديه، أخوته وأخواته، خلوته بالدير، واحتفظ بكل هذا في مكان ما بداخله، وكأنه يجهز نفسه للدخول في حالة سبات عميق، بصرف النظر عن الوقت الذي يحتاج إليه لهذا. وبهذه الطريقة ستبقى ذكرياته معه بالتأكيد.

وبمرور الوقت بدأ يدرك لماذا لا يهتم أسياده الجدد أو مضيفوه بما يتذكره هو وباقي الصِبية الذين أتوا معه، أو بما ينسونه عن حيواتهم وبلادهم قبل أن يُرسَلوا إلى العاصمة، فإيقاع الأحداث التي توالت، والالتزامات الجديدة التي سيُكلف بها سوف تحل له هذا اللغز دون أي جهد منه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1

عند تأليف كتاب يتضمن جزئيًّا بعض الحقائق التاريخية، فإنه من الصعب جدًّا تجنب بعض الغموض، وإن كان غير مقصود. فعلى سبيل المثال، عندما فكرت في كل المصادفات التي مررت بها أثناء تأليفي هذا الكتاب؛ لاحظت أنني بدأت كتابة هذه الرواية عن "صقللي محمد باشا" تزامنًا مع يوم ميلاد النصف الأول لشخصيته منذ خمسمائة عام، فوقتها كان ما زال يُدعى "باجيكا سوكولوفيتش" عام 1505. فقلت في نفسي: "حسنًا إذن، سأكون الشخص الوحيد الذي يحتفل بمثل هذه الذكرى السنوية المهمة". ففي بلدي، لم أجد أيًّا من مسؤولي الحكومة قد أدرك هذا، لكن في الحقيقة، صحفية الجريدة اليومية "بوليتيكا" "ناتاشا إليتش" اقترحت في يونيو 2005 إلى أنه يتم تجديد نافورة "محمد باشا" المهجورة في بلجراد، وكان هذا مجرد اقتراح منها للحكومة ومناشدة للشعب، لكنها ليست من المسؤولين. هذا بالإضافة إلى جريدة "فيتشرنجي نوفوستي" التي أبدت اهتمامًا بالموضوع في آخر السنة، ففي ديسمبر من العام نفسه نُشرت سلسلة من عشر مقالات عن "محمد باشا" بقلم "عصمت كوجان".

حتى عندما قمت بزيارة تركيا في هذه السنة اليوبيلية لم ألاحظ أيَّ شخص يعير هذه المناسبة السنوية أي اهتمام. بدا الأمر كما لو أن هذه الفرصة مُهداةً إليَّ، كي أسلط الضوء على هذه المناسبة بالكتابة عنها، لكن ليس للعامة، بل لنفسي (على الأقل في الوقت الراهن)، وهذا لأن الوقت الذي سأنشر فيه هذا الكتاب لن يكون متزامنًا مع الحدث. لماذا انتهى الوقت بالفعل في الحين الذي أكتب فيه أكتب هذا الفصل! عليَّ أن أُبقي حالة الاحتفال المزاجية هذه تحت السيطرة، وذلك لأنه صادف أيضًا أن تطغى الاحتفالات برأس السنة على الأجواء هذه الفترة.

حفلة تحولت إلى إحياء ذكرى.

رأس سنة استبدلت بذكرى سنوية.

"محمد باشا" متنكرًا في زي "سانتا كلوز".

احتمالية حقيقية تبدو كما لو كانت نكتة. حفزت هذه الأحداث حسَّ الدعابة الساخرة بدلا من موهبة الكاتب. الأمر يبدو كمؤلف يعكف على كتابه من دون مخطط تفصيلي لمحتواه، ليخرج في النهاية كتابًا سطحيًّا في جوهره.

السؤال الأهم هو: ما الذي يمكن أن تعنيه المصادفة في الكتابة؟ فالكاتب دائمًا ما يستمتع بتبديل الأحداث، واختراع بعضها معتمدًا على خياله، ويميل إلى المبالغة في بعض الأحيان، وفي أحيانٍ أخرى تجده يهمِّش بعض القضايا، وأحيانًا تجده يقتبس من كاتب آخر، لكن من بين كل هذه الامتيازات المسموحة للكاتب في تعامله مع الأحداث، يظل حبك الأحداث وضفرها ببعضها بعضًا هو المزية الفُضلى للكاتب والمحببة إليه، فهي ما تمكنه من صياغة قصته على الوجه الذي يرتضيه. وهذا بالتحديد ما يعطيه الشعور بقدرته المطلقة، فهو يستطيع إدارة الأحداث وإعادة ترتيبها كيفما شاء. ولذلك يُمكن التجاوز عن أخطاء الكاتب المحتملة كما نتجاوز عن زلات الأطفال، وخصوصًا أنه عادةً ما يرتكبها دون إدراكه هذا.

لدينا العديد من الأسباب التي تعطي الكاتب هذه الصلاحية. أولًا: هذه الأخطاء تحدث عن طريق الخطأ، أو بالمصادفة، ومن دون أي ترتيب مسبق، وهذا يعني أن الكاتب لا يتعمَّد ذلك.

ثانيًا: لا تترتب على هذه الأخطاء أي نتائج مأساوية لدرجة لا يمكن تفاديها أو حلها، حتى إن لم يكن حلها ممكنًا، فهي ليست ذات آثار بعيدة المدى.
ثالثًا: طالما الفكرة الأساسية ما زالت هي مركز الحدث، فإن هذه الأخطاء ما هي إلا متلازمات لا بدَّ من وجودها.
وأخيرًا: هل يوجد حقًّا من يأخذ ما يقوله أي كاتب في روايته على محمل الجد أصلًا؟ وهذا سبب آخر - إن لم يكن مبررًا يسهل على الكاتب نسجه للأحداث - لتقديم تسلسل متماسك من الأحداث.
وهذا الفصل مثال على تلك الأخطاء التي يأتي بها الكاتب، ففي الفصول التي من المفترض أن تعالج الحاضر (كهذا الفصل) على الأقل حتى الآن، ما زلت أواصل مناجاة نفسي. هل هذا جيد أم لا؟ يمكن بنهاية هذا الكتاب أن أكتشف أنه من الجيد تضمين مثل هذه الفصول، على الرغم من أني أشك في هذا الآن. لماذا لا أسمح لأبطال هذه الرواية بشق طريقهم عبر الأحداث، لأترك لهم المجال لتتطور شخصياتهم كما يقولون؟ حسنًا، ربما ليس هذا وقتهم. ومن ناحية أخرى، فقد صادف أنني أحد هذه الشخصيات الرئيسة، إنني تلك الشخصية التي يُشار إليها بـ"ف. ب.". ألا أتطور من خلال هذا الحوار الذي يدور بيني وبين نفسي؟ ألم يتمكن القارئ من أن يخلص إلى بعض النتائج عني؟ أقصد أنه يتحتم على القارئ أن يستنتج بعض الاستنتاجات، فمن غيره سيفعل إذا هو لم يفعل؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل الأول

توقفوا في "جدرين" بمدينة "أدرنة" التركية الشهيرة، والتي كانت المقر الإمبراطوري الشتوي والعاصمة سابقًا. فبعد استراحتهم أكملت القافلة، ومعها عدد كبير من الأطفال، طريقها لتدخل إلى الدولة. تم حجز "باجيكا" مع مجموعة مكونة مما يقارب المائة طفل في "أدرنة". أسر جمال الإطلالة حول مقر القافلة، ومستوى الرفاهية المنقطع النظير انتباههم، واستحوذ على أفكارهم لدرجة أنستهم الصعوبات التي واجهوها طوال هذه الرحلة الشاقة. يكمن أمامهم أول تحدٍّ لهم في هذه الحياة الجديدة، والذي لم يدركوه بعد، فقد كانوا مشغولين بمقارنة البلدان التي أتوا منها بالمكان الذي وصلوا إليه لتوهم، كل هذا ولم يكونوا قد رؤوا بعد الفِناء الثاني لمقر القوافل، فضلًا عن الفِناء الثالث.
هيمن المكان على حواسهم، حتى من قبل أن يعرض عليهم أيُّ أحد أيَّ شيء.
تم إرسالهم إلى ثكنات الجنود بجوار غرفة حارس السلطان. ثم وُكِل أمرهم إلى عدد من الحراس الذين يتحدثون الصربية، لكنهم لا يوجهون إليهم الحديث إلا عندما تقتضي الحاجة، لم يكن مسموحًا لهم بقول أي شيء خاص، حتى إن كان مجرد تفسير. كان على كل فرد من أفراد الحاشية المستقبلين (أولئك الأطفال) أن يفهم الوضع من تلقاء نفسه، بصرف النظر عما سيهديه إليه عقله، فهذا يعتمد على فهم كل شخص. بالإضافة إلى الحقائق الموجودة في صربيا والبوسنة، تمت إضافةُ أسمائهم التركية الجديدة في كتب التعداد. "باجو سوكولوفيتش" أصبح "صقللي محمد". وقد أُمروا بألا يتعاملوا مع بعضهم بعضًا ومع الآخرين سوى بهذه الأسماء. وبدأوا على الفور بتعلم اللغة التركية. وقد استندت دروسهم على التعلم التدريجي لأسس التواصل، وقد شملت أيضًا بعض المفاهيم التي عليهم أن يحفظوها عن ظهر قلب، مع ملاحظة أن هذه الأشياء سيتم توضيحها لاحقًا عندما يبدؤون بدراسة القرآن. كانت دروسهم في اللغة تدوم طوال اليوم، لا تنقطع إلا في وقت التمارين الرياضية، ووقت الوجبات التي لا تكفي. قبل أن ينام كان "باجا" لا يزال يطلق على نفسه "باجيكا"، لكنَّ هذا لن يدوم طويلًا، فقد كان يغطُّ في النوم على الفور من فرط التعب، مثله مثل الآخرين.
مرت الشهور الأولى بسرعة كالبرق. وبمجرد أن أتقنوا اللغة الجديدة لدرجة تمكنهم من التواصل دون إيجاد أي صعوبة، بدؤوا في تعلم القراءة والكتابة بشكل مكثف، فكانوا يستخدمون التركية في التواصل أثناء وجود معلميهم، وكان أيضًا عليهم أن يتواصلوا مع بعضهم بعضًا بها. وعلى الرغم من أن الموضوع كان واضحًا من البداية، فإنه أصبح معروفًا الآن أنه تم اختيار أولئك الذين أثبتوا تفوقهم وتميزهم الدراسي على الآخرين، وإعطائهم منحًا دراسية ليدرسوا على الفور في مجالات مختلفة على نطاق واسع وعميق. وكانوا دائمًا ما يخضعون لاختبارات في الأشياء التي يدرسونها. والطلبة الذين لا يحققون المعدلات المرجوة كانوا يُضمُّون إلى المجموعات الأخرى التي سيتم تكليفها بمهام أقل شأنًا في المستقبل. وعندما يتم جمع عدد كافٍ من الطلبة المتميزين في المراحل المختلفة من دراستهم، يُفصل الأقل تميزًا في مجال معين، ويقسمون إلى مجموعات ستكلف بمهام تتناسب مع قدراتهم الأدنى منزلةً نسبيًّا. وعلى الرغم من كل ذلك، ومهما اختلفت مهامهم عن المجموعات التي صُنِفوا فيها، فقد كان هناك عامل واحد مشترك يجمعهم معًا، وهو أن كل هذه التدريبات التي تلقوها على اختلافها كانت تجهزهم لخدمة سيد واحد، وواحد فقط على الإطلاق. ففي هذا الإطار العام كان

العديد منهم يتناسب مع وظائف عدة، لكن كانت الفروق الفردية هي ما تحدد منصب كل واحد منهم، وكانت هذه الفروق الدقيقة دائمًا ما تتعلق بخضوعهم وولائهم الأعمى.
اعتنقوا الإسلام على يد إمام "أدرنة" في طقس تغلب عليه البساطة والتواضع، هذا بالإضافة إلى ختانهم. الآن فقط أصبح بإمكانهم أن يتعلَّموا تعاليم الدين الصحيحة، وفي الوقت نفسه بدأ تدريبهم على المهارات العسكرية والقتالية بحق. وقد كان وقتهم مُقسَّمًا إلى شطرين متساويين، نصف يقضونه في التمارين القتالية، والنصف الآخر في محاضراتهم حول الإسلام، ودراسة القرآن الكريم، وتعلم صلاة الجماعة. ونتيجة لكل هذه التمارين شعر "باجيكا" وكأنهم يحولونه إلى بطلٍ خارق، قادر على تحدي كل أنواع الصعاب التي يمكن أن تواجهه، سواء جسديًّا، أو فكريًّا، أو روحيًّا. ولذلك لم يضيِّعْ وقته في المقاومة، لأنه كان من الواضح أنه مهما فعل، فلن يستطيع درء القدر. وقد ساعدته هذه الفلسفة في أن يوهم نفسه بأنه يتفاعل وفقًا لقراره الشخصي بأن يتقبل الأمر الواقع، وقد أراحه ذلك الأمر.
هل كان كل هذا يحدث قسرًا أم طواعيةً؟
بدا الأمر كما لو كان يفكر بالتركية ويحلم بالصربية. فترجمة نفسه من لغة إلى أخرى والعكس كان بمنزلة إعداد جوهره ليظل على الدوام حارسًا للخط الفاصل بين الحلم والواقع. ذكَّرته محاولته الحفاظ على توازنه فوق هذه الحافة الحادة التي تفصل بين ثقافته الأصلية والثقافة الجديدة التي يحاول تبنيها - بمهارة المشي على الحبل التي رآها بالبزار أو السوق. ولكن كلما زاد الارتفاع زادت الخطورة، ولكن أيضًا تزداد معها مكاسبه إذا نجح. وقد كانت هذه التناقضات هي جوهر حاضره ومستقبله، وكل حياته تقريبًا. كانت خياراته محدودة للغاية، فإما أن يترك نفسه للتيار العام ويسبح معه أنَّى ذهب، وإما أن يحاول التحكم في حياته والأخذ بزمام الأمور بيديه. لكن كيف السبيل إلى ذلك؟ ولماذا؟ وما الفائدة؟ فلا يوجد خلاص مما هو فيه، واستسلامه للوضع الراهن لن يُعيده إلى موطنه. كل ما سيجنيه هو أنه سيُجبر على العيش كأي عبد، ما يعني أنه لا سبيل له لإحداث تغيير، أو إحراز أي تقدم أو نجاح في حياته. كان يظن أنه بطاعة ما يقرره الآخرون بخصوص حياته أنه يومًا ما سيحل محلهم، وسيكون مسؤولًا، ولو جزئيًّا، عن نفسه وعن القرارات التي يتخذها بخصوصها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

2

لقد انقضى زمن الحروب في وطني السابق على أمل ألا يتكرر مجددًا. ولكن ما زال الوقت مبكرًا على أن نكون قد تخلصنا من النتائج التي ترتبت على تلك الحروب. إحدى هذه النتائج - والتي تبدو بسيطة للوهلة الأولى - تتمثل في ظاهرة جديدة طرأت علينا، وهي ميل جارف إلى استبدال الكَمِّ بالكيف، مثل تحويل الأدب - على سبيل المثال - إلى عمليات حسابية. دعني أشرح ذلك. لما كانت الفترة الانتقالية لهذا المجتمع شبه البدائي يتم استخدامها للتعبير عن كل شيء بالأرقام، فإنه يتم إعطاء كل شيء في المجتمع قيمة معينة على حسب ما تقتضيه الحاجة كمنتج ثانوي "لتكوين رأس المال"، كما يطلق عليها أولئك الذين يسرقون الشعب والحكومة. وبالطبع فإن الأرقام هي المعيار الوحيد الذي يعتمده المهووسون بالمال لتقييم الأشخاص والأشياء. ولذلك تم عمل قوائم بكل ما هو موجود. أيًّا كان الموضوع الذي اخترته، يمكنك التعبير عنه من خلال مقارنة قيمته المادية لأي خيار آخر محتمل.

ولم يسلم الأدب من التأثر بهذه الظاهرة، فحتى في الكتابة والنشر تُستخدم الأرقام بشتى الطرق، وعندما تُحاط بالكلمات تبدو هذه الأرقام كزيادة دخيلة لا حاجة إليها، باستثناء الأرقام التي توضح عدد النسخ التي طُبعت من هذا الكتاب، وعدد إصدارات عنوان معين. لطالما كانت مثل هذه الإحصائيات موجودة، وفي حين هي في غاية الأهمية لدواعي النشر، إلا أنها ليست مقدسة أو حاسمة. وقد كانت موجودة دائمًا كجزء طبيعي من كلٍّ جَمْعي مُكَوَّن من عناصر مختلفة، بما في ذلك الأرقام التي تؤدي إلى نشر كتاب وإعطائه وجوده في الحياة. ومع ذلك، فنوع الأرقام التي ظهرت بعد هذه المرحلة الانتقالية كان مبالغًا فيه وزائدًا عن الحد، مثل الأرقام التي تُستخدم لتصنيف كتابٍ ما في مرتبة معينة على قائمة الكتب الأكثر شعبية، والكتب الأكثر مبيعًا، والأكثر قراءة، والأحدث، وما إلى ذلك من تصنيفاتٍ مختلفة... والوصول إلى هذه المراتب يبدو من على السطح كما لو كان ديمقراطيًّا، ولكن هذا في الحقيقة لا يعدو كونه وهمًا، وهذا الإحساس لا يُقاوَم. إذ يتم تأسيس الانتقال بين مرتبة في التصنيف وأخرى باستخدام الأرقام، بمعنى آخر من خلال سرقة هذه المراتب. وتتابعت سُبُل التقييم وتعددت أنواعها: كم أسبوعًا ظل الكتاب أعلى القائمة؟ كم إصدارًا طُبِع لهذا الكتاب بغِلاف مُقَوًّى؟ وكم منهم بغِلاف ورقي؟ وكم إصدارًا بغِلاف من الذهب؟ وكم غِلافًا سخيفًا؟ حتى من الممكن أن تنتهي إلى خداع القارئ. ثم إن كل ذلك ليس كافيًا، يتتبعون في أي مرتبةٍ أتى هذا الكتاب في الأسبوع الماضي، وكم أسبوعًا ظلَّ محافظًا على مرتبته؟ وعلى كم صوتًا حصل؟ وما إذا كان التصويت إلكترونيًّا أم لا، وكم كان عدد "النتائج" الكلية التي تمت على موقع التصويت؟ ثم ما إن نخلص من هذه الإحصائيات، حتى تبدأ المقارنات: تُقارن كل البيانات عن كتاب مترجم من لغة أجنبية بالأعداد في دولة أخرى، ثم يتكرر الأمر كله ثانيةً.

وهناك نوع آخر من الإحصائيات والأعداد، لكنه دائمًا ما يُخفى عن العامة، كالاتفاقيات، والعقود الملزمة، والموعد النهائي المُحدد لكاتب ما لتسليم مخطوطته، وعدد الصفحات التي ينبغي عليه كتابتها دون زيادة أو نقصان، ونسبة الأرباح لكلا الطرفين الموقِّعين على العقد تحت كل الظروف، وهذا يعني وجود أطراف وحسابات أكثر من مجرد الكاتب والناشر، فهم يحسبون كل شيء، حتى إنهم يتوقعون ما يمكن أن يحدث في ظروف غير متوقعة.

حتى عدم الالتزام ببنود العقد يمكن التعبير عنه والتعامل معه بالأرقام: من الشروط الجزائية إلى نسب الخسائر. تبدو هذه الإحصائيات وكأنها أقوى حتى من الموت، فحتى بعد موت الكاتب - ولو بسبعين سنة - تظل هذه الحسابات والإحصاءات حيةً، وتستمر عمليات الجمع والطرح والضرب والقسمة.
لحسن الحظ بالطبع أن عمر الكتب يفوق عمر مؤلفها، فتُخلِّد ذكراه، ولكنَّ تلك الحسابات لا تضعُف ولا تستكين أبدًا، فهي تتبع المؤلف حتى إلى الحياة الأخرى، ولا تسمح له حتى بالتنازل عن حقوقه. ولكن هذه الفقرة من الإحصاءات التي تأتي بعد الموت تُسمى بالإحصاءات السعيدة.
لم يصل الجدل إلى قمته بعد في هذه الزيجة التي تمت بين الأدب والرياضيات، والسبب بسيط جدًّا على الرغم من أنه ليس ملموسًا. وذلك لأن المفكرين فقدوا مكانتهم الاجتماعية واعتبارهم الثقافي في المرحلة الانتقالية وهو الأمر الذي أربكهم وجعلهم في حيرة من أمرهم وأحط منهم هذا بالإضافة إلى تهميشهم في المجتمع. ليس هذا فقط، فبالإضافة إلى التغير الذي طرأ على مركزهم السابق في المجتمع، فقد عانوا الفقر المدقع. وفي مثل هذه الظروف القاسية، انحط بعض الكتاب والناشرين أخلاقيًا وماديًا وأُطلِق عليهم "عبدة الأرقام" أو "الرياضيين".
ومع هذا، كان من الممكن ألا يكون الوضع بهذه المأساوية إذا لم يكن هذا التغير قد انعكس على سماتهم الشخصية وسلوكياتهم. وبالاقتران مع قضايا الشعب والانتماء العرقي وقضايا اللغة والاستقلال الذي حصلوا عليه حديثًا وغيرها من الموضوعات، وصل المفكرون في نهاية المطاف إلى معالجة قضية الهوية. وعندما وصلت الأمور لهذه النقطة تحديدًا، بدأت عملية تحطيم الهوية وإعادة تشكيلها، ثم تحطيمها مرة أخرى وإعادة تشكيلها من جديد. وهذا لا ينطبق فقط على الهوية بل وعلى كل شيء آخر في المجتمع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الثاني

من الممكن أن تكون الفنون الدفاعية التي تدرب عليها "باجيكا" ورفاقه إطارًا للعديد من المهارات الأخرى التي أتقنوها. فقد تعلموا قدرات معنوية في المدرسة الصارمة والحازمة نفسها التي تعلمهم المهارات القتالية. فعلى سبيل المثال، لكي يكتسب صفة الشجاعة، ولتصبح من المكونات الأساسية لشخصيته، كان عليه أولًا أن يعرف ما هو الجُبن، وبالفعل لم يستطع التحرر من قيد الخوف إلا بعدما جربه واختبر نتائجه على نفسه. عندئذ، يمكن القول بأن الجرأة أصبحت إحدى سماته الشخصية.
وعمومًا، كان إدراك فكرة الروح والجسد وفهم العلاقة بينهما هما الهدف من هذا التدريب. فبمجرد أن يكتشف الصلة بينهما، يمكنه تشكيل القيم والمبادئ الخاصة به بكل سهولة وسرعة، وهذه نتيجة طبيعية. فمثلًا، العلاقة المتداخلة بين الشجاعة والجبن ساهمت في فهم العلاقة بين السيادة والتبعية. ثم إنهم استطاعوا هزيمة الخوف من خلال روح التحدي لديهم. ومع ذلك، رفعهم معلموهم إلى مرحلة أعلى لتخطي الحاجز النفسي؛ زعموا أنه بإمكان الخوف أن يؤدي إلى اكتساب الشجاعة، وأنه قد تكون النتائج حتى أكثر ضراوة من المعتاد! حتى إنهم ذهبوا إلى أبعد من هذا، إذ جعلوا التلاميذ يمرون عمليًّا بتجارب سيكولوجية لإثبات صحة هذه الطريقة في التعلم.
وتلك هي الطريقة المثلى لتحقيق الهدف بشكل صائب؛ فهم لم يحاولوا صناعة بطل خارق منه بمحاولتهم زرع قيم أجنبية بداخله كما كان يبدو في بادئ الأمر، بل على العكس من ذلك، فقد كانوا يحفزونه ليُخرِج أحسن ما فيه ويُحسن استغلاله وتوظيفه. ببساطة، كانوا يعملون جاهدين على تحفيز قدراته الخفيةَ وطاقاته المكبوتة، ليجعلوا منه شخصًا أقوى وأكثر فاعلية. ولكن بدا له الأمر كما لو أنهم كانوا يحولونه إلى شخصٍ آخر.
وفي الحقيقة، كان هذا التخمين صائبًا بخصوص "باجيكا" وبعض الشباب الآخرين في المجموعة، فلم يكونوا في حاجة إلى أن يوضح لهم أي أحد أنهم يتم إعدادهم لوظائف خاصة في المستقبل تختلف عما يتم تجهيز الآخرين له؛ فهم يتلقون العديد من الدروس دون الأولاد الآخرين، فنتج عن انفصالهم عن باقي المجموعة وقضائهم الكثير من الوقت معًا صداقة فريدة من نوعها؛ نتيجة لشعورهم بالأمان والقوة في قربهم من بعضهم بعضًا. ولكن هذه الصداقة كانت سرية ولم يجرؤوا على الإفصاح عنها، على الأقل في الوقت الحالي.
وعلى الرغم من إقامته عدة سنوات في سرايا "أدرنة"، فإن "باجيكا" لم يُفلح في أن يرى سيده ولو حتى مرة واحدة، فقد كان السلطان مشغولًا على الدوام بأعمال أخرى في أماكن أخرى. حتى عندما كان يحضر إلى "أدرنة"، لم يكن يراهم على الإطلاق، لأنه كان يُحظَر على الأولاد تحت التمرين الخروج من مقرهم عندما يقترب الحاكم، وكانوا كذلك طوال المدة التي يقيمها السلطان هناك. فبدلًا من مقابلة السلطان، كان يُقال لهم بأنه على علم بمدى التقدم الذي يحرزونه، فَهُم حماة الإمبراطورية القادمون، ولذلك فهو حريص أشد الحرص على متابعة أخبارهم عن كثب. وكان الدليل على صدق مقالتهم هو زيارة مبعوث البلاط الملكي "خسرو باشا الدلاتي" المفاجئة ذات يوم، والذي كان مسموحًا لهم برؤيته، فما إن يصل حتى يقدم له الطلبة استعراضًا للمهارات القتالية التي تعلموها، وبالطبع يتم هذا البروتوكول في حفلٍ رسمي، حيث يرتدي فيه الطلاب الزي الرسمي. وكانت تُدهشه معرفتهم بالفارسية والعربية والتاريخ، وكمِّ سور القرآن التي حفظوها وتعلموا تفسيرها.

وفي النهاية، يُلقي الباشا عليهم خطابه، وهم ماثلون أمامه، بعدها يسمح للجميع بالمغادرة باستثناء العشرة طلبة المتميزين، حيث يصحبهم في جولة إلى داخل البلاط ليروا جزءًا من جناح السلطان، تعبيرًا لهم عن استحقاقهم ذلك بفضل تفوقهم. وعندما وصلوا إلى إحدى الغرف التي يبدو أنها مهمة - والتي على الرغم من أنه لا يوجد بها أثاث، فإن تصميمها كان فخمًا ومبهرًا - توقف الباشا ليقول:
- هذا هو الديوان الإمبراطوري الذي يجتمع فيه سيدنا بالوزراء بـ"أدرنة"، لاتخاذ القرارات المهمة الخاصة بالدولة. ويجلس السلطان هناك بالأعلى عند تلك النافذة الصغيرة بالقرب من السقف الذي ترونه، ليراقب عمل الوزراء.
فاندفع "باجيكا" قائلًا:
- تمامًا كما يفعل الله، إذ يجلس بالأعلى ويراقبنا جميعًا.
فنظر إليه رفقاؤه بدهشةٍ، بعضهم استحسن قوله، وبعضهم استنكره.
بعد ذلك، فاجأهم "خسرو باشا الدلاتي" بعدة أشياء. فطلب أولًا من المشرفين والمعلمين المغادرة، وعندما تأكد له ذلك، بدأ في التحدث مع الصبية بالصربية قائلًا:
- لقد أثبتم أنكم طلبة جيدون بالإمبراطورية. وعندما يعلم الحاكم بأنني راضٍ عن المستوى الذي وصلتم إليه، سيبدأ إرسالكم إلى جهات مختلفة وفقًا للمعلومات المفصلة التي سيقدمها معلموكم والمشرفون عليكم عن كل واحد منكم. سيتم تكليفكم بوظائف مختلفة في أماكن مختلفة حول العالم.
ثم توقف قليلًا، وبعد ذلك اقترب من واحد من زملاء "باجيكا" يُقال له الآن "مصطفى". فجأة احتضنه وقال له:
- أخي.
وقف الصبي حائرًا لا يدري ماذا يحدث، ويخشى أن يكون قد أخطأ سمعه، فهمس له الباشا بشيء عدة دقائق، ثم بعد ذلك توجه إلى "باجيكا" وأحاط كتفيه بذراعه وهمس له قائلًا:
- إنه أخي، ولكنه أيضًا ابن عمك.
ثم بعد ذلك، عاد مرةً أخرى ليوجه خطابه إلى الجميع فقال:
- أظن أنه واضح من كلامي أنني واحد من شعبكم، وقد جُلِبت إلى هنا مثلكم منذ عشرين عامًا من الهرسك، وأنا من عائلة "سوكولوفيتش" وقد أمرت بإحضار بعضكم إلى هنا. وهذه هي المرة الأولى التي أرى فيها أخي الأصغر منذ ولادته، أليس هذا موحشًا ورائعًا معًا؟
نظر إليه "مصطفى" محملقًا لا يستطيع غلق فمه من فرط الدهشة، وكذلك "باجيكا" كان ينظر إليه بالقدر نفسه من الذهول. فلم يكن ليخطر على باليهما يومًا أن يسمعا لقب عائلتهما من هذا الشخص بالتحديد وبعد كل هذا الزمن. لم ينسياه بالتأكيد، ولكنهما كانا قد أخفياه داخلهما منذ زمن. وقد أدركا أن الهدف من سرد قصته لهما هو تشجيعهما على استغلال هذه الفرصة أحسن استغلال. فقد حصلا على أفضل تعليم ممكن، ولذلك عندما يحين الوقت المناسب، عليهما أن يوظفا كل ما اكتسباه وتعلماه لتحقيق أهدافهما. أبدى لهما "خسرو باشا الدلاتي" قدرًا من الود والحميمية، وقد لمساها بالفعل وغمرتهما العاطفة، وقد حاول أن يكون واضحًا، ولكنه في الوقت نفسه حرص على ألا يقول الكثير. فلم يكن مضطرًّا مثلًا إلى أن يقول لهما الأشياء التي فهماها ضمنًا، مثل أن عليهما أن يساعدا ويدعما بعضهما بعضًا بقدر الإمكان، وفي أي فرصة ممكنة، وألا ينصهرا بالكامل في ذلك المجتمع الجديد، بل لا بدَّ من أن يُبقيا ذكرى موطنهما الأصلي نابضة حية في نفوسهما. ثم إن عليهما ألا يهابا ما ينتظرهما مهما كان. وإذا كان الماضي الذي عاشاه مقدرًا عليهما، فما زال المستقبل بأيديهما، عليهما

أن يستعيدا ما أخذه منهم الماضي، وأن يشكلا مستقبلهما على أحسن وجه، سواء بالسر أو بالعلانية، المهم أن يكونا في النهاية قادرين على أن يتميزا عن كل من سواهما. وهذه هي الطريقة الوحيدة لينعما بالسلام الداخلي، والسلام مع بعضهما بعضًا، لأنهما - وقد شدَّد على هذا - إذا لم يكونا واعيين للازدواجية التي تم طرحها عليهما، فلن يكونا قادرين على الصمود في وجه أيٍّ من المحاكمات التي تنتظرهما. قال:

- فمن سينجح في أن يعلو فوق هذه الازدواجية سيحوِّل سوء حظه إلى مزية ونقطة قوة. إنه لمن المأساوي ألا يكون معك والداك. ويا لها من سعادة أن يكون لك والدان على قيد الحياة، ولكن تذكروا أنه على الرغم من أن الأمر يبدو كما لو أن ليس لديكم والدان، فإنه في القريب العاجل سوف ترون أن كليهما موجودان.

وبهذا الشكل، يكون الباشا قد ساعد "باجيكا" في الخروج بأول حكمة ولو كانت بسيطة في حياته: إذا كان هناك شيء لا تستطيع تجنبه، فلا مفر من مواجهته. وإحدى النتائج الغريبة المترتبة على زيارة "خسرو باشا الدلاتي" هي تشجيعهم على مواجهة مصيرهم بأريحية وسهولة وصراحة. فبعد مغادرته بدأ هؤلاء الفتيان الذين تم اختيارهم بعناية في التحدث مع بعضهم بعضًا بالصربية - لغتهم الأم - ملتزمين في ذلك بقاعدة ترسخت بديهيًّا في أذهانهم جميعًا، وهي ألا يتحدثوا بالصربية إلا في غير أوقات التمرين. ولكنهم الآن يفعلون ذلك غير مُبالين بإخفائه. لك أن تتخيل المفاجأة! ما حدث كان على غير ما توقعوا، فلم يعترض أحد أو يمنعهم من استخدام لغتهم الأولى! فلمَ عساهم يفعلون هذا؟ لماذا يسمحون لهم بالتحدث بالصربية؟ لقد حان الوقت حتمًا، وسيتم حلهم وتوزيعهم على المناطق المختلفة، ولن يستطيعوا بعد ذلك التحدث بالصربية حتى لأنفسهم، ولذلك لا ضير من التحدث بها الآن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

3

عندما كنا طلبة بالمدرسة، لم أكن أحب كلمة "تعريف"، فقط تذكَّر عدد المرات التي تتكرر فيها هذه الكلمة. ومع ذلك، قررتُ - بعد موضوع مزج الأدب بالرياضيات، وهو إجراء يتعرض له التلاميذ بالمدرسة عندما يبدؤون في تعلم العمليات الحسابية - أن أعطي تعريفًا لكلمة "المال". وهذا ما توصلتُ إليه من تعريف: "المال هو قيمة أي شيء يُعَبَّر عنه بالأرقام". وقد يبدو أن هذا التعريف لا يتطلب الكثير من الذكاء للتوصل إليه، ألا يمكننا قول الشيء نفسه عن الوقت مثلًا؟ كما أن السنوات قيمة يُعَبَّر عنها بالأرقام! وبالمثل هناك العديد من الأشياء الأخرى التي يمكن التعبير عنها بالتعريف نفسه. ولكن ليس هذا هو المهم. المهم أنه إذا كان من الممكن تطبيق هذه الفكرة على العديد من المصطلحات والظواهر الأخرى، فهذا لا يعني أن التعريف الأصلي ليس صائبًا ولا يلغي وجودها.

ماذا أريد أن أقول؟ حسنًا، ما أريد قوله هو أن المرتبة العددية لا تعني الجودة الحقيقية. أي، هناك فرق بين قول "المال هو التعبير عن قيمة الشيء بالأرقام"، وقول أنَّ "المال هو التعبير عن جودة الشيء بالأرقام". والآن نقترب من جوهر الموضوع؛ إذا استسلم بعض المؤلفين وعبروا عن الجودة الحقيقية لمحتوى كتبهم واستبدلوا الأرقام بالجودة. عندها لن نستطيع معرفة مَن نلوم؛ تفاخر الكاتب المزيف، أم مَن وضع هذه الأنظمة السيئة للتقييم (القوائم التي ترتِّب الكتب).

كان يمكن أن تكون هذه الظواهر غير مقلقة إذا لم تتعدَّ هذا الحد. وقد كان الموضوع في البداية مجرد ميل أو نزعة، ولكن بمرور الوقت أصبحت هذه الظاهرة محطَّ الأنظار، وأصبح لها نظام وقواعد تضبطها، وفي طريقها إلى أن تصبح تقليدًا وقاعدة عامة يتحتم على الجميع اتباعها. لذلك لا يمكننا غض الطرف عنها واعتبارها حدثًا عارضًا أو مؤقتًا لم يكن مقصودًا. فهدفهم هو أن تصبح وتظل القيمة الرقمية هي المعيار من خلال مساواة الجودة الحقيقية للعمل برقم الترتيب الذي يحصل عليه في القائمة.

ولكن كيف يبدو هذا الأمر عند تطبيقه؟ مؤخرًا كنت حاضرًا في مُلتقى، حيث قُرئ بحث كتبته مؤلفة ذات شعبية تدافع فيه حرفيًّا عن الأرقام. ولكي تثبت أن كتبها حصلت على المركز الأول في قائمة الكتب الأكثر قراءة عن جدارة واستحقاق - وهو الأمر الذي لم يُشكك فيه أحد من الأساس - قارنت نفسها بأفضل وأذكى وأكثر كتَّاب هذا القرن تميزًا وطلاقة. وبالطبع لم تجد أثناء كتابة بحثها - الذي يسوده الكِبْر والشعور بـ"الأنا" - أيَّ كتب لأيٍّ من المؤلفين القديرين قد حصلت على ترتيب مماثل لترتيب كتبها على قائمة أفضل الكتب في ذلك الوقت، أو حتى على مر التاريخ. وهذا صحيح، فبالطبع لن تعثر على أي أعمال لهؤلاء الكُتَّاب في تلك القوائم، لأنه في عهدهم لم يكن لمثل هذه القوائم وجود، ولم تكن ضرورية. فقد كانت مؤلفاتهم تُقيَّم بناءً على النفع الذي يعود منها فقط، وعلى قيمة محتواها الحقيقي، ولم يُقَيِّموها ماديًّا أو بأي طريقة حسابية أخرى. أعتقد أن رسالتي واضحة. أما تلك الكاتبة، فقد كانت تشعر بالاستياء، لأن أحد الحضور تجرأ من قبل على التشكيك في رأيها بأن الكتاب الذي يحصل على المركز الأول هو بالفعل الأفضل. وقد مزجت هذه الصيغة بواحدة أخرى أكثر جذبًا للانتباه؛ المركز الأول هو أفضل مرتبة.

ولنفترض أن ادعاءها هذا صائب، وأنه ربما يكون المركز الأول هو أفضل مرتبة، لكنَّ هذا لا يعني بالضرورة أن صاحبه هو الأفضل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الثالث

أهم نتيجة ترتبت على زيارة الباشا - الذي اتضح أنه كان يتجسس الأولاد لعدة شهور - هي وصول صاحب الجلالة شخصيًّا. ولكن هذه المرة ليس فقط وصوله إلى السرايا حيث مقر إقامة الفتيان، بل وصوله إليهم أنفسهم، إلى أولئك الصبية الذين دُفِعوا إليه تحت مُسَمَّى الجزية. وسيكون أكثر صوابًا لو قلنا إن هذه المرة كان مسموحًا لهم برؤية السلطان المعظم والوقوف أمامه. ولقد أراهم فخامته تواضعًا منه بأن نظر إليهم جميعًا، ثم أشار إليهم بيده أن اجلسوا، ثم سمح بتقديم العشرة المتميزين بشكل فردي. وقد قام الآغا المُعلم (كبير المُعَلِّمين) بتقديمهم له، فهذا حقه ودوره، ومعه "خسرو باشا الدلاتي" كونه واحدًا من حاشية السلطان وأكثرهم قربًا منه، كما كان يتضح أنه محل ثقته أيضًا. وقد كان الباشا يتحدث بثقةٍ عالية، تحدث عن كل ولد من الأولاد على حدة: من أين أتى، وإلى أي عائلة ينتمي، ومكانة عائلته الاجتماعية، والأشياء التي أبدى فيها تميزًا وموهبة أثناء دراسته، ثم كان يُدلي برأيه عن المكان الملائم له، ليخدم به ويُكمِل دراسته. هنا وأمام السلطان، عَلِم "باجيكا" أن قدره ومستقبله وثيق الصلة بالحاكم المُعظَّم؛ قصر الإمبراطور في إسطنبول.

وقد تجمد دمه من الرهبة عندما سنحت له الفرصة لاستراق النظر إلى السلطان للحظة، فلمحه ينظر إليه. وقد رأى في السلطان مزيجًا غريبًا من السكون والحماس، كما رأى هدوءه الجَمَّ النابع من قوته، وقدرته، واعتياده على اتخاذ القرارات الحاسمة ابتداءً من القرارات التي بها تتشكل أقدار الأفراد، إلى القرارات التي تشكل مصائر قبائل ودول بأكملها. ولكن من ناحية أخرى، فالمحارب الذي بداخله كان يقظًا أيضًا، ولذلك أبدى اهتمامه بهؤلاء العبيد المتعلمين، لأنه سيحتاج إليهم في المستقبل، حتى إنه ربما ينقذ أحدُهم حياتَه يومًا ما. وتعلم "باجيكا" أنه يُجلب كل الأطفال هنا لكي يقوموا بوظائف متنوعة من جنود في الجيش الإنكشاري، إلى مستشارين للإمبراطور، أما فيما يتعلق بعلاقتهم بالسلطان، فيتقلد كل واحد منهم دورًا هامًّا ومحددًا في حياته. وفي نهاية المطاف، وبعد أن يسمح لهم هو بشكل أو بآخر بالتقرب منه، وبناءً على ما يراه منهم، يصبحون محل ثقته أكثر من أي فرقة أخرى من فرق الجيش. حياته وأمنه الشخصي يعتمدان على ولائهم له كأفراد وجماعات. ولكنَّ حياتهم أيضًا تعتمد عليه. ولذلك سيشكلون درعًا لحمايته ضد أي أحد آخر، سواء داخل الإمبراطورية أو خارجها. وهو سيكون دعمًا وسندًا لهم.

وبعد أن انتهى كل شيء، ظل "باجيكا" يفكر في كل هذا عدة أيام بعد هذا اليوم. والنتيجة الأهم إليه، والأقرب إلى نفسه من بين كل النتائج التي توصل إليها بعد تفكيره العميق، وتحليله كل ما مرَّ به، هي أن "باجيكا" لم يعد مجهولًا من قبل الإمبراطور، لم يعد من الذين يتم حبسهم عن رؤيته ورؤياهم، على الرغم من أن هذه النتيجة قد تبدو بسيطة، أو ساذجة بالنسبة للبعض. وهذا ما جعله يدرك أنه ذو قيمة وأهمية لهم، وتقريبًا كانت هذه أول مرة يدرك فيها أنه أصبح يتقبل أولئك الأجانب. وفي مقابل هذا التقبل، تم إخباره بأنه سيحظى بامتيازات كثيرة في المستقبل، وأنه لن يعيش أو يُعامَل كعبد، على الرغم من أنه لن يستطيع أي أحد - حتى السلطان نفسه - أن يحرره من صفة العبودية. الآن، مُنِح فرصة لكي يصبح العبد المثالي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

4

أحيانًا تصبح الأرقام التي تستخدم لتقييم الأدب والكتب مثيرة للضحك وتؤدي إلى نتائج عبثية. في أحد معارض الكتاب المحلية التي أقيمت حديثًا، أعلن المنظم عن تقييم لكل المشاركين بالمعرض، وكتب الكثير من الأشياء في خطابه، إلا أنه لم يذكر أي شيء عن المعايير التي سيتم تقييم الناشرين على أساسها، ما هو ذلك المعيار الذي على أساسه سيُصنَّف أي واحد على أنه الأفضل؟ أولئك الذين صُنِّفوا على أنهم "الأفضل" لم يعرف أحد ما الشيء الذي تفوّقوا فيه على الآخرين وجعلهم أفضل منهم. لا أحد يعلم فيما هم أفضل. ثم بعد تحليل جاد وبحث عميق عن الأسباب التي أدت إلى عدم وجود معيار محدد - مع الأخذ في الاعتبار استبعاد فكرة أن يكون نسيان المنظمين سببًا - أصبح جليًّا أن هذه التفصيلة لم تكن ذات أهمية طالما أنهم الأفضل.

والآن قد أتى الوقت لأقتبس فيه مما كتبت في بداية هذا الكتاب في الفصل الذي جاء بعنوان "بعد البداية"، وتحديدًا من الفقرة التي ذكرتُ فيها الصفات التي أصبحتْ جزءًا من أسماء الناس الذين وُصِفوا بها بسبب عظمة شخصياتهم، أو بسبب سلطتهم مثل "المُعَظَّم" و"المُبَجَّل". أو إذا كنت سأستخدم الصفات المعتادة في الحياة اليومية من الأعظم، والأكثر أهمية، والأكثر شهرة. لكن لماذا؟ حسنًا، لكي ندرك كيف أن التاريخ كان على الدوام "مسرحًا شعبيًّا" ([1]) ، لأنه - وأنا أقتبس من فصل "بعد البداية" الآن - "على الرغم من أنَّ التاريخ يحب الأعظم، والأقوى، والأكثر نفوذًا، والأفضل في كل شيء، فإن هذا الكتاب له هدف آخر...".

ولهذا يبقى هذا الكتاب في الظل، على الهامش، في حين يُخلِّد التاريخ أعمالًا أخرى بالطريقة نفسها التي يُخلِّد بها المعالم الأثرية الراسخة والعظيمة فقط، وفقًا للتقييم الشعبي. والمسرح الشعبي ماكر، فهو يوظِّف ضعف التاريخ أمام كل أنواع الانتصارات، حتى أمام الأحداث المزيفة وغير المهمة والغريبة. وبهذه الطريقة يجعل نفسه جزءًا من التاريخ، ويحفظ وجوده بطَيَّاتِهِ، وكأنه بذلك يهمس بكلمات التملق في أذن التاريخ، وهو ما يؤتي ثماره على الفور فيفوز بقلبه. والسحر جزء من المكان الذي أتحدث منه؛ ففي فنون الترفيه الشعبية يُشار إلى هذا المكان على أنه منصة، أما في الأنشطة السياسية فُيشار إليه على أنه مسرح.

وفقط من خلال العملية الانتقالية الاجتماعية والاقتصادية للدول الأوروبية، ظهرت خطورة التشابه بين السياسة (التاريخ المستقبلي) وبين مهارات الترفيه الشعبية (الحاضر الذي يبدو أبديًّا). وبعد تجربة هذا التشابه واختباره - حتى وصل إلى مرحلة الغطرسة الكاملة أو الكمال المتغطرس - تبين أن عناصر هذه العملية الانتقالية تشكل اتحادًا مثاليًّا من القوى ضد الكتب. الخوف من إثبات إمكانية التخليد الأبدي للكتاب، أو على الأقل إطالة مدة بقائه ونجاحه، عزَّز التكافل البدائي العبثي الذي يبدو مثل رسم الكاريكاتير، ولكنه أيضًا يشكل خطورة، فعناصره متداخلة ومترابطة كزواج وثيق لا يمكن حله. وسرعان ما رُفِعَت الشعارات، وبدأت التدخلات لإجبار مَن قاوم فكرة الشعبوية والنخبوية هذه. ولما كانت تستهدف عددًا قليلًا بعينه من الناس، فهذا يعني أنها ضد الديمقراطية، والتي لا تحتاج إلى أن نقول إنها تمثل الهدف الأهم بالنسبة لغالبية الناس، إن لم يكن للجميع. هذا هو "المنطق الانتقالي".

وحقيقة أنه توجد في التراث العالمي كتب يرجع تاريخها إلى الماضي البعيد، أو حتى القريب - ومن المؤكد أنها ستظل موجودة حتى في المستقبل - عززت هجومهم ورغبتهم في تخليد كتبهم.

إن المعركة بين البقاء في الحاضر فقط، والخلود في الحاضر والمستقبل معًا، تحولت إلى معركة بين علوِّ الصوت وهدوئه؛ وانخفاض الصوت لا يدل على خوف صاحبه، إنما يعبِّر عن التنشئة والتربية السليمة التي تلقاها الشخص. إنها معركة بين صوت السِرِيَّة وصوت الشعبيَّة، بين الإهانة في مواجهة التسامح، والعدوانية في مواجهة العُرف، والحرب ضد السَلام.

مَن سيحقق النصر؟ المنتصرون. لحسن الحظ، لقد تعلمنا هذا جيدًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع

بعد مغادرة السلطان "أدرنة"، بدأ "باجيكا" يعيد التفكير في زيارة "خسرو باشا الدلاتي" السابقة، وقد نالت فكرة الباشا استحسانه. ولأكون صادقًا، فَهِمَ ذلك فقط بعد أن لاحظ أنه لم يتم إعداد المكان لوصول السلطان إلا من خلال التحكم الدقيق، والتخطيط الحسن الذي أُجري مسبقًا للاهتمام بكل التفاصيل المهمة، ليكون استقبال السلطان ناجحًا على أكمل وجه. ولذلك، جرى ترتيب كل شيء، حتى لا يحدث أي خلل مُفاجِئ فيزعج السلطان، أو يثير سخطه وعدم رضاه، ويُشعِره بعدم الارتياح وبخيبة أمل. لذلك جرى الاهتمام بالتفاصيل، حتى يبدو كل شيء طبيعيًّا ومُتَوَقَّعًا، وليشعر بأنه جرى ترتيب كل شيء ليكون بانتظاره. وبهذا، يتكوَّن لديه إحساس بأن كل شيء تحت السيطرة ويقتنع بذلك. أدرك "باجيكا" أن كل هذا من تخطيط الباشا بشكل أو بآخر. وعلاوة على ذلك، فقد استنتج أن القدرة على التنبؤ بما سيأتي من أحداث وتوقعها هي إحدى المهارات ذات الأهمية الاستثنائية، وخصوصًا إذا كنت في السلطة؛ فإذا استطاع الشخص توقع ما سيأتي وقدَّر الاحتمالات الممكنة، سواء للشخص أو للدولة، وما نوعها وكم عددها، وإذا اتُّخِذت القرارات التي تتوافق مع الاحتمالات والأهداف المراد تحقيقها، على حسب ما يقتضيه الموقف، سينجح هذا الشخص أيضًا في تحديد الطريق الذي يريد السير فيه لتحقيق أهدافه. وهذا ما يُسَمَّى بالتخطيط أو السياسة.

وبالطريقة نفسها بالضبط، يمكن لهذا الشخص أن يتجنب النتائج غير المرغوب فيها لما يمكن أن يحدث مستقبلًا. ويمكن للشخص أن يتجنب ارتكاب الأخطاء ومضيعة الوقت دون داعٍ عن طريق اختياره لما يتوقعه، ومن ثَمَّ من الممكن تجنيب دولة ما السقوط في الهاوية باتخاذ قرارٍ صائب في التوقيت المناسب، فتتجنب مثلًا خسارة أموال طائلة، أو خسارة أرواح الكثير من الناس، أو حتى الكثير من المقاطعات. وإذا اُستخدِم هذا النهج دون تفسيره للناس، وخصوصًا إذا لم يكونوا على دراية بالخلفية، سيبدو الأمر كما لو كان هذا الشخص يتنبأ أو يتكهن. فإذا علم الشخص ما الذي سيحدث، يستطيع أن يحدد الطريقة المُثلى التي سيتعامل بها مع الحدث.

يمكنه تقسيم ما سماه بزيارة "خسرو باشا الدلاتي" الجاسوسية إلى شقين فرعيين. كان واضحًا أن واحدًا منهما قد أظهر قوة الحاكم وإلمامه بكل ما يدور من حوله. وهذا يعكس الرُشْد الذي بإمكانه حل المشاكل في العلاقات التي بين البشر، فيجنبهم التعرض لمواقف مفاجئة، ابتداءً من العلاقات التي تحكم الناس في البازارات والأسواق، وصولًا إلى العلاقات التي بين الحكام والدول.

أما الشق الثاني فكان أقل وضوحًا، ولم يكن يستهدف العامة من الأساس. فقد كشف عن الأخطاء أكثر من الكشف عن نقاط القوة والجودة ونجاح الزيارة. والشق الثاني هو البحث عن مواطن الضعف لكي يقوم باستغلالها إذا احتاج إليها يومًا ما، كالسيف المُعَلَّق فوق رأس الضحية، والذي يمكن أن يسقط عليه في أي لحظة ولأي سبب، أو كوثيقة دائمة مكتوبة بحبر لا يُمحى، ومحفوظة في مكان ليس مرئيًّا، حيث يمكن نشره بسرعة وبسهولة وفي أي وقت.

ينبغي أن يكون هذا هو الطريق المُتَّبع، لإنتاج إنسان عظيم وتأسيس إمبراطورية نبيلة. وقرر أنه كلما سنحت له الفرصة سيبدأ بتجسس الباشا نفسه سرًّا وعلانيةً. وفقط عندما بدأ يكتسب المزيد من المعرفة حول كيفية إدارة شئون البلاد وحكمها، أدرك كم كان مُحِقًّا في شأن استشعاره أهمية هذا

النوع من التجسس في نسج الأحداث المفاجئة، وربطها ببعض، وتحليلها، والتكهن بأقدار الأفراد والشعوب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

5

كيف سيبدو الأمر لو أُستخدِمت كلمات، أو مصطلحات، أو عبارات سياسية معينة في لغة الأدب؟ ها هي واحدة من كلماتي المفضلة: "المستدام"، والتي دائمًا ما تُربط في الحقيقة بالأشياء التي ستُنجز، حتى في المستقبل. والآن، تخيل معي مدى سخافة أن يقترن مثل هذا النوع من الاستدامة بكلمة "التاريخ" ليعزِّزها مثلًا.
لذلك من المهم أن نعرف - وفقًا لتفسيرات المؤسسات السياسية الأوروبية - ما المصطلحات التي تتماشى مع مثل هذه العبارة المصطنعة. فهذه الاصطلاحات دائمًا ما تكون مصحوبة بشيء من الرهبة. فأنت تعلم أنك إذا فعلت كذا وكذا، سيحدث لك كذا وكذا. ثم لا يلبث أن يصبح مشروعك مستدامًا، وهذا هو المعنى الجوهري. وبالتأكيد لن يصرِّح أيٌّ من مؤلفي هذا التفسير بهذا، بل سيفضلون التحدث عن إتمام أعمال تحت شروط متنوعة وبعيدة المدى، ليس لأنهم يبتزونك كقارئ، ولكن بسبب نجاح مشروعهم الأدبي. باختصار، سيخبرونك بأنهم عندما يدعمون مشروعًا ما، فإنهم يقدمون الاحتمالات المستقبلية الواقعية بخصوص قدرته على البقاء أطول فترة ممكنة، والمدة المتوقعة التي سيدوم نجاحه خلالها. أين هي الحقيقة بين كل هذا؟ يمكن القول بأنها توجد في مكانٍ ما بين التفسيرين. ومع ذلك، هذا ليس صحيحًا. فهو أقرب ما يكون من الابتزاز، لأنه - وعلى عكس هذا الابتزاز - يوجد تفسير استثنائي منطقي، وهو ليس صائبًا بنسبة مائة بالمائة، ولكنه مثالي لهذا الاستغلال، وهو ليس زائفًا في نفسه، ولكنه ببساطة يستجدي التعزيز.
مثال.
في أحد أكثر الكتب الفرنسية الموثوقة عن الإمبراطورية العثمانية، وهو يتكوَّن من مختارات من النصوص من كتابات نحو عشرين من الخبراء المشهورين حول العالم، ليسوا فقط متخصصين في حِقَب زمنية معينة وحسب، بل في مجالات معينة أيضًا، وقد كان كل هذا تحت إشراف رجل موثوق ومعروف بأمانته في نقل المعلومات. يمكن أن يجد القارئ هذا التلاعب السخيف بالحقائق واستغلالها لتخدم أغراضًا معينة. فمثلًا في الفصل الذي يأتي تحت عنوان "إدارة الإمبراطورية"، وتحديدًا في القسم الفرعي الذي يأتي تحته بعنوان "رافعات القوة" يقول:
"تميز نظام الإمبراطورية بتنوع عرقي استثنائي في الطبقة الحاكمة. فمن بين سبعة وأربعين صدرًا أعظم (في فترة حكم أحد عشر سلطانًا، كما علق "ف. ب.") والذين حكموا الإمبراطورية في الفترة بين 1453 - 1623، خمسة وزراء فقط كانوا من أصول تركية".
تعليقي:
لقد أنهيت هذا الاقتباس هنا (ولكن سأكمله من حيث توقفت) فقط لأستطيع أن أوضح لكم أن هذه الحقيقة ذات أهمية استثنائية بحق. فقط القليل من الناس على علم بهذا اللغز الرياضي، والذي دُفِنَ في التاريخ كما سيخفيه الأدب أيضًا، وهو في الواقع لغز صادم يقول: "إن أقوى إمبراطورية على وجه الأرض لعدة قرون من الزمن، والتي كانت تقع على أرض آسيوية، وتملك جزءًا كبيرًا من أوروبا وأفريقيا، كانت قادرة - وبكل اتساق وتناغم وسهولة – على أن تضع قوة عظمى بأيادي رجال لم تكن لهم الجذور العرقية نفسها لهذه الدولة، وفي معظم الأوقات لا ينتمون في الأصل إلى الدين نفسه! ولو لم نفكر بأي شيء آخر، فإن هذه المقولة جديرة بأن تستوقفنا لكي نفكر بها، أليس كذلك؟

ثم بعد ذلك، اشتعلت النيران، حيث يبدأ التلاعب بالحقائق: "من بين وزراء آخرين، كان يوجد أحد عشر وزيرًا ألبانيًّا وستة من الإغريق، وواحد شركسي، وواحد أرميني، وواحد من جورجيا، وآخر من إيطاليا، في حين كان يوجد عشرة منهم مجهولة أصولهم".
تعليقي:
حسنًا، إذا قمنا بعملية إحصائية دقيقة لهذا العدد، من المستحيل أن يكون الناتج سبعة وأربعين وزيرًا. ولكن يبقى السؤال، أين هم الأحد عشر وزيرًا الآخرين؟ وما خلفيتهم الثقافية والعرقية إذا لم يكونوا من بين الوزراء الأتراك، ولا من أي من المجموعات العرقية الأخرى المذكورة، ولا حتى من بين "العشرة المجهولة أصولهم"؟ ما الذي يثبته هذا القصور في عملية الإحصاء؟ ما الذي يريد أن يقوله لنا فشلهم في إخراج الناتج الصحيح من عملية حسابية بسيطة كعملية الجمع؟ أو ربما ليس الهدف إخبارنا بأي شيء، لأننا لا نستحق أن يتم إخبارنا بأي شيء؟
ثم بعد ذلك مباشرةً، يوجد بتكملة هذه القطعة شيء يمكن أن يدفعك إلى الجنون:
"أثبت الصدر الأعظم "صقللي محمد باشا"، وهو خادم السلطان الشخصي ذو الأصول البوسنية، ولاءه لجذوره الأصلية عندما شيد أوقافًا دينية في وطنه الأصلي، أو عندما جدد البطريركية في بيش عام 1557".
تعليقي:
ها نحن ذا، اكتشفنا وزيرًا آخر لم يكن محسوبًا ضمن الوزراء السابق ذكرهم. والآن تبقى عشرة لا ندري أين هم! لكنني لن أقول إن مؤلفي هذا الكتاب لم يكونوا هم أيضًا على علم بأولئك الوزراء! ثم إننا لا ندري إن كان هذا الوزير الذي اكتشفناه هو أحد "العشرة وزراء المجهولة أصولهم" أم إنه أحد العشرة المفقودين من العدد الكلي أصلًا. لذلك تركت المعلومات الخاصة بـ"صقللي محمد باشا" موجودة بالاقتباس (والتي قد كتبها مؤلف مجموعة المختارات ليس أنا)، وذلك حتى أوضح أن المؤلفين كانوا على علم بكل ما يحتاجون إلى معرفته عنه. في البداية، لم يشيروا إليه على أنه أحد الوزراء الذين تقلدوا منصب الصدر الأعظم، ولكن في الفقرة التي تلي تلك الفقرة التي اقتبستها مباشرةً، أصبح فجأة له وجود كبير. وهذا يعني أنهم على علم بباقي الوزراء، ولكنهم لسبب ما لا يعلمه إلا هم قرروا ألا يذكروهم.
أنا، على سبيل المثال، أعرف واحدًا آخر من هؤلاء الوزراء الذين لم يأتوا على ذكرهم. وأنت يمكنك أن تسأل كيف والمؤلفين نفسهم لم يذكروا أسماء أيٍّ منهم باستثناء "محمد باشا"؟ حسنًا، أنا أعُرف ذلك، لأن هذا الوزير أيضًا كان من أصول صربية، واسمه "رستم باشا أوبوكوفيتش". عَليَّ أن أُدَعِّم ما أقول ببعض الحقائق، أليس كذلك؟ حسنًا إذن، لقد وُلِد عام 1500م بالبوسنة، وليس بعيدًا من العاصمة "سارايفو". وقد تولى منصب الصدر الأعظم مرتين: مرة من 1544 إلى 1553، والأخرى من 1555م حتى وفاته في 1561. وتولِّيه هذا المنصب مرتين هو حدث نادر وغير اعتيادي، ولذلك يسهل تذكره. قام السلطان "سليمان القانوني" بتعيينه بنفسه صدرًا أعظم بعد ما صار من نزاع بين الوزير المعظم "سليمان باشا الخادم" الذي يحمل اسم السلطان نفسه، ووزير آخر وهو "خسرو باشا الدلاتي"، والذي كما نعرف من قبل أنه من أصول صربية هو الآخر. وقد عاقب السلطان كليهما بعزلهما ونفيهما خارج العاصمة. وبهذا يكون مؤلفو الدراسة قد تخطوا أحد الوزراء الذين ظهروا في واحدة من أكثر فترات الإمبراطورية العثمانية قوة، وفي عصر أحد أقوى السلاطين العثمانيين، والذي كان في حينها في أوج عظمته وسلطانه وقوته. وهو الرجل الذي زَوَّجَه السلطان

بابنته العزيزة "مهرماه"، وهي ابنته التي وُلِدت له من زوجته الأثيرة - والتي كانت له قصة حب معها خلدها التاريخ - "خُرِم"، وهي والدة ابنه ووريث عرشه الذي تلاه في الحكم السلطان "سليم الثاني" (وقد كانت من قَبل إحدى جواريه، وكان اسمها "روكسيلانا"، وقد كانت ابنة قسيس أرثوذكسي روسي). العجيب هنا، هل مثل هذا الرجل يمكن نسيانه؟ هل مثلًا لم تكن لديهم معلومات كافية عن مثل هذا العَلَمْ؟ أو هل يُعقل أن تجاهله هذا كان مصادفة؟ لو كنتُ ممن يُبالغون في ذعرهم، أو لو كنت أحد القوميين، أو حتى أحد المؤمنين بنظرية المؤامرة، لقلتُ، أو لتركتُ مجالًا للقول، حتى لو على سبيل المزاح - على الرغم من أن مثل هؤلاء الناس لا يعرفون المزاح في مثل هذه الأشياء، وربما لا يمزحون على الإطلاق - أنه من باقي الوزراء العشرة الذين تم حذفهم في ذلك الكتاب، وكلهم من الصرب.

بالطبع من الممكن أن يكونوا من أي أصل عرقي آخر طالما أنهم كانوا موجودين يومًا ما. لكن يبدو أن في هذه الحالة أصعب شيء هو إثبات أنه كان لهم أي وجود في هذه الحياة من الأساس.

يبدو أن استخدام الرياضيات في التاريخ يحقق نجاحًا، تمامًا كما في الأدب.

لكن كيف يمكننا التصرف بشأن الكذبات المستدامة؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس

على الرغم من التشابه الخارجي بينهم في الدراسة والسلوك، فإن "باجيكا" كان يرى اختلافًا بينه وبين الأولاد الآخرين المحيطين به في تقبلهم تعاليم الإسلام. أول مجموعة وصلت إلى "أدرنة" منذ بضع سنوات كان من بينهم "مصطفى"، وهو أخو "خسرو باشا الدلاتي". وقد كان أولئك الأولاد الحريصون ألا يظهر حنقهم وتمردهم على الإسلام أمام أيٍّ من معلميهم، أو القائمين على رعايتهم - وإن كانوا لا يخشون إظهاره أمام باقي الطلاب - كانوا يقولون إنهم لا يرغبون في تغيير عقيدتهم المسيحية، وكانوا دائمًا ما يُسِرُّون بهذا إلى "باجيكا"، لأنهم يأمنونه على ذلك، ويفضلون إخباره هو عمن سواه، لعلمهم بأنه كان يدرس الأرثوذوكسية ليصبح راهبًا قبل إحضاره إلى هنا، وقد تم إحضاره إلى "أدرنة" فعليًّا من الدير.
وعلى الرغم من ذلك، فقد فاجأتهم نصيحته لهم، وكانوا على الأرجح يتوقعون، ليس أن يسمع لهم ويدعمهم فقط، بل كانوا ينتظرون منه أن يكون لهم قائدًا في هذا. وإحقاقًا للحق، لم يكونوا هم أنفسهم يعلمون فيما سيقودهم، ربما في تمردهم. لكن، أي نوع من التمرد؟ من المؤكد أنه لن يكون تمردًا صريحًا، وإنما تمرد سري. فاجأهم "باجيكا" عندما واجههم بحقيقة أنهم بالفعل قد غيروا دينهم من خلال تحولهم من كل الجوانب؛ من خلال العهود التي أخذوها على أنفسهم، من خلال تغيير طريقة لبسهم، وطعامهم، ولغتهم، حتى طريقة صلاتهم. ولكنه أيدهم في جزئية أنه يحق لهم الإيمان بما شاؤوا، حتى بالأب والابن والروح القدس، ولكن عليهم أن يحفظوا هذا في أعماقهم؛ لأنفسهم. ثم أكمل قائلًا بأن هذا السر، هذا الحق لا يمكن لأي أحد أن يسلبهم إياه أيًّا كان. أما كل ذلك الاحتجاج الذي يملأ صدورهم ضد الاعتقاد بالله، حتى إن لم يكن مرئيًّا للعامة، فسوف ينسونه في دُوَّامة الحياة. فليس أمامهم سوى خيارين: إما الحياة مؤمنين بالله، وإما الموت إن أظهروا غير ذلك. لم يكن أمامهم حل آخر. يمكنهم اختيار أيهما شاؤوا. وبالطبع يمكنهم الاستمرار كما هم، نصفهم يرفض سرًّا، والآخر يرفض جهرًا الاعتراف بالنبي "محمد"، ولكنهم إذ يفعلون ذلك، يجعلون أنفسهم عرضة للخيانة من أولاد آخرين من بينهم هم أنفسهم.
وبعد عدة مناقشات، استقروا على أنهم لن يقبلوا بقلوبهم وأرواحهم تلك العقيدة الأجنبية عنهم، ولكنهم كانوا على دراية أيضًا بأنه ليس أمامهم خيار آخر، إلا إذا كانوا يسعون وراء الموت، سواء بأيديهم أو على أيدي آخرين؛ لن يُشكل هذا فارقًا حينها.
كان من الحسن أنهم لم يأخذوا كلامه هذا على أنه خذلان، خصوصًا عندما حدثهم عن إمكانية ازدواجية الاعتقاد. أخبرهم أيضًا أنه لن يستطيع أحد أن يمحو ذكرياتهم، حتى هم أنفسهم لن يستطيعوا محوها. وإن حاولوا، كيف يكون ذلك؟ لا يمكن للمرء أن يزيل جزءًا من حياته فقط بناءً على قرار اتخذه، أو على الأقل ذلك الجزء من حياتهم حتى الآن. ولا يمكن للحياة البدء في اليوم الذي نختاره. لقد اندهشوا بما سمعوا، لكنهم في الوقت نفسه يعلمون أن مَن قال الكلام هو الأكثر حكمة بينهم.
وفقط حينها، أدرك "باجيكا" أن "مصطفى" أخا "خسرو باشا الدلاتي" الأصغر، هو الوحيد من بين هذه المجموعة الذي اشترك في النقاش، والذي يتميز عنهم بالتعليم العالي الذي حصل عليه، وأنه هو الوحيد من بينهم مَن كان مقدرًا له الخدمة بالقرب من الحاكم. حتى إنه بعد ذلك ذَكَّر "مصطفى" بهذا،

وأخبره بكل ثقة أن كل واحد منهم سيذهب في طريقه، وأنه هو الوحيد الذي سيبقى دون أي أحد آخر من هذه المجموعة المتمردة معه، في حين من الممكن ألا يتفرق بعضهم، ويمكن لبعضهم أن يتفرَّق، كلٌّ حسب مكان خدمته. لذلك نصحه بأن يتحلَّى بالصبر، وأن ينتظر حتى يرى ما التغيير الذي ستُحدثه الأيام في حياته مستقبلًا.

كما ذَكَّره أيضًا بأنهما أقارب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6

عندما نشر "لورد بايرون" قصيدة "القرصان" أو The Corsair في عام 1814، تم بيع عشرة آلاف نسخة في أول يوم. ولكنه لما كان لم يرغب في أن يتربح من كتاباته، لأن هذا لا يتوافق مع مبادئ طبقته الأرستقراطية، فلم يكن هو مَن يكسب من بيع هذه الكتب، وإنما بائعو الكتب، فقد كان ذا شخصية "أرستقراطية"، ولذلك لم يرغب في بيع نفسه. ومن ثَمَّ، في الوقت الذي كان الآخرون يجنون أموالًا طائلة من أعماله، استمر هو في اقتراض المال كما لم يفعل من قبل "بما يتناسب مع اسمه وسمعته"، وهذا ما قاله مترجم عمل "بايرون" الساحر "زوران بانوفيتش".

وأنا أضيف أن هذه إحدى الحالات المستدامة لتحويل الرياضيات إلى أدب، ولكن علينا أن نضع بالاعتبار أن هذا أحد الأمثلة النادرة على هذا التحول الذي يسير بعكس المعتاد.

آه صحيح! كدت أن أنسى (مثل أُولئك المؤرخين)؛ تقريبًا في هذه الفترة نفسها التي كان بعض الإنجليز يفقدون فيها أموالهم (كما ذُكِر في الفقرة السابقة) كان الناس في البلقان من الصرب والأتراك يفقدون حياتهم. فالانتفاضة الصربية الثانية كان يتم إعدادها والتخطيط لها. في الغرب، يُطلِقون عليها الثورة الصربية الثانية. عاصمة ميتة في الغرب، وأناسٌ قَتلى في الشرق. بعض الناس كانوا يشترون بالمال الحرية من أجل القراءة، وبعضهم يشتري بحياته الحرية للآخرين.

أوروبا القديمة الصالحة كانت تحرر بعضهم من العبودية، وفي الوقت نفسه تستعبد آخرين سالبةً إياهم حريتهم.

كل هذا الخلط بين الرياضيات، والتاريخ، وسيل الحسابات الذي غمر الأدب، ما هو في الحقيقة إلا إعداد لرصد إستراتيجية الحياة التي تتبعها الشعوب والدول التي تنظر إلى نجاتها وبقائها من منظور الهجوم والدفاع.

وهذا بمنزلة مقدمة لموضوع تحويل الهزيمة إلى نصر.

وبخصوص النماذج التركية الصربية من تاريخ الشعبين، أو الدولتين، أو الإمبراطوريتين، مجتمعةً أو منفصلة، فقد كنت متأكدًا تمامًا أنه يمكنني أنا و"أورهان باموك" التوصُّل إلى ما يمكننا أن نسميه الحقيقة. وإن لم تكن حقيقة، فعلى الأقل بعض الادعاءات، أو ربما بعض الافتراضات المبررة. شعرت برغبة لا تُقاوم في ذلك.

ولقد فاز "باموك" بقلبي عندما قال جملة بدت في أولها خفيفة الظل، ولكنه عندما أتمَّها أدركت أنها ليست مزحة:

- يبدو أنك جاد بخصوص هذه الأرقام وفن الكتابة. سأعطيك مثالًا على كيفية تحويل الأدب إلى تاريخ، كيف يتحول الخيال إلى حقيقة. وبالمناسبة، أنا لستُ صاحب هذا المثال.

ثم اقتبس من "فولتير" الذي كتب الجملة التالية عن المعركة البحرية الشهيرة في "ليبانتو"/ "إنيبهاتا"، والتي وقعت في عام 1571 بين الإمبراطورية العثمانية والبحرية المسيحية المتحدة، وتُعَدُّ هذه الجملة نموذجًا رئيسًا لتوضيح عبثية وعدم منطقية العلاقة بين الحقيقة وخلفيتها: "ويبدو أن الأتراك هم مَن انتصروا بمعركة ليبانتو".

وبالطبع مثل هذا الكلام يحتاج إلى شرح كالذي سيأتي، وبالتحديد في حوارنا.

وأعترف أن هذا الاقتباس كان ذا أهمية مزدوجة لديَّ فيما يخص مصداقية الحدث. وهذا لأن أولًا، هذه واحدة من الهزائم العسكرية الكارثية النادر حدوثها للإمبراطورية العثمانية. وثانيًا، لأنها صارت في وقت كانت فيه الإمبراطورية في قمة عظمتها وقوتها.
فسألت "باموك" ما الذي يراه خطأً بشأن هذه الهزيمة فقال:
- عادةً ستقول هزيمة أو أخرى، ما الفرق؟ لكن في هذه الحالة كان من الممكن تجنب الهزيمة، ولذلك كان من الحُمْق والسفه أن تتركها تحدث. وبالطبع ليس لوقوعها أية ضرورة، فهي لن تعود بالنفع عليهم من ناحية أخرى. ومع ذلك، رجحت كفة ميزان الإمبراطورية العثمانية متأثرة بغرورهم ويقينهم المُبالغ فيه بالنصر لخوض هذه الحرب، متأثرين في ذلك بانتصاراتهم السابقة، وخصوصًا انتصاراتهم الأخيرة بعد غزو قبرص.
فقلتُ:
- هذا يعني أن صناع القرار قد اختلفوا في الرأي.
ثم ردَّ عليَّ قائلًا:
- هذا صحيح. كان من بينهم بعض الرجال الذين يتَّسِمون بالحذر والحكمة، وكانت لديهم الخبرة التي تجعلهم يعارضون الدخول الأخرق المتهور في مثل هذه المعركة.
فسألته:
- مَن كان في صف مَن إذن؟
فقال:
- إنَّ القائد الأعظم لقوات جيش السلطان البحرية "مؤذنزاده علي باشا" نجح في الحصول - تقريبًا - على موافقة معظم الوزراء. وقد استطاع التأثير عليهم بحماسه لهذه المعركة، وبمبالغته في وصفه قوة وعظمة الفتوحات السابقة، هذا بالإضافة إلى أنه كان مدعومًا بالمفتي الأعظم.
فتساءلت قائلًا:
- ومَن منهم كان الحَذِرَ، ومَن كان الحكيم، ومَن كان ذا الخبرة؟
وقد ألححت عليه بالسؤال، لمعرفتي بمهارته في استخدام الصفات، وحُنكته في توظيفها لوصف الناس. فأجابني:
- لم يكن "برتاو محمد باشا" - والذي كان الوزير الثاني في الإمبراطورية، والذي كان أيضًا يتقلد منصب المستشار الإستراتيجي للجيش - متأكدًا من مدى صحة المعلومة الخاصة بقوة جيش الأعداء، خصوصًا عندما يتحدون بهذا الشكل. فقد نجح القائد المسيحي البابا "بيوس الخامس" للمرة الأولى في توحيد جمهورية فينيسيا، وإسبانيا، ومالطة، والمدن الإيطالية عام 1571. ولكن "علي باشا" كان متأكدًا أنهم سيختلفون كالعادة، ومن ثَمَّ سيصبحون ضعفاء حالما تفكك جمعهم، ولذلك لم يُعِر حذر "برتاو باشا" انتباهًا، ولم يأخذه بالاعتبار. أمَّا الوزير الأعظم "صقللي محمد باشا"، فقد حاول أن يؤجل هذه الحرب لسنة. فقد حفزته حكمته لانتظار تعبئة الأسطول وتعزيزه. ومَن غيره أدرى بمثل هذه المواقف؟ ففي يوم من الأيام، كان هو الشخص الذي حلَّ محل "خير الدين بارباروسا" الأسطوري عام 1546، وأصبح أميرال الأسطول العثماني عندما مات. فلو كان "بارباروسا" حيًّا لما تجرَّأ أحد أن يحل محله، لكن السلطان "سليمان القانوني" أصدر مرسومًا لا يمكن مجادلته في ذلك. وبمجرد أن تسلَّم هذا المنصب، بدأ محاكاة أفعال وأقوال سابقِه من خلال التفكير العقلاني في كل قراراته. وكان من بين ما حاكاه فيه: لا تندفع، حتى في حالة النصر!

ثم بعد ذلك، حاولتَ أن أغريه أكثر ليتكلم أكثر فقلت:
- وماذا عن الخبرة؟ مَن كان صاحب الخبرة في هذا الموقف؟
فرد عليَّ:
- إنه "قلج علي باشا"؛ القرصان المشهور الذي وثق به السلطان، وأمَّرَه على بعض أجزاء الأسطول البحري، مستمدًّا هذه الثقة من ولائه المنقطع النظير للسلطان، والذي دام أكثر من خمسين سنة. فقد ظل هذا الرجل الشجاع يدمر المركبات الأوروبية عبر البحر المتوسط بنجاح استثنائي طوال هذه المدة. لكن على الرغم من ذلك، فإن لديه خصلتين سيئتين. الأولى أنه كان قاسيًا في كلامه، وكان يُغفَر له هذا بفضل خبرته السابقة. وهذه المرة وجَّه كلامًا لاذعًا إلى "مؤذنزاده علي باشا"، وخاصة عندما أدرك إصراره على المُضِي قُدُمًا في تنفيذ قراره المشؤوم بالحرب. فقال له: "إن أقصى ما سيخطرِ على بال أتراك إسطنبول في تقديرهم لقوة العدو لن يبلغ حقيقة قوة الأسطول المسيحي بقيد أنملة. أَلِمثل هذه الخِراف تريد أن تَزُفَّ أخبارًا كاذبة عن أعداد وقوة العدو الأوروبي على أنها الحقيقة؟!" (ثم استطرد "باموك" في الحديث، حتى لا يحدث لبسًا، موضِحًا أنه حين قال خِرافًا، كان يقصد الأتراك المقيمين في العاصمة، وليس الأوروبيين).
ثم أكمل "باموك" قائلًا:
- إن رجلًا شجاعًا ومعتزًا بنفسه مثل "مؤذنزاده علي باشا" شعر بالإهانة وردَّ قائلًا: "إنما تريد أن تستنقذ المسيحيين منَّا لأنك كنت مسيحيًّا في شبابك. إنك تريد بهذا الذي تقوله أن تحمي موطنك الأم إيطاليا". وقد كان لهذا القول تأثيره على "قلج علي باشا"، خوفًا من أن يُتَّهم في ولائه وإخلاصه، فقد كانت أصوله المسيحية بالإضافة إلى لسانه السليط هما نقطتا ضعفه.
ثم جعلني هذا أفكر في براعة "علي باشا" ودهائه. ففي جملة واحدة، أهان الصدر الأعظم والوزير الثاني في آنٍ واحد، وقد بدا أن في موقف كهذا لا يمكن أن يتحداه أو يردَّ عليه أحد. ومن باب الحيطة والحذر، لم يرد "صقللي محمد باشا" ولا حتى "برتاو محمد باشا" بكلمةٍ واحدة على ما قاله. فإذا علَّقا على ما سمعا، أو أيَّدا "قلج علي باشا" - خصوصًا أن كليهما صربي الأصل - فسيبدو دون شك أنهما يدافعان عن عقيدتهما المسيحية السابقة. ولذلك، لجأ "علي باشا" عند هذه النقطة إلى التحدث بوقاحة، مستغلًا أن رد فعلهما سيكون بهذا الشكل. وقد تأكدت لي صحة تحليلي عندما أكمل "باموك" قائلًا:
- وبصمتهما، خلع السلطان "سليم" عمامته، وقال لهما: "إنه إذا كان من الممكن أن يرتدي هذه العمامة ثلاثة أشخاص، إذن يمكن للكفار أن يتحدوا ضدي".
اقتباس "باموك" من كلام السلطان جعلني أفكر في الخسائر الفادحة التي ستتكلفها الإمبراطورية، بسبب كلامه الفصيح المُطَمْئِن. حقيقة أن القرار لم يؤخذ بالإجماع عليه، وأنه تم اتخاذه بهذه السهولة ليس شيئًا مريحًا على الإطلاق، على الرغم من أنه يدل على أي حال أنه توجد على رأس الحكومة مجموعة من ذوي العقل والحكمة، من الذين يولون التفكير المُسبق في عواقب الأمور وتحليلها قبل الخوض فيها اهتمامًا كبيرًا.
لسوء الحظ، وعلى حساب الإمبراطورية العثمانية، "اتحدت قوات الأعداء وانضم الكفار إليهم". وفي طريقهم إلى ساحة المعركة في خليج "ليبانتو"، حيث كان الجيش التركي في انتظار العدو، قاموا بنهب "كورفو". وفي هذه الأثناء، ظنَّ "علي باشا" أن الرياح ستأتي بما تشتهي سفنه، معتقدًا بأن معياره الأخلاقي سيكون دعمًا له، على الرغم من أن الأمور انقلبت في مصلحة المسيحيين، حتى قبل أن يقع الاشتباك بين الجيشين.

وقد وضح لي "باموك" نقاط القوة لدى الفريقين قبل بدء المعركة:

- قاد "مؤذنزاده علي باشا" أسطولًا صغيرًا من 210 سفن تُقاد بالمجاديف، و66 سفينة شراعية ([2]) ، ومعهم خمسون ألف مُجَدِّف وبحار، ونحو خمسة وعشرين ألف جندي على متن هذه السفن. أمَّا "دون جون" - الابن غير الشرعي لإمبراطور النمسا - فقد دخل المعركة بأسطول من 236 قاربًا وسِت سفن ([3]). وعلى متن سفنه، كان يوجد أربعة وأربعون ألف بحار ومُجَدِّف، ونحو ثمانية وعشرين جنديًّا. وعلى الرغم من قلة عدد سفنهم ومقاتليهم، فإنَّ الجيش المسيحي كان مُسلَّحًا ضعف تسليح الجيش التركي، سواءً بالمدافع الثقيلة، أو بأي نوع آخر من الأسلحة. قد كان هذا ما حسم نتيجة المعركة.

فقلت له:

- الآن، أخبرني بالأعداد بعد المعركة.

فقال لي:

- حسنًا، سأتخطى الجزء الخاص بإستراتيجية المعركة، لكن عليك أن تضع في اعتبارك أن هذه المعركة ما زالت تُدَرَّس في المدارس العسكرية كنموذج لأكبر المعارك البحرية في التاريخ حتى يومنا هذا. فَقَدَ "علي باشا" أكثر من مائتي سفينة؛ أغرق الأعداء ثمانين واحدة منها، واستحوذوا على 117 واحدة. وتم قتل ما يقارب الـ 25000 جندي وبحار تركي، وأسر 3500 فرد آخرين. وقد تم تحرير نحو 12000 عبد مسيحي كانوا يخدمون على متن تلك السفن التي تم أسرها. وفي المقابل، فقد خسر أسطول العصبة المقدسة نحو 15 سفينة، وقُتِل 8000، وجُرِح 2500 جندي. ولذلك فقد كانت هزيمة الأتراك نكراء.

فعلقت قائلًا:

- أعتقد أنك تذكر لي كل هذه الأرقام لسبب ما. أظن أن نتائج هذه المعركة هي الأكثر أهمية، أليس كذلك؟

فرَدَّ عليَّ بـ"نعم"، ثم استطرد قائلًا:

- لا يمكن وصف صدمة الأتراك. فمن فرط حبهم أنفسهم واعتزازهم بقوة إمبراطوريتهم، لم يكن بوسعهم تقبل حتى الاحتمال النظري لوجود هزيمة، فما بالك بأن تقع الهزيمة بالفعل؟! وصل الخبر إلى الوزير الأعظم "صقللي" عن طريق "برتاو باشا" الذي استطاع إنقاذ نفسه بالوصول إلى الشاطئ. جاء في تقريره أن القائد البحري "مؤذنزاده علي باشا" قُتِل في المعركة، وأُسِر ولداه. وصلت هذه الرسالة إلى "محمد باشا" وقتما كان في "أدرنة" برفقة السلطان وكل الوفد الذي معه، حيث كان بالمكان الذي يمارس فيه الصيد في الخريف. يقول الشهود: "إنه كان يشد لحيته حتى أخرج بعضها في يده، وأنه أعطى الخبر للسلطان "سليم" في اللحظة التي كان يتحدث فيها مع ترجمان من "دوبروفنيك" ([4]) - وهذا هو الشخص الذي نقل هذا الكلام - فبمجرد تلقي الخبر، دخل السلطان في حالة صدمة، ثم بعد ذلك أبدى مخاوفه من أن المنتصرين من الممكن أن يتوجهوا صوب "القسطنطينية". لذلك أمر بإغلاق ممر "الدردنيل" على الفور بأحسن ما يمكن، ثم إنه أمر بحماية العاصمة والتهيؤ لصد أي هجوم محتمل".

فأخبرت "باموك":

- لقد قرأت أن هذا الخبر سبَّبَ حالة اضطراب وخوف عظيمة في كل أنحاء تركيا. لقد عاش الناس ما نسميه اليوم حالة من القلق والتوتر الجمعي. وسوف أقتبس لك مما قاله ذلك الشاهد الذي كان موجودًا حين تلقى السلطان خبر الهزيمة، وهو المبعوث الذي ذكرته في حديثك لِتَوِّك. كونه كان موجودًا، وكونه يتحدث اللغة التي تحدث بها الوزير الأعظم "محمد باشا"، فقد لاحظ رد الفعل على وجوه الناس والعامة بكل التفاصيل. فقال: "إن البكاء والنحيب كان لا يصدق، هذا بالإضافة إلى الجُبْنِ والخوف الذي ظهر فجأة على وجوههم. فبعد أن كانوا يتحدثون عن القوات المسيحية بازدراء واحتقار، بدؤوا في البكاء كالنساء بعد أن سقط غرورهم وغطرستهم التركية. ومن ثَمَّ، بدؤوا يفكرون في كيفية تجنب ذلك الخطر المحدق، وفي كيفية تجنب كلمة الحرب".

ثم استأنف "باموك" حديثه من هنا:

- وإذا نظرنا إلى الأمر بشكل موضوعي، سنجد أن حالة الذعر هذه لها مبرر قوي. فعلى سبيل المثال، إحدى النتائج المترتبة على تلك الهزيمة كانت الانتفاضات التي قام بها العديد من المسيحيين الذين حمستهم هذه اللحظة، والذين كانوا يعيشون تحت السلطة العثمانية. أما على الصعيد الغربي، فانتصار المسيحيين ذاع صيته، وبث الأمل في نفس أوروبا. فأخيرًا بعد قرنين من الهزائم المتكررة والخوف الدائم، أصبح من الممكن أن يحدث شيء جديد وتتقلب الموازين. بعد كل هذه السنين، اختل اتزان القوة العظمى أخيرًا.

ثم أكملتُ:

- قرأتُ أيضًا أن المشاكل الحقيقية بدأت في الظهور عندما نجح "صقللي محمد باشا" - الذي يبدو أنه الوحيد الذي لم تُذهب الخسارة عقله، أو على الأقل كان أولهم في العودة إلى وعيه - في إقناع السلطان بأن يتعامل مع الموقف بنوع من الاستهانة، لكن ليس عن طريق الحرب، بل بمحاولة العمل لتخطي السلبية التي هيمنت على الدولة كلها، حتى صار الأمر كما لو كانت الدولة جُرِّدت من السلاح بتجريد شعبها من عزائمهم. لذلك أُصدِرت الفرمانات (5) لإعادة تعبئة الجيش بالجنود، ولتجديد الأسطول البحري. لكن يبدو أن المشاكل الحقيقية بدأت حينها. فكما تقول السجلات، لم يرغب أتباع السلطان حتى بالسماع عن الحرب، حتى إن سكان ثلاثمائة قرية بالأناضول قرروا جميعًا الفرار إلى بلاد فارس، خوفًا من أن يُجبر رجال قراهم على الانضمام للأسطول.

ثم أضاف "باموك" إلى ما قلت:

- بل وأكثر من ذلك، فقد تنازل عدد كبير من رجال الدولة المهمين والشخصيات البارزة في المجتمع عن مناصبهم وألقابهم الاجتماعية وعن دخولهم، حتى لا يكونوا عرضةً لدفع الضرائب والقيام بواجباتهم في البلاط الملكي قبل الحرب. وفي المقابل، كان لدى السلطان سلاح كامل من الفرسان، حتى يثير الخوف في نفوس الآخرين. ومع ذلك، كل هذا ليس سوى تعبير عن اليأس.

فقلتُ:

- ثم عاد السلطان "سليم الثاني" يائسًا إلى "القسطنطينية"، وحاول الكشف عن أسباب هذه الهزيمة. فعقد جلسات طويلة للغاية للديوان الملكي، وقام باستجواب كل مَن حوله، وكان يمضي الليل في نقاشاته مع الوزير الأعظم عن أسباب ونتائج هذه الخسارة الفادحة، وتحدث مع كل مَن توسم فيه الحكمة والخبرة. حتى إنه لجأ إلى العرافين، وقابل المتنبئين. وظل يكرر على مسامع الناس في كل

مكان أنه لم يحدث أن شهدت الإمبراطورية التركية مثل هذه الهزيمة من قبل. ولم يحاول أن يخفي اضطرابه وقلقه.

ومضيتُ قُدُمًا في هذا النقاش التاريخي النادر حول شرح حالة الذعر هذه بحقائق من تاريخ المعاصرين، فقلتُ:

- قام السلطان أثناء نوبة الذعر هذه التي أصابته بعدة تحركات غير محسوبة وغير منطقية؛ فمثلًا عاقب بعض الذين شاركوا في حرب "ليبانتو" دون سبب، وكافأ بعضهم على الرغم من أنهم لا يستحقون المكافأة. قام بتنحية الوزير الثاني "برتاو محمد باشا" عن منصبه وزيرًا، على الرغم من أنه كان أحد المعارضين لهذه الحرب، ولم يسمح له بأن يدافع عن نفسه، أو يبرر خطأ الآخرين، إذ إنه لم يرتكب أي خطأ لكي يحاول تبريره. وفي الوقت نفسه، كافأ القرصان جزائري المنشأ "قلج علي باشا" والذي كان ضد المعركة أيضًا، لأنه اعتبره بطلًا. وفي الحقيقة، عندما أدرك "قلج علي باشا" أن المعركة لم تكن في صالح الأتراك، تراجع بفرقته في الوقت المناسب، أو من الأفضل أن أقول إنه انسحب مبكرًا. تسلل بعيدًا عن طريق ميناء "بريفيزا" وجمع بقايا الأسطول على طول الطريق. تمكن من جمع ثمانين سفينة، بعضها سليم، والأخرى بها بعض الضرر، ورفع على سفينته راية تعود إلى أحد أعدائه من فرسان مالطة. وبهذا استطاع الإبحار بأمان إلى أن وصل إلى ميناء "القسطنطينية"، حتى دخله عمليًّا كأنه منتصر. ولذلك قام السلطان بتقليده منصب أميرال الأسطول العثماني الجديد. (أو ربما يكون السلطان لديه من الحُنكة ما يكفي لكي يمنح شخصًا منصب القائد "مؤذنزاده علي باشا" - الذي قُتِل في المعركة - بطريقة دبلوماسية تجنبه الكثير من القلاقل).

ولكن بالطبع كان "باموك" مُلِمًّا بهذا الموضوع أكثر مني، لذلك أضاف:

- أما بخصوص الحالة النفسية للسلطان، فقد جمعت معظم معلوماتي بخصوصها من علاقته مع صديقه القديم المفضل "جلال جلبي"، والذي كان نديمه وصديقه الذي يشاركه كل أسراره. ومع ذلك تخلى عنه ونبذه من البلاط الملكي، لمجرد أن المفتي الأعظم اتهمه بأنه أحد المتسببين في الهزيمة (على الرغم من أنه ليست له علاقة بأي قرار تم اتخاذه بخصوص هذه المعركة).

فعلقتُ:

- يمكن القول بأن السلطان والصدر الأعظم (وهو كبير الوزراء) كانا يعلمان أن من مصلحتهما أن تبقى علاقتهما قوية، وألا يسمحا بأن يعكر صفو هذه العلاقة شيء. وعلى ما يبدو أنهما أدركا أن كلًّا منهما في حاجة إلى الآخر في مثل هذه الظروف الصعبة، وأن الأمور ستسوء كثيرًا إذا انقلبا على بعضهما.

فقال "باموك":

- كلاهما قدم إيماءات تستحق الثناء؛ لم يشر "محمد باشا" أبدًا إلى معارضته لمعركة "ليبانتو". ثم إنه لم يكرر الحديث عنها مرة أخرى، ولم ينتهز الفرصة لإلقاء اللوم على أحد، على الرغم من أنه كان يستطيع فعل ذلك. والسلطان بدوره لم يُبدِ للصدر الأعظم أدنى علامة تدل على أنه غاضب عليه، بل كان حريصًا على أن يجعل وزيره وصدر دولته الأعظم - "صقللي محمد باشا" - يدرك أن السلطان يعلم أنه كان على حق، على الرغم من أنه لم يُصَرِّح بهذا.

فسأل "باموك":

- هل تعتقد أن السلطان وضع بعين الاعتبار خلفية وزيريه - الأول والثاني - المسيحية، والتي كانت أيضًا خلفية البِك القرصان السابقة، عندما كان يفكر فيما إذا كان سيذهب مع الأسطول إلى المعركة أم

لا؟ هل فكر في هذه الأشياء كما فعل أدميرال الأسطول؟
فأجاب:
- أنا متأكد أنه لم يفعل. لأنه أيًّا كان نوع شخصية السلاطين الذين كانوا في الحكم، فقد كان لكل واحد منهم مئات من الفرص لاختبار ولاء رعاياه. فقط فكر في هذا. لماذا كان على أيٍّ منهم أن يمر بعدة مراحل وخطوات معينة قبل أن يحقق تقدمًا في وظيفته؟ ولماذا كان يستغرق الفرد منهم وقتًا طويلًا حتى يرتقي من منصب إلى منصب أعلى؟ لأن حتى أصغر خطوة كانت اختبارًا لهذا التزاوج بين الأمل والطموح! لذلك لم يكن للسلطان حاجة إلى أن يَحُطَّ من قدر نفسه بإهانة رعاياه مثلما فعل "مؤذنزاده علي باشا". وإذا ساورت السلطان الشكوك بشأن شخص ما، فهذا يعني أن رقبة هذا الشخص قد طارت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

الفصل السادس

على الرغم من أن عُمْر "باجيكا" بدا عائقًا ومشكلة أساسية في سبيل تقدمه المهني في البداية، فإنه بمرور الوقت أصبح إضافة جيدة لتعزيز الموهبة والتفاني والتركيز الذين أبداهم في دراسته. لم يكن فقط أولئك الأولاد الذين لم يرغبوا في الخضوع لعقيدة أجنبية، أو لما يمليه عليهم الآخرون وفقًا لرغباتهم، أو لأي لون من ألوان الحداثة والتغيير - هم فقط مَن يتبعونه ويحبون مجالسته، بل كان أساتذته أيضًا يثقون به وبرجاحة عقله، ويستشيرونه. هذا بالإضافة إلى جنود السلطان الذين يخدمون في الأسلحة المختلفة، كانوا أيضًا يستشيرونه. كان تحت الأنظار ولاحظه الجميع، ولذلك تميز هو ونحو اثني عشر شابًّا مميزًا آخرين، وقُدِّر لهم التعلم بسرعة ملحوظة. لم يمر سوى ثلاث سنوات فقط على إقامته بـ"أدرنة" مع أولئك الشباب المتميزين، حتى دخلت تجربة الحرب عَنوة في حياته. بعد خمس سنوات من أسره في بلجراد، وتحديدًا في أبريل من عام 1526، انطلق السلطان "سليمان القانوني" في حملة ضد المجر. وقد أشار الصدر الأعظم "إبراهيم باشا" على السلطان بأن يجلب الأولاد البالغين من مقرهم بـ"أدرنة" ليلتحقوا بالسلطان. وبهذه الطريقة يشتد عودهم، ويعتادون الحرب، حتى يصبحوا جنودًا في أسرع وقت ممكن. وقد كان "إبراهيم باشا" صديقًا قريبًا جدًّا من السلطان "سليمان القانوني"، وقد كان من أصول إغريقية من مدينة "بارجا". وبهذا، وللمرة الثانية، يكون "خسرو باشا الدلاتي" الموكل بتنفيذ المهام السرية والمهمة قد مهَّد الطريق لأولئك الفتية للنجاح. لكنه ترك أخاه "مصطفى" في البلاط الملكي بـ"أدرنة" بحجة أنه صغير جدًّا، على الرغم من أنه قد جاء إلى المقر الذي نزلوا به قبل "باجيكا" أو "محمد"، وهذا ما يعني أنه أكبر منه.

كان "باجو سوكولوفيتش" في بداية حياته يعرف عن مدينة بلجراد أنها العاصمة التي لم تطئْها قدمه قَط. كانت تصل إليه أنباء هذه المدينة الحصينة الجميلة كما تصل إلى الآخرين عن طريق التجار الذين عادةً ما يجولون البلاد المألوفة وغير المألوفة، هذا إن لم نأخذ الجيش بالاعتبار. حتى عندما كان يلغي جزءًا من قصصهم على أنه مبالغة في سرد الحقائق، ظل الجزء المتبقي من القصة يشير إلى أنها مدينة محصنة منيعة. كان يسمع عن المدينة باستمرار، لكنه مع ذلك لم يرغب في زيارتها. لأنه كان يقول في نفسه: "إنه لديه نهر "درينا"، وأنه لن يختلف كثيرًا عن نهر "سافا" أو "الدانوب"، ثم إنه رأى العديد من المدن الصغيرة المحصنة الأخرى، فبإمكانه أن يتخيل كيف تبدو العاصمة". قال الرحالة: "إنه باستثناء حجمها، فهي لا تختلف كثيرًا عن المدينة الصغيرة التي بُنِيَت عام 1404 تحت الحكم الصربي المستبد لستيفن لازارفيتش".

ولكن منذ أن أصبح اسمه "صقللي محمد"، بدأ تفكيره يختلف بخصوص بلجراد، وأصبحت أفكاره أعمق بخصوصها. منذ خمس سنوات، منذ وقعت المدينة تحت حكم السلطان "سليمان"، أصبحت مدينة عثمانية في المقام الأول، وبعد ذلك أصبحت أهم نقاط انطلاق الإمبراطورية العثمانية، ومن ثمَّ أكثرها مقاومة لأوروبا الوسطى، وأصبحت كذلك هي نقطة الانطلاق لتحقيق الحلم القديم بغزو إمبراطورية النمسا بعد المجر، ومنها وصولًا إلى فيينا بالطبع. حتى "باجيكا" نفسه الآن أصبح يرى المدينة على أنها مدينة عثمانية تفوقت على المستوى التخطيطي الإستراتيجي، والقوة العسكرية، ولذلك كانت تؤمن بأنها مدينة لا تُقْهَر، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى، بدأ يخالجه شعور أثار دهشته، إذ بدأ يجد في نفسه اهتمامًا عجيبًا بهذه المدينة التي لم يرها من قبل. والإجابة الوحيدة التي

يمكن أن يقدمها لنفسه، هو أنه ربما يكون هذا جزءًا من مقاومته الداخلية التي ما زالت موجودة كجزء أساسي من مكونات ازدواجية شخصيته. وعندما رأى المدينة، أدرك أن عليه أن يقع في حبها كما كان دائمًا؛ فقد كان يحب صورتها التي رسمها في عقله عنها. فبالنظر إلى البوابات والأبراج والمباني و"الفيسير باير" (6) ، أي الهضاب التي يمكن بناء القلاع عليها، والطراز المعماري الأوروبي في بناء المنازل القريبة من حديقة "الكاليميجدان" (7) الذي يتصل بعضه ببعض بشوارع وأزقة مرصوفة بالحصى، وبالنظر إلى كنائسها الأرثوذكسية القديمة وإلى مساجدها التي تُبنى، والنوافير التي تجدها أينما ذهبت والبوابة الخارجية للمدينة، فبعد رؤية كل هذا، أدرك لماذا كان عليه أن يحب هذه المدينة بهذا الشكل، حتى من قبل أن يراها. فمدينة بلجرادٍ تشبهه؛ فهي مثله تتكون من شقين، وعلامات امتزاج القديم بالجديد التي طرأت عليها واضحة. فقد أضيفت حياة جديدة ومختلفة تمامًا إلى الحياة الموجودة أصلًا. حتى أهل المدينة كانوا مزيجًا من الأتراك والصرب. لقد كانوا يعيشون جنبًا إلى جنب. صحيح أنه لا يستطيع أن يعرف إذا كانوا يحبون بعضهم بعضًا ويتآلفون كشعب واحد، أم إنهم مجبرون على العيش بالمدينة نفسها وعلى تحمل أحدهم الآخر. هو لا يستطيع أن يعرف هذا، لكن في النهاية هم يعيشون بالمدينة نفسها. ومع ذلك، فقد كان يعلم في قرارة نفسه - ودون أن يعلم لماذا - أن مستقبل وقدر هذه المدينة يمكن أن يؤول إلى مثل حاله. الصرب لن يتخلوا عنها أبدًا، والأتراك سيعتبرونها ملكًا لهم! وبالنظر إلى هذا الأمر من منظور سياق أوسع وأشمل، سيتضح أن هذا النوع من الأفكار كان مدعومًا بعدة حقائق من الماضي الصربي التركي. أول هجوم تركي وأول دفاع ناجح كان في عام 1440. وبعد خمس عشرة سنة، وتحديدًا بعد فتح "القسطنطينية" والتي أصبحت إسطنبول بعد نحو ثلاث سنوات، بدأ السلطان "محمد الثاني" حملة كبيرة ضد بلجراد وكان ذلك في عام 1456. والفترة القصيرة التي بين ذلك توضح أهمية بلجراد، وكيف كانت من الأولويات السياسية للإمبراطورية العثمانية. وقد أظهر الجيش الصربي، وخصوصًا البحارة، شجاعة لا تصدق في المعارك التي صارت على ضفاف أنهار بلجرادٍ. وقد نجحوا في إنقاذ المدينة. ومنذ تلك اللحظة، أصبحت بلجراد رمزًا للدفاع الأوروبي الشامل، ولُقِبَت بـ"معقل المسيحية". ولكنها لم تستطع أن تستنقذ نفسها أمام السلطان "سليمان القانوني". ثم أعطى الحاكم "المدينة البيضاء" (8) اسمًا إسلاميًّا، فأطلق عليها "دار الجهاد"، ومن بعدها أطلق عليه أعداؤه لقب "المُعَظَّم".

وكانت الحقيقة كالتالي؛ بالنسبة للإمبراطورية التركية، كانت هذه المدينة هي نقطة الانطلاق لكل غزو جديد، حتى الوصول إلى الهدف الأساسي، وهو السيطرة على فيينا. أما بالنسبة للقوى الأوروبية التي اتحدت ضد العثمانيين، فقد كانت الخط الفاصل بينهم وبين الضحايا من تلك البلاد التي دخلها الأتراك. أولئك الصرب كانوا في موقع مثالي بالنسبة لكلا الطرفين المسلمين والمسيحيين؛ كتلة مرنة قابلة للضغط وإعادة التشكيل عالقة بين شقي رحى.

كان هذا هو الماضي. لكن ماذا لو أن المستقبل كان يخبئ شيئًا آخر غير الذي يفكر فيه؟ ماذا لو رفضه الصرب، ولم يعترف به العثمانيون كواحد منهم؟ وعندما طرأت له فكرة التشابه، أو حتى التماثل بين مصير المدينة ومصيره، لم يجرؤ على التفكير في هذا الموضوع أكثر من هذا. وفي طريقه مع السلطان، بدأ يستكشف طريق الإمبراطور السريع، أو الطريق الذي يسميه الصرب "طريق القسطنطينية السريع"، وهو الذي وصل منه إلى بلجراد. لم يكن يعلم كم مرة سيمر بهذا الطريق جيئة وذهابًا، مرورًا بوادي النهر. أصبح هذا الطريق رمزًا لحياته بأكملها.

كان قادة الجيش يحافظون على حياة الفتية القادمين معهم من "أدرنة" بطريقة واحدة تحت أي ظرف من الظروف؛ لم يكونوا يرسلونهم إلى القتال في الصفوف الأمامية من الجيش، ولا حتى يسمحون لهم بالقتال في حرب مباشرة. ولم يكونوا ليخاطروا بفقدانهم، فما زال أمامهم الكثير لينجزوه، وما زال عليهم أن يثبتوا إمكانياتهم وقدراتهم للسلطان وللإمبراطورية، وذلك يأتي أولًا بدفاعهم عن حياتهم. وعلاوة على إبقائهم على قيد الحياة، كان يكفي في البداية فقط أن يروا سفك الدماء والقتل بأعينهم، لم يكن من الضروري في هذه المرحلة أن يلطخوا أيديهم بالدماء. صُدِم "باجيكا" ورفقاؤه عند رؤيتهم للمرة الأولى كل هذا الموت، لدرجة أنهم اكتفوا بإطاعة الأوامر، والقيام بالمهام البسيطة التي كلفهم بها الآغوات. أما رؤساؤهم، فقد بدا أن عندهم خبرة كبيرة في مثل هذه المواقف، فلم يُبدِ أيُّ أحد منهم أيَّ ردة فعل مبالغة. كم المسؤوليات الهائلة التي تطلَّبها الحرب، والتي تقع على عاتق الجنود عامة، والقادة خاصة، جعلتهم يدركون لماذا لم يهتم بهم أحد. وقد كان كل ذلك مُخططًا؛ فالظاهر لهم كان أن الغرض من جلبهم إلى أرض المعركة هو أن يشتد عودهم، حتى يعرفوا ما ينتظرهم في المستقبل. ولكن ما كان يحدث في الخفاء أن الآغوات كانوا يراقبونهم بحذر طوال الوقت، حتى يضمنوا سلامتهم ويعتنوا بهم، لكن دون أن يشعر الأولاد بشيء من ذلك. وقد كانت مشاهدة الحرب مرعبة في البداية لهؤلاء الصبية، لكنهم في النهاية بعد أن تمت المهمة اكتسبوا ثقة بنفسهم لم يكونوا ليكتسبوها لو لم ينجحوا في المرور بهذا الاختبار.

بحكم طبيعة المعسكرات التي أقام بها "باجيكا" ورفقاؤه أثناء الحرب، وجدوا أنفسهم بين قوات مكونة من مقاتلين على اختلافها؛ قوات الهجوم، والإنكشاريين، ووحدات الجنود المحليين. كل جندي من جنود الهجوم مسؤول عن العديد من الجنود العاديين، والحرفيين، والتجار، وضباط الإمدادات، وغيرهم، فهم مسؤولون عن ضمان أدائهم أعمالهم على أكمل وجه بقدر المستطاع. احتمالية موت جندي ما في مقدمة الهجوم ومتى وإلى متى، كل هذا كان يتوقف عليهم. وربما لن يموتوا. وقد كان حينها هو الوقت الذي فهم فيه "باجيكا" أهمية التخطيط والتنظيم لكل الوظائف والمهام التي تشكل في النهاية المنظومة كاملة. إذا انكسرت حلقة واحدة في هذه السلسلة، حتى إن لم تكن ذات أهمية، ستتعرض الخطة أو المشروع المراد تنفيذه للخطر. بالنظر إلى الصورة كاملة من الخارج، تبدو الأشياء مختلفة تمامًا: الأشياء أو الأشخاص الذين يأتون في المقدمة دائمًا ما يكونون مرئيين، ولكن الجيش الذي كشف عنهم للجميع بقي في مكان ما في الظل مختفيًا لا يراه أحد. يمكنه باستخدام هذا المثال أن يطبق هذه الآلية على الإمبراطورية كلها أيضًا، وليس فقط على الجيش. فمقاتلو الصف الأول - كالسلطان ورجال الدولة المقربين منه - يخاطرون بحياتهم أكثر من أي شخص آخر، أي إنهم يتحملون النصيب الأكبر من المسؤولية، وأحيانًا يفقدون أرواحهم ثمنًا لذلك. ولكن في الوقت نفسه ينالهم النصيب الأكبر من الشهرة، والثروة، والحظ عند النصر، أي يزداد نفوذهم وسلطتهم. لم يُثِر القتل اهتمامه، على الرغم من أنه أكثر الأدوات المستخدمة في هذه الحملة وضوحًا، ولم يكن يسعده. وقد علَّموه مهارة القتل هذه في "أدرنة". والآن يرى ما تمرَّن عليه عمليًّا. وقد كان متأكدًا أنه يمكن تقليل أعداد القتلى إلى حد أدنى. لا يمكن، وليس من المفترض أن تكون القوة المقياس الوحيد للنجاح. أثارته فكرة تجنب القتل، فقد نشأ معتادًا على رؤية الموت، وليس القتل.

وقد كان يجد في أعمال الحرفيين والمخترعين ما يجذبه إليهم، كما شدَّه إليهم براعتهم في تحدث أكثر من لغة. وأدهشه أيضًا إيمانهم بأنفسهم بالإضافة إلى نهمهم للعلم والمعرفة الذي لا حد له. لم يكن الحد الذي وصلوا إليه من المعرفة مُرضيًا لهم. وقد كان يظهر هذا جليًّا عندما يكلفهم السلطان أو الصدر

الأعظم بمهمة جديدة ومفاجئة، وتبدو أيضًا مستحيلة. إيمانهم بأن كل شيء ممكن كان يسحر "باجيكا" ويأسره. فقد كانوا يعالجون أي قضية أو مشكلة تُسنَد إليهم بإخلاص والتزام وجدية تجعل الأمر يبدو كما لو كان مصير العالم يتوقف على حلها.
وقد لاحظ من بين أولئك البنَّائين والحرفيين رجلًا يبدو أنه أكبر من "باجيكا" بما يقارب العشرة أعوام، ولكن به نشاط وطاقة تختلف عن كل مَن حوله، وجعلته يبدو كما لو كان بعمر "باجيكا" نفسه. كما كان "إبراهيم باشا" يقصده في مواطن عدة. وفي مرة من المرات، كان "باجيكا" قريبًا منهم بما يكفي ليسمع الحوار الذي دار بينهما باليونانية. وعلم من هنا أن الصدر الأعظم كان يوناني الأصل، وأن ذلك الشاب - مثل "باجيكا" - تم جلبه تحت نظام "الدوشيرمة" ليخدم الإمبراطورية العثمانية. كان "إبراهيم باشا" يخبره أن عليه أن يجذب الانتباه بأفكاره النيرة، حتى يحرز تقدمًا سريعًا في مجال عمله.
وقد غمرت السعادة "باجيكا"، لأنه ألقى السمع وتنصت عليهم، ولمعرفته باللغة اليونانية والتي تعلمها بحماس في الدير. الآن، قد وجد لنفسه شريكًا يمكنه تفهُّمه جيدًا.
وبمجرد أن بدأت تخطر هذه الأفكار على باله، لاحظ الصدر الأعظم اهتمام "باجيكا" الواضح بالحوار الذي يدور بينهما. وقد كان الباشا يعرف مَن هو "باجيكا"، لأنه وجَّه إليه الحديث قائلًا: "إن على الشابين أن يلتقيا". استفتح الوزير والصدر الأعظم كلامه قائلًا:
- ليس عليكما فقط أن يعرف كل منكما الآخر، بل على كل منكما أن يعرف ما الذي يعرفه الآخر.
ثم قدم الشاب إلى "باجيكا":
- هذا هو "سنان"، وهو يدرس ليصبح ضابطًا رفيع المستوى، كما أنه مهتم بدراسة الهندسة. في أي وقت أبحث عنه، أجده عادة بين المهندسين، وليس بين الجنود. ولما كان أحد أفراد الحرس الشخصي للسلطان، فإنه دائمًا ما يتذكره ويسأل عنه. ودائمًا ما نحاول - أنا و"لطفي باشا" - إيجاد أي عذر لنبرر به غيابه. ولأكون صريحًا، لقد أثبت أنه أكثر أهمية للسلطان بأفكاره التي في رأسه، عن أهميته والسيف في يده.
تفاجأ "باجيكا" بنبرة الصدر الأعظم الحميمة في حديثه مع أحد ضحايا "ضريبة الدم" (9). لكن سرعان ما بدأ "إبراهيم باشا" بالتفسير:
- تم إحضار "سنان يوسف" من مقاطعة "قيصري" بالأناضول إلى قلب الإمبراطورية في بداية سنة 1511، وكان على وشك أن يتم التاسعة عشرة من عمره. ومنذ ذلك الحين وقد عهدوا به إلى بلاطي. في هذا أنتما متشابهان؛ فقد أحضروك أيضًا من البوسنة عندما كنت في التاسعة عشرة من عمرك، حتى إن حدث هذا بعد ما حدث مع "سنان" بمدة. كما أن كليكما ذو خلفية مسيحية أرثوذكسية، بل إنك يا "محمد" (يقصد "باجيكا") كنت على وشك أن تصبح راهبًا. أثبت "سنان" جدارته كمحارب ممتاز منذ خمسة أعوام أثناء غزو بلجراد، ولكنه أيضًا أظهر بعض الجوانب الأخرى من شخصيته، والتي بها يمكن أن يكون ذا أهمية عظيمة للإمبراطورية. إنه مهتم بالمعمار، لذلك سُمح له بدراسة هذه الحرفة. وهذه فرصة رائعة لك أيضًا لتتعلم الرابط بين التعمير والتدمير.
نظر "باجيكا" إليه متعجبًا عند سماع هذه الجملة الأخيرة، لذلك فسَّر له الباشا مبتسمًا بشيء من الرضا عن الذات كما يفعل طوال الوقت:

- أرى أنك تتساءل عن كيفية تعلم التعمير في وسط معركة تؤدي إلى عكس ذلك، أي إنها تدمر كل شيء حولها! هل فكرتَ يومًا فيما على الجيش أن يفعله قبل وبعد التدمير الذي يُحدثه؟

حسنًا، في الحقيقة لم يخطر هذا على باله يومًا. فأكمل الصدر الأعظم "إبراهيم باشا" قائلًا:

- إن المهندسين عادة ما يتقدمون الجيش قبل بدء المعركة. فيذهبون لبناء الكباري، والسدود، والأسوار، ولإنشاء الطرق. ثم بعد المعركة يجدون أنه تم تدمير ما قاموا ببنائه من قبل، ولذلك يتوجب عليهم إصلاحه مرة أخرى. من الممكن أن يكون العدو هو مَن يدمر كل هذا، وعليهم أن يعيدوا بناءه كله مرة أخرى، ونحن أيضًا، إننا نعمد إلى تدمير الأشياء أساسًا أثناء الحرب، لأننا نغزو مدنًا وحصونًا. نادرًا ما ينجو أي شيء بعد انتهاء المعركة، ولكن قبل أن نغادر، نتأكد من إصلاح معظم - إن لم يكن كل - ما أفسدناه أثناء الحرب، ونعمل جاهدين على استعادة النظام قبل أن نغادر ونترك جنودنا وكتائب الاستطلاع بتلك الأراضي، إما لكي نتقدم ونكمل مسيرتنا، وإما لنعود أدراجنا. ونبدأ بالدفاع عن تلك الحصون ضد الآخرين. وفي الحقيقة، فعمل المهندسين في وقت السلم ألطف وأجمل، ففي وقت السلم، يشيدون المساجد، والأسواق، والنوافير، والفنارات، والمآذن، والمستشفيات، والمدارس. في الحرب أو في السلم، لا فرق، في كل الأحوال عليهم أن يبنوا المقابر.

ثم استدرك "إبراهيم باشا" أنه ابتعد عن الموضوع الأساسي، فتركهم كي يكملوا الحديث وغادر. ومنذ لقائهما في تلك اللحظة، ظل "محمد" و"سنان" معًا ولم يفترقا فترة طويلة بعد ذلك، بالطبع بقدر ما سمح الوضع. وفي الوقت الحالي، كانت الأمور تسير في مصلحتهما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7

ثم انتقلنا أنا و"أورهان باموك" إلى جلستنا الثانية بعد استعدادنا التام. وما زلنا مستغرقين في نقاشنا حول الأحداث التاريخية، وقوائم السفر، والملاحظات التي تركها المسافرون الألمان، والفرنسيون، والبندقيون، والمجريون، والصرب، والبولنديون، والأتراك، وأيضًا ملاحظات أهل "دوبروفنيك"، هذا بالإضافة إلى ملاحظات الموظفين المدنيين، والمستكشفين، والمبعوثين، والجواسيس، والعبيد المتعلمين، والتجار، وكل ما وجدوه مفيدًا مما ترك أي شخص. ووجدوا أنه من المفيد تدوين آرائهم في الأحداث التي حدثت في عصر الإمبراطورية العثمانية، أو الذين سردوا قصصًا عما حدث وراء تلك الأحداث.

كنا مضحكين حتى لأنفسنا، كنا كالأطفال الذين يتبادلون بطاقات لاعبي كرة القدم، حتى إننا بدأنا نتبارى فيما بيننا مَن لديه الأشياء الأفضل. دائمًا ما يفعل الأولاد ذلك في حديثهم. يقولون أشياءً مثل: "انظر إلى هذا...!"، و"هل تعلم أن...؟". ولكن لمَّا كنا ناضجين بما فيه الكفاية، فقد اتفقنا على تبادل الاقتباسات والمعلومات "بكل صراحة وبنوايا حسنة".

فبدأ "باموك" أولًا بعرض أفكاره عن "صقللي محمد باشا":

- في اللحظة الحرجة، لاحظ السلطان حقيقتين مهمتين عن صدره الأعظم على الترتيب التالي. أولًا: أظهر "محمد باشا" مستوى أخلاقيًّا استثنائيًّا، ومن ثَمَّ فقد تفوق على كل مَن حوله، لأنه لم يُشِر مرةً أخرى إلى تحذيره واعتراضه على دخول المعركة، ولم يستغل هذه الفرصة ليوشي بمعارضيه إلى السلطان (الذي اتسم بالضعف ورقَّة القلب إلى حد السذاجة) ليعاقبهم ويطيح بهم.

فقاطعتُه قائلًا:

- لا بدَّ من أن هناك سببًا لتلقيبه بـ"الطويل" (10).

فرد عليَّ:

- حسنًا، هذا صحيح. تعرف أن النساء في البلاط الملكي قد لاحظوا بنيانه الجسدي في المقام الأول. وقد تحدث الجميع عن هيئته قائلين: "إنهم لم يروا شخصًا جليلًا مهيبًا بهذا الشكل من قبل".

ثم رددت عليه ممازحًا إياه:

- لحسن الحظ أنه كان وسيمًا أيضًا، أو كما كانوا يقولون في حينها "تُسرُّ العين برؤياه".

لكن "باموك" ردَّ بجديةٍ مرة أخرى فقال:

- وثانيًا: أظهر الصدر الأعظم عزيمة وإصرارًا وثباتًا لا ينفلُّ. ولم يتردد لحظة في اتخاذ قراراته أو في عرض مقترحاته التي يتم الأخذ بها على الفور. ولم يكن السلطان ليتمنى شيئًا أفضل من أن يوجد بالإمبراطورية شخصٌ بهذا الثبات في هذا الوقت العصيب، حيث أصاب الجُبن كلَّ مَن في الإمبراطورية، بما فيهم السلطان نفسه. فعندما طرح الباشا فكرة إعادة بناء الأسطول على الفور، لم يقصد أنه سيعود إلى الحرب من جديد، ولكنه قصد بذلك أن يثير الرعب في نفوس الأعداء، وأن يجعلهم يفكرون مرتين قبل أن يبدؤوا معركة أخرى. فكانت الرسالة المُراد توصيلها إليهم: "لن تركع الإمبراطورية العثمانية".

فكان لديَّ تعليق على هذا:

- كان لديهم أيضًا قليل من الحظ. وكان الأوربيون حينها منتشين بانتصارهم غير المتوقع، ولذلك كانوا على القدر نفسه من الحذر، خوفًا من خسارة ما اكتسبوه، ومن أي هجوم مرتد إذا تراخت دفاعاتهم. لذلك بالغوا في تأمين أنفسهم وأرسلوا سفنهم إلى الموانئ ببلادهم، على أن يعودوا في العام المقبل ليكملوا ما بدؤوه. وفي الواقع، كان الشتاء قد اقترب وأصبح القيام بأي معارك بحرية أصعب وأصعب.

أجابني "باموك":

- نعم، إنك على حق. ربما توقع "محمد باشا" كل هذا، ولذلك أصر على تجديد الأسطول. وعلى الرغم من أنه أصبح واضحًا أن العدو لن يهاجم العاصمة، فإن الصدر الأعظم أصر على تنفيذ فكرته على الفور. كان من الأفضل أن يثبت للجميع بالوطن وخارجه أن القوة العظمى ما زالت في مركز العالم.

وقد سجل التاريخ حقًّا أن من خلال التنظيم الاستثنائي لهذه المهمة، استطاع الصدر الأعظم أن يعيد بناء الأسطول العثماني في غضون عدة شهور فقط. أولًا: أنشأ "محمد باشا" عدة أحواض لبناء السفن، ثم بعد ذلك استمر في بناء أسطول من مائة وخمسين سفينة جديدة وقوية. جرى إنجاز كل هذا في الفترة بين نهاية عام 1571 وبداية 1572. وبالإضافة إلى ذلك، عندما أبدى السلطان رغبته في شكره ومكافأته شخصيًّا، طلب منه أن يضعوا إيمانهم وثقتهم في قوة الإمبراطورية فقط، وليس في قوته هو. فأي سلطان لا يرغب أن يكون بجانبه مثل هذا الرجل؟ وللحق، جزء خفي من ثقة الوزير الأعظم بنفسه، والتي لم يسمح لها بالظهور في وجود الآخرين، تأتي في الأساس من خبرته السابقة خلال ربع القرن الماضي، عندما تم بناء مئات السفن الجديدة تحت إمرته، كونه القائد الأعلى للأسطول العثماني. وقد كان بارعًا في هذا أكثر من إدارة أي معركة في البحر، ولهذا كان يترك قيادة المعارك البحرية للأكثر مهارةً منه في أمور الحرب. وخلال تلك الفترة، أسس صناعة سفن قوية وضخمة، من خلال تشييد العديد من الترسانات الجديدة لبناء السفن. وفي الوقت نفسه، بدأ بتنفيذ عملية إصلاح شاملة في الأسطول، وأعدَّ الخطط المستقبلية لغزو أراضٍ في المحيط الهندي، وشمال أفريقيا، والمدن الأوروبية التي تطل على البحر المتوسط. استطاع "محمد باشا" تمهيد الطريق لقادته، كي ينفذوا خططه بفضل معرفته، ومهارته الدبلوماسية، وحسن إدارته، وقدرته على إقرار النظام، والحفاظ على التدرج الطبيعي في المجتمع، وبفضل رؤيته الواقعية أيضًا.

وبإعادة بناء الأسطول بعد الهزيمة، نجح "محمد باشا" في تنشيط الدولة بأكملها. كان على جميع الطبقات وعلى النقاط الإستراتيجية أن تستجيب للمراسيم التي يصدرها. ربما لم يكن عليه أن يجعل الجميع يلعبون دورًا معينًا في عملية الإصلاح هذه، لكنَّ هذه الجلبة التي أحدثها الوزير بالدولة كانت مقصودة، لكي يرفع الروح المعنوية للشعب على قدر اتساع عملية الإصلاح، ولكي يحذر أعداءه خارج الدولة أن الإمبراطورية التركية لم تهتز، وما زال عليهم الاعتداد بها.

كان هذا الوزير يعلم ما الذي يفعله وفقًا لأهداف معينة ويسعى إلى تحقيقها بعقله، أي إنه لم يكن يعمل بعشوائية. قام الدبلوماسي البندقي "مارك أنطونيو باربارو" بزيارة الوزير بعد الهزيمة مباشرة، فقد كان ممن لم يغادروا العاصمة العثمانية على الرغم من الحرب، حتى يستقصي الأخبار ويحاول معرفة ما الذي تنوي عليه الإمبراطورية. استقبله "محمد باشا" - السياسي ذو الخبرة - ببشاشةٍ، ولكن في الوقت نفسه في جو ساخر قائلًا: "أتيت لترى إن كنَّا فقدنا شجاعتنا بعد الهزيمة؟!". ثم أكمل مفاجئًا الدبلوماسي بعقده مقارنة: "هناك اختلاف كبير بين خسارتكم وخسارتنا. باستيلائنا على مملكة

قبرص، قطعنا أيديكم. أما بضربكم أسطولنا، فلم تفعلوا سوى أن أشعلتم النار في مواقدنا". وقد كان على حق.

وعندما قال لي "باموك" هذه الحقائق، قلت له:

- لكنَّ الصدر الأعظم كان يعامل شعبه أيضًا بالطريقة نفسها. عندما بدأ القبطان "ديريا" - الذي تم تعيينه حديثًا مساعدًا رئيسيًّا للصدر الأعظم في إعادة بناء الأسطول، والذي كان يتطلع بشغف إلى تأسيس أسطول عظيم، ثم إنه أيضًا محترف في هذا المجال - بالشك حول إمكانية نجاح خطط الوزير، دار الحوار بينهما كما يقول أحد المؤرخين كالتالي:

قال "كيليج علي": "حتى إن كان من السهل بناء السفن في هذه المدة القصيرة، فإنه من المستحيل تجهيزها بالحبال والمراسي وباقي المعدات". فردَّ عليه "محمد باشا" قائلًا: "إن قوة أسطولنا العظيم وثروته تجعلانه قادرًا - إذا لزم الأمر - على صنع مراسي من الفضة، وحبال من خيوط الحرير، وأشرعة من الساتان والمخمل. فقط أخبرني إن احتجت إلى أي شيء لأي سفينة، ستجد ما تطلبه حاضرًا". وبقوله هذه الكلمات، ركع الأميرال على ركبتيه أمام الوزير، ثم سجد على الأرض قائلًا: "كنت أعلم أنك الوحيد القادر على إعادة بناء هذا الأسطول".

واستنتجنا أنا و"باموك" أن هذا مثالًا حقيقيًّا لقصة تُعَلِمُنا درسًا، إذ سمح كلا الطرفين لضعفهما أن يسيطر عليهما: الأتراك قبل المعركة، والأوربيون بعدها. وقد دفع كل منهما ثمن هذا الضعف فيما ترتب عليه من نتائج يسردها التاريخ. فما زال عليهما أن يدفعا الثمن، بصرف النظر عن مدى مهارتهما، وسرعتهما التي تستحق الثناء في إخفاء، وتخفيف، وتفادي هذه العواقب التي ترتبت على الهزيمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع

أثبت تقدم الجيش العثماني في حروبه أن كلام الصدر الأعظم كان صائبًا. واتضح أن وحدة المساعدة التي ظن بعضهم أنها بلا أهمية تُذْكَر من أكثر الوحدات فعالية في الحرب، وأن الجيش لم يكن ليحرز أي تقدم لولاها. ففي الكثير من الأحيان، كان عليهم أن يخوضوا في مستنقع أو أن يعبروا نهرًا ما، أو أن يعززوا سدًّا، أو أن يشيدوا أسوارًا من العدم، أو أن يرمموا ويدعموا الأسوار الموجودة، كما كان عليهم التعامل مع الخنادق أحيانًا، إما بحفرها وإما بردمها. ودون الاختراعات المتنوعة والحلول السريعة التي كانت تأتي بها هذه الوحدة، ما كان الجيش ليستطيع أن يتخطى حاجزًا، أو أن يضع سورًا ليكمل مسيرته. كانت معهم كل أنواع الأجهزة وأحجامها، والأدوات والسلالم والمدافع والأسلحة ذاتية التعبئة، بالإضافة إلى ذخيرة من الحجارة، وكرات الحديد والمواد المشتعلة، وعربات غريبة، وكباش لضرب أبواب الحصون، وتشكيلة أخرى من الأسلحة التي لم يسمع عنها "باجيكا" من قبل، هذا غير أنه لم يكن يعرف فيما أو كيف تستخدم. وعلاوةً على ذلك، فقد أبدى جنود هذه الفرقة شجاعة لا توصف. فقد كان عليهم في معظم الأحيان أن يتقدموا الجيش، وفي بعض الأحيان كان عليهم تغطية مؤخرة الجيش إذا تقهقر. بالطبع لم يكونوا بمفردهم، فقد كانت تحميهم باقي الفرق، ولكن أولئك "المفكرون" كانوا يتتبعون العدو بشجاعة وحماس متساويين.
وقد كان هذا أول انطباع كَوَّنَهُ "باجيكا" عن "سنان" الذي كان منهمكًا في جمع المعلومات من المتدربين والحرفيين، وفي الإتيان بأفكار جديدة ومحاولة تطبيقها إذا أمكن، وفي الوقت نفسه اندفع أكثر من مرة إلى أرض المعركة، ليدافع عن رفاقه، أو ليحمي اختراعاتهم. وعند الحاجة، فهو سريع البديهة وحسن التصرف، ولكنه كان لطيفًا وهادئًا في حواره مع "محمد" وقت الراحة. سأله "محمد" عن ذكرياته منذ خمس سنوات عن بلجراد، وعن خططه، وعن موطنه، وعائلته، وخلفيته. كان يعجبه اتزان "سنان"، لأنه كان يفتقر إلى هذه الصفة (ليس فقط لأنه كان أصغر منه بكثير) وكان لدى "سنان" تفسير لهذا الثبات، فقد أتى من قرية تتبع بأكملها المذهب الأرثوذكسي اليوناني، ولكنها محاطة بالشعب العثماني، حيث كانت تقع في منطقة الأناضول. فعلى الرغم من أنه وُلِد بهذه الأرض، فإنه لم يفلح في الهرب من المصير نفسه الذي كان مُقَدَّرًا لـ"باجيكا" الذي أحضروه من الأراضي التي فتحوها. فعلى الرغم من أن موطنه الأصلي يقع في الدولة العثمانية، أي يقع في الإمبراطورية نفسها، فإن هذا لم يمنعهم من أخذه بالقوة كما فعلوا من الأطفال من المقاطعات الأخرى. فالحكم يصدر بناءً على العِرق الذي ينتمي إليه الفرد، وليس الأرض التي يعيش عليها، حتى هذا المعيار لم يكن ينطبق على الجميع.
في لحظة معينة، اعتقد "سنان" أنه كاد يعتمد في تقييمه لـ"محمد" على معيار العِرق والديانة السابقة، ولكنه سرعان ما عدل عن ذلك. وبالطبع كان هذا أحد العوامل التي جعلت صداقتهما ممكنة، لكن لم يكن هذا هو السبب الرئيس الذي أدى إلى ذلك. وفي كل الأحوال، لقد أحب الصراحة والاهتمام وسلامة النية التي أبداها "باجيكا" تجاهه منذ التقيا. وقد كانت نظرة "باجيكا" لـ"سنان" مبررة، فقد وجد أخيرًا وسط فوضى الحرب التي حوله شخصًا لديه خبرة في الحرب، والخوف، والحزن، ولكن أيضًا خبيرًا في القضايا الخاصة بعدم التناغم بين البعدين الروحاني والجسدي. لذلك كان من الطبيعي أن يلتصق شاب مضطرب ولا يشعر بالأمان مثل "باجيكا" بِرَجُلٍ مثل "سنان". كان واضحًا

لـ"سنان" أن هذا الاضطراب ناتج عن الفوضى التي أحدثها الغزو، وأنه ليس من صفات "باجيكا" عندما يكون في حالاته الطبيعية. والحرب هي واحدة من الأشياء التي تكتسب وجودها من ضجيج الأصوات؛ ودوي المدافع والمسدسات، وأصوات تقطيع الأشجار واللحوم بنصال حادة، ومن صيحات المعركة، ونحيب الموت، وقعقعة حوافر الخيول، وضرب الطبول، ونوتات المزامير اللطيفة، ومن أصوات الأبواق النحاسية التي تكاد تكون لحنًا، وأصوات أوامر القادة، ومناجاة الله سرًّا. كل هذا ممزوج بأصوات الطبيعة المحيطة بهم؛ صوت هطول المطر، والعواصف الرعدية، وطقطقة النار المشتعلة بمعسكرٍ ما، وزئير النيران التي تجتاح المكان، واهتزاز الكباري والسفن عبر فيضانات الأنهار، وأمواج البحَار. فقط الهزيمة تُخْرِس تلك الأصوات، والنصر يرفعها عاليًا في تناغم.

ولكن لا يمكن للأصوات أن تكون العامل الذي يحكم الصداقة.

لا يمكن الوصول إلى سر الانجذاب بين الأشخاص.

بازدياد الاقتراب من "سنان"، بدأ "باجيكا" يتغلب على الصعوبات التي سببها له الغزو. ثم إنه قابل المزيد من الأشخاص الذين مرُّوا من قبل بالقَدَرِ نفسه الذي يعايشه هو الآن، وقد نجحوا في التغلب على الصعاب التي واجهتهم بتأدية واجباتهم، لدرَجة أنه يظن الآن عندما يراهم أنهم ينعمون بحالة من السلم الداخلي. وفي مسيرهم إلى مدينة "أوسييك" بكرواتيا، رأى مئات، إن لم يكن آلافًا من العساكر، مثل "الخراجيين" والجنود اليونانيون الذين انضموا للجيش العثماني وقد كان لوجودهم تأثيرًا مريحًا على نفسه. بدت أمور الحكومة في ظل وجود "الخراجيين" مستقرة تمامًا، على الرغم من أنها تتكون من وحدات عسكرية تم تشكيلها من أخلاط من السكان المحليين للمقاطعات الحدودية للإمبراطورية العثمانية. وكلهم مسيحيون منهم الحِرفيون، ومنهم البناؤون، ومنهم النجارون والحدادون، وقد كانوا الأكثر أهمية، لا غنى عنهم. أما الآخرون فقد كانوا في خطوط الدعم. لكن معًا استطاعوا الحفاظ على الجيش. بالإضافة إلى ذلك، قام سكان القرى المحيطة بالعمل، ولكن كان الجنود العثمانيون أيضًا يساعدونهم وقت اللزوم. وقد شملت معظم الأعمال بناء الحصون، والكباري، والطرق، وإصلاحها، بالإضافة إلى تقطيع الأشجار، وتنظيف المستنقعات، وحفر الخنادق، ونقل المعدات والإمدادات العسكرية. أعطى الأتراكُ الخراجيين المال مقابل العمل الذي قاموا به، كما أعفوهم من الضرائب، على الرغم من أنهم أحضروهم للعمل بالأمر، وبالأحرى بالقوة. وقد لَفَتَ انتباه "باجيكا" أن هناك العديد ممن يتحدثون الصربية دون حذر أو خوف من أن يسمعهم أحد، فتعجب من هذا.

وقد ارتاح قليلًا عندما قابل عددًا من القادة العسكريين، الذين وجد أن بعضهم قد احتفظوا بأسمائهم الصربية وديانتهم وكل ما يتصل بها من صفات، وبعضهم اعتنق دينًا آخر. فمثلًا كان قائد الأسطول النهري "بيتر أوفشاريفيتش" هو أحد قادة الوحدات المسيحية من أصول يونانية، والتي تُركت بالخلف لإدارة الأماكن الإستراتيجية التي تم فتحها، مثل الحصون، والكباري، والممرات، وتقاطعات الطرق الهامة. وقد ترك انطباعًا قويًّا لدى "باجيكا" بنهجه في الحياة، وشجاعته، وعزيمته القوية. كان "باجيكا" على علم بما فعله "بيتر أوفشاريفيتش" في الدفاع عن بلجراد ضد الأتراك عام 1521، إذ قرر الانسحاب عندما أدرك أنه لا أمل لهم بالفوز. ولكن بعد ذلك تَسَلَّم دعوة من عدوه السابق، إذ أرسل إليه السلطان بنفسه طلبًا بأن يجمع ما تبقى من أسطوله النهري، وأن ينضم إلى جيش السلطان "سليمان"، وأنه سيكون قائدهم. وقبل أن يشترك في هذه المعركة بخمس سنوات، كرَّمه السلطان بإرسال دعوة وإذنٍ له لينتقل إلى بلجراد بأسطوله النهري، ثم إنه أطلق على ذلك الجزء من المدينة

التي استقروا بها "محلة أوفشار أوغلو"، أو مقاطعة "أوفشار أوغلو"، تيمنًا باسمه. وضّح "أوفشاريفيتش" لـ"باجيكا" و"سنان" أنه كان معذورًا كليًّا في خضوعه، ولم يتردد في ذلك لحظة. لقد تم تكليفه في مقابل المال والامتيازات، بالإضافة إلى الحفاظ على خلفيته الصربية، ودينه، واسمه. وقد لعب دورًا - كما قال - "في حماية بلجراد التي من الممكن أن تكون محاصرة الآن، ولكن هذا الوضع لن يدوم كثيرًا، ولسوف تظل بلجراد صربية". وقد فسر "باجيكا" جرأته في التعبير على أنها شجاعة البحَّار. ربما ضحك السلطان والصدر الأعظم مما قال، ولكنهما لم يتجادلا في أن من حقه أن يفكر بهذه الطريقة. وعلاوة على ذلك، فقد أعجبا بشجاعته التي كان يثبتها يومًا بعد يوم، والتي كانت أكثر أهمية من خطاباته تلك. وعلى كلٍّ، فهو يتبعه آلاف الصرب الذين كرَّسوا نفسهم لخدمة الدولة العثمانية. ولم يشكل فارقًا إذا كان هذا مجرد فطنة مؤقتة، أو إن كان هذا ناتجًا عن عدة حسابات معينة. وقد كان رجلًا يبرُّ قَسَمه للإمبراطورية ويحفظ كلمته، ولذلك كانوا يحترمون كل ما يقول، لأن لكلمته وزنًا.
هنا أيضًا قابل "باجيكا" "بالي بِك" و"أحمد بِك" و"غازي محمد باشا" أبناء "يحيى باشا" من عائلة "يحيى باشيش" الشهيرة. كان معروفًا عن ثلاثتهم أنهم محاربون أشدَّاء مثل أسلافهم الذين فعلوا مثل "أوفشاريفيتش"، إذ لم يفتحوا قضية أصولهم مرة أخرى، لكن هؤلاء الثلاثة فعلوا ذلك لأنهم اعتنقوا دينًا جديدًا، ومن ثَمَّ لم يعودوا يرغبون في الحديث عن دينهم القديم. لذلك لم يكن لدى "باجيكا" شيء يتناقش معهم حوله. كانوا من الغزاة الذين يطيعون أوامر أسيادهم طاعة عمياء، وكانوا يُلقون في نفوس أعدائهم الرعب، فيستولون على الإقطاعيات بشجاعتهم الجنونية ووحشيتهم. انتصروا دون خجل، وأحبوا المعارك، وكانوا خطرين. ومن ناحية أخرى، فكر "باجيكا"، فعلى الرغم من اختلاف أصولهم أو تشابهها في نظرتهم لحياتهم وحياة الآخرين، أو في آرائهم بخصوص العدالة، أو ضمائرهم، أو اختلافهم بخصوص أي شيء، فإنهم جميعًا يعملون معًا لخدمة الإمبراطورية العثمانية. هنا تتلاشى الاختلافات، حتى إن ظهرت هنا أو هناك، فإنها بلا قيمة. وها هي ذكرياته من أيام المدرسة في "أدرنة" تمر أمام عينيه. الكل تابع لكيانٍ واحد.
ذلك الكيان هو الإمبراطورية التي بلغت حدًّا استثنائيًّا من القوة، لدرجة أنها بمفردها قادرة على إصابة العدو بالشلل من الرعب. فالأعداء الذين لم يخسروا بعد بأرض المعركة كان الخوف يتملكهم، والشعوب التي هُزمت بالفعل رؤوا أن ذلك القمع لن يتغير إلى الأبد. بدا الوضع كما لو كان هكذا على الدوام، وكأنه سيظل هكذا أيضًا إلى ما لا نهاية. كان من المستحيل تصور وجود قوة بإمكانها التغلب على مثل هذه القوة. اعتقد الأفراد أن لديهم حلًّا من اثنين: إما أن يدخلوا معهم في معاهدة سلام لينصهروا في هذا العالم المثالي، وإما أن يقاوموا بعقولهم وقلوبهم وبكل ما لهم عليه سلطان بداخلهم. ومع ذلك لم يأتهم ذلك الحل الثاني بالحرية، بل على العكس حوَّل حياتهم إلى جحيم، فقد أصبح كل ما حولهم كئيبًا، بسبب فقدانهم الأمل في احتمالية تغير هذا الوضع، وسادت حياتهم الكآبة واللامبالاة. كان من الصعب على شعب مهزوم وفاقد الأمل أن يجد مخرجًا من هذا الوضع، وخصوصًا أن هذا المصير سيدوم إلى الأبد. ومع هذا، باستماعه إلى العديد ممن شاركوا في هذا الغزو، استطاع "باجيكا" أن يلمح أول شرخ مخفي في جدار تلك الإمبراطورية التي لا تقهر. السبب الرسمي وراء إرسال السلطان مثل هذا الجيش الجرار كانت الأحداث المستجدة مع المجر. ولكن السبب الحقيقي كان تمرد الإنكشاريين في إسطنبول العام الماضي. كان السلطان والصدر الأعظم غاية في الخوف من نخبة قواتهم وأكثرهم ولاءً، فأصبح من المفهوم الآن أن أمن الإمبراطورية يعتمد على إرضاء

هؤلاء الجنود. ولاؤهم وتفانيهم في العمل هو ما يستقيم به صُلب كل شيء في الدولة العثمانية. وفي الحالتين، سواء في حرب مع أو ضد الإمبراطورية، فهم يشكلون خطرًا محدقًا. وإذا كانوا سينتفضون ضد الحاكم، فعليه تهدئتهم بأقصى سرعة. ثم بعد ذلك، يتم التعامل مع قادتهم فرادى، لأنه لا يمكن لأحد أن يعارضهم أثناء التمرد. ثم بعد ذلك تجدهم لا يُقهرون بأرض المعركة عندما يحاربون في مصلحة السلطان، ولذلك بفضل شجاعتهم العظيمة، وبالإضافة إلى كرم السلطان معهم، عادةً ما تتم مكافأتهم بالسماح لهم بالنهب. بدء السلطان معركة جديدة كان كافيًا ليهدئ الإنكشاريين الغاضبين، ويحوِّل غضبهم وعداءهم تجاه العدو.

وقد شهد "باجيكا" اضطرابه واضطراب كل ما حوله. وارتاح عندما أدرك أن مشكلة الازدواجية هي مشكلة يعيشها كل الشعب الصربي، على الرغم من فظاعة هذه الفكرة. فمن ناحية، رأى البحارة الصرب يقاتلون في صفوف الأتراك، ومن ناحية أخرى رأى أيضًا أشقاءهم في الوطن يدافعون عن بلجراد في صفوف جيش المجر. فشعب كالشعب الصربي الذي يعيش ببلد ليس به دولة بالمعنى المعروف، وموطنهم بات ممرًّا مفتوحًا للآخرين، وأصبح منهوبًا ومحكومًا بغيرهم، لم يعد أمامهم سوى أن يتخذوا قرارات فردية، أو في جماعات، أو بأي طريقة أخرى. ومن هنا جاءهم شعور أن عليهم أن ينقسموا ويختاروا الجانب الذي يريدونه وفقًا لمصالحهم الشخصية، وترتب على ذلك عدم اتزانهم، وعدم استقرارهم الدائم على المستوى الفردي والكلي. وقد رأى الحكام الأتراك والمجريون أن هذه مشكلة خطيرة، ولكنهم لم يحاولوا حلها، لأن قسمة الصرب كانت في مصلحتهم. فقد كان أسهل عليهم أن يحكموهم بهذا الشكل. الوقت الوحيد الذي يكونون فيه حذرين قلبًا وقالبًا عندما يلتقي الصرب الذين في صفهم مع بعضهم بعضًا، خوفًا من أن ينشب بينهما صراع لا قدر الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8

عجيب أمر الخيال، كيف له أن يستحضر الحياة بهذه الحيوية؟ قبل أن أكتب هذه الجملة بأقل من شهر، وقبل بضع صفحات من هذه الصفحة، وتحديدًا في الفصل السابع من مخطوطتي هذه، شبهت تصرفنا أنا و"أورهان باموك" "بلعب الأطفال ببطاقات لاعبي كرة القدم". قلتُ هذا، بسبب تفاخرنا بمعرفتنا الكثير من المعلومات التفصيلية عن ماضينا التركي الصربي المشترك. في ذلك الوقت، بدا ذلك التشبيه مناسبًا لشرح الموقف، فقد تذكرت حينها طفولتي بنهاية الستينيات، عندما كنت ألعب في شوارع بلجراد المرصوفة بالحجارة، وقد كنت فقيرًا في ذلك النصف من طفولتي. في ذلك الوقت، بدأت يوغوسلافيا تنتفض من الفقر الذي سادها نتيجة للشيوعية الكلاسيكية، ودخلت في مرحلة غير مسبوقة تحت قيادة حركة عدم الانحياز واستبدال الرأسمالية بالشيوعية. وكنا حينها - أنا والأطفال الآخرين - نتبادل بطاقات لاعبي كرة القدم المشاهير التي نجمعها، لنضعها بألبومات بطولات العالم لكرة القدم خاصتنا. وبالإضافة إلى تبادل وبيع الكروت لبعضنا بعضًا، كنا نلعب لعبة نسميها "الضربة القاضية"، إذ كان المنتصر يحصل على بطاقات لبعض اللاعبين من خصمه في اللعبة. وقد جعلَنا هذا بشكل ما مشاركين في القصة بأكملها.

وقد كنا نشعر أننا نستحق الجائزة، وأن الفائز حصل عليها بفضل مهارته وقدراته، ليس من قبيل المصادفة أو الحظ. ثم إنني أتذكر أيضًا أننا لم نبع الكروت للآخرين، وأن المال كفِئة محددة لم يُستخدم ولم يُذكر (بصرف النظر عن أن القائد كان يسير بنا جميعًا تجاه العالم المادي). كان كافيًا أن ترسل ألبومًا مكتملًا إلى منظم اليانصيب، وأن تجرب حظك عسى أن تُقرع الطبول لوقوع اختيارك وتفوز بالجائزة.

لماذا أتحدث عن كل هذا الآن؟ لأن المصادفات توقظ داخلي نوعًا غريبًا من الخرافات التي لا أتذكرها ولا أؤمن بها. وفي هذه الحالة، وفي الوقت الذي بين كتابتي للكلمات المقتبسة والتي أكتبها الآن، كنت أتجول مع "باموك" حول ميادين بلجراد المركزية والتي تُعرف باسم "تيرازيجي" (كلمة أخرى بالتركية في اللغة الصربية). قادنا فضولنا الصبياني الذي لا حد له إلى فندق "موسكفا"، وإلى زحام مكوَّن من نحو مائة شاب ناضج وطفل. عندما اقتربنا منهم، وجدناهم يتبادلون بطاقات لاعبي كرة القدم لألبوماتهم قبل بدء بطولة العالم لكرة القدم التي ستقام في يونيو عام 2006 بألمانيا. فاجأني حدسي الذي وصف هذه الظاهرة بدقة منذ عدة أسابيع في مخطوطة في كتاب لم يكتمل بعد، وقد كانت هذه هي المرة الأولى التي أتحدث فيها عن هذه البطاقات منذ كنت طفلًا. ومن بين كل الناس، كنتُ و"باموك" أبطال هذه القصة. فأخبرته عن هذا. وبدلًا من أن يردَّ عليَّ، كان رد فعله أكثر مفاجأة؛ وجدته منغمسًا مع الناس وبطاقات لاعبي الكرة خاصتهم. استحوذ عليه الموقف كليًّا، وبالكاد استطعت إخراجه من بينهم.

أراهن أنه عاد إلى هناك بعد أن تركته بسبب المطر المفاجئ، حيث يمكنه الجلوس في مطعم ذلك الفندق ذي الحوائط الزجاجية، وتسجيل انطباعاته، ويمكنه أيضًا أن يرسم في دفتره الأزرق كل ما رآه في "الحياة الحقيقية" أو كل ما تخيله. ثم بعد ذلك، أنا أيضًا عدت إلى هناك، فاكتشفت أنه - حتى في وقتنا هذا، في عالم الأطفال ذاك - "لا مجال للمال" (سواء من وجهة نظر البالغين أو الأطفال). الفرق الوحيد هو أنني اكتشفت أنه لا جوائز حتى للألبومات المكتملة. حتى البالغين قد خالت عليهم

هذه اللعبة وصدقوها، يبدو أنها إحدى حالات الحنين إلى الطفولة. سيكون جيدًا إذا كان السبب وراء كل هذا هو تقديم مستوى جديد من السذاجة في اللعبة. فالبالغون هنا لم يأتوا فقط ليصطحبوا الأولاد الصغار، ولكنهم كانوا يلعبون معهم على حدٍّ سواء.

لم يسمعوا من قبل عن لعبة "الضربة القاضية".

ربما كان يحدث كل هذا بميدان "تيرازيجي" ([11]) لسبب ما وليس من باب المصادفة. أنا متأكد أنني سأجد في مفكرة "باموك" بعض الملاحظات عن هذا التبادل الساذج، وعن إقامة التوازن (بين المشاركين الأطفال والكبار، وبين الفيض في عدد البطاقات أو النقص فيها). إذا كان لديَّ ولو جزء ضئيل جدًّا من موهبة "باموك" في الرسم، كنت سأواجه معضلة في الإدلاء بهذه الشهادة رغم بساطتها؛ أيهما أفضل في التعبير، الكتابة أم الرسم؟

واضح جدًّا مما أقول أنني لم أكن يومًا خبيرًا أو مشجعًا كرويًّا. ولكنني كنت مهتمًّا بها كما أفعل مع أي ظاهرة أخرى، أنجذب إلى غرابة النتائج والروابط المترتبة عليها. وعلى كلٍّ، فهذه الأشياء هي ما تجعل العالم مكانًا مثيرًا. شاهدت مؤخرًا فيلمًا بعنوان "الكأس" أو The Cup للمخرجة "خينتسه نوربو"، حيث قدم الفيلم مزيجًا رائعًا من الفن التبتي، وتقنية الأفلام الغربية الأوروبية، هذا بالإضافة إلى الإنتاج الضخم. تجري الأحداث في مكان بعيد عن عالمنا الحديث بشكل لا يوصف، نرى كهنة "التبت" البوذيين ونسمعهم ينشدون تراتيلهم التي ما زالوا يرددونها كما كان يفعل أسلافهم منذ ألف عام. يصور الفيلم سذاجتهم الطفولية وهم ينظمون مشاهدتهم البث التليفزيوني لبطولات العالم لكرة القدم داخل جدران ديرهم، على الرغم من أن معتقداتهم ليس لها أي اهتمام بالكرة. في الواقع، أظهر الربط غير المنطقي بين الأشياء - التي لا تربطها أي صلة في هذا الفيلم - من خلال حس الفكاهة الجامحة كيف أن الإنسان هو حلقة الوصل بين كل ما في هذا العالم، ومن ثَمَّ يصبح كل شيء بشريًّا، وخصوصًا ما يستحيل حدوثه. قام تلاميذ وأساتذة تبتيون بتمثيل هذا الفيلم بأنفسهم تحت أسماء وألقاب، مثل "نيتين تشوكلينج"، و"لاما جودهي"، و"جاميانج لودرو".. مرةً أخرى يجتمع الأطفال والكبار.

زارني أحد أصدقائي بعد استمتاعي بمشاهدة هذا الفيلم بمدة قصيرة، وهذا بعد أن قضى عامًا بأكمله من حياته مع هؤلاء "الأبطال الكرويين" الذين ينتمون إلى قمة العالم. فقال (بطريقةٍ جعلته يبدو كما لو كان طفلًا حقيقيًّا):

- إنهم بالضبط كما هم في الفيلم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن

في لحظة معينة، بدا الأمر كما لو كان باستطاعته أن يفهم تطرف سلوك أولئك الذين يغيرون دينهم، وأنه يستطيع فهم أبعاد الشخصية المزدوجة لمَن لم يفعلوا ذلك بعد.
فالإنكشارية يمثلون النوع الأول، تم استخدامهم بلا رحمة كما لو لم تكن لهم جذور، أو عائلات، أو أي سبب، أو هدف يريدون العيش لتحقيقه. تم محو كل شيء من حياتهم، حتى يصبح هدفهم ودافعهم الأوحد في الحياة هو خدمة السلطان. وهم يتصرفون على مستوى تلك التربية رفيعة المستوى التي تلقوها. وبصرف النظر عن الخطط التي كان القادة يضعونها، كانوا دائمًا ما يخترقون كل الحواجز بشجاعة، والتي أصبحت مضربًا للمثل، ويتقدمون الجيش إلى أرض المعركة، حيث يلقون حتفهم في معظم الأحيان. وعلى صعيد آخر، كان هذا الاندفاع أيضًا سببًا في إنقاذهم في معظم الأحيان، فما إن يراهم العدو حتى يعلن استسلامه من خلال انسحاب إستراتيجي من أرض المعركة، أو بالفرار جريًا وهربًا لإنقاذ حياتهم، وهو ما يحدث عادةً. وفي مثل هذه الحالة يكون السبب في نجاتهم من عواقب جنونهم هو الله، أو إلههم السابق، أو كليهما معًا. وهذا هو السبب في أنهم خارجون عن السيطرة، حتى في انتصاراتهم. كانوا يستغلون السمعة المنتشرة في كل مكان عن انعدام الخوف لديهم، لينهبوا ويغتصبوا، ويعذبوا، ويقتلوا عن عمد وحسب رغبتهم، ولا يمتنعون عن ذلك إلا لو منعهم السلطان أو الصدر الأعظم. لم يفعلوا ذلك فقط ليثبتوا تعطشهم للدماء، ولكنهم بذلك كانوا يقدمون مثالًا تخطى الخيال في الولاء والإخلاص. وإذا لم ينلهم شيء من الغنائم، خرجوا عن السيطرة مرة أخرى، وثاروا على قائدهم وحاكمهم بالدرجة نفسها من الوقاحة، وقد كان هذا يزعج السلطان الذي كان يبعث إليهم الصدر الأعظم ليسكتهم. وفي بعض الأحيان، لم يكونوا يلقون إليه بالًا، بل وكانوا يطيحون به، حتى إن الأمر وصل بهم إلى قتل عدد ممن تقلدوا منصب الصدر الأعظم. ومع ذلك، وعندما يتم إرضاؤهم بالمال، أو الذهب، أو أي شيء من هذا القبيل، تعود سيرتهم الأولى، ويصبحون كما كانوا متعصبين في طاعتهم لسيدهم، وكأن شيئًا لم يكن.
فسَّر "باجيكا" هذا التصرف على أنه ضرب من الجنون، لأنه لا يمكن تفسيره منطقيًّا. فثوراتهم كانت عنيفة وسريعة وقمة في الخطورة. وبمجرد تلبية مطالبهم ومعاقبة قادتهم، تنتهي الانتفاضة بسرعة وإصرار متساويين مع السرعة التي تم بها التمرد. وهذه التغيرات المفاجئة وضعت الحكام تحت ضغط مستمر. يُقال إن هذا الضغط والتوتر الذي عاشه الحكام كان عدلًا. إذا كان هذا الولاء المشكوك فيه مطلوبًا، كان على الحكام التهيؤ للمخاطر العرضية التي ينطوي عليها هذا الولاء.
على الرغم من أن هذا السلوك الذي انتشر بين الإنكشاريين كان بسبب الارتداد عن دينهم الأصلي وتغييره، فإنه بدا لـ"باجيكا" أن هناك سببًا آخر. وعلى كل، بمرور الوقت، أصبح هؤلاء الرجال أسطورة حية. ووفقًا للمعايير العسكرية، جعلتهم تلك الأسطورة نخبة فرق الجيش التي لا مثيل لها، لا في جيش السلطان، ولا في أي جيش آخر.
إذا اشتعل في قلوبهم حنينهم إلى عقيدتهم القديمة تحت شعلة إيمانهم الجديد، فمن الأحرى أن يظهر هذا على الآغوات، والبهوات، والباشوات، وبقية القادة الذين اعتنقوا الدين الجديد. ولكي يتقدموا بسهولة وسرعة قدر الإمكان ودون إثارة للشك، أصبح الكثير منهم عبادًا حقيقيين لله أكثر من العثمانيين أنفسهم. وقد عدَّ "باجيكا" "يحيى باشا" وأولاده الثلاثة من هذا النوع. كانوا دائمًا غاضبين

على الكفرة، حتى إنه كان دائمًا يقوم أحد الوزراء بتهدئتهم، وبمطالبتهم بأن يفكروا مليًّا قبل أن يتدخلوا في حياة الآخرين.
ولكن الأمر كان أكثر تعقيدًا مع أولئك الذين ظلوا منقسمين في ولائهم.
كان الموت هو الخيار الأسهل. ويمكن لأيٍّ من الكفرة أن ينعم بهذه الرفاهية فقط بإبدائه الفوري، والواضح، والتام برفضه اعتناق العقيدة الجديدة. ومع ذلك، لم يكن هذا كافيًا لنيل الحكم بالموت. لم يتصور العثمانيون احتمالية معارضة أفكارهم، ومع ذلك، لم يُجبِروا أحدًا على اعتناق دينهم، إلا مَن تم اختيارهم تحت نظام "الدوشيرمة". الموت يأتي فقط إن صوَّب أحدهم سلاحه نحوهم.
إلى حدٍّ ما، كان من الصعب على الفرد عدم تقبل الإسلام والبقاء على عقيدته. ولكنَّ الأصعب كان أن ينتمي إلى عقيدة ما، وأن يحارب في صف عقيدة الآخرين. ربما يبدو هذا طمعًا من وجهة نظر بعضهم. لكن ما الخيارات الأخرى المتاحة؟ هل أصبح البقاء على قيد الحياة شيئًا غير عادي؟ مُخْجِلًا؟ هل على المرء الموت حتى يصبح له شأن؟ هل عليه أن يمحو أمة بأكملها كي يستمر في الإنجاب؟ وكيف السبيل إلى ذلك؟
كانت هذه الأسئلة تشكِّل عبئًا على روحه. لم يجد يومًا مَن طرح هذه الأسئلة صراحةً، فضلًا عن إجاباتها. ولذلك كل ما استطاع أن يفعله هو أن يجمع بعض الإجابات ممن حوله. وكما كان شعبه منقسمًا إلى نصفين، لا يدافع عنهم أحد من الكيانات الأجنبية المسيطرة عليهم، فقد انقسم كل فرد إلى نصفين أيضًا، دون أن يعبِّر عن أيٍّ مما يمر به. وربما لم يتخذ بعض أشقائه بالوطن هذا القرار بعد. ولكن هذا القرار كان به فخ؛ عند صنع هذا القرار، من المستحيل أن يبقى الفرد صادقًا مع نفسه، ومع نفسه فقط.
لحسن الحظ أن هذه الأسئلة التي ليست لها إجابة وردت على ذهن "باجيكا" وهو وسط حملة عسكرية، إذ عليه أن ينهي جلد الذات هذا لينغمس في تفاصيل اليوم وأحداثه.
لم يدم الصراع بين الجيشين في ميدان معركة "موهاكس"([12]) - والتي دارت على أرض من المستنقعات - سوى ساعتين، وذلك لأن جنود الجيش المجري كانوا مدرعين بملابس ثقيلة قيدت حركتهم، ولم تجعلهم قادرين على المناورة ضد المدافع العثمانية. تشتت المجريون بالمدفعية، حتى إن العدو لم يحتج إلى إشراك سلاحي الفرسان والمشاة. غرز المجريُّون بالطين، حتى إنهم أصبحوا كالبط في المستنقعات. قُتِل الملك "لويس" أو "لايوش الثاني"([13]) أثناء فراره من المعركة، ومن ثَمَّ أصبح الطريق أمامهم مفتوحًا إلى بودابست. وقد رأى "باجيكا" في هذا الطريق كل إمكانيات وقدرات صديقه الجديد. كان "سنان" يجد الحلول بكل سهولة لكل العقبات التي كانت تفاجئهم. كان يفعل هذا بكل سرعة ودون إحداث جلبة كبيرة أو التحدث كثيرًا، يقوم بإنجاز المهمة ثم يمضي قُدُمًا، وكأن شيئًا لم يكن، ثم بعد ذلك يشرع في حل المشكلة التي تليها. قال لـ"باجيكا" في لحظة ما بعد المعركة:
- لقد شهدت انتصارين في مثل هذا اليوم خلال الخمس سنوات الماضية: الأول كان منذ خمسة أعوام في التاسع والعشرين من شهر أغسطس في بلجراد عام 1521، والثاني هو انتصار اليوم في "موهاكس".
لقد رأى هذا عندما قام السلطان والوزير بتكليف "سنان" بأن يقود عمليات الإصلاح باستقلالية تامة. فهو لم يُثبت ذكاءه في حل كل أنواع المشاكل التقنية فقط، بل أظهر تميزًا في التواصل مع الحرفيين

والبنّائين من خلال تعامله معهم باحترام في أوامره لهم، ومن ثمَّ يستطيع تنفيذ كل المهمات المسندة إليه بكفاءة، لأن الجميع كان يشارك في كل مراحل العمل بسعادة وإخلاص. فإجمالًا، كانت لديه كل المقومات والمهارات التنظيمية، فكونه جنديًّا كان يعرف كيف يقيِّم الموقف ليعطي أوامر دقيقة وصحيحة في الوقت المناسب، وكونه مهندسًا أظهر معرفة لا مثيل لها، وكونه مشرفًا وقائدًا اتضحت مراعاته لمَن يعملون تحت إشرافه. وأسلوبه هذا ليس معتادًا في نظام السلطان والصدر الأعظم، ولكنهما كانا يتركانه يفعل ما يحلو له في إدارة الأمور الموكول إليها، لأنه كان ذا فائدة عظيمة لهم.
فعلى سبيل المثال، لم تكن لدى "سنان" أي مشكلة في إصدار الأمر بالعمل فورًا على إصلاح وتجديد مقاطعة "أوسييك" بعد أن تم تدميرها بالكامل في طريقهم إلى "بوديم". أتم مجموعة من الآغوات والحرفيين العمل الذي كلفهم به وفقًا لتخطيطه، على الرغم من أنه غادر، إذ كلَّفوا السكان ليبدؤوا بمساعدتهم في عملية البناء، وكل هذا وفقًا لما خططه "سنان". حتى الأماكن التي تم إنشاؤها حديثًا أنشئت بالسرعة والإصرار نفسيهما اللذين أعيد بهما بناء المدن التي فتحوها. وقد أدى هذا إلى تحسين صورة العثمانيين بين النبلاء وعامة الناس في هذه البلدان. إن لم يكن احترامًا، فقد خلق "سنان" انطباعًا أنيقًا عن القسوة.
كما قام "باجيكا" بمراقبة سلوك الصدر الأعظم "إبراهيم باشا". كان دائمًا يتظاهر بأن "سنان" يفاجئه، على الرغم من أنه كان واضحًا أن "إبراهيم باشا" هو مَن دفعه إلى هذه "المفاجأة". ففي الوقت الذي أعطاه مساحة من الحرية نادرًا ما تُعطى لضابط تحت التمرين ومهندس مستقبلي محترف، كان الوزير يبقي كل القادة في الظل ممسكًا زمام الأمور بقبضته؛ أحيانًا يشد وأحيانًا يُرخي. لم يجرؤوا على إرخاء حمايتهم، حتى بعد أن حررهم مثال "يوسف سنان". كان الصدر الأعظم قد لاحظ مهارات "سنان" في الوقت المناسب، ومن هنا حصل على الحق في حمايته، ولذلك كان حريصًا على الدوام أن يثبت "سنان" نفسه من خلال عمله، حتى لا يثير حقد الضباط الآخرين وحنقهم دون داعٍ. وبالطبع لم يكن من الممكن تجنب هذا الحقد بالكامل، ولكن بفضل مهارة وذكاء "إبراهيم باشا"، تم تقليصه إلى مستوى محمود، فقد اختبر الصدر الأعظم بنفسه الآثار المترتبة على الغيرة والحقد، عندما تزوج واحدة من شقيقات السلطان قبل عام من التقائه بـ"سنان"، فاستغل حماية السلطان له، فاستبدل نبل التسامح حتى مع نفسه بنظام القسوة في الحكم. ومع ذلك، كان يحرص على ألا يتم استخلاص أي استنتاجات بأن سلوكه هذا مشتق من القواعد والقوانين، وعلى ألا يتم اتهامه بالضعف لا قدر الله. ولذلك كان على الدوام يسبق الآخرين بخطوات، ودائمًا ما كان يفاجئهم بقرارات غير متوقعة، وأحيانًا تكون في أوقات غير متوقعة.
بعد عشرة أيام من معركة "موهاكس"، دخل جيش السلطان "بوديم" دون أي مقاومة. أقام السلطان هناك مدة، وبعد ذلك أكمل طريقه حتى وصل إلى مدينة "بيست"، ثم أمر معظم الجيش بالعودة إلى الإمبراطورية. وترك خلفه الملك "يانوش زابوليا" الذي تقلَّد الحكم حديثًا ليحكم المجر تابعًا للدولة العثمانية. في الواقع، كان السلطان يعرف أن أتباع "فيرديناند هابسبورج" شقيق "كارلوس الخامس شارلكان"، وأن "ماري هابسبورج" أرملة "لايوش الثاني" لن يقبلوا بهذا القرار. ولذلك كان يعلم أن عليه العودة إلى هذه المنطقة مرة أخرى، وقد تم التخطيط لكل هذا، حتى من قبل المعركة على العرش المجري، لكن العدو لم يكن على علم بذلك.
وعند المرور ببلجراد، حاول "باجيكا" معرفة ما الذي سيذكِّره به حصن بلجراد وما يحيط به، لكنه لم يُفلح، وكأن شيئًا ما كان يربكه ويشتت أفكاره، ربما المياه. ثم بعد ذلك خطرت له فكرة جامحة، هذه

الإطلالة الرائعة ذكرته بشيء لم يره بعد.

ثم افترق مع "سنان" ليذهبوا إلى مكان ما هناك. طلب السلطان من المُدَرَبين والحاشية المستقبلية أن يبقوا معه، أما المهندسون فعليهم التخلف عن الجيش، وإعادة بناء المناطق المدمرة، لتجميل صورة الإمبراطورية قبل مغادرة الجيش. عاد "باجيكا" إلى "أدرنة"، أمَّا "سنان" فقد أكمل طريقه إلى إسطنبول كقائد جيش السلطان المنتصر، لا أكثر ولا أقل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

9

بالنسبة لي، أثارت المحادثة التي دارت بعد ذلك نوعًا من الموازنة والمقارنة بين معركة "ليبانتو" ومعركة "كوسوفو". حتى إن لم يكن هناك وجه حقيقي للشبه بينهما، فقد كانت دافعًا للتفكير بالنتائج المترتبة عليها.

بصرف النظر عن فجاعة الصدمة التي سببتها "ليبانتو" للعثمانيين، إلا أنها لم تكن كافية لتجعلهم يركعون أمام خصمهم. لكنها جعلتهم يدركون أن إمبراطوريتهم ضعيفة، وأن عليهم أن يحذروا من عواقب الغطرسة، وأن هذه الهزيمة كانت ثمن غرورهم. ولكن في المجمل، لم تكن الإمبراطورية في خطر، على الرغم من أنها اهتزت بهذا الخبر. استطاع العثمانيون تأمين دولتهم من خلال القرارات الحكيمة التي اتخذوها والتحلي بالشجاعة من القائمين على الأمر. وقد كانت قوتهم نابعة من موضوعية تفكيرهم، أما الشعور بالضعف، فقد كان فرديًا اختبره أولئك الذين لم يفكروا سوى بأنفسهم. العامل غير الموضوعي كان مجردًا مبنيًا على انطباعات نفسية، وليس على حقائق ملموسة وأرقام حقيقية، ولذلك كان التغلب عليه أصعب. ومن تبنى الفكر غير الموضوعي، كان يميل إلى الاستسلام لا المحاربة، لأن الإحباط الذي انتابه من فقدان الإيمان كان أقوى من أن يدفعه إلى محاولة البدء من جديد. الأكثر أهمية أن العثمانيين لم يجعلوا من "ليبانتو" هزيمة للشهداء.

وعلى عكسهم، عندما هُزِم الصرب في معركة كوسوفو 1389 التي وقعت قبلها بنحو مائتي عام، أخذوا الهزيمة على أنها هَزيمة باسم الشهادة، وذلك لأنهم من بعد ذلك اليوم وقعوا فيما يشبه العبودية، وفقدوا حريتهم الشخصية والجمعية كدولة وكإمبراطورية. حتى فترات التمكين والأمل القصيرة التي كانوا يعايشونها من حين إلى آخر لم تُفلِح في تغيير مصيرهم. ولم يكن لديهم سوى الدين واللغة والكنيسة ليعتمدوا عليها. وقد تخلت عنهم الكنيسة في منتصف الطريق ولم تُكمِل معهم.

ولكن لم تكن هذه هي النهاية. استمر التاريخ في الكشف عن الأحداث، وسحق القدر، ومفاجأة المستقبل.. وبالتأكيد غيَّر الوضع. ومع ذلك، حدث شيء غريب في قصة معركة "كوسوفو".

فبمرور الوقت، فقدت نتائج هذه المعركة الحاسمة كل خصائصها الواضحة التي تعبِّر عن الهزيمة التاريخية المأسوية، واتخذت ملامح الحقائق الواقعية التي لم تكن واضحة قبل ذلك، بالإضافة إلى إلقاء الضوء على كل ما هو ممكن. ولا يُعدُّ هذا تغييرًا للحقائق التاريخية، ولكنه يعبِّر عن الاختلاف في فهم وتناول الحقيقة نفسها من زوايا وجوانب متعددة. ساد التفسير على المعنى الحقيقي واختل نظام الأولويات؛ أصبح المُعْتَدُّ به غير هام، والمهمَّش أصبح جوهريًا أساسيًا. حددت هذه الهزيمة مصير أمة بأكملها لعدة قرون تالية. ومن المشكوك فيه أن تكون الأساطير قد تسللت إلى الأحداث مسبقًا. حدث التغير في فهم الهزيمة بعد ذلك كنوع من الدفاع ضد عدم وجود احتمالية لتغير مسار التاريخ. لكن بمرور الوقت، كيف يمكن للمرء تفسير الرضوخ لهزيمة استمرت قرنين أو ثلاثة من الزمان، وربما أكثر؟ بالطبع كان من الصعب تقبل هذا.

هل كانت "كوسوفو" هي محل ميلاد أفكار الشجاعة والشرف والقتل بالخداع؟ هل حدد كل ذلك المصير المنتظر في القرن العشرين أو غيره؟

هل يمكن للهزيمة أن تتدرج من الانتحار إلى التبعية والخضوع؟ فإن لم تستطع قتل عدوك يمكنك قتل نفسك. إن لم تستطع هزيمته، فعلى الأقل يمكنك هزيمة نفسك.

هل وُلِد اليأس من فهم الأحداث بهذا الشكل؟ وهل حقًا يولد التطرف من مثل هذا اليأس؟
ومن ناحية أخرى، سرد "باموك" مجموعة من الأمثلة من المصادر العثمانية عن معركة "موهاكس"، ليظهر ما كان عليه الأمر عندما يبالغ المنتصر في غروره، عندما انقطع بالصرب الأمل في أن الشمس ستشرق يومًا، أو في وجود فرصة، أو حتى إشارة لمستقبل أفضل بانتظارهم بعد معركة "كوسوفو".
وردَّ في مذكرات الحرب الخاصة بالسلطان "سليمان" أن عدد القتلى في جيش العدو بلغ ألفي قتيل من جنود المشاة، وأربعة آلاف من الفرسان، لكنه بصفته منتصرًا لم يسجل أي أعداد بخصوص خسائره. من المعروف أن هذا اليوم شهد احتفالات، وبالتأكيد شهد أيضًا مقتل الآلاف من أسرى المعركة. تخبر المصادر بأنه أكثر من مائتي ألف شخص ماتوا في المعارك التي تلت معركة "موهاكس"، وتشير مصادر عثمانية أقل مصداقية إلى أن العثمانيين فقدوا نحو خمسة وعشرين أو خمسين ألف رجل خلال هذه الحملة. فقد كانت مذبحة حقيقية، وقد أظهرت كم كانت رغبة العثمانيين قوية في أن يفرضوا سيطرتهم على فيينا بأهميتها الرمزية والإستراتيجية. وفي الحقيقة، كانت كل حملة عسكرية تكرارًا لما قبلها في محاولة الوصول إلى هذه الأمنية صعبة المنال.
وربما لتبرير ضراوة المعركة، وعدد الضحايا، واحتمالية ندم السلطان الذي سمح بقتل الأسرى طوعًا لبعض أوامره، حتى مقتل الأشخاص الآخرين غير الجنود، جاء في بعض سجلات الغزاة التاريخية عن معركة "موهاكس" أن أولئك الذين ماتوا "على جانب العدو" - ثم تلا هذه العبارة فيض من الألقاب والصفات، وكأن النصر وحده لم يكن كافيًا - فجاء تمام العبارة بأن "مَن مات على جانب العدو من أبناء الجحيم والشياطين، أولئك المذنبين المشردين، الخنازير، المنافقين، العنيدين، الكلاب، الكفرة، الأشرار، الوحوش ذوي الأرواح النجسة أصحاب الوجوه الشيطانية".
ومن المحتمل أن يكون هذا الطوفان من الصفات المهينة احتفالًا بذلك النصر المهم (أو ربما مبرَّر). لكن لقتل الأسرى والفلاحين الذين قُبِض عليهم بالحقول - بلغ عددهم الأربعة آلاف رجل دون النساء - بعد النصر وانتهاء المعركة لا يمكن تبريره بأي خطط إستراتيجية، أو كراهية، أو حتى بسرد كل تلك الصفات النابية. وقد يبدو لبعضهم أن ذِكر "مقتل آلاف البشر من غير داعٍ" ليس ذا أهمية ملحوظة، خصوصًا إن لم يكونوا من ضحايا هذا الخطأ، أو إن لم يكونوا ممن يتأثرون بالموت. فمن الواضح أنهم يرون أنه يمكن ببساطة إضافة هؤلاء القتلى إلى مئات الآلاف من البشر الذين يموتون. إن صدقت المصادر، واتضح أن هذه الأرقام صحيحة، فعلينا أن نأخذ بالاعتبار كم كان عدد الضحايا مهولًا في تلك الحقبة التاريخية.
أيًّا كان ما حدث، كانت هذه هي الطريقة التي نال بها السلطان "سليمان" لقب "السلطان العظيم" بين أعدائه الأوروبيين الذين هيمن عليهم الرعب نتيجة لهذه المعركة. ومع ذلك، ماذا لو كان السبب وراء كل ذلك هو الحصول على هذا اللقب؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل التاسع

بعد ثلاث سنوات من تجربته الحربية الأولى، سار "باجيكا" مع الصدر الأعظم الذي أصبح "البيليربي"((14) ، أي كبير البهوات الحاكم، على "روملي" كلها، ونال لقب "سرعسكر" أي القائد الأعلى للجيش العثماني. وعندما مرَّ بـ"أدرنة"، جمع الصدر الأعظم أفضل الشباب حوله مرة أخرى، وحفزهم بكلمات حماسية بأن أفعالهم سوف تُخلد بفضل شهرة السلطان العظيم.

ساروا على الطريق نفسه الذي ساروا عليه منذ عدة سنوات. تمكن "باجيكا" الآن من توقع بعض الأشياء، أو معرفتها مسبقًا. لكن "سنان" لم يكن من بين الجنود. وقد فاجأ "باجيكا" أنه لم يجده في أي من وحدات الفرسان الأخرى القادمة من إسطنبول.

لم يلحق بهم "سنان" إلا بعد وصلوهم إلى "أدرنة" في "روملي" الشرقية، وتحديدًا في "تراقيا" وقد كان هذا شيئًا غير متوقع لـ"باجيكا". ولجعل الأحجية تبدو أصعب قبل هذا اللقاء الذي تطلع إليه كثيرًا من قبل، كان "إبراهيم باشا" يرمقه بنظرات مُرْبِكة بين حين وآخر عندما اقتربوا من نهر "ماريتسا" (15) ، كما لو كان يريد أن يقول له شيئًا، لكنه يُحجِم عن ذلك. ثم سرعان ما اتضح السبب. في مدينة "أوزونكوبرو" (16) ، التقى حشدًا من جنود ذوي رُتَب عسكرية صغيرة، وتابعين، وموسيقيين، ومواطنين من المناطق المحيطة في الملابس التي يرتدونها في العطلات يتقدمهم "سنان يوسف". بعد أن انحنى "سنان" للسلطان وأمر الحشد بأن يفسحوا المجال، أدرك "باجيكا" السبب وراء السرية السابقة والفخر الحالي؛ ظهر كوبري بُني على النهر، لم يكن لهذا الكوبري وجود منذ ثلاث سنوات، لقد صُنِع من حجر أبيض ذي ذوق رفيع. كان جسرًا طويلًا، ولكنه أيضًا واسع يقوم على اثني عشر عمودًا ضخمًا. كانت الأقواس تعلو الأعمدة التي في الواقع هي جوهر جمال وارتكاز وثبات الكوبري. وفي الوقت نفسه، عبَّرت ضخامتها عن قوتها وعزمها في الخلود هناك، وقد تركوا مجالًا للمياه للمرور من بينها، ولكنها كانت تشق طريقها على شكل قنوات كما لو كانت الأعمدة تكن احترامًا لقوة المياه، ولكن في الوقت نفسه تقف هناك شامخةً معتزةً بقوتها. وقف "باجيكا" يشاهد سعادة المواطنين الواضحة لمعرفتهم كيف أن ربط ضفتي النهر من خلال هذا الكوبري سيغير حياتهم. ولكن كان مدهشًا أيضًا رؤية السلطان الذي ظهر الرضا على وجهه، والذي بُني هذا الكوبري بناءً على أوامره. لكن "باجيكا" كان يعلم أيضًا أن بناء هذا الكوبري لم يكن ممكنًا من دون "إبراهيم باشا"؛ راعي "سنان" والذي ينتمي إلى الأصل نفسه.

والدرس المستفاد؛ اتضح أن دعم الصدر الأعظم لشخصٍ ما ولآرائه لم يكن فقط استغلالًا للسلطة من أجل السلطة، ولكنه كان استغلالًا عمليًّا له، مقصود به نفع الآخرين ومصلحتهم. على الرغم من أنه كان بالفعل قائدًا لهذه الحامية، فإن الوزير والسلطان في الرحلة كانا دائمًا يطلبان من "سنان" أن يبقى بالقرب منهما كلما كانت الحامية في وقت الراحة، أو إذا لم يكن لديهما شيء ليفعلاه أثناء ذلك الوقت من الرحلة، وقد أصبح ملحوظًا الآن أنهما يلقبانه "معمار". من خلال حياته وحياة "سنان"، استطاع "باجيكا" أن يفهم حاجة الحاكم إلى التفاخر العام بمَن يختارهم حوله من صغار السن. ولذلك كانوا يرتدون ملابس أكثر فخامة مما كان مسموحًا به لمَن هم في مثل مناصبهم أو أعلى. وعلى الرغم من أن التفاخر لا يناسبه تمامًا، فإن "باجيكا" كان مقاربًا لـ"سنان" في ذلك.

وفي الطريق، أخبره "سنان" كيف كان الحاكم راضيًا عن كم المعرفة التي لدى "سنان" بعد كل العمل الذي شارك في إنجازه خلال الحملة السابقة على "بوديم"، ومن ثم أمره (على الرغم من أنه استخدم كلمة "عَرَضَ" وليس "أَمَرَ" عند حديثه مع "باجيكا") أن يحاول بناء الجسر، بحيث يقوم بالتخطيط للأمر وعمل كل الحسابات اللازمة، وبعد ذلك يشرف على عملية البناء والتنفيذ. ولذلك بعد عودته إلى إسطنبول، بدأ على الفور في رسم الجسر والتخطيط لعملية الإنشاء. ثم بعد عدة أشهر، بدأ في تنفيذ المشروع على ضفاف نهر "ماريكا". واستغرق الأمر سنة ونصف حتى تمام المشروع واستقبال مرور موكب السلطان المعظَّم الحافل عليه.
ثم التفت "سنان" إلى "باجيكا" قائلًا:
- ولما كان مثل هذا الجيش الضخم قد عبره، وخصوصًا المدفعية، والوحدة التي أخدم بها بكلِّ الوزن الذي تحمله، فسوف يبقى هذا الجسر قرونًا. هل تعرف يا "باجو"، "محمد"، ماذا يعني أن يُخَلَّد شيء من صنعك؟ حتى إن لم يبقَ أبد الدهر، يكفي أن يبقى لفترة من الزمن.
كان من الصعب عليه أن يستجيب لهذا بإيجابية، فلم يترك "باجيكا" شيئًا ملموسًا يمكن ذكره من بعده. بالطبع كان عمله وإنجازاته معروفة، لكنه لم يترك شيئًا ماديًّا يمكن الإشارة إليه. لذلك فضل الصمت، وترك "سنان" يتحدث، لأنه كان يرغب في التحدث بشدة، ولديه الكثير ليقوله.
ثم أكمل قائلًا:
- بعد كل تلك الأسوار والجدران والخنادق والجسور المؤقتة، وخصوصًا بعد كل هذا الهدم وإعادة بناء كل ما تم تدميره، بدا لي الأمر كما لو أنني تعلمت لغة الحجر والخشب والمعدن. أصبحت أعرف كيف تتصرف تلك العناصر تحت أي ظرف، فمن المهم جدًّا أن تعرف كيف تستخدم المواد الخام في الظروف التي تناسبها. لكلِّ بناءٍ ظروفه الخاصة، حتى أكثر الأكواخ والآبار شعبية وعمومية. كلُّ بناءٍ يختلف عن أي بناء آخر، فلكل منهم طبيعته الخاصة. كل ما يُبنى يُعدُّ فريدًا، فهو يُبْنى لأول مرة.
كان "باجيكا" يستمع له بإنصات، وأيضًا كان يتابع شغفه أثناء حديثه عن عمله، وكيف يتحدث عن الحجر والطين كأنهم بشَر. كان "سنان" مهووسًا بأفكاره عن الاختراعات وإنشاء الأشياء. أدرك "باجيكا" أنه في حضرة إنسان عاشق عندما بدأ "سنان" بالتحدث عما يريد بناءه، ولكن كل ما يوقفه هو أنه ما زال في حاجة إلى تعلم المزيد. وفي أثناء حديثه عن المخاوف التي واجهها وقت بنائه ذلك الجسر، بدأ يعرض وجهة نظره بخصوص الشيء الذي كان يعمل عليه بصورة شيقة. فبالنسبة له، لم يتم البناء فقط من الحجر والسقالات والمواد اللاصقة، بل إن الماء أيضًا أحد العناصر التي تم استخدامها في البناء. ولم يتم استخدام مياه عادية، وإنما مياه النهر نفسها التي يُبنى الجسر لعبورها.
يقول "سنان":
- كانت المياه هناك ذات جودة فريدة، خاصة بذلك المكان، ولا يوجد مثلها في أي مكان آخر. فكان عليَّ بناء الجسر من أجل الماء أولًا، وبعد ذلك من أجل البشر.
استشعر "باجيكا" بعض القلق من هذه الجملة الغامضة، ونصح "سنان" بأن يكون حذرًا منها، فقط من باب الاحتياط، فقال له:
- أظن أن عليك أن تحتفظ بهذا الكلام عن المياه لنفسك، فأنا أخشى ألا يتفهموا ما تقوله.
والحق أن كلام "سنان" عن المياه قد أثار فكر "باجيكا". ولذلك لم يكن "سنان" في حالة حرب مع النهر، ولم يكن يحارب ضد تيار المياه أيضًا. أولًا: درس المياه بعناية، وكيف تتفاعل مع المواد المختلفة، وما الذي صمدت في مواجهته، ما الذي أعجبها، وما الذي انتزعته لنفسها، وأيضًا ما الذي

يمكنها أن تحمله، وما الذي رفضته ودمرته. وعندما وجد "باجيكا" نفسه يفكر بهذه الطريقة، شعر بالقلق، فعلى أية حال، ليست المياه بكائن حي حتى ينطبق عليها ما ينطبق على الكائنات الحية. لكن، كم مرة اختبر هو الفرق بين الأنهار والجداول والقنوات؟ فقد كان كل جدول أو نهر خاض فيه أو عبره مختلفًا عن غيره، وكل تل وجبل، لماذا كل شيء؟ حتى الشجر. كل شجرة تختلف عن نظيراتها من الأشجار الأخرى، تمامًا كالبشر. لكل شخص قصة؛ بل إن كل شخص في حد ذاته يشكل قصة.

ربما يملك "سنان" موهبة في البناء، وهذه حقيقة واضحة لا يمكن إنكارها، ومع ذلك، بدأ "باجيكا" يشعر بأن هذا لم يكن السر والسبب الوحيدين وراء نجاحه هذا. فالأهم من امتلاكه الموهبة هو الطريقة، والمنظور، والشغف الذي يتعامل به مع ما يفعله. وقد ألهم هذا "باجيكا" بالأشياء التي عليه أن يركز عليها في المستقبل.

عليه أن يركز أكثر في أسلوبه في التعامل مع الأشياء.

وضَّح له التقدم نحو بلجراد أن التغيرات التي طرأت على حياته قد بدأت في الحدوث منذ آخر مرة نزل بها منذ ثلاث سنوات. كانت ضفاف نهري "السافا" و"الدانوب" موانئ ضخمة، حيث كانت التجارة مع مناطق أخرى لم تكن معروفة حينها تنتعش وتتطور من خلالها؛ من الشواطئ الآسيوية إلى البحر الأبيض المتوسط، و"البندقية"، و"دوبروفنيك"، والمناطق الشمالية بأفريقيا. كانت الأواني تصل من كل مكان ومعها يأتي البشر، فينقلون عادات جديدة، ولغات مختلفة، وقصص البشر على تنوعها. ومع ذلك، كانت بلجراد هي التوجه العام في ذلك الوقت. تم إرساء جميع السفن الحربية التركية على بعد أميال من مصب النهر، وذلك لأنها ملأت جميع الضفاف المحيطة حول الدلتا والأنهار. أقامت آلاف الوحدات العسكرية معسكراتها على ضفتي النهر حول قرية "زيمون". وقد تجمعوا من جميع أقطار الإمبراطورية العثمانية من البوسنة حتى "السويس" بكل قوة الإمبراطورية لرغبتهم الواضحة في الوصول إلى قلب أوروبا. كانت فيينا هي هدف الحملة، وهذه المدينة وإن لم تكن في مركز القارة، فهي ما زالت أحد أركانها الأساسية. وقد كانت هذه هي العبارة التي يستخدمها المهندس "سنان" على الدوام.

لم يتفاجأ "باجيكا" عندما استضافهم "سنجاق بك"، حاكم "سميديريفو" في قلعته، وقد حكم بلجراد والتي أصبحت الآن أكثر أهمية وأكبر من "سميديريفو"، والتي ظلت المركز الرسمي لحدود بلجراد. أصبحت بلجراد الآن الميناء المركزي للأسطول التركي على نهر "الدانوب" بقيادة "سنجاق بك"، وهو ليس سوى الشاب "محمد بِك يحيى باشا". وبسبب عزمه وعدم تردده المعروف عنه، وقع عليه اختيار السلطان ليكون مسؤولًا محليًّا مفيدًا بشكل مثالي.

وقد كانت هذه أوامر السلطان التي لا يمكن لأحد أن يغيرها أو أن يثنيه عنها سوى الصدر الأعظم. وبمجرد بدء الحملة، تختفي الأهداف المختلفة والفروق الفردية بين الأشخاص الذين خرجوا إلى ساحة المعركة، بل وتتلاشى تمامًا وكأنها ليست موجودة، ويصبح هدف الجميع الوحيد هو النصر المستقبلي. عززت القوات العثمانية صفوفها بإزالة كل الخلافات التي ليست لها أهمية، والتي من الممكن أن تفسد الحالة المزاجية العامة للقوات. كان السلطان يعطي قيمة كبيرة للجو العام، ويؤمن بأن بإمكانه قلب موازين المعركة.

كل ما يستطيع "سنان" و"باجيكا" فعله هو الذهاب في نزهة حول المعسكر في بلجراد. استغل كل واحد منهما نقاط قوته، في تأمل المكان واستيعاب تفاصيله كما يتراءى لكل منهما وفقًا لميولهما واهتماماتهما المختلفة. وبينما هم كذلك، سمع "باجيكا" بعض الكلمات تُنطق بلغته الأم، فكان يُمتِّع

نفسه بمحاولة تخمين من أي منطقة أتى كل من المتحدثين. كما أسعده أيضًا تداخل اللغات الأخرى التي وصلت إلى مسامعه أيضًا. ثم فكر في أنه لا بدَّ لكل مكان من أن يملك مثل هذا التنوع اللغوي، وفكر في الطريقة التي يُثري بها البشر ويضيف إليهم.
أما "سنان" فقد كان مشغولًا بفحص المنشآت والمباني بدلًا من ملاحظة البشر. كان يشاهد أكثر من أن يسمع، وكأن اللغة الوحيدة التي أصبح يفهمها هي المكان وكيفية ملأه بالمنشآت. كان "سنان" ذا عينين متسعتين وهادئتين. بوسع "باجيكا" تخمين الاتجاه الذي هدته إليه أفكاره، وكأنه في تتبعه هذا للمباني يتقبل جمال بعضها، ويرفض بعضها فيعيد بناءها في خياله، ومَن يعلم ما الذي يدور بِخَلْدِه غير هذا؟ كان من الغريب جدًّا اجتماعهما على الرغم من اختلافهما ووجودهما معًا، ومع ذلك كل منهما منغمس في عالمه الخاص، ومنجذب إلى ما يثير اهتمامه. لم يزعج أحدهما الآخر، ولم يعبرا عن مدى سعادتهما ورضاهما عن هذه المعية بل ظلا صامتين.
فقط بعد هذا بمدة، عندما اشتدت المعركة، فهم كل منهما كيف كانت عقولهما وأجسادهما تسعى وراء هذا النوع من التطهر. ثم ما حدث لهما بعد ذلك كان أكبر منهما.
عندما أصدر السلطان الأوامر بالتحرك، كان للجيش العثماني أكثر من مائة ألف جندي من المشاة، وبضعة آلاف من الإبل والخيل، بعضها يجر العربات، وبعضها يركبه الجنود، وثلاثمائة مدفع، وأسطول من أربعمائة طاقم بحري يبحر في نهر "الدانوب" بعشرين ألف "أرماتول"، أي جندي. ومرة أخرى، عَبَر جزء أكبر من الجيش العثماني حقل "موهاكس" الموحل، حيث قابلوا هذه المرة "يانوش زابوليا" الذي ورث العرش المجري، ومعه ستة آلاف من سلاح الفرسان، فانطلقوا معًا صوب "بوديم" التي استسلمت قواتها دون معركة، على الرغم من أن هذا لم يمنع حدوث مذبحة هناك. اعتقد السلطان "سليمان" أن بالإضافة إلى تولية "زابوليا" العرش، كانت هذه المذبحة هي الرسالة المُثْلَى إلى حاكم النمسا و"فرديناند هابسبورج" الذي يدَّعي أحقيته بعرش المجر، والذي لجأ إلى فيينا حيث احتمى بأسوارها وفي صحبته عشرون ألف جندي.
ولا عجب. فقد وصلت "فرديناند" أخبار القتل والدمار الفظيعة قبل وصول قلب الجيش العثماني إليه. ولضمان مرور قواته بأمان، أرسل السلطان "سليمان" فرقة من ثلاثين ألف فارس تحت قيادة "سنجاق بك محمد بن يحيى باشا" حاكم "سميديريفو" الشرس، لتمشيط الطريق وتأمينه. كما كان برفقته وتحت قيادته فرسان التتار و"الأكينجي"([17]) الذين كانت وظيفتهم نهب كل ما تركه القتلى. وكان هدف السلطان هو إثارة الرعب في نفوس أعدائه، حتى من قبل أن يصل إليهم. وبهذه الطريقة، نجح في إثارة الخوف في العالم الغربي بأكمله.
وبملاحظة وتحليل تكتيك السلطان والصدر الأعظم، بدأ "باجيكا" يفهم سياسات الحرب. فالسياسة التي كانت تُعدُّ طبيعية في وقت السلم (والتي كانت أوقاتًا قليلة جدًّا وعلى فترات متباعدة) لا يمكن تطبيقها في الحرب. قيادة الجيش تعني تحديد الأهداف التي لها أولوية الإنجاز، وتحقيقها واحدًا تلو الآخر باستخدام أدوات وتخطيطات متعددة، وهذا يتضمن أيضًا المبالغة في الضراوة والرحمة، فقط إذا كان في وجودهما ضمان للنصر. كما يتم تغيير، أو تبديل، أو إلغاء أي شيء غير مُجدٍ أو فعال. القادة الذين لا ينجزون المهام المسندة إليهم يتم استبدالهم أو قطع رؤوسهم. وقد بدا واضحًا من مثال "سنان" كيف تُغيَّر الأولويات حسب الحاجة اللحظية؛ كان "سنان" في الأصل قائد وحدة دعم، إذ كانت لديه عدة وظائف عليه التأكد من إنجازها. ولكن من وقت إلى آخر، كان مسؤولًا عن "أورطة"

([18]) إنكشارية، أو حتى قوات نظامية أناضولية. على الرغم من أنه علينا الاعتراف أنه لم يخدم أبدًا في الصفوف الأمامية، لأنه كان ذا قيمة كبيرة للدولة، لذلك لم يكن من الممكن الإقدام على مثل هذه المخاطرة. ومع ذلك، لم يُرِدْ راعيه "إبراهيم باشا" أن يضيع "سنان" فرصة تعلم الكثير من الأشياء عن ساحة القتال. عندما استَشَفَّ "إبراهيم باشا" أن صداقة "سنان" و"باجيكا" ستدوم، عهد بـ"باجيكا" للمهندس، متأكدًا أن "سنان" سيعلِّم تلميذه الصغير شيئًا. وبصفته قائدًا عسكريًا، عَهِد بهما إلى "لطفي باشا" الذي كانت وظيفته الإشراف عليهما وتدريبهما، وأيضًا مراقبتهما.

وصل الجيش إلى أسوار فيينا في السابع والعشرين من سبتمبر، ولم تزعجه حقيقة أن الخريف قد حل بالفعل، وأن الأمطار ستهطل بغزارة من وقت إلى آخر. ومع ذلك، لم يُجدِ الحصار نفعًا أمام شجاعة الدفاع وقوته (على الرغم من ضعفهم في الكثير من الأحيان)، وسُمْكِ أسوار المدينة ومناعتها، بالإضافة إلى الجو السيئ، على الرغم من استمراره عشرين يومًا وصولًا للسادس عشر من أكتوبر. ولذلك أصدر السلطان أوامره برفع الحصار، وحل المعسكرات، وعودة الجيش إلى أرض الوطن. حتى هذا القرار قد جاء متأخرًا. ولم يعلم "باجيكا" أيهما أسوأ بالنسبة له؛ رؤية كل أولئك القتلى في ميدان المعركة، أم رؤية أولئك الذين أعيتهم جراحهم، فألقوا بأجسادهم في المستنقعات المغمورة بسهول "سلافونيا" والمجر أثناء الانسحاب. فهم الآن تأثير الجو على الحملات العسكرية، سواء على المدة التي بإمكانه أن يصمد بها أو تأثير التغيرات المناخية على القوات. حتى مع الاستعداد للشتاء، لم يكن ممكنًا بدء حملة من العاصمة العثمانية قبل أبريل، ومرة أخرى من أجل اعتبارات مناخية عليهم أن ينهوا الحملة قبل بدء الشتاء. وهنا تكمن المشكلة التي أطلق عليها "إمكانية الوصول" في نقاشاته مع "سنان". فسأله "سنان":

- ما الذي يعنيه هذا؟

فأجابه "باجيكا":

- من المفترض أن تكون على علم بهذا أكثر مني. إنها حسبة تجيدها. إذا كنت على علم بكل الحقائق قبل الحملة من أعداد الجنود، والخيل، والجمال، والمدافع، والعربات، والأسلحة، ومنازل الاستراحات، وحتى العقبات غير المتوقعة، وحتى الطريقة التي سيعود بها الجيش، ففي هذه الحالة من الممكن معرفة أبعد نقطة يمكن للحملة الوصول إليها. عند معرفة أقصى نقطة يمكن للجيش الوصول إليها، يمكن معرفة النقطة التي لا رجوع منها إذا بلغها.

فعلق "سنان" قائلًا:

- هذا صحيح. ولكنك نسيت أن حدود الأراضي التي نغزوها دائمة التغير، وهذا ما يعني أن أراضينا دائمة الاتساع، ومن ثَمَّ في كل مرة تظهر أماكن جديدة يمكن للجيش الرئيسي الانطلاق منها في كل مرة.

فردَّ "باجيكا":

- أجل، فقد كانت حدود الدولة قبل بلجراد هي "صوفيا". وهذا أيضًا أحد الأشياء التي تتغير، ومع ذلك بعض الأشياء لا تتغير أبدًا. دائمًا يبدأ السلطان والقائد الأعلى الحملة من إسطنبول، وهذا يعني أن هذه المسافة تبقى ثابتة على الدوام، بل أحيانًا تصبح أكبر. أصبح من الممكن بعد سقوط بلجراد أن نجمع الجيش عند أسوارها، لتصبح هذه هي نقطة الانطلاق. وقد كان هذا، من بين أشياء أخرى، قد جعل غزو المجر والنمسا ممكنًا للإمبراطورية. حتى إنْ كان قسم كبير من الجيش من مناطق مجاورة

للهدف موجود هناك بالفعل، فإن انتظارهم وصول السلطان يستغرق المدة نفسها، وما زال الجيش الرئيس يأتي من الأناضول وشرق "روملي". وسوف تختفي هذه المشكلة إذا حكم السلطان من بلجراد، وإذا بدأ الحملة من هناك في الربيع، وهذا مستحيل. أتفهمني؟ أخشى ألا يكون لمشكلة وصول الجيش هذه حل إلا إذا كانت مدة الحصار قصيرة، وكان إنجاز النصر أسرع. إلا إذا تمكنتَ أو أي شخص آخر من اكتشاف طريقة تُمَكِّن جيشًا ضخمًا مُجَهَّزًا بأسلحةٍ ثقيلة من التحرك بسرعة، ومن بلوغ الهدف في وقت أقل من ذي قبل.

فكر "سنان" في الذي يقوله "باجيكا" ثم قال:

- حسنًا، حتى عندما باتت عودة الجيش متأخرةً جدًّا، انظر كم الجنود الذين فقدناهم خارج المعركة. لكن بالتأكيد يتطلب ما تقوله تفكيرًا جادًّا. انظر إليك، لقد بدأت تتصرف مثلي قليلًا. أظن أن ما تقوله يشبه تقدير أقصى مسافة يمكن لحجر رميته أن يقطعها مثلًا. هذه هي الطريقة الدقيقة التي عليك أن تفكر بها لعلاج مثل هذه المشكلات. من المهم أولًا أن تدرك أن هناك مشكلة من الأساس. فإن لم تدرك وجودها لن تستطيع حلها. ومن ناحية أخرى عدم معرفتك بوجودها لا يعني أنها ليست موجودة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10

أراد "باموك" تغيير الموضوع فقال:
- دعنا نستريح قليلًا من الحديث عن الموتى. وكما يُقتبس من أحد المؤرخين المعاصرين لتلك الحملة العثمانية في 1529؛ فبعد فشل الحصار على فيينا، رافق الجيش الكثير من التجار ومعهم آلاف العبيد - الكثير منهم من النساء - وقد وصفهم الكاتب كالآتي:
"تُباع في الأسواق نساء جميلات بجباه كالياسمين، وحواجب سميكة مقوسة، وعيون مبهجة للحواس، كحور العين. كان سحرهم غير مفهوم وجمالهم أخَّاذ".
أترى؟! التاجر يظل تاجرًا. ومع ذلك، تشير تلك الجملة الأخيرة المجردة إلى أن البشر يصدقون الكلمات، لكن في مثل حالة هذا الجمال الاستثنائي الذي لا يمكن إخفاؤه، تعجز الكلمات عن التعبير عما تراه. هي في الحقيقة لا تعدو عن كونها تعبيرًا عن اجتهاد الشخص ومحاولته في أن يكون رومانسيًّا من خلال تأليف بعض كلمات الثناء الخرقاء التي لا تعكس الحقيقة.
ثم بعد ذلك، فَنَّدَ رأيه فقال:
- يمكنني التوقف هنا وفقًا لما قلتُه سابقًا عن عدم التحدث عن الموتى، ولكن ما الحياة إلا زيجة بين الفرح والتعاسة، حتى في ذلك الوقت. فبعد تلك اللحظة الرومانسية التي كنت أتحدث عنها، أكمل ذلك المؤرخ حديثه ببرودة الثلج، دون حتى التقاط أنفاسه، لكي يصوغ لنا الجملة الآتية: "البضائع، المحمول منها والدائم، البشر والحيوانات، الكائنات ذات الوعي والإدراك والتي ليس لديها عقل تعي أو تدرك به، تم نهب كل شيء، إما لأن أصحابه تركوه وهربوا، وإما تحت سطوة السلاح. ولذلك تم الأمر طبقًا للنبوءة فيما يخص كيفية التعامل مع الكفرة".
وفي الحال، لم يعد بالبشر جمال، إنهم "كائنات عاقلة ذات وعي وإدراك". وعلى الرغم من أنه هناك فرق بينهم وبين الحيوانات، فإنه صنفهم على أنهم "كائنات بلا عقل".
حان دوري الآن لأترك بَصْمَتي، لذلك علَّقتُ على ما قال كالآتي:
- ولكن انظر الآن من الجملة الآتية إلى الأخيرة، هل ترى كيف عبر عن القتل هنا؟ قال: "تحت سطوة السلاح"! إذن حتى هنا، إن لم يكن المؤلف يحاول أن يكون رومانسيًّا، فعلى الأقل يحاول أن تكون مفرداته اللغوية أصيلة. على الأرجح أصابه الملل من تسمية الظواهر الشائعة بأسمائها الحقيقية.
فضحك وقال:
- لقد نِلْتَ منِّي في ذلك.
فقلتُ:
- ليس هذا هو الموضوع. لقد كنت أفكر منذ مدة طويلة في ازدواجية الإنسان، وامتلاكه الجميل والبغيض بين جنبيه، وصنعه الخير والشر بذات اليد. وجدت أكثر مثال كارثي في عمل مؤرخ صربي حسن السمعة ([19]) وذائع الصيت، إذ قدَّم وصفًا غريبًا لحادثةٍ يعود تاريخها لعام 1551، عندما غزا "محمد سوكولوفيتش" مدينة "ليبوفا" ذات الأهمية الإستراتيجية أثناء حملة "تيميشوارا". انطلقت الحملة لتكمل المسيرة بعد الحصار، ولكنه ترك وراءه وحدة قوية تحت قيادة "أولاما بك" الفارسي. يقول المؤرخ: "إن هذا القائد الذي يبدو عليه الكسل بعد تجوله بالمدينة قد دخل كنيسة يُقال

إن "تشارلز الأول" هو مَن بناها، فوجد بها آلة أثارت انتباهه، فطلب من أحد الرهبان "الكبوشيين" الذين وجدهم هناك أن يعزف له شيئًا، وقد أطربه ما سمع. لكن بعد ذلك، أمر بنزع أسنان خمسة رهبان منهم، لكي يخبروه بمكان الكنز الذي من المؤكد أن هذه الكنيسة التي تعزف مثل هذه الموسيقى تملكه". فكما ترى، يحيرني اجتماع مثل هذه الدقة والسخافة المبتذلة، ويربكني هذا التناقض المتتابع في السلوك الذي لا تفصله سوى بضع ثوانٍ، لكنني لا أعرف ما الذي يفصل أو يجمع هذه التناقضات في جوهرها على صعيد واحد. كيف يمكن لهذه الصفات أن تكون بهذا القرب في آنٍ واحد؟
فاجأني "باموك" بسرعة بديهته في الردِّ عندما قال:
- حسنًا، ماذا لو كانت إحدى هذه الصفات بداخل الأخرى؟
فقلت له:
- لا أدري إن كانت هناك قاعدة لذلك. هل يُمكن استخلاص نتائج عامة لمثل هذه المواقف، أم إن كل مثال هو حالة فردية قائمة بذاتها؟
فأجابني:
- أميل دائمًا إلى فكرة أن كل قصة مستقلة بحد ذاتها، وبمكوناتها، والعوامل المؤثرة فيها، والنتائج التي تؤدي إليها. دعنا نتحدث عن غزو قبرص في 1570 كمثال، وهو ما يمكن أن أسميه "مأساة بسبب الجمال". عندما احتل العثمانيون العاصمة "نيقوسيا" بعد خمسة أسابيع من الحصار، قتلوا عشرين ألف شخص من سكان المدينة. يُقال إنهم استثنوا من ذلك الشباب والنساء، إذ تم تخصيصهم لخدمة الجنود ومتعتهم. بعد ثمانية أيام من النهب في المدينة، تم تحميل الذهب والمجوهرات والمدافع على ثلاث سفن، بالإضافة إلى ألف فتاة فاتنة الجمال كان من المفترض إرسالهن إلى إسطنبول كجوار. وعلى الرغم من ذلك، وقبل مغادرة السفن للموانئ، اكتشفت إحدى الفتيات حمولة من البارود على واحدة من السفن فأشعلتها، وهذا ما نتج عنه غرق الثلاث السفن بما تحمله من كنوز وفتيات في غضون دقائق من إشعال الفتيل.
ثم أكمل "باموك" مُحلِّلًا الموقف قائلًا:
- في هذه الحالة، اتخذ الجمال قرارًا في مصلحة المأساة. إذا كان الجمال يعني الدقة، والسلوك الانتحاري سخافة وابتذال، فهذا يعني أن هناك رابطًا ما يجمع هذه القصص معًا، أو قاعدة عامة تخضع لها كل الأمثلة.
ولم يذكر أن القائد الأعلى للحملة كان "لاله مصطفى باشا"، وقد كنتُ أنوي أن أحدثه عنه كمثال لي عن "الضراوة والوحشية غير المبررين"، لكنه سبقني بالحديث عن إحدى حملاته. لم يكن الغضب مبررًا كافيًا لما فعله بتلك الحملة. ولولا أنه من المهم أنه الأخ الأصغر لـ"خسرو باشا الدلاتي" سليل عائلة "سوكولوفيتش" وأحد الذين مكثوا بسرايا "أدرنة" بعد جلبهم للأراضي العثمانية تحت مسمى ضريبة الدم أو الجزية، لما كان ابن عمه "محمد باشا سوكولوفيتش" ليحميه ويستشيره.
مهما يكن، فهذه هي القصة التي أعددتها لـ"باموك":
- يأتي المثال الذي سأرويه لك مباشرة بعد مثالك زمنيًا، ثم إنه في المكان نفسه، حتى إن القصة تكاد تكون نفسها. بعد ما حدث في "نيكوسيا"، توجه "لاله مصطفى باشا" إلى "فاماجوستا" الحصينة، والتي كانت محمية بنحو سبعة آلاف جندي. كان ذلك في أكتوبر 1570، حيث حل ربيع العام المقبل ووجد نفسه يحفر الأنفاق تحت أسوار الحصن ورفع نحو 74 مدفعًا صوب الحصن. دامت تلك المعارك الضارية طوال المدة التي امتلك خلالها المدافعون اليونانيون والبندقيون الذخيرة، وهي شهر

ونصف. وبعد ذلك، تم توقيع ميثاق استسلام مُشرِّف. نَصَّ العقد على أنه بإمكان قائد الدفاع "مارك أنطونيو براجادين" وجنوده الذين ما زالوا على قيد الحياة استعارة بعض السفن التركية، والإبحار إلى مدينة "كاندية" أحرارًا. كما نص الاتفاق على أن الأتراك سيبقون بعيدين عن المدينة بمسافة معينة في حين كل ذلك يحدث. وبمجرد مغادرة باقي المقاتلين والسكان، أتى القائد الأعلى للدفاع في عشرة من ضباطه لمعسكر "لاله مصطفى باشا" ليسلمه مفاتيح المدينة. وحينها طلب الباشا من "براجادين" أن يترك خلفه بعض الرهائن، ليضمن أنهم سيُعيدون إليه سفنه، وفي هذا مخالفة للميثاق الذي بينهم. وبناءً على الاتفاق الذي بينهم، رفض البندقيون الاستجابة لهذا الطلب، وهذا ما أثار سخط الباشا، فأمر بإعدام كل الضباط في الحال. ثم أصبح سلوك "لاله باشا" غير مفهوم. في البداية، قطعوا أنف "براجادين" وأذنيه، وبعد ذلك استمروا في تعذيبه اثني عشر يومًا آخرين. وعلى حد قول المؤرخ:

"أولًا: قيدوا قدميه بعجل حجري، ثم رفعوه بالحبال إلى قمة صارية، وبعد ذلك تركوا الحبل ليسقط بالبحر. كما كانوا يعلقون سلتين ممتلئتين بالتراب، ويجبرونه على تسلق الجدران التي يصلحها الجيش. وكلما مر بالقائد الأعلى، كان عليه الاستلقاء ساجدًا أمامه. وأخيرًا، قاموا بقتل "ماركو أنطونيو براجادين" عن طريق تعليقه حيًّا على خازوق في ساحة البلدة أمام المنصة، حيث كان يتم جلد العبيد الأتراك. ومع ذلك لم يصرخ القائد البندقي ليعبِّر عن ألمه، بل بدأ بذكر الله وحمده على وهبه إياه قلبًا نقيًّا، ثم مات بعدها من فوره. ثم سخر "لاله مصطفى" من القائد المقتول وقال: "أين يسوع الآن؟ ألن يأتي لنجدتك؟"، وبعد ذلك أمر بذبح ثلاثمائة عبد مسيحي. ولم يكتفِ بذلك، بل قام بإخصاء باقي السجناء علنًا".

ولم أستطع منع نفسي من التعليق على ما قرأته، فقلت:

- ولم تكن هذه يا صديقي آخر أعماله الوحشية غير المبررة.

ثم أكملت اقتباسي لذلك المؤرخ:

- ولم ينتهِ الأمر عند هذا الحد:

"فبعد قتل "براجادين"، قاموا بتقطيع جسده إلى أربعة أجزاء، وعلقوا كل جزء على بوابة من بوابات المدينة الأربعة. كما قاموا بحشو جلده بالقش، ووضعوه تحت مظلة حمراء في شوارع "فاماجوستا"، حيث بدا كما لو كان لا يزال على قيد الحياة، وكما لو كان على وشك الذهاب لمقابلة "لاله مصطفى" ليسلمه مفاتيح المدينة. وفي النهاية، تم إرساله على هذه الهيئة، بالإضافة إلى رؤوس الجنود الآخرين إلى السلطان بإسطنبول".

ثم فكرت في أنه عليَّ الاعتراف أنه لم يتم تسجيل عدد كبير من الجرائم من هذا القبيل. ربما بعض الحدود الإنسانية منعت المؤرخين من كلا الجانبين من الإدلاء بشهادتهم بشأن هذا أو تأريخ ما قاموا به، حتى عندما حدثت مثل هذه الفظائع، بصرف النظر عما إذا كانوا فخورين بهم أو مذعورين من فظاعة ما قاموا به. ولكن توجد على الصعيد الآخر استثناءات مثل هذا. ربما أراد المؤرخون بذكر هذا المثال توضيح الطريقة التي أراد القائد الأعلى من المهزومين أن يتصرفوا على أساسها، ولذلك "كرَّر" مراسم تسليم المفاتيح مرة أخرى على طريقته.

ثم بدأ بالتفكير بصوت عالٍ:

- ومع هذا لم تنتهِ القصة هنا. لم يكتشف السلطان الحقيقة المرَّة، إلا بعدما عاد "لاله مصطفى باشا" من الحملة ودخل العاصمة منتصرًا، مُحدِثًا جلبة في المدينة بسبب استيلائه على قبرص.

توصل "باموك" إلى استنتاج خاطئ حين قال:

- هل تعني أنه أدرك كيف تجاوز قائده الأعلى الحد في وحشيته؟

فقلت:

- لا، بل أدرك شيئًا أسوأ من هذا أصاب إمبراطوريته، وهو مقتل خمسين ألف جندي في قبرص من خيرة جنود الدولة العثمانية، ولم يكن يعلم أيُّ أحد بشأن هذا حينها سوى "مصطفى باشا"، حتى السلطان والصدر الأعظم لم يكن لديهما علم بهذا. ويمكن أن يكون هذا هو السبب وراء تلك الأعمال الوحشية التي قام بها "مصطفى باشا". وقد كان العدد كبيرًا بحق بحيث لا يمكن تصديقه. لم يكن أي انتصار يستحق مثل هذه الخسائر الفادحة. ومع ذلك، لم يعاقبه السلطان علنًا، حتى لا يفسد الاحتفال بالنصر، وحتى لا يسجل التاريخ ذلك، لكنه عاقبه سرًّا، إذ أصدر مرسومًا خاصًّا من أجله جعل الغنائم التي نالها أو حصل عليها من قبرص كلها هبة للصدر الأعظم "صقللي محمد باشا"، وهذا ما صدم "لاله باشا" الذي لم يكن يتوقع مثل رد الفعل هذا. وكان هذا الإجراء نوعًا من تحقيق العدالة الداخلية، ولكن يبقى السؤال: هل خفَّف هذا من أثر الوحشية والفظائع التي اُرتكبت بالفعل؟

لم أجرؤ على طرح سؤال آخر بخصوص الأسباب التي أدت إلى ارتكابه مثل هذه الفظائع، إذ كان من الممكن إرجاع السبب في ذلك إلى ديانته السابقة. ومع هذا، تبدو محاولاته لإثبات ولائه لعقيدته الجديدة مذهلة. ألم يكن قائده المباشر الصدر الأعظم رجلًا له الماضي نفسه، ويعايش الحاضر نفسه؟ ولكن إحقاقًا للحق، لكل منهما فهم مختلف للعقيدة، والانتماء، والإنسانية.

أم إن "لاله مصطفى" هو الوحيد الذي انزعج من طول مدة ذلك الحصار المروِّع؟ أطَغَت تلك الأشهر الستة من العبث المؤقت والواضح على شعوره بالثقة والنصر المؤكد؟ ربما أراد أن يمحو أي أثر في نفسه لتلك الهزيمة الموشكة التي بالكاد نجا منها، على الرغم من انتصاره غير المشكوك فيه، والذي شهد له العديد.

بدلًا من طرح هذه التساؤلات، حاولت الدفاع عن نفسي بالسخرية فقلت:

- ألم تكن تريد تجنب الحديث عن الموتى؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

الفصل العاشر

عليهم أن يفترقوا مرة أخرى. حيث مكث "باجيكا" بين جدران البلاط الملكي بسرايا "أدرنة"، في حين ذهب "سنان" مع الصدر الأعظم إلى إسطنبول. فضَّل السلطان البقاء بـ"أدرنة" على الرغم من أنه كان يتشوق للذهاب إلى العاصمة. تم الاحتفال كما ينبغي بنجاح الحملة في كل مكان، وكأن السلطان يريد أن يقول: "لا يزال أمامنا عدد لا يحصى من الانتصارات التي علينا أن نحرزها، لذلك ليس عليَّ أن أحتفل بكل واحد منها في قصر "طوب قابي".

حقيقة وجوده هو والسلطان معًا في بلاط القصر لم تغير شيئًا من الروتين اليومي لـ"باجيكا". فقط كان يراوده إحساس غريب على الدوام بأنه مُراقَب، ولكن على الأرجح كان كل هذا من صنع خياله. ومع ذلك، دعاه الحاكم ذات مرة للمثول في حضرته كأحد الحضور، فاعتبر "باجيكا" هذا اللقاء على أنه "مراقبة" له، وكان السبب في ذلك هو تحديق السلطان به في صمت. ثم بعد ذلك سأل "باجيكا":

- أنت إذن مَن يقيس المدى الذي بإمكان الجيش العثماني الوصول إليه!

ولم ينتظر منه ردًّا أو تعليقًا، بل علا صوته بالضحك.

فاستشعر "باجيكا" شيئًا من الاستهانة به. وقد كان سعيدًا منذ لحظات، لأنه ظن أن "سنان" أخبر الصدر الأعظم شيئًا ما بوضوح، وأنه مرَّر ذلك للسلطان. وقد ظن أيضًا أنه إن كان الأمر كذلك فعلًا، ولا يمكن أن يكون غير ذلك، فمن المؤكد أن ما قاله يستحق الثناء. لكن الآن بعد هذه الضحكة، يبدو أن ما قاله "سنان" شيئًا جديرًا بالسخرية. ومن ناحية أخرى، فكر بعد أن صرف الحاكم نظره عنه في أن السلطان تذكره لسبب ما. أيعقل أن يكون تذكره فقط لمجرد أنه وجد ما قاله "باجيكا" مضحكًا؟

ولم يحصل على إجابة عن هذا التساؤل سوى بعد عدة سنوات أخرى. غادر "سليمان" "أدرنة" عائدًا إلى قصر "طوب قابي" مع قرب انتهاء الشتاء. حتى إن "باجيكا" لم يره أثناء مغادرته.

الآن، كما كان مُقَدَّرًا، ومرة أخرى بعد ثلاث سنوات من الانتظار، شَنَّ الجيش العثماني حملة جديدة ضد الملك "فيرديناند" الذي استعاد العرش من "يانوش زابوليا" في المجر. أطلق المؤرخون العثمانيون على هذه الحملة "الحملة على ألمانيا". انطلق الجيش في ربيع 1532، ووصل إلى مدينة "جراتس" وذلك بعد استعادة "بوديم" في سبتمبر من العام نفسه، وكالعادة كان قد فات الأوان على الاستمرار إلى فيينا. مرة أخرى، كانت هذه المدينة خارج النطاق.

لم يأخذوا "باجيكا" معهم في الحملة هذه المرة دون أن يعلم السبب. وعلى أي حال، ليس هذا من شأنه. وفي "أدرنة"، أكمل دراسة المواد واللغات التي بدأ في تعلمها من قبل. هذا بالإضافة إلى دروس إضافية في أدبيات وبروتوكولات البلاط الملكي، والعلاقات مع المبعوثين الأجانب، وتكتيكات المعارك والقيادة السياسية.

سمع أن "سنان" شارك في الحملة على "جراتس"، وأنه أدهش الحاكم مرة أخرى بمآثره الهندسية التي ساهمت بشكل كبير في استمرار الانتصارات. لم يرَ "باجيكا" "سنان" حتى بعد عودته، لأن الحاشية بأكملها كانت على عجل من أمرها للعودة إلى العاصمة، وقد اكتشف السبب لاحقًا. وفي هذه الأثناء، قام "الدفتردار المُعَظَّم" ([20]) ، أي وزير المالية، "إسكندر شلبي" ([21]) - وهو من أكثر رجال الإمبراطورية ثراءً، ونفوذًا، وقوة - بزيارة قصر "أدرنة". كان معروفًا بحاشيته ذات الألوان المختلفة، والتي يأخذها معه في كل مكان، والتي كان يبدو عليها البذخ والرفاهية والترف، حتى إنها

كادت تنافس فخامة موكب السلطان نفسه. ومع ذلك لم يقترب منه السلطان لسببين: أولاً، لأن "الدفتردار" كان يقوم بعمله على أكمل وجه في مراقبة دخل ونفقات الإمبراطورية وتنظيمها. لكن لم يكن هذا السبب ذا أهمية تُذكَر، إذ لا يترتب عليه أي تهديد للسلطان أو لنفوذه، فقد كانت هذه وظيفته، وعليه القيام بها بإتقان بشكل أو بآخر. أما السبب الثاني، والأكثر أهمية، والذي كان يحميه رغم تبختره وتباهيه، وهو أيضًا سبب شهرته، هو أن "الدفتردار" كان يقوم بإعداد الغلمان الذين يأخذهم معه للقيام بمهام وأعمال الدولة بكل طريقة ممكنة يمكن تصورها. وقد درَّب أكثرهم موهبة في المجال الذي لم يتفوق عليه فيه أحد، وهو الشئون المالية، ولكنه بالإضافة إلى ذلك، علمهم أيضًا فنون الدفاع عن النفس، وكل ما يحتاجون إلى معرفته بخصوص آداب البلاط الملكي والدبلوماسية. وقد كان دائمًا الشخص الأكثر نجاحًا في إعداد الطلبة المتميزين بعد أن أنهوا دراستهم، والذين تم اختيارهم خصوصًا ليدربهم على المهارات، ويساعدهم على اكتساب المعرفة اللازمة للقيام بالوظائف الهامة في الدولة والبلاط الملكي. وكان ثمار كل هذا الجهد المبذول في تدريب الأكثر موهبةً وذكاءً تعود في النهاية على السلطان بالنفع. لم يأتِ "الدفتردار" هذه المرة لسرايا "أدرنة" كي يتحدث عن موازنة الكتب، ولكن لكي يختار مجموعة جديدة من الغلمان ليضيفها إلى بلاطه. اتضح أن اختياره كان له تقريبًا تأثير مماثل للاختيار الذي قام به "خسرو باشا الدلاتي" من قبل، إذ يكون من المتوقع أن مَن وقع عليهم الاختيار سيترقُّون حتى يصلوا إلى قمة الحكومة. وقد حدث أن "باجيكا" كان من بين الاثني عشر الذين وقع عليهم الاختيار. المفاجأة الوحيدة كانت تكمن في أن الاختيار وقع أيضًا على "مصطفى الصغير" الذي استمر "باجيكا" في الاعتناء به طوال غياب شقيقه "خسرو".

ولذلك انطلقوا معًا صاحبين "مصطفى" معهم هذه المرة لغزو بلاد فارس عام 1533. وقد فاجأهم مرور هذا التعميد العسكري دون ارتكاب الفظائع والأعمال الوحشية المعتادة. دخل الصدر الأعظم مدينة "تبريز" عاصمة "الشاه طهماسب" في منتصف العام المقبل بمساعدة حلفائه الفرس وغلمان "الدفتردار" الجدد دون قتال. ولم يشهد الغلمان أعمال النهب والعنف والشغب التي كانت القوات المنتصرة معتادة ارتكابها من قبل، والتي دائمًا ما يصاحبها احتلال المدينة التي فتحوها. وقد بات السبب وراء تأدب العثمانيين مع المهزومين واضحًا منذ مدة طويلة. وبعد مدة قصيرة، ترأس السلطان الجيش، وسار صوب بغداد بكل عزة وكرامة، وكان ذلك في آخر يوم من عام 1534. قد أصبح حلمه في السيطرة على عاصمة الخلافة، وفي أن يصبح حاكم العالم الإسلامي حقيقة. وأخيرًا يمكنه أن يطلق على نفسه لقب "بادشاه" ([22]) ، إذ وصل إلى ذروة حكمه، ولذلك عليه أن يثبت أنه جدير بهذا اللقب، وخاصة في عيون رعاياه الجدد من الفرس الذين غُزَتْ بلادهم حديثًا.

وقد طرأ على شخصية "باجيكا" تغيران مهمان خلال هذه الحملة، كان أحدهما نتيجة للخلاف الذي نشب بين سيده "الدفتردار" المُعَظَّم "إسكندر شلبي" والصدر الأعظم "إبراهيم باشا". استمرت المشاحنات بينهما عدة أعوام، ولكنهما استخدما الحملة على بلاد فارس كعذر لمواجهتهما النهائية. تميز الصدر الأعظم عن "إسكندر شلبي"، لأنه ما زال متزوجًا من أخت السلطان والمفضل لديه. كانت النهاية وحشية؛ عُقِد ديوان علني في بغداد، حيث تم الحكم على "إسكندر شلبي" بالإعدام شنقًا في الساحة المركزية. ثم صودرت كل أملاكه وسلِّمت لخزينة الدولة بعد تنفيذ الحكم عليه. ترك خلفه قصره والعديد من المباني الأخرى، بالإضافة إلى ستة آلاف حارس شخصي وخادم وعبد، من بينهم

الغلمان الثلاثمائة الذين لم يفخر بشيء كما كان يفخر بهم. يُقال إن أحد أهم الأسباب وراء غرور الصدر الأعظم هو امتلاكه نحو مائة من الغلمان من هذا النوع، في حين يتراوح عدد غلمان الوزراء الذين تحته ما بين الستين والثمانين.
وعلى الرغم من أن ما حدث يعني أن "باجيكا" سوف ينتقل إلى خدمة السلطان، أو ربما إلى البلاط الملكي بالعاصمة، فإنه كان يشعر بالأسى على "إسكندر شلبي" الذي كان يعاملهم جميعًا بطريقة جيدة. ومع هذا، كان هذا هو الموقف الذي تعلم منه ألا يتجاوز حدوده؛ أن يحترم التسلسل الهرمي للمناصب المختلفة بعدم تخطي رؤسائه.
أما التغير الثاني الذي طرأ على شخصيته، فقد كان ذا شقين، وكان له علاقة بـ"سنان". عند تنفيذ الجزء الأول من خطة غزو بلاد فارس، تم تكليف "سنان" ببناء عدد كبير من السفن لنقل القوات. بفضل نجاح "سنان" في تنفيذ الأوامر في وقت قياسي، وتسليم القائد الأعلى للحملة سفنًا مجهزة بالكامل، نُسِبَ إليه الفضل في سرعة انتشار القوات العثمانية في بحيرة "فان"، ومن ثَمَّ استطاعوا التغلب على الجيش الفارسي بمنع وصول الإمدادات إليه، فكان النصر نظيفًا وسريعًا ولا جدال فيه. وكوفئ "سنان" بتعيينه "هاسيكي" ([23]) - أي قائد - الحرس الشخصي للسلطان.
ثم بعد ذلك، وصل معمار "سنان" إلى بغداد، حيث زار "باجيكا".
ولم يخفِ أيٌّ منهما السعادة الغامرة التي يكونان فيها عند اللقاء مجددًا. كان "باجيكا" فخورًا بصديقه، وبدأ ينقل له ما يتحدث به الجيش كله، إذ يقول الجنود: "إنه لولا السفن التي صنعها "سنان" ما كانوا لينتصروا"، لكن "سنان" لم يكن يهتم بهذا. ليس لأنه لم يكن ممتنًا لذلك، بل لأنه يقرُّ أن ما زال لديه ما يكفيه من صنع الأسلحة والتدمير وإعادة بناء الحصون العسكرية لينشغل به. وعلى الرغم من ذلك، فقد كان توَّاقًا لبناء شيء للحياة، وليس للموت أو للقتل. وبعد ذلك، فاجأ "باجيكا" عندما قال:
- أظن أنه حان الوقت الآن لأخبرك باسمي المسيحي.
ثم توقف للحظات، ليعطي نفسه فرصة ليدرك أن اعترافه هذا كان دليلًا على انشغاله بالحياة، ثم بعد ذلك قال:
- اسمي هو "جوزيف". ولأن أبي كان بنَّاءً ونجارًا، فقد أطلق عليَّ هذا الاسم تيمنًا بنجار من أرض الجليل، وهو زوج "مريم"، وزوج أم المسيح.
ولما كان "باجيكا" مذهولًا مما سمع، حاول "سنان" التخفيف من وطأة الأمر فقال:
- ماذا بك؟ هل عليَّ أن أظهر لك دليلًا لأثبت ذلك؟
وفي هذه الأثناء، كانا جالسين فيما يُسَمَّى بخيمة الضيوف. وبينما كان "باجيكا" يحاول الإجابة عن هذا السؤال الذي لم يكن سؤالًا حقيقيًّا بصمته، فجأةً دخل عليهما عدد من غلمان الصدر الأعظم يتبعهم هو بنفسه، انتاب "باجيكا" الخوف، لأنهم كانوا يتصرفون بعصبية واندفاع، ولكن سرعان ما فسَّر لهم "إبراهيم باشا" السبب وراء ذلك فقال:
- سمع السلطان المُعَظَّم أن معمار "سنان" هنا، وهو يرغب في رؤيته، وها هو ذا آتٍ.
لم يستطع "جوزيف" أو "باجيكا"، بل لم يستطع "يوسف" أو "محمد" (استخدم أي الأسماء شئت، سواء الأسماء التي تعبِّر عما بداخلهما حقًّا، أم التي تعبر عن مظهرهما الحالي) استجماع نفسيهما واستيعاب ما يحدث من فرط الدهشة، إلى أن دخل السلطان بنفسه خيمتهما محاطًا بحراسه

الشخصيين. وعندما دخل السلطان، خر الجميع سُجَّدًا وركعًا أمامه، منتظرين ما ستسفر عنه هذه الزيارة المفاجئة.
ثم طلب منهما الحاكم الجلوس على الوسائد التي أمامه، وطلب من الصدر الأعظم الجلوس بجانبه. واندهش "باجيكا" عندما وجه السلطان حديثه إليه أولًا عندما قال:
- أنت إذن الشخص الأكثر أهمية لبطلنا من سيده. قد أتاك متباهيًا بإنجازاته أيها الكيَّال للقوة العثمانية. هل كنت أنت مَن فكر وقدَّر له ما إذا كانت السفن ستستطيع النجاح في مهمتها والوصول إلى "فان" أم لا؟ طبعًا إذا أخبرته - حتى لو عن طريق المصادفة - أن هذا ليس ممكنًا، كان من الممكن أن يرفض تنفيذ أوامري، وما كان ليبني هذه السفن.
بتركيزه على كلمات القياس وتقدير المسافات وحساب إمكانية الوصول، بدا السلطان كما لو أصاب "باجيكا" بالشلل، وذلك لأن بفعله هذا أراد السلطان من "باجيكا" أن يعرف أنه ما زال يتذكره، وثانيًا لأن نبرة السخرية التي تحدث بها أثارت الرعب في نفس "باجيكا" حتى النخاع. أكمل ممازحًا "باجيكا":
- لحسن الحظ أن حساباتك قد دعَّمَت أوامري.
كان الصدر الأعظم متفاجئًا مما يسمع، ولكنه أيضًا كان أول مَن أدرك حدود جدية هذا الحديث، وعرف أن كل هذا كان من باب المزاح. ومن ثَمَّ كان هو أول مَن ضحك بصوت عالٍ. ولم يشعر "محمد" و"يوسف" بالارتياح إلا بعدما بادله السلطان الضحك.
كان الضحك هو حماية "باجيكا" الوحيدة. لم يجرؤ أحد على مخالفة السلطان ولا حتى على سبيل المزاح. ومع ذلك، حتى إن خفف الضحك قليلًا من شدة الموقف، فهو لم يحررهما منه. ماذا سيحدث بعد ذلك؟
كاد السلطان يختنق من ضحكته، فقد كان مستمتعًا بالموقف، ومع ذلك عندما لاحظ أنه من الممكن ألا يكون الأمر مضحكًا لبعض الأشخاص؛ توقف على الفور، ثم قال:
- لا تقلقا، لقد جئت إليكما بنيَّةٍ سليمة، فلا تخافا.
ثم التفت إلى "باجيكا" مرةً أخرى، ثم قال:
- إذا جاء "معمار سنان" لتكريم شخصٍ ما، أو اتخذ من شخصٍ ما صديقًا له، فهذا يعني أن هذا الشخص جدير بالاهتمام ويستحق الانتباه. لكن كما ترى، لقد لاحظت هذا مبكرًا. الآن أنا متأكد أنه من المفترض أن يكون الوضع كما هو عليه الآن.
ثم بعد ذلك توجه بالحديث إلى "إبراهيم باشا" فقال:
- أظن أن عليَّ مكافأتهما كليهما، ما رأيك؟
ظنَّ "باجيكا" أن الهدف من هذا السؤال هو إثارة الصدر الأعظم، أو ربما بدا سؤالًا لا يحتاج إلى إجابة. لكن لم يبلع "إبراهيم باشا" الطعم فقال:
- حسنًا إذن، لقد كافأت "سنان" بالفعل بتقليده هذا المنصب الجديد، ولا يمكنك مكافأة هذا الشاب المتدرب مقدمًا.
فأجابه السلطان:
- أجل، لكن هذا المنصب لا يعني شيئًا لـ"سنان"، فهو يريد أن يثبت نفسه مهندسًا، وهذا الشاب "محمد" قد أثبت نفسه بالفعل عند تمكنه من حساب نسبة نجاح الجيش العثماني.

وفي هذه الأثناء، كان "جوزيف" و"باجيكا" ينظران إلى بعضهما، متعجبين من هذين الشخصين، صاحبي أعلى منصبين بالإمبراطورية، السلطان وصدره الأعظم، يتحدثان مع بعضهما هكذا بتحدٍّ كما لو كانا طفلين. هل كانا يمزحان، أم إن هذا كان تحفيزًا حقيقيًا لـ"يوسف سنان" و"صقللي محمد"؟ كان الصمت هو الجواب الأفضل. ويظل الصمت في الوقت المناسب هو برهان حكمة الرجل. رد "إبراهيم باشا" على السلطان قائلًا:

- هل تريد مكافأته على وقاحته؟

فقال السلطان:

- سَمِّها ما شئت. المهم أنه أظهر كيفية التفكير بعقلانية، وأثبت أهمية التخطيط بدقة.

لكن، لم يكن الباشا ليستسلم بسهولة، فاستمر في استفزاز السلطان وإثارته فقال:

- إذا تفوه شخص آخر غيره في الإمبراطورية بمثل هذا الكلام، لكان الآن ميتًا، وأنت تودُّ التعبير له عن امتنانك؟!

فأجابه السلطان:

- هذا لأنه تجرأ على التشكيك برأيي وإمعان التفكير به. وأعترف أنه كان من الممكن أن يقتله أي شخص آخر إذا سمع تعليقاته هذه على أفعال السلطان. ولكن لما كنتُ ذلك الشخص الذي سمع ما قال، ولما كنتَ أيضًا جزءًا من ذلك، فإنني أريد الثناء على تلك الوقاحة. وعلى أي حال، لماذا لا نترك للحظ مجالًا ليلعب دوره في كل هذا.

ثم استسلم الصدر الأعظم في النهاية وقال:

- حسنًا إذن، ولكن كيف ستكافئه؟

فقال السلطان:

- لقد كافأت "سنان" بالفعل، لكنك لم تعرف بعد.

ثم توقف السلطان عن الحديث قليلًا ليرى الجميع دهشة الصدر الأعظم، وبعد ذلك أكمل قائلًا:

- على شرف نصرنا في "فان" الذي حققنا جزءًا منه بفضله، فقد أمرته بالبدء في بناء مسجد باسمي، وعلى نفقتي الخاصة، بالقرب من البحيرة التي تحمل الاسم نفسه.

ثم بعد ذلك، وجه حديثه إلى "سنان" فقال:

- أريد أن أرى كيف ستنجز هذه المهمة. أم هل تُراك جئت لتستعين بقدرة صاحِبِك على تقدير الأمور لوضعها في نصابها الصحيح؟ إذا كان الأمر كذلك، دع هذا الغلام يتحمل جزءًا من المسؤولية في المستقبل، ومن ثَمَّ سيدرك مدى ثِقَل توقعاته، وما يمكن أن يحققوه بفضله.

كان لحصول "سنان" على مثل هذا العرض والأمر الرائع تأثير سار على نفسه أسعده، لدرجة أنه نسي سخرية السلطان القاسية منه. ففي هذه اللحظة لم يكن "سنان" محل الاهتمام، بل على العكس، لقد كان صديقه هو الذي حصل على شيء لم يكن بمقدوره سوى أن يحلم به ويتمناه، ومع ذلك لم يكن ليجرؤ على التفوه به أو ذكره أمام أحد. وعلى ما يبدو أنه ذهب لزيارة "باجيكا" ليبشره بهذا الخبر في المقام الأول. وعلى أي حال، لم يكن عليه أن يقلق كثيرًا بشأن نفسه، فعلى الرغم من أن السلطان وبَّخه قليلًا، فإنه فعل ذلك بلطفٍ ومودة. والآن سيثبت السلطان كما وضح لـ"إبراهيم باشا":

- إذا كان مُقَدَّرًا له أن يكون في بلاطي الملكي، فلسوف أوظفه بمنصب يكون فيه تحت قدمي وأمام ناظري. اجعله "الركابدار" ([24]).

ِّ

ثم نهض وغادر بعد قوله هذا، وبالطبع لا يعير هذا السلطان الذي لا يُقهر انتباهًا لمن يُخَلفهم وراءه.
ولم يكد "باجيكا" يفهم طبيعة الوظيفة التي كلفه بها السلطان، حتى حدثت مفاجأة جديدة. وقد أتى هذا الخبر من "سنان" الذي أخبر الصدر الأعظم و"الركابدار" الجديد أنه قد انتهى من بناء المسجد، ولم يجرؤ على التصريح لهم بأي تفاصيل عن بنائه بناءً على أوامر السلطان القانوني. ثم أخرج عدة أوراق كبيرة من لفافة قماشية، وفتحها ليريهم مخططات المسجد الذي بناه باسم "سليمان". وعلّق على ذلك قائلًا:
- لقد رسمت هذه التصاميم قبل البدء في عملية الإنشاء. أما الآن فقد عفا عليها الزمن ولم تصبح لها أهمية، لأنني قمتُ بتنفيذها بالفعل. آهٍ لو كان بإمكانكم معايشة هذا الشعور الرائع الذي أختبره عند رؤية شيء من وحي الخيال قد تحول إلى حقيقة حية ستدوم أبد الدهر. الآن يمكنني المضي قُدُمًا والموت في سلام.
ولقد أصاب "باجيكا" في توقعه بأن "سنان" أتى إليه ليشاركه فرحته بأول إنجاز له في "وقت السلم" كما كان يقول، ولكنه لم يطلعه على ذلك في بداية الأمر، بل أتى إليه بعد أن انتهى بالفعل من البناء. وقد كان هذا نصرًا عظيمًا على الرغم من أن هذا الوصف حربي، فإنه مع الأسف لا يمكن وصف إنجاز مثل هذا المشروع سوى بالنصر العظيم، لكن هذه المرة تحقق هذا النصر دون أي خسائر على الإطلاق؛ بالطريقة نفسها التي طالما حلم "باجيكا" أن يتحقق بها النصر.
بالتعمير وليس التدمير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

11

في أثناء محاولة الالتزام باتفاقنا الذي فشل بخصوص أخذ قسط من الراحة من الحديث عن الموتى، حاولت فهم قراءات "باموك" وتفسيري المبدئي لجملة المؤرخ الذي قال إن "كل شيء آخر تم تدميره أو السيطرة عليه بحد السيف" من منظور آخر. في البداية، ظننت أن السيطرة على كل شيء بحد السيف تعني القتل، ولكني اكتشفت أنه ليس بالضرورة أن يكون الأمر كذلك. عرفت بعد ذلك أنه من الممكن أن يعني أنه تمت "السيطرة عليه"، أو "أُخِذَ بالقوة"، وربما أي شيء آخر. هذا يعني أن في هذه الحالة كان المؤلف يحاول أن يكون أصيلًا في لغته، ولم يقصد الإشارة إلى عمل وحشي آخر بكلامه.

وقد هنأني "باموك" على حسن نيتي، ولكن لم يخلُ هذا المدح من السخرية. مفهوم طبعًا أن سبب سخريته هذه هو استخدامي السطحي للغة في محاولتي لتبرير هذه الأفعال بصرف النظر عن طبيعتها. ومع ذلك، دائمًا ما تكون الأفعال الصارخة أكثر بلاغة وقدرة على الإقناع من الكلمات. كان من الجيد استخدام كلمات مثل شهود الزور. ومن ثَمَّ يستقبل المُتَلَقِّي الصدق والكذب على قدم وساق.

ولكن إذا كانت السخرية إحدى الأسلحة المسموح بها في لعبتنا هذه، فلديَّ أسلحتي الخاصة. في منتصف عام 2006، وبالأدق في الثالث من مايو، وُضِعَ "باموك" - سواء أراد ذلك أم لا - ضمن قائمة مجلة "التايمز" الأمريكية لأكثر مائة شخص مؤثرين في العالم، وقد احتل اسمه مركزًا ما بين "چورچ بوش" و"بونو فوكس".

وإذا لم تَخُنِّي الذاكرة، فقد كان الكاتب الوحيد في القائمة. فقلتُ له:

- كيف يمكنك الدفاع عن نفسك ضد مثل هذه العروض المبهرجة عندما لا يكون لك رأي فيها إلا بعدما يتم إعلانها، وحينها يكون الوقت قد تأخر، هذا إن سألوك عن رأيك من الأساس؟ كيف يمكنك إبداء رأيك متأخرًا، خاصة إذا لم يكن يتفق مع الرأي العام؟ حسنًا، وإذا لم يكن قد فات الأوان بالفعل، كيف يمكنك مواجهة هذا؟

سألته هذا السؤال بهذا التفصيل وبشيء من الاستنكار، لأن هذا الحدث كان جديدًا، فقد تم نشر القائمة قبل وصوله إلى صربيا. فأجابني:

- أواجهه بالمزاح. أحاول أن أكون مضحكًا. أليس هذا بالضبط ما سألني إياه الصحفيون في بلجراد؟ لماذا لم أنتظر بأمريكا للاحتفال بهذه المناسبة في نيويورك في حين كنت هناك بالفعل؟ فأجبت قائلًا - لو تتذكر – "لأنني لديَّ مقابلة في بلجراد". أليس هذا صحيحًا، وفي الوقت نفسه مضحكًا؟

فقلت له:

- نعم، هذا صحيح. ولكن ما زال من المثير أنك جئت في القائمة بين اثنين من "المدافعين عن العدالة في العالم" وهذا ما يضعك معهما في الفئة نفسها. وفي الحقيقة، يمكن طرح مناقشة أخرى بخصوص الطرق المتعددة التي يتبعها الأفراد للخوض في هذه المعركة.

فقال "باموك":

- هذا موضوع يتناقش فيه الناس. حتى أفعال المغني الأساسي لفرقة "يو تو" (U2) لم تسلم من نقدهم هذا. أولئك الذين لا يرون أي شيء جيد بخصوص الرئيس الأمريكي يلومون "فوكس" على لقائه به. وهذا مفهوم. ومن ناحية أخرى، ربما يكون "فوكس" ذكيًّا، ويعرف أنه لن يستطيع بلوغ أهدافه دون

مساعدة رئيس أكبر قوة في العالم. أنا قصة مختلفة. فكلماتي تَسْمَع وتَقرَأ باهتمام زائد، بل إنني لست متوهمًا بخصوص تأثيري على الناس، وبخصوص قدرتي على إحداث تغيير الأشياء. ربما كل ما أفعله هو تشجيع الآخرين من خلال الإفصاح عن الأشياء التي لا يقولونها، حتى إن عبروا عنها بكلماتهم التي يتفوهون بها، فلن تصل إلى العامة.
فأجبته قائلًا:
- ليست لديك القوة للتأثير المباشر، ولكن يمكن القول بأنك تفعل هذا بطريقة غير مباشرة. فأنت لا تفعل شيئًا بنفسك، ولكنك تسلط الضوء على بعض القضايا، وهذا يحررك من المسؤولية جزئيًّا، وهذا وضع جيد نسبيًّا. ولكن مع ذلك، ما زال له جانب آخر؛ من السهل إساءة فهمك واستغلالك، ومن الصعب الدفاع عن نفسك ضد هذا، فلكل شيء ثمن.
فقال:
- لحسن الحظ أنه ليست لديَّ أفكار عظيمة بخصوص تغيير العالم، وليست لديَّ الرغبة في القيام بذلك أصلًا. وعلى أي حال، لا أزال أدفع ثمن العديد من الأفكار الأخرى الأقل أهمية. فكما ترى، تأتي الفواتير من مصادر متعددة.
فقلت له:
- على ما يبدو أنها تأتي من كل الجهات.
وبينما كنت أقول ذلك، كنت أستعد في عقلي للبدء في حديث جديد حول السياسة، متذكرًا قول "باموك" بأن "السياسة تصيبه بالملل". لا يهم كم يبدو هذا تغطرسًا، ولا يهم مَن صاحب هذه الفكرة، المهم أن مثل هذه الصفة تتناسب بكفاءة مع السياسة، وتضعها في المركز الذي تستحقه بالضبط. إنها من بين العديد من الأنشطة الضرورية والمفيدة، ولكنها بعيدة كل البعد عن جوهر الإبداع، وهو الدافع الأساسي للإنسان.
طوال المدة التي كنا نتناقش فيها حول الدور الذي تلعبه الأرقام والإحصائيات في الأدب، كان الأمر منطقيًّا ومتعلقًا بحس الدعابة الذي فيه. لم يكن موضوع الحسابات والإحصاءات الموجودة في الأعمال الأدبية وحولها موضوعًا مملًّا أو منهِكًا، ولكنه موضوع مُهَيَّأ بمثالية للفكر المبدع. هذه الموضوعات هي ملعبنا.
فعلى سبيل المثال، لدينا عادة أن نسأل بعضنا عن عدد الصفحات الذي ستتكون منه الرواية التي نكتبها، وكم صفحة كتب أحدنا حتى هذه اللحظة؟ ومتى سننتهي من كتابة هذا العمل؟ وعلى الرغم من أن هذه الحسابات لم تكن عبثية، فإننا عادةً ما نستخدمها سببًا للمزاح، إن لم يكن لغرضٍ أصعب وأكثر جدية. ومن مثل هذه المناقشات الطريفة، نبتت مصطلحات من نوع "أطفالي السمان"، أو "أطفالي متوسطي الحجم"، أو حتى عن "مدة حمل هؤلاء الأطفال، سواء طالت أم قصرت" وهكذا.
على أية حال، لم تكن علاقة الرياضيات بالأدب هي فقط ما يثير اهتمامي، بل إنني أيضًا أحب الجغرافيا. كان من الممكن أن أحصر نفسي، بحيث لا تتسنى لي كتابة ما أريد بصفتي مؤلفًا، دون استخدام الخرائط والاستبيانات الجغرافية. ولكن بمجرد انغماسي بها، تتصل سريعًا وبشكل لا يمكن مقاومته بالصور الفوتوغرافية والرسومات والرسوم البيانية واللوحات والنقوش، أي كل ما يمكن اعتباره فنًّا تصويريًّا. وبينما أنا مشدوه بكل كياني أثناء تعاملي مع هذه الألغاز المُثِيرة للاهتمام، أشعر بأنني عدت بالزمن إلى الوراء، إلى أيام المدرسة الابتدائية. وفي الحقيقة إنني أُقِرُّ بأن هذه التجربة تغمرني بالسعادة، لأنها تصحبني معها في رحلة إلى تلك الأيام التي لن تتكرر، عندما كنا نصل إلى

قمة التحمس والإثارة، عندما نتعلم أو نكتشف شيئًا ما للمرة الأولى. أعلم أنه لا يوجد شيء يُضاهي هذا الشعور، باستثناء الشعور الذي تخالجه أثناء الكتابة. والحق لا تختلف الكتابة كثيرًا عن تعلم الجديد واكتشاف المثير حول العالم. كتبت واحدة من رواياتي بعد بحثي الابتدائي المعتاد، بعد تجاهل كل شيء تعلمته (وهو ما كانت تقتضيه روح النص الذي أكتبه) وضعت أمامي كتيبًا من الصور. كان دليلًا خياليًّا وملهمًا. هل هذا متناقض؟ أن تعتمد كل تخيلاتك على الصور التي وصفها أحدهم في ملاحظاته أنها "حقائق تاريخية تَجَمَّد عندها الزمن"؟ بمعنى آخر، هل في استخدام الحقائق الحية والوثائق المصورة لخلق منتج أساسه الخيال تناقض؟ أيًّا كان، لقد أمضيت وقتًا لا يُنسَى.

ومن ناحية أخرى، لا يجد "أليكساندر جينيس" - وهو صديق لي - أية مشكلة في التكيف مع الأرقام، ليس فقط في وقت المزاح. ولديه إيقاعه الخاص في الكتابة، وأيضًا للنصوص التي يكتبها طول معين (في حالته من الأفضل أن نقول "قِصَر" معين)، ولكنه لا يعبأ بهذا على الإطلاق. وفي الحقيقة، إنه يكتب معظم نصوصه للبرنامج الروسي الذي يُذاع على محطة راديو بنيويورك، ومن ثَمَّ عليه أن يضع نصب عينيه أثناء الكتابة عدد الدقائق التي سيذاع خلالها النص، وقت البث المباشر في المحطات الإذاعية الحاكمة الاستحواذية المتسلطة (القانونية الرسمية). ومع هذا، يبدو الأمر عليه كما لو كان شخصًا لا يُبالي بالوقت المحدد له، والذي يتم التعبير عنه بصيغة أرقام. يُبهرني موقفه هذا. لما كان متيمًا بالحكمة العتيقة للصين واليابان، وعلى علم بالكثير بخصوص فن ومهارات الشرق الأقصى، فإنه يبدو كل شيء بداخل هذا التناقض في محله؛ هو والوقت والكون.

ولأنه روسي، لم يتأثر بالثقافة الأمريكية أو يحاول تبنيها. فإن "جينيس" يمثل نقطة تهيئة لي. فعندما أستغرق في الكتابة عن تفصيلة معينة وأطنب إطنابًا في غير محله، أتذكر اقتصاده في استخدام الكلمات. وبالطبع ليس لهذا الإيجاز أي فائدة إن لم يحمل في طياتِه حكمة رشيدة ممزوجة بحس فكاهي يميزها عن غيرها.

فعلى سبيل المثال، عندما كتبت له عن انطباعاتي الرائعة بعد زيارتي الصين التي زارها "جينيس" بالفعل عدة مرات، قال لي:

- أظن أنني كنت صينيًّا في حياتي السابقة. المشكلة الوحيدة هي أنني لا أؤمن بالحياة السابقة.

وقد نبعت شخصيته المتناقضة هذه من حياته الحاضرة، فهي ليست فقط مجرد تعبير عن طبيعته وحياته المليئة بالتناقضات. أذكر أنني عندما سألته ذات مرة عما يفعله كل هؤلاء الروس بأمريكا في معزل عن روسيا، وبعيدين عن مواطنهم وأهاليهم عقودًا، قال لي إنهم هناك ليظلوا ينتقدون الأمريكيين على الدوام. كان عليه مغادرة الاتحاد السوفيتي عام 1977 مثلًا ليدرك أن أقصر طريق ليحقق حلمه ويستطيع الكتابة والنشر باللغة الروسية كان مغادرة روسيا. أين أو بالأحرى من أين بدأ كل هذا يصبح واقعًا؟ لقد دحض "جينيس" المنطق عندما لم ينجح في تحقيق أحلامه سوى بالقطب السياسي الاجتماعي المناهض تمامًا له ولثقافته. حقيقة أن الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي - أو ما أصبحت روسيا في يومنا هذا - لم يعودا كما كانا في السابق لم تغير فكرة أنهما ما زالا مثالًا نموذجيًّا للتضاد في أذهان الناس.

وفي الواقع، سيكون وضع اقتباس ما بالنص أكثر دقة وأقدر على التعبير، وأكثر شمولية وعمومية من محاولة تفسيره. ولذلك سأذكر هنا ما قاله "جينيس" بالضبط، حيث يُطَعِّم كلامه تلقائيًا ببعض الاقتباسات من "مارتن لوثر كينج"، والإنجيل، وأغاني "البلوز". يقول:

"كان لديَّ حلم. حلمت بأن أكتب وأنشر أعمالي باللغة الروسية. ولكن مما يدعو للدهشة أن أقصر طريق لتحقيق هذا الحلم كان بمغادرة روسيا".

فعندما نضيف إلى "الشطيرة الأمريكية" (المتمثلة في قائد أسود ينادي بحقوق الإنسان، والإله، والموسيقى) "بعض الفودكا الروسية بالمخلل" (وهي تمثل كآبة الحزن، والمأساة، والأبدية) نحصل على مزيجًا مثاليًا لمنظور غربي شرقي للعالم. بالنسبة لي، يُعدُّ "جينيس" أفضل وسيط بين هذه المتناقضات النسبية، وليس فقط مجرد كاتب. وإذا كان بإمكاني، ولو من باب المصادفة، أن أقنع كل دول العالم لتؤلف كتابًا عالميًّا واحدًا عن أوجه الشبه والاختلاف بين أكثر دول العالم إثارة للجدل - أمريكا وروسيا - ولكن بشرط أن يكون الكتاب مثاليًّا، ومن منظور الشرق الأقصى، فلسوف أعهد بتأليفه إلى "أليكساندر جينيس".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل الحادي عشر

بعد أن أصبح ضمن حاشية السلطان بالبلاط الملكي، سار "باجيكا" بخطوات واثقة نحو النجاح مدة عشر سنوات. ومع ذلك، يجب الأخذ بعين الاعتبار أن تحقيق مثل هذا النجاح لم يكن ممكنًا في معظم الحالات. أي إنه ليس كل مَن يعمل بالبلاط يمكنه تحقيق ما حققه "باجيكا". حتى إن "باجيكا" نفسه لم يكن يصدق ما وصل إليه، وكان دائمًا يسأل نفسه عما كان يحميه من التقهقر أو الفشل جملة واحدة؛ "لا قدر الله". وعلى الرغم من أن الإجابة على هذا التساؤل جاءته متأخرةً قليلًا، فإن هذا لا يلغي أهمية ما تعلمه. لقد كان محظوظًا في الوظيفة الأولى التي تقلدها. فهو بخلاف الآخرين لم يتم تعيينه من قبل أحد رعايا السلطان وحاشيته كما جرت العادة، بل في خضم الأحداث السابق ذكرها، اختاره السلطان شخصيًّا ومباشرةً. وعلى الرغم من أن ذلك لم يكن ضمانًا لتألقه ونجاحه، ولا تأكيدًا لقدرته على الوصول إلى القمة، فإنه على الأقل كتم ألسنة مَن كان ممكنًا أن ينتقدوه ويتتبعوا زلاته، ويبدؤوا بإصدار أحكامهم عن مصيره المحتمل، وهم كُثُر. منذ تلك اللحظة فصاعدًا، كان موجودًا على الدوام في حضرة رجلٍ واحدٍ، لكنه رجل يمتلك في عصمته قوة مُطْلَقَة. الشيء الجيد والشيء السيئ في الوقت نفسه بخصوص هذا المنصب هو أنه كان دائمًا تحت ناظري الحاكم العظيم. وأجبره هذا أن يكون حذرًا طوال الوقت، وساعده في تعلم كل شيء ممكن بخصوص المهام التي يُكَلَّف بها. بدا الأمر له أن السلطان سيلاحظه، حتى إذا رمش بعينيه. وهذا لا يعني أن السلطان لم يكن وراءه هم غير مراقبة "باجيكا" والتفرغ له بالطبع، ولكن حقيقة أن السلطان بإمكانه النظر إلى "باجيكا" في أي لحظة، أبقت "باجيكا" على أطراف أصابعه يقظًا متنبهًا. وقد ساعد هذا "باجيكا" في أن يرى منصبه، ليس بعين خائفة من ارتكاب أي خطأ، ولكنه كان يراه فرصة لمعرفة إذا كان السلطان راضيًا عن عمله أم لا على الفور. والحق إن هذه كانت فرصة له لإثبات نفسه للحاكم على الدوام، ومن ثَمَّ كان له السبق على الآخرين في هذا. كان عليه فقط أن يحرر عقله ويفرغ تفكيره لهذا. ولكن هذه الحرية لم تعنِ أن يهنأ باله وأن تقر عيناه بما وصل إليه، بل عليه أن يزداد حيطةً وحذرًا. فبالتعلم من حالات أخرى سابقة، عليه أن يعي جيدًا أنه مهما كانت الحماية التي تحيط به من قِبَل الحاكم محكمة وعظيمة، فإنها لن تحميه أو تنقذه من محاولات الحاقدين والحاسدين له على ما وصل إليه، أو من شرار النفوس ممن يتمنون أن ينتقموا منه أو يؤذوه، أو حتى يأخذوا منصبه، أو إن أمكن حياته بالمرة. القاعدة الأولى لدخوله البلاط الملكي كانت أن ينحِّي تلقائيته وحسن ظنه بالناس جانبًا، أو إن أمكن أن يتخلَّص منهما تمامًا. ومجرد أن تخطر هذه الفكرة على باله تعني أنه بالفعل بدأ يفعل هذا.

وقد قدم له السلطان بنفسه الكثير من المساعدة. كانت كل المناصب التي مُنِح إياها تقع بالقرب من الحاكم، وتجعله على اتصال مباشر به. وعلى الرغم من أن هذا القرب أنقذه من المجهول، وبعد ذلك من المنافسات والمعارضات الخفية، فإنه زاد عدد الناس الذين بدؤوا يكرهونه ويحقدون عليه، لقربه من السلطان.

بالإضافة إلى قربه من السلطان بفضل وظيفته، كان "باجيكا" يقضي الكثير من الوقت معه لسبب آخر غير العمل. كان "سليمان" دائم التقدم خلال عقد بأكمله. وعندما كان خارج البلاط، كان يُعفى من عدد كبير من المراسم المختلفة، والمسؤوليات المفرطة التي كانت تشتت انتباهه عن الكثير من الأشياء والأماكن الأخرى. يبدو هذا عبثيًّا ولكنه حقيقي. في خارج البلاط، كان يتم تقييد نطاق حركته

داخل المعسكر أو مراكز الاستطلاع الحربية. ومن ثمَّ صرف نظره واهتمامه لحاشية السلطان وأتباعه. ومن وجهة نظر "باجيكا" أن هذا يعني أنه عمليًّا عليه القيام بالعمل دون انقطاع وبلا توقف، لأن هذا التركيز في حياته الشخصية بهذا الشكل يحتاج وجوده الدائم في محل السلطان. وبسبب هذا، كان الحاكم دائمًا ما يختبر ولاءه وإمكانياته، مما أسعده بالطبع، لأنه صار يعتمد على غلامه أكثر فأكثر. تحولت هذه السلسلة من الأحداث وردود الفعل إلى دائرة سحرية.

ولكن كان هناك شيء آخر يحدث. رأى "باجيكا" أن الاقتراب من السلطان بهذا الشكل فيه خطورة كبيرة عليه، فلا يوجد مثال على هذا أفضل من الحالة التي رآها. فقد فَقَدَ صديق الحاكم من الطفولة وصَفِيُّه، والرجل الأول في الدولة بعد السلطان صدره الأعظم "إبراهيم باشا" ثقة السلطان به في لحظة، لأن على ما يبدو أن قوته أذهبت عقله. كان على الحاكم أن يذكره بمكانته الحقيقية، وأن الوزير الأول للدولة ما زال مجرد عبد وتابع للسلطان (وفي هذه الحالة عبد يوناني) ولا شيء أكثر من هذا. وقد عاقبه بالحكم عليه بالموت. وفي إحدى ليالي عام 1536، وصلت مشنقة حريرية إلى سريره. خلال ذلك العَقْد، مرَّ "باجيكا" بالعديد من الأمور مع السلطان وصدريه الأعظمين "أياس باشا"، ومن بعده "لطفي باشا"، كما مرَّ خلال ذلك أيضًا بحملة حربية استمرت ستة أشهر من إسطنبول إلى "فالونا"، وبمعركة مع أهل البندقية على "كورفو" عام 1537. وقد قضى نصف العام الذي أتى بعده في الطريق بين إسطنبول و"مولدافيا" فقط ليعاقب أحد تابعيه، وهو "الكونت بيترو راريس" في "سوسيفا" على نهر "بورت". وفي صيف 1441، سار إلى "بودا" واحتل معظم المجر، وبعدها بعامين كرر الحج، بالإضافة إلى غزوات جديدة. وعندما لم يكن يترأس حملة عسكرية، كان "سليمان" يرضي شغفه بتنظيم رحلات صيد متكررة، حتى لا يمنح حاشيته أي لحظة راحة أو سلام.

وبمرور الوقت، دفعته ثقته التي لا يمكن أن تتزعزع في "باجيكا" بتغيير النظام من خلال المناصب التي تقلدها. وعندما حان الوقت المناسب، عين "محمد" أو "باجيكا" ليصبح "التشوهادار" ([25]). ومن ثَمَّ أصبح "باجيكا" أكثر قربًا من السلطان بالمعنى الحرفي والمادي بالتكيف مع قفاطينه، وعماماته، وملابسه السوداء بتطريزاتها الذهبية، والمئات من التفاصيل الأخرى التي تخلق مظهر الحاكم. وقد جعل هذا المنصب الآخرين يبدؤون بمناداته بالآغا. الشكل الجديد لهذه العلاقة الوطيدة والقرب الشديد بينهما تمثل في تَقَلُّده درجات خاصة ومنزلة جديدة من الثقة. بدأ السلطان يعهد إليه بمهام ذات طبيعةٍ دبلوماسية وعسكرية، أو مهام شبه سرية، نتيجة لثقته المتزايدة فيه، هذا بالطبع بالإضافة إلى مهامه الرسمية المتوقعة. وقد أهله هذا ليُضاف إليه لقب جديد. عينه السلطان ليصبح "السلحدار آغا" ([26]) فجعله اللقب بالإضافة إلى طوله الممشوق وجسده الرشيق محط أنظار أكثر من ذي قبل، إذ كان يسير بالجانب الأيمن للسلطان حاملًا سيفه. ثم بعد ذلك، عينه السلطان ليصبح "شيشنجير باشا" ([27]). ومع هذه البادرة، بدا الأمر كما لو كان "سليمان" يرغب في أن يُري الجميع كم كان يثق في "محمد"، وأنه من دونه لن يسير شيء على ما يرام. ومع هذا، لم يكن هذا كل شيء؛ فقد عيَّنه أيضًا "الكابيدزي باشا" ([28]) العالي. الآن، أصبح الطريق ممهدًا لـ"باجيكا" ليتقلد المناصب العليا في الدولة. بالإضافة إلى تكليفه بوظائف مثل مرافقة المبعوثين الأجانب في طريقهم للحاكم أثناء مرورهم بين الجماهير، فإن هذا المنصب هو الأعلى في البلاط الملكي، وقد كان على درجة من الأهمية للسلطان، لدرجة أنه كلَّف الباشا بالقيام بمهمات سرية لتوصيل رسائل سرية وخطابات

"بورتا" للمسؤولين في المقاطعات، ولتوصيل مشانق السلطان الحريرية وفرمانات القتل ([29]) ، وهلم جرا. وما كاد "باجيكا" يصبح شخصية ذات تأثير في البلاط الملكي، حتى لاح له منصب جديد في الأفق ليتقلده - أول منصب خارج أسوار البلاط الملكي - مرتبة "السنجاق بك" ([30]).
ولم يكن "محمد" مهتمًا بأن يتباهى أمام السلطان بمهاراته العسكرية في كل شئون السلطان التي كان يقضيها، وبالأخص أثناء الحملات العسكرية، لأنه يعلم أن هذه المهارات لا تلفت انتباهه، ثم إنه يعي أنه ليس بارعًا فيها. لذلك صرف اهتمامه لتعزيز قدراته على التخطيط والتنظيم والتفاوض وعمل الاتفاقيات، ومؤخرًا إصدار الأوامر. ومما جذب السلطان إلى "محمد" هو أنه كان قادرًا على تحويل أي رؤية أو فكرة مجردة إلى عمل ملموس على أرض الواقع، ثم يستطيع أن يحول كليهما - الفكرة والعمل - إلى نجاح. فإذا لم يكن قادرًا على تنفيذ المرحلة الأخيرة من أي مشروع أو فكرة، لما كان لمهارته كل هذه الأهمية في نظر "سليمان".
وبنجاحه في هذا، وبالمقارنة مع كل أولئك المقربين من السلطان، فقد أثبت "باجيكا" أنه قادر على إحداث نتائج ملحوظة، وليس فقط مجرد نتائج سطحية ليست لها قيمة. اختبره السلطان بكل دهاء وحذر في مواطن عدة، فبدأ بتكليفه بالتعامل مع أمور هامشية غير مؤثرة بالمرة، ثم بالتدريج بدأ يوليه أمر قضايا ومهام خاصة بالدولة.
وفي هذه الأثناء، عندما أصبح واضحًا للجميع أن "باجيكا"/ "محمد" هو المفضل لدى السلطان، أصبح لدى صديقه "سنان"/ "جوزيف" طالبًا وتابعًا، هذا غير أنَّ إتمامه السريع لبناء جسر فوق نهر "بروت" - على الرغم من أنه بناه لأسباب عسكرية – كان أحد الأسباب الجوهرية التي ساهمت في النصر في الحملة العسكرية على "كورفو" و"مولدافيا" 1537 - 1538، فكوفئ على ذلك بالاعتراف به مدنيًّا. وتم تعيينه "سوباشا"، وهو المشرف الرئيسي على أعمال البناء في مناطق معينة بالإمبراطورية. وبعد ذلك بمدة قصيرة، رفعه الموت وعمليات الإزالة إلى أعلى منصب يمكن أن يصل إليه مهندس في الإمبراطورية، فأصبح "المعمار باشا"، أي كبير مهندسي الإمبراطورية. وهذا بعد أن وافت المنية المهندس المعماري الإمبراطوري "آكيم أليسي آغا" عام 1538، فلم يطق الصدر الأعظم "لطفي باشا" الانتظار، حتى كلَّف "سنان" - قلبًا وروحًا - بأن يحل محله تحت اللقب الرسمي "خوجة معمار" ([31]). وفي كل الأحوال، لم يكن هناك مَن هو أفضل منه في المعرفة بكل ما يخص التشييد والبناء في ذلك الوقت، كما لم يوجد شخص مرغوب فيه أكثر منه. وبالتحديد، كان "لطفي باشا" قائد القوات التي كان يخدم بها "سنان" أثناء الحملة العسكرية التي شنُّوها سابقًا على "روملي" وبلاد فارس، وقد سمح له منصبه بملاحظة ومتابعة "جوزيف" وإمكانياته العديدة عن كثب. كما أنه اختبر مهاراته في بناء وتشييد الصروح الحضرية؛ فكلفه منذ عامين ببناء حمَّام، فبنى "سنان" حمَّامًا تركيًّا في منطقة "يني باهتشة" في إسطنبول.
استغل كل من "سنان" و"محمد" الحملة على "كورفو" و"مولدافيا"، ليقضيا معًا بعض الوقت كلما كان ذلك ممكنًا. كان عليهم أولًا عبور جسر "سنان" الخشبي الذي شيده على نهر "بروت"، وكوفئ عليه بالعديد من الجوائز فيما بعد، ليثبتوا بذلك أنه ليس من الضروري أن الجسر الذي استغرق ثلاثة عشر يومًا فقط في تشييده سيصمد العدد نفسه من الأيام، بل إنه قادر على الصمود سنواتٍ وسنوات.
كان هذا الجسر هو النموذج الذي أدرك "باجيكا" من خلاله أن المستحيل ممكن. ذُهِل السلطان والصدر الأعظم من سرعة التنفيذ، ولكن ذهول وصدمة العدو كانت أكبر، فقد فاق إبداع "سنان" أي

توقع، لدرجة أن العدو لم يستطع تفادي ذهوله، ولا أن يستفيق من صدمته في الوقت المناسب، فضلًا عن عدم إيجادهم الفرصة للاستعداد للدفاع عن أنفسهم. ومن خلال هذه الحملات وقضاء هذا العقد من حياتهما في الحرب، وفي خضم غيابهما الدائم عن العاصمة، أصبح "سنان" و"محمد" مدركين التغيرات الجذرية التي أصابت حياتيهما وتقدم عمريهما مع هذه التغيرات. بلغ "سنان" الخمسين من عمره بالفعل، وقد اكتمل نضجه الذي توجته ألقابه الكثيرة، ولكنه ما زال يعلم أنه لم يحقق أهم أعماله بعد. و"محمد" وصل إلى الثلاثينيات، إلا أنه لم يحقق بعد ولو جزءًا مما حققه صديقه حتى، وإن كان أيضًا يُكافَأ على إنجازاته، إلا أن سنه الصغير لم يسمح له باللحاق بركب صديقه. أمَّا هذا، فقد كان هذا هو الشكل الخارجي للعلاقة التي تربطهما. أمَّا في جوهرها، فقد حقق "محمد" نوعًا خاصًّا من الحكمة في سن مبكر، وقد أزال هذا الاختلاف الناجم بينه هو و"سنان" عن الفرق في السن، وقد صرح "سنان" بهذا علانية. وقد كان واضحًا من البداية أن حكمة "محمد" ستتناغم مع عملية عقلية "سنان" الهندسية، وستجعل منهما نِدَّيْن متساويين وستجعل منهما خليلين.

وقد حدث هذا بالفعل قبل أن يبدآ بالتفكير في الأمر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

12

كلنا نقضي الكثير من الوقت بحثًا عن أوجه التشابه والاختلاف بأنواعها، كتلك التي بين روسيا وأمريكا. تلقيت مساعدة من وسطاء أحياء في مناقشات حول هذه القضايا، بالإضافة إلى مساعدة عدد قليل من مواطني تلك البلاد ممن لديهم الشجاعة الكافية للنقد بكل موضوعية. اثنان منهم من كندا. وعلى الرغم من أنهما من البلد نفسه، فإنهما مختلفان تمامًا عن أحدهما الآخر: أحدهما هو الكاتب "ديفيد هوميل"، وهو أمريكي انتقل إلى "مونتريال"، وحصل على الجنسية الكندية، والآخر هو "ليونارد كوهين"، وهو كندي انتقل إلى "لوس أنجلوس" واحتفظ بجنسيته الكندية. وهناك شخص ثالث، ولكنني في الحقيقة لا أعرفه معرفة شخصية، وهو "رونالد رايت"، وهو بريطاني يكتب من كندا عن أمريكا، وربما لهذا السبب لا أعرف إلى أي موطن ينتمي حقًّا. لماذا أحضرهم كلهم الآن؟ حسنًا، لأنهم كلهم مثل "أليكساندر جينيس"، يحاولون أن يُقَيِّموا أمريكا الحديثة، بالإضافة إلى عدة أشياء أخرى. ولكن أهمية وثراء مناصبهم المتعددة لا تكمن فقط في اختلاف شخصياتهم وآرائهم، بل أيضًا في الأماكن التي يتحدثون منها، والأصول التي ينتمون إليها. فكما ترى، إنهم لا يطلّون على العالم لمشاهدته من نافذةٍ عادية، ولكن من مقصورات عالية، وهذا ما يزودهم بالقدرة على الرؤية بصورة أوضح. وبالإضافة إلى ما تقع عليه أعينهم من موضوعات وقضايا بحكم أنها أمامهم، فهم يركزون اهتمامهم أيضًا على كل ما يقع في محيط هذا الموضوع، وكل ما يمت إليه بصلة، حتى يفهموه جيدًا. ومهما اتسعت آفاق بحثهم، وكان مدى نظرهم شاملًا، فهم لا يرون الشيء نفسه. وإن تشابه المنظور الذي يحللون منه الموضوع، فهم لا يرونه بالطريقة نفسها.

من المفهوم أنهم دخلوا ذلك المجتمع بكل شيء كتبوه وقالوه سابقًا بشكل عام، وخصوصًا حول هذا الموضوع.

من واجبي أن أوضح للآخرين ولنفسي السبب الذي دفعني لأختار أمريكا مثالًا من بين كل الاختيارات الأخرى الممكنة. حسنًا، لكونها بهذه الضخامة، سواء كدولة أو كموضوع، فإن أمريكا تُعدُّ تحديًا حقيقيًّا. وعند تناول مثل هذا الموضوع، يصبح الفشل أمرًا ممكنًا بشكل استثنائي، كما يمكن أن تغفل نقطة أو ترتكب خطأ بشكل طبيعي. هذا غير أن إصدار أحكام بخصوصه أمرًا بالغ الصعوبة أيضًا. وإنَّه لنجاح باهر أن يصيب المرء قدرًا من التناسق والتناغم والصواب فيما يقول. ولتحقيق هذا، على المرء أن يكون موثوقًا وأمينًا فيما يقوله، تمامًا كما هو الحال في كل الأشياء الأخرى.

ومع هذا، الناس الثقات هم أولئك الذين نادرًا ما سمع عنهم عوام الناس. وبالطبع التقت العديد من الشخصيات الهامة بهم، وقد كانت مثل هذه اللقاءات ذات فائدة. ولكن دائمًا ما يكون مثل هؤلاء الأشخاص - الثقات - هادئين وانطوائيين، وقد أحسنوا صنيعًا لثقافات بلدانهم بهذا الصمت والانزواء. وفي تلك "الأمريكا"، قابلتُ أيضًا بعض الشخصيات التي لا أستطيع أن أقول إنها مشهورة، ولكنها بكل تأكيد شخصيات هامة، وقد كانوا أيضًا محل ثقة، ولكنهم فقدوا مصداقيتهم بمرور الوقت، بسبب وجودهم الدائم بين العوام وتحت الأنظار. لكن لماذا؟ لأنهم وافقوا في معظم الأوقات على الأدوار المعروضة عليهم كفنانين، واهتدوا في ذلك بعقولهم وجهدهم الفكري الذي سلبهم القدرة على مقاومة أضواء الشهرة. وعندما أتحدث عن هذا، أتذكر المعلومة الغريبة التي أخبرني إياها "ألين جنزبيرج" ذات مرة في "نيويورك" دون أن أستفزه لقول هذا أو أصرَّ عليه، وقد كانت معلومة مدهشة حقًّا

بخصوص "البيتنيك" Beatnik وبخصوصه هو أيضًا؛ قال: "إن التاريخ المتفق عليه رسميًّا بأنه يمثل بداية حركة "البيت" the Beat Movement عام 1956، وهو تاريخ القضاء في الدعوة المتعلقة بقصيدته الشهيرة "عواء" Howl، كان التاريخ نفسه لنهاية جيل "البيت". وقد كانت هذه هي الحقيقة التي لا تقبل الشك، على الرغم من أن حركة "البيت" ما زالت حية وقتها (عام 1984 عندما قال لي ذلك)، معظم الشخصيات الرئيسة كانت لا تزال على قيد الحياة، وفوق كل شيء وكل شخص، كان "جنزبيرج" نفسه ما زال حيًّا. وعلاوة على ذلك، ظهر جيل جديد من أتباع هذه الحركة ممن أكملوا على النهج نفسه (لسبب ما). ومع هذا، تقع قيمة "البيت" خلف مؤسسها وخلفنا جميعًا". فهل كانت جملة "جنزبيرج" استعدادًا ليبرر بها سلوكه الأدبي وثقافته الشعبية التي كان فيها شيئًا من المغالاة؟ أجل. وقد ذكّرته بهذا بعد عدة سنوات أتت وقلت له هذا في بلجراد، على الرغم من أنني تهربت من محادثة مفتوحة معه بخصوص هذا الموضوع. ومع ذلك - وقد كان ذلك هو الوقت الذي بدأ فيه معي من جديد - اعترف أن هذا كان صحيحًا. ولقد تفوق على نفسه، فباعترافه هذا، أثبت أنه كان سابقًا لأجيالٍ عدة لسبب ما. قال: "إنه بعد كل شيء، وبعد هذا السقوط، كان عليه التفكير حول كيف سيتم تذكره". حسنًا، لقد أصبح رمزًا من ذلك النوع الحصري الذي يحوله التاريخ إلى ظاهرة مثل ظاهرة "البيتلز" the Beatles و"بوب ديلان". وعلى أي حال، ألا يُعدُّ كل لقاء له معهم موعدًا تاريخيًّا؟ وبعد موته كان هو المنتصر لا الموت، وذلك لأنه تخطى الموت وتفوق عليه بوجوده حيًّا في ذاكرة الناس وعلى صفحات التاريخ كما كان يجب أن يكون. أما أنا، فقد استجبت بكل ورع واحترام لمطلب جريدة يومية بأن أكتب له نصًّا أودعه به في هذه المناسبة. حتى إنني أعطيت المحررين صورة تجمعني بـ"ألين جنزبيرج" و"بيتر أورلوفسكي" في مكان ما في الخلفية وهي واحدة من أحب الصور إلى قلبي (ولم يعيدوا إليَّ صورتي بعد نشرها).

أعتقد أنه "كشف" عن أفكاره بخصوص التواريخ الخاصة بـ"البيت" من أجل خاطر هذا التعويض. أظن أنه بدأ الحديث عن هذا بصراحة بعدها، عندما أدرك أن مثل هذا الاعتراف لن يضرَّ بالحركة. ولكنه فعل ذلك لأنني وضعته موضعًا يشعر فيه بنفسه، وتركته يتحدث كونه نفسه. المعنى؛ عندما كنت أصنع فيلمًا تليفزيونيًا وثائقيًّا عنه حينها، ظللت أنا وفريقي نسجل له عدة أيام متصلة، وهذا ما دفعه ليتصرف ويتحدث على طبيعته ويصبح نفسه في فترة قصيرة مُحْكَمَة. عليه الإجابة عن أسئلتي أمام الكاميرا، وأن يقرأ سطورًا من شعره وقصائده، وأن يغني، وأن يلعب على آلاته الموسيقية، وأن يؤدي فنون الدفاع عن النفس الصينية على سطح بيته، والكثير من الأشياء الأخرى، وعلى كل ذلك أن يَحدُثَ حصرًا في الجو العام لمنزله. وهكذا، ودون أن يفعل ذلك متعمدًا أو عن وعي بذلك، دفعتُه لينغمس كليًّا في "ذاته الحساسة" ويترك زمام الأمر لـ"وجوده الكلي" دون تكلُّف منه، فيركز على نفسه لدرجة تشعرك بأنه تم تنويمه مغناطيسيًّا حتى غاص عميقًا في جوهره، فلم يعد إلى جلسات التأمل حاجة حتى تُخرِجَ منه ما يخفيه (هذا على الرغم من أنه كان يجلس متخذًا وضعية اللوتس أثناء المقابلة وكان يتنفس بشكل منتظم، وفي بعض الأحيان يقول ترنيمة "الأوم" "OM"). وفي الحقيقة، كنا قد قمنا بجلسة تأمل ذات يوم في شقة صغيرة لي كنت أعيش فيها في بلجراد، وقد أحبَّ هذه الجلسة بشكل أثار دهشتي، ولم أعرف حقًّا لِمَ أعجب بها إلى هذا الحد؟ ولكن بعد ذلك، أصبحت جلسات التأمل هذه في غاية الأهمية لنا، لأنها كانت تساعدنا في الاسترخاء والاستراحة من ضجيج العالم من حولنا، والانغماس في حياتنا الشخصية نتأمل أنفسنا، ونعود إليها، ونحاول فهمها.

وفي حالة وجودنا في شقته في الجانب الشرقي من "مانهاتن"، فكرت في أن وحده "جنزبيرج" مَن كان قادرًا على أن يعود إلى نفسه، وأنني مَن دفعه ليتجلى إلى هذا الحد.
وهذا أيضًا يقع تحت مظلة الحفاظ و/ أو تغيير الهُوِّيات.
ومن ناحية أخرى، إصلاح خطأٍ جسيم هو من الأمور الجديرة بالاهتمام، على الرغم من أن الأمر بدا كما لو كان يتعامل مع أسئلة أنانية عنه، وأنه كان يركز على نفسه فقط، فإن "ألين جنزبيرج" قضى حياته كلها يتعامل مع فكرة الولايات المتحدة. وتسبب بحثه الدائم هذا في مشاكل حقيقية له مع الحكومة. وقد تفوق على هذه الحكومة، لأنه على خلافها كان شجاعًا بما يكفي، وقادرًا على التحدث علنًا، ليس فقط عن الحقائق التي يكتشفها بخصوص الحكومة، ولكن أيضًا عن الأخطاء التي ارتكبها هو نفسه. وتحت مُسَمَّى التساؤلات حول الهُويَّة، فإن الشعب والجمعية لا يمثلان القضية الوحيدة كما كان الحال في البلقان في أوروبا القديمة. والسؤال هو مَن نكون في الأساس؟ مَن نحن كأشخاص؟ كأفراد؟ مَن نحن في جوهرنا؟ وعلى الرغم من أن هذا السؤال أكثر تحديدًا، فإنه أعمُّ وأشمل في نظرته للهُويَّة. وقد يكون هناك سبب آخر خفي وراء البحث الجاد عن الهُويَّة في أمريكا والذات في أمريكا، وهو سبب غريب وربما أيضًا يكون سببًا عرضيًّا فقط: (علمتُ) أن معظم الأشخاص الذين ذكرتهم ما زالوا على صلة بأقاربهم في روسيا أيًّا كانت درجة القرابة، ابتداءً من جداتهم اللاتي لا أحد يعلم ما أصولهن، إلى جذورهم البعيدة وعلاقاتهم المعقدة بجذورهم المسيحية الأرثوذوكسية اليهودية. وتظل حقيقة أن بعضهم اشتغل بالعمل والبحث في قضية أمريكا من خلال منظور أحادي، سواء شرقي أم غربي، متأثرًا فيه بيهوديته أو مسيحيته، حتى إذا ثبت أن استنتاجاتهم ما هي إلا تكهنات محتملة. وسواءً أصابوا أم أخطؤوا، فقد توسعوا في تساؤلاتهم ومعالجتهم قضيةَ فَهْمِ الهُويَّة في الولايات المتحدة الأمريكية، لقد أثروا بذلك هذا الموضوع.
وهذا الذي يبدو استثنائيًّا في ظاهرة الهُويَّة موجود ضمنًا في جوهر معناها الأساسي، أي التفسير اللغوي والعلمي مبني على التقاء الأضداد، لأنه كما يُقال إن "الهُويَّة هي مجموعة من الرموز التي تميز شخصًا أو كائنًا ما عن الأشخاص والكائنات الأخرى". ومن ثَمَّ تتكون مجموعة الرموز المتضادة من مجموعة من الخصال المتماثلة، والتي تربطها بعد ذلك علاقة تضاد مرة أخرى. وعندما نعلم أن كلمة "هُويَّة" Identity في اللغة الإنجليزية تتفق مع كلمة "التطابق" Identicalness في الجذر نفسه، يصبح جليًّا أن جوهر هذا المصطلح لا يتحقق إلا بعد الانتقال من التشابه إلى التمايز. يبدو أن اللغة منذ بدايتها شكلت هذا المفهوم ليكون التناقض متأصلًا في جوهره. لذلك، لم يعد من الغريب أن الناس لم ينفكوا يبحثون بشكل أو بآخر في هذه القضية وقتًا طويلًا؛ بعضهم نجح والآخر أخفق. لكن على أي حال، دامت عملية البحث دون انقطاع. هذه الشخصية المتناقضة، التي ترغب في توسيع دائرة أولئك الذين قد يفهمونها، غالبًا ما تصل إلى شعبوية مجردة، ومن ثَمَّ تُهَوِّن من ثقلها وأهميتها، لينتهي بها المطاف إلى أن تُساء معاملتها.
حَريٌّ بنا العودة إلى المصداقية ولكن بهدوء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الثاني عشر

على كل حال، كان لمحل ولادتهما مدلول ما. ولكن بخصوص شعورهما الوثيق تجاه الأرض، كان "جوزيف" و"باجيكا" مختلفين. وقد بدا هذا جليًّا واضحًا بشكل خاص عندما أصبحت رحلاته إلى المستعمرات التي تحكمها الإمبراطورية، أو التي ضمتها إليها مؤخرًا أكثر ولمسافاتٍ أبعد. فبلاد فارس مثلًا والمنطقة العربية و"روملي" كلها مناطق تقع في ثلاث قارات. فقد وضعت الإمبراطورية العثمانية قدمها في آسيا وأفريقيا وأوروبا، وأبحر أسطولها في كل البحار التي تربطها وتفصلها.
لكونه من الأناضول أساسًا، كان "جوزيف" أكثر تقبلًا للترحال في بلاد المشرق، وأكثر خبرة ومعرفة بتلك البلاد. أما "باجيكا"، فقد كان يجد صعوبة في تلك البلاد، على غير ما كان يشعر به أثناء الحملات التي شُنَّت على البلاد التي حول موطنه مثل "روملي"، فقد أيقظت فيه تلك الحملات شعورًا مألوفًا، وحنينًا إلى تلك البلاد أكثر مما كان يعترف به في الواقع. ولكن كان لفرحه الغامر بسفره إلى تلك الأراضي ثمن، فيكمن وراء السبب الأساسي الذي جعل سفره إلى تلك الأراضي أمرًا حتميًّا لا جدال فيه - لأنه كان أمرًا من السلطان - سببٌ آخر أخفاه لنفسه، في أعماق روحه، كان عليه أن يقبل صورة لنفسه كمحارب قوي يأخذ كل ما يُفترض أن يكون له دون تردد. فقرر أن يغزو تلك البلاد بعدما خطرت له فكرة أنها ملك له وأنها تعود إليه. وقد كانت هذه هي التضحية التي قدمها ليصبح على هذا القدر من الولاء والإخلاص. فحتى بعد مرور كل هذا الوقت على مغادرته البوسنة وصربيا، ما زال ينتابه القلق كلما اقترب أن تطأ قدماه موطنه، أو حتى اقترب من تلك الأرض، (على الرغم من أن هذه المشاعر كانت أقل وضوحًا لكنها دامت أكثر من القلق الذي ينتابه أثناء وقوفه أمام الحاكم) استطاع فهم الصورة بعدما تأمل حال اسمه، كيف أن "محمد" عاد ليصبح "باجيكا"، ثم بعد ذلك عاد "باجيكا" ليصبح "محمد" مرة أخرى. وبمرور الوقت، أصبحت هذه الازدواجية تمثل حالته الطبيعية التي كانت على الدوام تؤرقه بالتفكير فيها؛ لقد حطمته وعذبته، ولكن في بعض الأحيان كانت تكافئه، لكنها لا تلبث طويلًا حتى تعود إلى مصارعته مرة أخرى، كما لو كانت تجبره ليعترف أنه هو نفسه كان الازدواجية بعينها.
أما "يوسف" فقد كان أكثر عثمانية من "محمد" من الناحية الجغرافية. لم يستطع "باجيكا" أن ينكر عليه حقيقة أن أراضي الإمبراطورية الأصلية كانت المحيط الطبيعي لطفولة "جوزيف" المبكرة؛ لقد وُلِد في قلب الأراضي العثمانية، وإن لم يكن والداه مثله. ولأن والديه لم يكونا عثمانيي المنشأ - وبالطبع بالإضافة إلى أسباب أخرى - فقد زرعوا فيه ما يكفي من تعاليم المسيحية ليُضرموا بذلك داخله معركة الازدواجية هذه. وبينما هو في "روملي"، التي تعدُّ مكانًا مجهولًا بالنسبة له هي وكل المناطق الأخرى المجاورة لها، والتي غزاها العثمانيون، والتي بنى "يوسف" بها العديد من المباني العسكرية وهدم بعضها الآخر، كان يبني في خياله دور عبادة ومدارس ومستشفيات في كل أنحاء الأراضي العثمانية، بما فيها المناطق الشرقية. أما صربيا والبوسنة فقد كانا على هامش الإمبراطورية العثمانية من وجهة نظره.
علم "باجيكا" بهذا الاختلاف وأقره، ولكنه لم يستطع أن يتصالح معه. فأخبر "يوسف" أن عليه أن يغير هذا المنظور وأنه يومًا ما سيبني على هوامش الإمبراطورية، حتى وإن لم يكن هذا جزءًا من أحلامه. وأكمل "باجيكا" قائلًا:

- أليس السلطان بنفسه يَعُدّ البوسنة وصربيا و"سلافونيا" مناطق مساوية في قيمتها باقي مناطق الإمبراطورية؟ حتى عندما يقول عنها إنها مجرد طريق ليصل إلى المجر؟ حسنًا، إذن يمكنه قول الشيء نفسه عن المجر، إنها مجرد طريق ليصل إلى النمسا. وإن كان يخطط لغزو الأراضي الأكثر بعدًا في الشمال، فأين ستكون النهاية؟ هذا يعني أننا يمكننا أن نطلق على أي منطقة في الإمبراطورية أنها "الهوامش". وعلى أي حال، عند لحظةٍ ما، سيصبح كل جزء في الإمبراطورية بعيدًا عن مركزها، أليس كذلك؟ الفتوحات الجديدة تُغيِّر الحدود على الدوام، ومن ثَمَّ ليس فقط موقع الدول وشكل الخريطة يتغير، بل إن المعنى الأساسي لمصطلح مركز الإمبراطورية والمحيط أيضًا يتغير.
فأجابه "يوسف"/ "جوزيف":
- إنك بالتأكيد على حق. لكن عليك أن تتفهم أنني أنتمي إلى مكان لطالما كان جزءًا من الإمبراطورية. أما المكان الذي أتيتَ منه فإنه يختلف كليًّا عن موطني الأم. ربما سيصير موطنك جزءًا من الإمبراطورية إلى الأبد، ولكنه منذ فترة قصيرة لم يكن كذلك، أليس هذا صحيحًا؟
فردَّ عليه "محمد"/ "باجيكا" قائلًا:
- سواء أكانت جزءًا من الإمبراطورية أم لا، هل ستبني هناك أي شيء إذا سنحت لك الفرصة لذلك، ليس من باب أنك أُمِرْتَ بذلك فقط؟
لم يجبه "سنان" عن ذلك. فكلاهما يدرك كيف أثار المسجد الذي بناه في "فان" في نفسه الرغبة في البناء. لقد بدا كما لو كان يتحدث إليه بدرجة المثالية والكمال الذي وصل إليهما البناء، وقد أثبت له هذا أن كل الأشياء التي كان يحلم بها ممكنة ويمكنه تحقيقها على أرض الواقع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

13

المصداقية والهدوء.

بدت بلجراد في السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين كما لو كانت مركز العالم، أو على الأقل واحدة من مراكزه المتعددة. هل حقًّا كانت كذلك من وجهة نظر العالم كله؟ أمبالغةٌ هذه؟ بالتأكيد. ومن ناحية أخرى، دائمًا ما تفوق هذا الجانب الروحاني للحياة في هذا المحيط، أما هذا فليست به أي مغالاة. يوجد داخل ذلك العالم الخاص ببلجراد العديد ممن يُسمُّون بالشخصيات العامة ممن مروا مرور الكرام، فقد أتوا ورحلوا دون أن يلحظ وجودهم أحد، ولم نكتشف وجودهم إلا بعد رحيلهم.

وبالفعل بنهاية هذه الدورة أو التوجه العام، أو أيًّا ما كان ما يُطلقون عليها، في أكتوبر عام 1989، وصل شاعر من الولايات المتحدة الأمريكية يُدْعى "كينوارد إلمسلي" إلى المدينة. أقام ببلجراد من سبعة إلى عشرة أيام. بصفتي مضيفًا له، ومترجمًا لأشعاره، وزميلًا له في الكتابة، صحبته في جولة لأريه معالم المدينة، وعلاوة على ذلك لأريه أهلها. وقد كنتُ أخطط لتقديمه للعامة بنهاية زيارته، ولكنني كنت أفكر في الطريقة المناسبة، وخصوصًا أن "إلمسلي" كان كما يقولون فنانًا متعدد الأوجه وشاملًا. كان معروفًا بالعديد من الأشياء الأخرى بالإضافة إلى كونه شاعرًا:

1- كاتب روايات: ألَّف العديد من القصص والروايات. ومجلة "باريس ريفيو" Paris Review الشهيرة هي أحد ناشريه.

2- كاتب مسرحي.

3- كاتب نصوص أوبرالية لدور الأوبرا.

4- كاتب كلمات الأغاني التي يُطلق عليها الأغاني الشعبية. تم تشغيل بعض أغانيه على أجهزة "الفونوجراف" الآلية، وغنى له "نَت كينج كول".

5- ملحن.

6- ناشر ومحرر في جريدة "زد" Z Press.

استخدم الجمهور الأمريكي تعبيرين غاية في الندرة لوصفه: الأول هو "الشاعر المغني"، لأنه كان يغني معظم قصائده، والآخر كان مؤلف الأغاني، وتظهر غرابة هذا المصطلح عند التعرض إليه بالإنجليزية حيث يُنطق "سونج سميث" songsmith وهي على وزن كلمة "بلاك سميث" Blacksmith والتي تعني الحداد، مشيرين إليه بهذا أنه صانع الأغاني. ينتمي "كينوارد إلمسلي" إلى النخبة الأمريكية غير الشعبوية الحقيقية. لذلك كان هناك صوت دائم من الخارج يدعمه، بالإضافة إلى انتقاد الجمهور مثل ما فعله الكاتب الشهير "جون أشبيري" عندما قال في مجلة "بارناسوس" Parnassus: "إلمسلي شاعر فريد من نوعه". ومع ذلك، ربما تم تعويضه عن هذا من خلال استضافته في الجامعات، حيث أقام "عروضه" الأدبية أمام مئات وآلاف الشباب، وقد فعل الشيء نفسه كونه محبًّا للسفر في أماكن عديدة حول العالم.

وعلى الأرجح أن هذا النوع من الرضا كان السبب الذي منحه فكرة أن يؤدي معي عرضًا ما في بلجراد. فكان الأمر كالآتي: مسنٌّ من "نيويورك" وشاب من بلجراد قاما بأدوارهما عدة أيام، إذ قاما بالقراءة والغناء والرقص، وكل هذا مصحوبًا بمقطوعات "إلمسلي" المسجلة تؤدَّى في الخلفية على

شريط كاسيت. وفي يوم العرض (المقرر في المركز الثقافي الطلابي)، كنت أعاني آلامًا مبرحة في الغشاء المحيط بالرئة، إذ أصبت بـ"التهاب الجنبة". وقد أراد "كين" أن يلغي كل شيء عندما رآني أتألم بشدة لدرجة لا أستطيع الحَراك، فضلًا عن المشي. ولكنني لم أوافق. وظهرت للعامة بكل هدوء. وقبل دقيقة من العرض، أراد "إلمسلي" إلغاء العرض مرةً أخرى، ولكن هذه المرة لأنه لم يكن هناك سوى أربعة أشخاص ونصف من الجمهور، اثنان منهما من السفارة الأمريكية، وعلى الأرجح حضرا لأنهما كُلِّفا بهذا. ومرةً أخرى رفضتُ الاستسلام. ابتسمتُ وقلتُ له: "إنَّ علينا أن نكون محترفين"، وتصرفتُ وكأنني معتاد على هذا كل يوم. وفي النهاية صفق لنا الجمهور وتحقق المراد.
ولأن موعد رحيله كان قد اقترب، فقد اقترحت أن نمزح قليلًا مع الجمهور. وتمكنت من تحقيق ذلك، لأنني (أيضًا لديَّ العديد من المهن) كنت محرر عمود "الناس" الذي يُنشَر في جريدة "إن آي إن" NIN الأسبوعية، والذي يزود القرَّاء بمعلومات عما كان يحدث مع الشخصيات العامة. لذلك، بعد بيانات السيرة الذاتية التي ذكرتها في مقالتي عن "إلمسلي"، وبعدما قرأ سؤالي الذي طرحته عن كيف نجح في الكسب من أدب النخبة الذي يكتبه، أجابني قائلًا: "إن هذا كان صعبًا". وبعد ذلك وضَّح هذا، وفي النهاية أضاف أنه حصل على بعض المساعدات المادية الطفيفة من جده عندما "يطرأ عليه أمرٌ ما". وبالطبع السؤال الذي تلا ذلك كان عمن هو جده لتأتي إجابته: "جوزيف بوليتزر". وتمامًا كما توقعنا (سيكون أكثر صوابًا أن نقول إنه كما توقعنا، وليس أن نقول كما وجَّهنا الأمر وأدرناه) أن هذا الخبر أثار ضجة كما زاد من اهتمام الصحفيين به. ولكن حدث هذا متأخرًا، فقد نُشِر المقال بعد مغادرة "إلمسلي" كما خططنا.
وفي النهاية هذا هو الدرس الذي تعلمناه؛ كونه سليلًا لـ"جوزيف بوليتزر"، أدرك هذا الحفيد أن بمرور الوقت اسمه سيهدد مستقبله الإبداعي وحلمه الذي يسعى لتحقيقه. لم يرد أن يُثقِل عبقريته الإبداعية باسم عائلته المشهور، بل أراد لعمله أن يُقَيَّم ويقدر في حد ذاته دون التأثر بأي عوامل أخرى. اكتشف أنه إذا استخدم لقب العائلة كجزء من اسمه فلن يستطيع أن يعلم على الإطلاق ما إذا كان الفن قَبِلَه لنفسه ولمصداقية فنه وأصالته، أم إنه اكتسب هذه المكانة فقط بفضل الامتيازات التي يحققها له لقبه. وماذا لو اعتقد أنه لا يستطيع الكتابة بهذه الطريقة؟ وهذا النوع من الأمانة بالطبع هو سيف ذو حدين؛ فالحياة الفنية لم تكن سهلة وإنما كانت واقعية محضة. أما أخوه فقد كان على عكسه؛ لقد احتفظ بلقب العائلة ولم يغير اسمه. ولسخرية القدر، لقد كانت الجرائد الصفراء ممتلئة بأخبار متعددة عن حياته. ولكن مع مرور الوقت، بدأ "إلمسلي" يضيف اسم جده إلى بياناته الشخصية لأنه (بصفته "كِينوارد") كان قد حقق بالفعل سمعة جيدة، وأثبت أنه فنان يُعْتَدُّ به، وتم الاعتراف به فنانًا جادًّا. إزالة لقب "بوليتزر" من اسمه كان خير مدافع عنه ضد القصص "الرخيصة" وتدخل الناس في شئونه والتشكيك في عمله. وكما رأينا، كان بإمكانه المزاح بهذا الشأن وألا يأخذه على محمل الجد.
لأكون صريحًا، كان هناك جانب واحد من شخصية "إلمسلي" الذي لم أكن متأكدًا أنه يجب عليَّ إثارته أو التدخل فيه، وهو أن "جوزيف بوليتزر" (1847 - 1911) نفسه كان مؤسس الصحافة الصفراء، والتحق به بعد ذلك "ويليم راندولف هيرست" (1863 - 1951). كلاهما كانا مالكي عددٍ كبيرٍ من الصحف والمجلات التي تصل إلى ملايين القراء بفضل نشرهم نصوصًا مثيرة. كان "هيرست" مؤسس "الطفل الأصفر" الهزلي، والذي اُتُخِذَ منه اسم هذا النوع من الصحافة. ومن الممكن أن "بوليتزر" الجد شعر بالندم على هذا، لذلك أسس قسم الدراسات الصحفية بجامعة كولومبيا

عام 1903. هذه الرحلة الشخصية ليصبح كاتبًا جادًّا استمرت حتى بعد موته، عندما تم تأسيس جائزة "بوليتزر" للصحافة ورسم الكاريكاتورية والأدب (رواية، وشعر، ومسرح، وسير ذاتية، وتاريخ) عام 1917. وبعد ذلك، امتدت الجائزة لتشمل أيضًا الموسيقى. وعلينا الاعتراف بأنه حقق هدفه، لأنه لا توجد جائزة أكثر تقديرًا من جائزة "بوليتزر" سوى جائزة "نوبل". أو لنصبح أكثر دقة؛ بعد جائزة "نوبل"، أشهر جائزة هي جائزة "بوليتزر" إن لم تكن أكثر تقديرًا واحترامًا.

لذلك استنتجتُ أنه كان يجب ذكر هذه الحقائق، لأنني أدركت أنها الدافع وراء سلوك "إلمسلي" في الأماكن العامة. هذا غير سلوكه عندما نكون على انفراد؛ فعلى سبيل المثال، عندما دعاني بعد ذلك لزيارته في أمريكا، لكي نترجم (أعني هو) أحد كتبي للغة الإنجليزية معًا، تفوق تواضعي عليه، إذ إنني رفضتُ. إخفاء "إلمسلي" الجزئي "أغلبية" هُويَّته (للهروب من الصحافة الصفراء مثلًا) هو بالتأكيد قصة عن أمريكا. سلوكه في حد ذاته يُخبرنا بالكثير عن أمريكا الحديثة، ويعطيه أيضًا الحق في شرح ورسم ثقافته وبلده، وتقييمهما صراحةً مقتديًا في ذلك بجده، أحد أقطاب ذلك المجتمع. ليس لأننا "طلبنا هذا"، ولكن لأن (K.E.) "كينوارد إلمسلي"، جديرٌ بهذا.

كان "كينوارد إلمسلي" هادئًا، وأيضًا كاتبًا موثوقًا أصيلًا أمينًا.

جاء الارتباك من أن جده كان ذائع الصيت (في جميع أنحاء العالم)، ولكن في النهاية الحرفية بعد موته، أصبح هو أيضًا موثوقًا أمينًا.

أفترض أن هذا وجه آخر للديمقراطية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث عشر

كان الأمر كما لو أن كلًّا من "سنان" و"باجيكا" حصلا في وقت واحد على دافع لا يقاوم للتعمير وليس التدمير، أو على الأقل لبناء المزيد ولتقليل التدمير. وقد حدث هذا بعد أن شعرا ببركات صنع شيء ذي نفعٍ للآخرين، وبعد أن خلَّفا وراءهما ما يكفي من الدمار الذي كانا جزءًا منه، والذي أتعس الكثيرين. ومع ذلك، كان أقوى دافع لهما يكمن في رضاهما الشخصي عن أنفسهما، والذي كانت له السيادة على رغبةٍ جارفة كانت لديهما في التدمير، وكانت تصعب السيطرة عليها، فكل من "باجيكا" و"سنان" علم أن هناك خطًّا رفيعًا يفصل بين اتخاذ القرارات بفعل شيءٍ جيد وبفعل شيء سيئ. ولقد شهدا مثل هذه القرارات. فطالما كانا مجرد مراقبين أو منفذين لقرارات الآخرين، الآن يمكن مقاومة هذه القرارات. ومع ذلك، كلما اقتربا من تحمل ذلك النوع من المسؤوليات الجديدة التي تأتي مع تقلد مناصب أعلى، كانا مجبرين على التكيف مع قراراتهما الخاصة، وأصبح عليهما البدء بالتفكير حول الطريقة التي سيتعاملان بها مع أنفسهما ومع تلك القرارات. باختصار، كان عليهما تهيئة أنفسهما لذلك. لم يجرؤا حتى أن يسمحا لأنفسهما بالتفاجؤ بأي شيء. فبالإضافة إلى سائر التوابع التي تترتب على ذلك، فإنهما إن لم يحسبا كل شيء جيدًا وتوقعا ما سيأتي، وتفاجآ بما يحدث، سيكلفهما ذلك الكثير، وخصوصًا بكم المسؤوليات المتزايدة التي تقع على كاهليهما. لم يكلِّف هذا الآخرين شيئًا، بل إنهما هما مَن يتحملان كل شيء. فكَّرا في هذا وناقشا حقيقة أن سلطة أكبر تعني مسؤولية أكبر. على الرغم من أن الأمر لم يكن كذلك للجميع. كانت هناك قاعدة، ولكنها ليست للجميع. كان هناك العديد ممن يحصلون على منصب ذي سلطة أكبر دون تقبل الزيادة الطبيعية في المسؤولية التي تأتي مع هذا المنصب. حتى إن بعض المسؤولين كانت تغريهم السلطة والقوة التي يكتسبونها فيقلصون من المسؤوليات المكلفين بها. مثل أولئك الأشخاص تعميهم عظمتهم، وتنسيهم أن هناك شخصًا أقوى منهم، وسلطته تفوق سلطتهم، وأنه هو مَن منحهم ما هم فيه، وأنهم بفضله وصلوا إلى ما هم عليه الآن، وإذا انتظروا حتى يأتيهم وعيده، يكون الوقت قد تأخر كثيرًا، لأن في هذه اللحظة يكونون قد خاطروا بكل شيء، لأنه من الممكن أن يسلبهم كل شيء وقتها. وفي هذه الحالة يفقدون أموالهم، وأملاكهم، وألقابهم، ومناصبهم، وعادةً ما يفقدون رؤوسهم أيضًا، فأولئك الذين لم يستخدموا عقولهم فقدوا حياتهم.

ظهرت الرغبة في البناء (ليس فقط المعنى الحرفي) كدفاع طبيعي ضد التدمير. ولكنها ظهرت فقط عندما أصبح واضحًا لـ"جوزيف" و"باجيكا" أنهما يعيشان الآن بصفتهما "يوسف" و"محمد" بشكل لا رجعة فيه. وقد تحقق ذلك فقط نتيجة لميل الصدر الأعظم والسلطان اللذين واصلا تكليفهما بوظائف أعلى في الدولة. فكان عليهما مواجهة حقيقة أن العودة إلى ما كانا عليه منذ مدة ليست ببعيدة لم يعد ممكنًا. أجل، بإمكانهما فعل ذلك جزئيًّا؛ كانت لديهما طرق عدة للعودة إلى ما كانا عليه. أما الأمر الذي فرض نفسه عليهما بحكم طبيعة الحال منذ اللحظة التي أصبح واضحًا فيها أن حياتهما الجديدة ستظل تأخذ هذا المنحنى باستمرار، هو حاجتهم الماسة إلى رعاية عائلتيهما. وقد استشار أحدهما الآخر ليريا في ذلك رأيًا يعينهما على التعامل مع هذا الأمر.

عندما بدأت إعادة توطين السكان غير الأتراك من الأناضول بقبرص بناءً على أوامر السلطان، شعر "معمار" بحرية كافية جعلته يشعر أن بإمكانه التدخل في الأمر بالتحدث مع الصدر الأعظم بالنيابة

عن والديه. وقد تمت الاستجابة لمطلبه وتَرِك والداه بسلام، بل وتم إعطاؤهما الأمان وحمايتهما من السلطات المحلية.

أما وضع عائلة "باجيكا" فقد كان أكثر تعقيدًا. على الرغم من أنهم الآن أصبحوا جزءًا من الإمبراطورية، فإنهم كانوا في مكان بعيد جدًّا عن مركز الإمبراطورية، هذا بالإضافة إلى أن عددهم أكبر. لم يعلم لسنوات عديدة ما إذا كانوا على قيد الحياة، أو إذا كانوا بصحة جيدة. كان يستغل رحلاته إلى بلجراد أثناء الحملات العسكرية، ليرسل إلى عائلته أخبارًا عنه في "سوكولوفيتشي" ولكنه لم يستطع أن يعرف إذا كانت رسائله تصلهم أم لا. بدأت مساعدته لعائلته عندما كان "السلحدار آغا" للسلطان، وعندما شجعه على ذلك عام 1540 رفيقه "أحمد بِك" الذي كان زميله في مدرسة البلاط، والذي كان صربيًّا أيضًا. أَرْسِلَ "أحمد بِك" إلى البوسنة لتحصيل الضرائب، حيث كان البلد وأهله مألوفين له، وقد أحسن صنيعًا لـ"باجيكا"، لأن زيارته هذه ستأخذه إلى المنطقة التي هم منها بالأساس. وكان "باجيكا" قد حصل على الإذن لفعل ما يشاء بعائلته، فطلب من صديقه أن يأتيه بأي شخص يجده من عائلة "سوكولوفيتش" إلى إسطنبول إن أمكن. وقد كان ما أراد، وأخيرًا بعد كل هذه السنوات يجد أباه وإخوانه واقفين أمامه. وفي الحقيقة لم يعلم في تلك اللحظة أن أخاه الأصغر ظل مع والدته في البوسنة، وأن الشخص الذي يقف أمامه هو أحد أبناء عمومته، ولكنه يشبه أخاه إلى حد كبير. لم توافق والدته على أن يبتعد عنها كل أبنائها، فقالت: "إذا لم يكونوا معي فلا يهمني إذا كانوا موتى أو كانوا يحيون كالملوك". لسوء الحظ لم يأخذ الأخ الأكبر من بين الاثنين سوى سنتين حتى توفاه الله في قصر "جالاتا"، وقد كان اسمه حينها "مصطفى"، فأطلق "باجيكا" الاسم نفسه على الأخ الأصغر الذي أتى به من قصر "جالاتا" إلى قصر السلطان، وبذلك أصبح تحت ناظري وحماية أخيه "محمد" للسبع سنوات التالية. وجعل والده "ديميتريجي" يغيِّر دينه إلى الإسلام، وسمَّاه "جمال الدين بِك"، وتكريمًا لصديقه المهندس، أضاف أيضًا "سنان" إلى اسم والده الجديد. ومنذ حصوله على "زعامت" - ملكية متوسطة المساحة - وأسس وقفًا يجمع أموالًا لغرض الصدقة، في البوسنة، عيَّن والده ليصبح "المتولِّي"، أي مدير للوقف كما نصت الشريعة. وقد أتت والدته أيضًا لزيارته، وغمرتها السعادة لنجاح ابنها، ولكنها كانت على عجلة من أمرها للعودة إلى البوسنة، وأدرك "باجيكا" أنها خلَّفَت عزيزًا وراءها. مَن عساه أن يكون أعزُّ إليها منه إن لم يكن شخصًا مثله، ولكنه لا يتمتع بالحماية التي يتمتع بها "باجيكا"؟ ولكنها سرعان ما اعترفت له أن أخاه الحقيقي ما زال في أرض الوطن، واعتذرت له عن خداعها إياه بتبديلها أخاه مع ابن عمه.

ومع هذا، لم يشكّ "محمد" من وجود ابن أخيه "مصطفى" بجواره. وبعد أن تعلم كيف يصبح حلَّاقًا ومُدلِّكًا، أصبح كبير حلاقي البلاط العثماني الملكي ([32]). وبعد ذلك، أراهم عزمًا وشجاعة استثنائية أثناء حملاتهم ([33]) على بلاد فارس في الفترة بين 1548 - 1549. كان هذا هو سبب تعيينه محصلًا للضرائب في البوسنة، ومن بعدها تقدم ليصبح "السنجاق بك" البوسني، وهو أعلى منصب يمكن الوصول إليه؛ القائد المدني والحربي للبوسنة باسم السلطان العثماني.

بعدما اكتشف أن أخاه الأصغر ما زال في "سوكولوفيتشي"، أرسل في طلبه. كان هذا قاسيًا على والدته، ولكنه كان متأكدًا أنها رأت كيف يكون رغد العيش في كنف السلطان، فظنَّ أن الأمر سيكون من الأهون عليها أن تسمح لابنها الأخير بالرحيل إلى بر الأمان (تحت إشراف "باجيكا") قبل أن يضطر في النهاية إلى الرحيل إلى المجهول، وهو ما تَعْلَمُهُ جيدًا أنه كائن تمامًا كما يحدث مع كل

الأمهات. وعلى كل حال، عاجلًا أم آجلًا، على كل طفل أن يكبر. وفي الحقيقة، اعتمد على والده "ديميترجي"/ "جمال الدين سنان بك" ليقنعها. ومع هذا، أتى مع أخويه سوء الحظ. بعد أن استقر أخوه الأصغر بمدة وجيزة، وبعد أن أرسله إلى مدرسة "إبراهيم باشا" في "الميداني"، مرض الشاب وتُوُفِي بعد ذلك.

وقد اهتز "باجيكا" من الداخل لسماعه الخبر، حتى إنه لام نفسه على وفاة أخويه. ليس هذا فقط، بل إن تفكيره هداه ليظن أن الإله المسيحي كان يعاقبه من خلال أخويه، لأنه غير ديانته، وسأل "سنان" عن هذا صراحة. فأجابه "سنان" تلقائيًّا وبكل دهاءٍ وحكمة قائلًا:

- هل أنكرتَه يومًا؟

فأجابه "باجيكا" على الفور، ودون أي تردد قائلًا:

- لا.

فردَّ عليه "سنان":

- ها أنتذا قد قلتها.

وقد أنقذه هذا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

14

في "نيويورك" عام 1984، وقبل أن ألتقي "إلمسلي"، قابلت كاتبًا آخر هادئًا وموثوقًا، وأحد حراس الكلمة المهمين جدًّا. وفي الحقيقة، تعرَّفتُه قبل هذا بمدة من خلال سُمعته، ومن خلال قراءة الكتب التي نشرها للآخرين. هذا الرجل هو "جيمس لافلين"؛ الناشر الأسطوري، ومؤسس دار نشر "نيو دايركشنز". أين جذور هُوِيَّتِهِ؟ أجل، إنه ينحدر من عائلةٍ من أيرلندا. وأجل، عائلته معروفة بأنها صاحبة رابع أكبر شركة صلب في أمريكا منذ عهد جده. ليس أصيلًا؟ أجل. ولكن هنا يبدأ بناؤه الشخصي (الفائق) لهُويَّته. لم يكن هناك شيء أبعد عن ذهنه من مواصلة عمل العائلة. وقد وجد "جيمس" (الشاب) الدراسة في "هارفارد" بها شيئًا من الملل. وبفضل تلقيه تعليمًا أدبيًّا مثيرًا للإعجاب، فقد أرسل خطابًا إلى المعلِّم الفكري الشهير "إزرا باوند" الذي سمح له بالذهاب إلى جامعته الخاصة غير الرسمية "إيزوفيرستي" Ezuversity في أوروبا. ولذلك، ترك "لافلين" أمريكا وذهب إلى مدينة صغيرة تُدْعى "رابلو" بالقرب من "جنوة" بإيطاليا. متأثرًا بأستاذه الذي يكبره بثلاثين عامًا (1885 - 1972)، ظل حياته كلها معجبًا به، ومُرَوِّجًا لأعماله، وطالبًا مخلصًا له. وها نحن قد وصلنا إلى تفصيل هُويَّة "لافلين"؛ أن تصبح طالبًا لشخصٍ ما مدى الحياة؛ أن يقرر المرء ألا يصبح ظِلًّا لشخصٍ آخر، بل يحيا في ظلِّ شخصٍ آخر. كيف حدث هذا؟ في الحقيقة، الكثير من ذلك معروف، لأن "جيمس لافلين" لم يعد حيًّا (1914 - 1997)، ولأنه منذ أعوام قليلةٍ مضت أصبحت جامعة "هارفارد" مِلكًا لواحدة من أكثر دور الوثائق ثراءً في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية الفكري، وقد حدث هذا تحديدًا بفضل وصية "لافلين". ومع هذا، فقد سمعت الكثير من هذا منه خلال عام 1984 السابق ذكره، ولكن أيضًا علمتُه منه من خلال مراسلاتنا.

قبل عودته إلى أمريكا، تراخت شجاعة "لافلين" فعرض على أستاذه بعضًا من إنتاجه الأدبي. خوفه من "التقدير" الذي يمكن أن يحصل عليه حَوَّل حياته إلى "كابوس" ورعب حقيقي. لم يكن خياله الشعري حرًّا بما يكفي ليخمن ما سيقوله "باوند" حُكْمًا على عمل "لافلين"، إذ فاجأه بقوله: "إنك ميؤوس منك. لن تصبح كاتبًا يومًا" (وهذا اقتباس أنقله مما قاله "لافلين" نفسه).

قولك شيئًا بهذه القسوة لشاب في مطلع العشرينيات من عمره، وقد وضع كل أمله في مقطوعاته الشعرية كما وضعه في أستاذه وقدوته - بالقدر نفسه إن لم يكن أكثر - كان ثمرة لجنون "باوند". أو ربما عبقرية؟ في الحقيقة لقد كان الثانية، لقد كانت عبقرية منه، لأنه لا يهم كم كان هذا التقدير صادمًا لهذا الطالب الشاب، فبعد أن أخذ "باوند" نَفَسًا، واصل ليكمل الجزء "المريح؟" من الجملة وهو: "لكن بإمكانك أن تكون نافعًا للأدب". وربما تكون الجملة الأكثر أهمية هي ما كانت ردًّا على سؤال "لافلين" (المتوقع):

- ما الذي بإمكانه أن يكون نافعًا؟

فأجابه "باوند":

- حسنًا، لماذا لا تشتغل بالنشر؟

ربما تكمن عظمة "باوند" في أنه أعاد بناء هذا الإنسان بعد أن حطَّم كل أحلامه بلحظات، عندما اقترح فكرته الجديدة غير المتوقعة، وبهذا الشكل أعطاه أملًا ومخرجًا بديلًا دون أن يكلفه عناء أن

يصطدم بالقاع قبل أن يقف على قدميه مجددًا. وربما كان هذا شيئًا آخر؛ أن يوجه نقاط القوة في تلميذه بشكل صائب يساعده في تجاوز هذه القسوة، وأن يرتقي به إلى أفق آخر أكثر واقعية ويمكن تحقيقه.

وقد كان هذا أيضًا هو بداية انطلاقة "جيمس لافلين" الحقيقية. بالإصغاء إلى معلمه من دار طباعة صغيرة مدة ستين سنة، أنشأ "لافلين" وأدار واحدة من أهم وأفضل دور النشر في الولايات المتحدة الأمريكية، وإن لم تكن أكثرها ثراءً، واستمر في هذا حتى وفاته. وبفعله هذا، فقد أصبح نفسه، وإن كان ملتفًّا في ذلك بعباءة "إزرا باوند". وقد صرح بهذا قائلًا: "إنه حتى بعد ثلاثين عامًا من الخبرة، ما زال يعمل بنصيحة "باوند"، وهو يصرح بهذا ليس لأنه لم يكُن خجولًا من هذه الحقيقة، ولكن لأنه كان فخورًا بها.

ولقد صدق "باوند" وعده لـ"لافلين"؛ أولًا أعطاه مخطوطاته لينشرها، ثم طلب من أصدقائه أن يفعلوا المثل. وبهذا، أصبح ناشرًا لكل من "ويليم كارلوي ويليمز"، و"لورانس فيرلينجيتي"، و"جاري سنايدر"، و"هنري ميلر"، و"تينيسي ويليمز"، و"كينيث ريكسروث"، و"مايكل مكلور"، و"ودينيز ليفيرتوف"، و"جيروم روذينبيرج"، وغيرهم المئات (استضفتُ أنا وبلجراد هؤلاء الثلاثة الأخيرين). في الواقع مزيته لها شقان: بالإضافة إلى تقديم جيل كامل من الكتاب الأمريكيين الواعدين والمعاصرين إلى العالم، فقد قدَّم أيضًا للولايات المتحدة الأمريكية مجموعة من أهم مؤلفي أوروبا وأمريكا اللاتينية وآسيا مثل: "ديلان توماس"، و"جويس"، و"لوركا"، و"جوته"، و"سارتر"، و"كامو"، و"كوينو"، و"كوكتو"، و"بورخيس"، و"باث"، و"نابوفوك"، و"باسترناك"، و"كافكا"، و"مونتاليه"، و"ميشيما"...

وبعد مدة طويلة، بمجرد أن أصبح محور القيمة في عالم النشر، تجرأ أن يُصرِّح بأنه ما زال يكتب الشعر، وبعد ذلك بدأ ينشر قصائده. بعد ذلك، بدا جليًّا أن "باوند" ترك أثرًا لا يُمْحَى فيها. وعلى أي حال، لقد أظهر "لافلين" هذا بكل صراحة؛ مقطوعاته الشعرية بدت دائمًا كشعر معلمه، مواضيعها كانت متشابهة، كما كان في شعره الكثير من ملامح شعر "الكانتو"، والخط الصيني والأساطير كانت تظهر في كل مكان، وقد كان هذا هو اللون المفضل لـ"باوند". بفضل هذا الولاء، كافأته العدالة المجردة بجائزةٍ أُخرى؛ لم يكن شعر "لافلين" نسخة (سيئة) من شعر "باوند"، بل كان شعرًا ممتازًا وأصيلًا في حد ذاته، على الرغم من أن "جاي دافينبورت" كتب عن شعر "لافلين" أن "الشعراء الحقيقيين هم دائمًا أشخاص آخرون".

ولذلك قرر هذا الرجل الشجاع أن يغيِّر من هُوِيَّتِه ويعدِّلها. لقد أصبح شاعرًا جيدًا بعد أن التزم بوعده لـ"باوند"، لأنه ظل عقودًا ينشر كتب الآخرين دون أن تنتابه، ولو حتى أوقية من الغرور، أو الغيرة، أو العقد النفسية. لم يصبح شاعرًا رائعًا، بل فقط كان شاعرًا جيدًا. ربما كان هذا مجرد تواضع مبالغ فيه، أو بدافع أن على المرء ألا يتفوق على أستاذه. أثبتت المحاكاة في حالته استقلالًا، واستطاع أن يخلق بها أعمالًا أصيلة. وقد اتضح بعد نصف قرن أن "باوند" لم يعد محقًّا بشأن موهبة تلميذه.

أم هل وارد أنه كان محقًّا ولكن بشكل آخر؟ اقتناعًا منه أن "جيمس لافلين" كان شاعرًا جيدًا، كذب عليه معتقدًا أن "لافلين" كان "يُطالب" ليصبح ناشرًا. خيار غير محتمل؟ أجل، لكنه ممكن وقد كانت النتيجة مبررة وأكثر نفعًا للعالم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الرابع عشر

على الرغم من أن "سنان" أراحه من الشعور بالذنب لوفاة أخويه، فإن "محمد" ما زال عليه أن يجد طريقة ليتكيف بها مع حقيقة افتقاده أحبائه.
إثر عودته من جمع الضرائب، لحسن الحظ أطاعه "أحمد بِك" وأعدَّ له قائمة مفصلة بكل أفراد عائلة "سوكولوفيتش" التي ما زالت مقيمة بأرض الوطن. وبذلك أصبح "باجيكا" قادرًا على إحضارهم جميعًا إلى إسطنبول. بالإضافة إلى "مصطفى"، سرعان ما أعاد تسمية أقاربه فذخرت حياته الجديدة بـ"فرحات" و"إليجا" و"درويش" وسمَّى أحدهم "محمد" على اسمه. كما أتت أيضًا واحدة من بنات عمه الإناث إلى العاصمة. ولم يكن أبناء عمومته الصغار هم فقط مَن أحرزوا تقدمًا في التعليم وفي الخدمة، بل أحرزت إحدى بنات عمه "تقدمًا" أيضًا؛ ولنكون عادلين، لقد أحرزت هذا التقدم بزواجها من "ظافر بك" ابن "علي بك" ([34]) ، قائد ملاك الأراضي في "سنجاق" من البوسنة وانتقلت معه إلى مدينة "بيتش"، حيث أنجبت له صبيًّا اسمه "إبراهيم" ([35]) ، والذي أصبح مؤرخًا فيما بعد، وعُرف باسم "إبراهيم أفندي بيتشيفي" أو بـ"بجوي إبراهيم أفندي".
ظاهريًّا، كان هذا هو الشيء الملموس الذي يستطيع فعله، والذي كان مصدر راحة له. لكن، ما الذي يمكن فعله في جوهره من الداخل ليسكِّن الألم؟ ما الذي يمكنه فعله ليتفهم الموت؟ بدا أن موت هذين الصغيرين زعزع فهمه للنظام الطبيعي للأشياء. أولًا، وحرفيًا: أليس من المفترض أن يموت الكبير أولًا، ثم بعد ذلك الذي يصغره عندما يكبر ويتقدم به العمر، وفي النهاية الأصغر الذي كان لديه ما يكفي من الوقت ليشيب؟ لم يكن يريد أن تصبح طريقة الموت في زمن السلم كما هي في وقت الحرب. في الحرب، الموت يعني أن يفقد المرء حياته، وهذا ليس طبيعيًّا، لأنه يحدث بالقتل. في الوطن (في السلم)، يموت المرء بشكل طبيعي، ولكن فقط عندما تحين ساعته. لكن الأطفال لا يموتون. ليس من المفترض أن يكون هناك وقت جيد لموتهم! الأطفال لا تحين ساعتهم. لا ينبغي لهذا أن يحدث!
لكنه حدث، مرتين. مات واحد تلو الآخر. انتقل الموت من الأول ثم إلى مَن بعده. لقد تغير النظام الطبيعي.
هل يستطيع المرء أن يموت أولًا ثم يحيا؟
ربما هذا بالضبط ما حدث له. لقد مات أولًا عندما ترك موطنه، والآن هو حيٌّ في مكان آخر. في البداية كان يكتب من اليسار إلى اليمين، والآن يكتب من اليمين إلى اليسار. في البداية كان عليه أن يطيع الآخرين، والآن على الآخرين أن يطيعوه. كم كتابًا قرأه يا تُرى مُقَلِّبًا صفحاته بيده اليمنى ناحية اليسار، وكم كتابًا قرأه بعد ذلك مُقَلِبًا صفحاته بيده اليسرى ناحية اليمين؟ كم نسخًا منها مستخدمًا حروف الكنيسة "السلافونية"، وكم نسخًا بالحروف العربية؟ أولًا، كتب سلافية و"يونانية، وبعد ذلك كتب فارسية وعثمانية. يحمل الريشة بيد، ثم تربكه يده الأخرى حين يحمل خنجرًا أو سيفًا. كان عليه أن يحملهما معًا في وقت واحدٍ بكلتا يديه، أو حتى يمكنه أن يبدلهما من يد إلى أخرى. بينما كانوا يعلمونه فنون القتال في البلاط، اعتقد الجميع أن هذا أسلوبه، ولم يوقفوه من تشتيت انتباه خصمه بهذه الطريقة. تبديل الأسلحة هذا لم يقلل من مهارته في المعركة. على العكس، أصبح ضعفه مزية. وقد أصبح في الواقع معروفًا به.

وبشكل ما، هذه الوفيات ليست لها صلة بالرب في المسيحية أو بالله في الإسلام. بالنسبة لهما، لم تكن هناك أي قصة عن حياة أخرى في السماء أو في الجنة. هذه الوفيات لم تبدُ عادلة، وليس لها أي مبرر.
وقد وجد في صديقه "سنان" شخصًا يتحدث إليه بخصوص مواضيع الموت. وقد كان "سنان" هو الآخر يمر بتجربة غريبة مع الموت في هذه الفترة. قال "سنان":
- هل تعلم أنني تلقيت أمرًا من قائد الأسطول "خير الدين بارباروسا" لبناء ضريحٍ له؟ ولأنني ظننت هذا غريبًا، بحثتُ في الأمر؛ فهو ليس مريضًا، ولا حتى ميتًا. لم أجرؤ على سؤاله لِمَ يطلب هذا مسبقًا. ومن ناحية أخرى، أتفهمه. إذا انتظر حتى يكون على فراش الموت، سيتأخر الوقت عليه ليُدفن بهذا الضريح مباشرة. وبالطبع إذا مات قبل هذا، فلن يستطيع أن يأمر بأي شيء على الإطلاق.
وقد أثار هذا "باجيكا" فقال:
- حسنًا، ما تقوله صحيح، على الرغم من أنك تمزح قليلًا، وأنت محقٌّ في هذا. لكن، من المؤكد أن وراء هذا الأمر سببًا أكثر عمقًا وجدية من مجرد فكرة إذا كان الموت أسرع أم بناؤه قبره.
فأجابه "سنان":
- قد يكون السبب هو رغبته في أن يرى أن جثمانه سيرقد بسلام بعد الموت.
فقال "باجيكا":
- أو ليمنع نفسه من الموت؟
- أو ربما لاستدعائه؟
- وما السبب الذي أعطاك إياه لبناء هذا الضريح؟ من المؤكد أنه أخبرك بشيء ما.
- قال لي: "إنه أُعْجِبَ كُلِّيًّا بالطريقة التي بَنيتُ بها المسجد، والمدرسة، والمكتب (المدرسة الابتدائية) ([36]) الذين بنيتهم تكريمًا للإمبراطورة، زوجة السلطان، "هاسيكي خُرِم" ([37]).
فقال "باجيكا":
- إذن فهذا مبرر جيد أفضل من أي سبب حقيقي.
في تلك اللحظة، لم يتخيلا أنهما بعد حديثهما هذا عن القبور بمدة وجيزة سوف يُجريان مثل هذا الحوار، ولكن هذه المرة سيكون السبب وقوع حادثة موت حقيقية. مرة أخرى، وجد "باجيكا" نفسه مجبرًا على التفكير في النظام الطبيعي للأشياء. فجأة، ودون سابق إنذار، تُوُفِيَ ابن السلطان الأكبر "محمد شاهزاده"، وريث العرش وابن "سليمان" المفضَّل من بين الثلاثة. لقد كان في الواحدة والعشرين من عمره حين تُوُفِي. وبالإضافة إلى موته، فقد ترك خلفه ابنة صغيرة. ولقد كانت ابنة "شاهزاده" هي ما يُصَبِّر السلطان على موت ابنه الذي لم يستطع أن يتجاوزه يومًا.
على الرغم من صعوبة مقارنة وقياس تلك الأحداث مع بعضها، فإنه بدا لـ"باجيكا" موت الولد أمام ناظري والده أقسى وأكثر مرارة من الألم الذي شعر به حين فقد أخويه. بصرف النظر عن حقيقة أنه لا يمكن أن يمر بتجربة مماثلة، إلا أنه ذُعِرَ تمامًا من مجرد التفكير في شعور الوالد الذي يرى ولده يغادر الحياة أمامه. ثم لأول مرة بدأ يفكر في أولاده، أولاده الذين لم ينجبهم بعد.
تلقى "سنان" الأوامر من السلطان بسرعة بناء ضريح فارهٍ لابنه، وأن يكون شيئًا "يتناسب مع ألمه البليغ"، وأن يخطط بعد هذا لبناء مسجد "شاهزاده" كملحق للضريح.
أدرك "باجيكا" و"جوزيف" أنهما يحتاجان إلى أن يحميا أنفسهما من الموت. لم يعرف "باجيكا" كيف يتأقلم مع كل هذا الموت الذي يحيط به، إذ إنه عايش تجربة السلطان كما لو كانت مأساته

الشخصية، عايشها بكل صدقٍ وإخلاص. لم يكن قادرًا على التعامل مع الموقف بعمق، لأنه كان على الدوام بقرب السلطان. بالإضافة إلى هذا، بعد موت "شاهزاده"، كان السلطان يبعث في طلب "محمد آغا" أكثر من ذي قبل، كونه أحد أولئك المؤتمنين الموثوقين عنده، وكشف له عن أنه بات يعتقد أنه لم تصبح للدنيا قيمة في نظره منذ وفاة أحب أبنائه إليه. وفي الحقيقة، لم يُطلِع "سليمان" أي أحد من حاشيته على هذا؛ ما زال حاكمًا صامدًا لا يُقهر أمام الجميع.

أما "سنان"، فقد كان الأمر أهون عليه، وقد حوَّل كل هذه الوفيات إلى عمل، إذ فرَّغ كل الطاقة السلبية التي تسربت إليه بسببها في العمل. قام بدمج الموت بالمادة. وتُرِكَ "محمد" لأفكاره والتي لم تكن علاجًا جيدًا على الإطلاق، فقد كانت تؤرقه وتعكر صفوه وتقلقه. لَذلك كان عليه أن يبحث عن علاج آخر. ولأنه لم يكن لديه خيار آخر، وجد طريقة أخرى للتعامل مع الموقف، ربما لم يكن هذا مجرد حل مؤقت، ولكنه عرضه على "سنان". فكر أن عليهما أن يخطِّطا معًا، أراد أن يشارك في أعمال التخطيط للبناء، فقال:

- أريد أن أشترك معك في عملك. أنت تُخَلِّف وراءك دليلًا واضحًا وقويًّا على وجودك، وأنا أغبطك على هذا. ربما يكون لأعمالي وإنجازاتي - إن سمح السلطان بعدِّها أعمالي - مثل مصير أعمالك أيضًا يومًا ما. ولكن حتى ذلك الحين، لا أستطيع أن أجد طريقة للتغلب على هجمات الموت التي تحيط بنا..

فأجابه "سنان":

- ما الذي تفكر فيه؟

فردَّ عليه "باجيكا" قائلًا:

- أفكر في بناء الحمامات.

فنظر إليه "سنان" بشكٍّ وقال:

- الحمَّامات؟

فأجابه "باجيكا" موضحًا:

- إن الحمَّامات أماكن تحمل معاني كثيرة. لا يغسل المرء جسده فقط فيها، ولا يغسل جسمه غسيلًا سطحيًّا. كل ما هو غير نقي يتم تطهيره هناك. إن السعادة التي تخلقها بنا هذه الحمامات تمتد لتفوق أي متعة طبيعية. وهي جيدة للجميع. لقد بنيتَ بالفعل تلك الحمامات لكثير من رجال الدولة المهمين، وسيكون من الجيد أن نجعلها للجميع (أترى، لقد بدأتُ بالفعل أستخدم "نا" الفاعلين في كلامي!). حمامات عامة! نبني أكبر عدد ممكن. إذا كنا نبني مطابخ للفقراء، فلم لا نبني لهم حمامات أيضًا؟ ولكنني أنا وأنت يمكننا بهذا الشكل (بالبناء والاغتسال) أن نطهر أنفسنا من بعض خطايانا.

فردَّ عليه "سنان" قائلًا:

- إنها فكرة ليست بالسيئة ولا غير المثيرة للاهتمام. لم يحصل الناس إلا على الخير من تلك الحمامات. وكيف ترى نفسك في أعمال البناء الحقيقية؟

- لا شيء سوى مجرد راعٍ. إذا كنتُ على علم بشئون البناء لكنتُ أخذتُ الحجر بيدي وشاركتكم في الإنشاء بنفسي.. وبهذه الطَّريقة، إما أن تحمل تلك الحمامات اسمي، لأنني مَن سيموِّلها، وإما سأجد متبرعين آخرين أثرياء بما يكفي، وفي الوقت نفسه يريدون أن يتركوا خلفهم شيئًا رائعًا ونظيفًا يخلد ذكراهم ووجودهم في الحياة. وبالطبع، أنا لستُ ثريًّا بما يكفي لأتحمل نفقات كل شيء بمفردي، ولكن يومًا ما سيأتي هذا الوقت. ورُبما يأتي هذا الوقت عندما يكون لكلينا سلطة كافية تؤهلنا أن نختار أين

وكم عدد الحمامات التي ستَبْنى بالإمبراطورية كلها، أو بمناطق معينة فيها، وما نوعها. وحينها سيموِّل الديوان الإمبراطوري هذه الخطط والأماني. وعلى كل حال، إنك قريب جدًّا من مثل هذا المنصب. وربما يكون لنا تأثير كافٍ على الصدر الأعظم أو السلطان نفسه يومًا ما، وحينها ستفتح لنا الإمبراطورية خزائنها لغسلها وتطهيرها الطقسي والحرفي.

- إن كنتَ كاثوليكيًّا رومانيًّا لقلتُ إنك تريد التطهر من ذنوبك. لكن وفقًا لمذهبنا الأرثوذكسي اليوناني والصربي، حَسْبُنا أن نطهِّر أنفسنا بهذه الطريقة ببساطة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

15

وتمامًا كما ترتبط إيطاليا - وخصوصًا ذلك الجزء من البحر الأدرياتيكي الشمالي الذي يتكون من قوس يمتد من "جنوة" إلى "تريستا" - بمراسلات "إزرا باوند" و"جيمس جويس" والمعلم الصربي "ديميتريجي ميترينوفيتش"، فقد ربطتني مع كاتبين آخرين عزيزين عليَّ ومهمين من الناحية الأدبية. وقد ساعدتني قصة كتبها أحدهما عن الآخر في رؤية موقفي الخاص في مواقف متشابهة تعبِّر عن عدم التساوي في الشخصيات.

هذان الاثنان هما "خوان أوكتافيو برينز" و"خورخي لويس بورخيس".

عندما تقابلنا بعد القراءة الأدبية التي قمتُ بها في نوفمبر عام 2006 في مدينة "تريستا"، حيث كتب المقدمة رجل نبيل كبير في السن يحيط به دفء ساحر، وهو "خوان أوكتافيو برينز"، وهو يذكر في سيرته الذاتية أنه أرجنتيني تعود أصوله إلى بلجراد، وقد كان في ذلك الوقت هو عميد الأدب والكلمة في "تريستا"، أدركت أن علينا أن نلتقي مجددًا على انفراد. وبالفعل التقينا في اليوم التالي في مطعم سمك على مأدبة غداءٍ فرنسي شهي، حيث كنا نستمتع برفقة بعضنا بعضًا. وقد كان الشخص المشترك الذي يعرفه كلانا هو مَن جعلنا نبدأ بالحديث عن القصة السابق ذكرها. ذلك الشخص كان "ماريا كوداما"، زوجة "خورخي لويس بورخيس". لقد كان "برينز" صديقًا للاثنين لسنوات عديدة، وقد كان لي الشرف أن حضرت أحد عروض المهرجان الدولي ببلجراد للعروض المسرحيةBITEF Theatre برفقة "ماريا كوداما"، وأن تناولنا معًا وجبةً خفيفة في مطعم بوهيمي في بلجراد بعد ذلك. ولقد جذبتُ انتباهها لأنني كنتُ من القليلين الذين يعلمون أنها كاتبة، وأنني كنت مهتمًا بقراءة قصصها (ليس فقط تلك اللاتي تكتبها عن زوجها) ولأنها عرفت أنني كتبتُ رواية عن العصور الوسطى في اليابان (لقد كان والدها يابانيًّا). ولقد كان مظهرها الخارجي الغريب أيضًا موضع حديثٍ بيني وبين "خوان"، وقد كان الحديث بالطبع بدافعٍ نبيل للغاية، ولم نقصد منه أي سوء. ومع هذا، كانت قد جعلت قصة "برينز" الصغيرة من غيابها دافعًا للحديث على عكس حضورها المهيب بيننا.

حدثت الحكاية بالفعل في المغرب. كان "برينز" و"بورخيس" مشاركين في أحد المؤتمرات المُقامة هناك. وعندما غابت عنهما "ماريا كوداما" بعض الوقت في مكان ما، استغلَّا هذا الوقت الفارغ للتمشية بشوارع "مراكش" ومجاذبة أطراف الحديث، حتى وصلا إلى مقر المؤتمر السابق ذكره. وبمجرد أن دخلا القاعة حتى اندلع التصفيق بين الحضور من نخبة الوسط الأكاديمي. وتوجه "بورخيس" بالحديث إلى "برينز" وقال:

- يبدو أنهم تعرَّفوك.

أراد مُضيفي أن يقول: "إن معلم الخيال كان شخصًا لطيفًا ومرحًا على عكس الاعتقاد الشائع بأنه كان رجلًا متعجرفًا متكبرًا". ولكن علاوة على ذلك، أراد أن يريني بشكل غير مباشر كيف يكون الأمر عندما تكون في حضرة رجل عظيم، وأنه عليك ألا تهين نفسك بالتفكير في أهميتك وقيمته، أو من خلال مقارنة نفسك معه. كانت الرسالة؛ في ذلك التسلسل الهرمي يوجد مكان مكفول لكل شخص. وكما شعر "برينز" بالتهديد في وجود هذا الكاتب العظيم، فمن المؤكد أن زوجته تشعر بالمثل ككاتبة. وقد تكون شعرت بهذا أيضًا حتى بعد وفاته، بعدما لم يعد صدى اسمه يحميها. حسنًا، ألا يمكن أن تكون قد شعرت بهذا أيضًا في مهرجان المسرح في بلجراد عندما كانت معي؟ (بالطبع، لكن ليس

بسببي) أو ربما أكون أيضًا شعرت كذلك في وجود العديد من الأشخاص المشهورين الذين عرفتهم طوال حياتي. أو قد يكون شعر بهذا شخصٌ ما في وجودي أنا أو "برينز"؛ شخصٌ ما عدَّنا معروفين، أو مشهورين أو عظماء؟ أجل، يمكن تبديل الأدوار بسهولة شديدة.
أو مثال "برينز" الآخر الذي تسلل إلى محادثتنا عندما شرحتُ له ما أثار اهتمامي بشأن (تغير) الهُويَّة في الكتاب الذي أكتبه. فقال لي إنه الآن يكتب رواية سيرته الذاتية (وليس سيرة ذاتية) وعرض عليَّ رؤيته في الفرق بين النوعين باستخدام مثال شخصي: مكتوب في شهادة ميلاده - في المكان الذي من المفترض أن يُكْتَب فيه شهر الميلاد - "أنه وُلِدَ في الشهر الخامس والعشرين"! وهذا ما قاله "برينز" (بالصربية):
- لو استخدمتُ هذه الحقيقة في مطلع سيرتي الذاتية ستكون ممتازة. ولكن إن وُضِعَت في رواية بها عناصر السيرة الذاتية ستكون مجرد مزحة سخيفة وساذجة.
فأضفتُ قائلًا:
- ولن يتكلَّف أي أحد عناء البحث ليعرف أن هذه بالفعل حقيقة، وسيعتقدون أن هذا خطأ وقعتَ فيه ولم تقم بتصحيحه، وهو شيء معتاد يمكن للكاتب الوقوع فيه.
كم هو غريب كل هذا! معلومة حقيقية من الحياة الواقعية، خطأ عبثي قام به شخصٌ بيروقراطي يكون له معني في نص واقعي عن الذات، ولكن على الرغم من عدم واقعيته، فإنه لا يتناسب في طبيعته مع كتاب روائي أساسه الخيال عن الذات؛ لا تنجح هذه المعلومة في كونها جزءًا من عمل أدبي، لأنه ليس مُصاغًا جيدًا في لغة الأدب والخيال.
وكنتُ آسفًا جدًّا، لأن عليَّ ترك مثل هذا الرجل الساحر والمحترم والمرح. ما زال أمامي الكثير لأتعلمه منه، ومع هذا كنت مجبرًا على المغادرة؛ كان "جيمس جويس" ينتظرني.
غالبًا ما أجلس في مقهى "جويس" بـ"تريستا" بإطلالته على ساحة "بونتيروسو" الشهيرة، والتي كانت من أهم الأماكن في يوغوسلافيا في الأوقات الاشتراكية عندما أسس "تيتو" مفهوم "الأخوة والوحدة"، في الوقت الذي كان للدولة الغربية الاشتراكية، على عكس جميع الدول الأخرى في الكتلة الشرقية (والتي كانت يوغوسلافيا نفسها نافذة لها على العالم) قطار خاص بها يغادر من بلجراد مرورًا بـ"زغرب" و"ليوبليانا". وكمكافأة لهذا، وصلت إلى "الغرب المنحل"، في "تريستا". كانت "بونتيروسو" واقعًا اشتراكيًّا؛ لقد كانت سوقًا للبضائع المستعملة لأهل يوغوسلافيا؛ سوقًا في الهواء الطلق لبيع ما هو رخيص وذي جودة رديئة من الملابس، حتى العلب والكنكات. متوسط الزوار من الشرق لا يستطيعون تحمل نفقات أي شيء أغلى من هذا، ولا يمكنهم حتى إيجاد مثل هذه البضائع بمواطنهم (باستثناء متجر شهير اسمه "جيوفاني"). كان هذا الشارع محجوزًا لمثل هؤلاء الناس، علاوة عليهم مَن يماثلهم من الغرب. وما زال هذا الشارع رمزًا للسوق. ربما يقدم أيضًا صورة غامضة ممكنة لنوع مختلف من الحرية. عرضت إمكانية خلق ظاهرة سوق سوداء لبيع التجزئة، والتي كانت بديلة عن ريادة الأعمال الخاصة التي كانت موجودة في بداية ووسط العصر الاشتراكي.
ربما كان هذا السوق هو الجنين الذي انبثق منه سوق البورصة بين الصرب وبين سائر العالم أيضًا.
تُباع في الميدان المجاور للجسر الأحمر، وفي أوقات متعددة من اليوم، معاطف مطر مصنوعة من مواد غير موجودة تقريبًا (بمجرد أن تشتعل به النار يختفي المعطف في الحال)، والسراويل الشعبية، وجوارب نايلون، وعلكة، هذا بالإضافة إلى بيع أهم شيء للعقلية المتحررة وهو "الچينز الأزرق"!
وعلى الرغم من أنه قد يشير اسم الميدان والكوبري إلى شيء آخر، بما فيه من السلع التي قد تكون قد

اختفت مع "حقيبة الجولة"، لا أذكر أنني قد رأيت أيًّا من بائعات الهوى في هذا المكان. ولقد ألهتني دهشتي برؤية هذا الميدان وحجبت عني رؤية أقرب مبنى لي، حيث كان يعيش "جيمس جويس" في وقت ما في الطابق الثالث مُطِلًّا على "بونتيروسو"، ثم إن دهشتي حجبت عني أيضًا التركيز في الكنيسة الأرثوذكسية؛ الصرب الذين يعيشون في الشتات، والذين لديهم مجتمعهم الخاص وثيق الترابط، وكان لهم تقليد تجاري طويل الأمد في "تريستا". لم يكن الزبائن على علم بأن قطعة الملابس التي اشتهرت بأنها جزء من الملابس الأمريكية، والتي يشترونها من هذا السوق والتي تُدعى "الچينز" تم اختراعها منذ مائتي عام في إيطاليا بالقرب من "چنوة"، وبعد ذلك تم تصديرها إلى الولايات المتحدة الأمريكية، حيث يتم تحويلها إلى بناطيل للطبقة العاملة، ومن ثم أصبحت أيقونة.
لم يجرؤ الشخص العادي على النظر إلى أعلى ليندهش بالمعمار الذي يحيط به، أو أن يذهب للتجول بالمدينة على الرغم من أنه يستطيع أن يأخذ جولة لمشاهدة معالم البلدة مجانًا. وذلك لأنهم ينهمكون في التسوق ما إن يصلوا بالصباح، حتى لا تعود أقدامهم تقدر على حملهم، قد يتناولون شطيرة أحضروها معهم من المنزل (فكرة تناول بيتزا إيطالية هي رفاهية غير مخطط لها) وفي المساء يتحتم عليهم أن يستقلُّوا القطار للعودة إلى بيوتهم. كانوا يقضون الليل على مقاعدهم بمقصورة القطار. ولكن قبل هذا يأتي الكابوس الحقيقي؛ هل "سيجد" ضباط الجمارك كل "الچينز" والتيشيرتات، أو الأحذية المُخَبَّئة - والتي تُعَدُّ من البضائع التي يشتريها الزبائن الأكثر ثراءً - ويجعلونهم يدفعون الضرائب، أو لا قدر الله هل ستُصادَر مُشْترياتك؟ لقد كانت هذه مأساة حقيقية. ولكن في كل الأحوال، ما زال المسافر عائدًا إلى موطنه بسلام من الغرب، وهذا في حد ذاته يجعله منتصرًا.
لقد كنتُ إلى حد ما حالة خاصة. كانت رحلاتي إلى "تريستا" ضربًا من الانفصام؛ لقد ذهبتُ هناك عدة مرات مثل أي شخص آخر، بالطريقة نفسها السابق وصفها، وخصوصًا في فترتها الأولى من النظام الاشتراكي. ولكن هذه الرحلات تبادلت مثل تبادل الكعك وتزيينه تبادلًا من نوع مختلف، فقد بلغتُ السن القانوني الذي يسمح لي بأن آخذ سيارة أمي الرياضية (على الرغم من أنها لم تعِش معي على الإطلاق، ولم تشارك معي مستوى معيشتي المعتاد في معظم حياتي). قدتُ سيارتها لأحصل على خدمة في تلك المدينة نفسها. وقد كان هذا في الواقع هو السبب الحقيقي وراء ذهابي. وبالمناسبة أتوقف لزيارة أصدقاء زوج أمي في مناطق مختلفة من سلوفينيا وكرواتيا مرورًا بـ"ليوبليانا" و"أومارجيسكا توبليكا"، ثم "نوفو ميستو" إلى "كوبار"، ومنها إلى "أوباتيا" و"بورتوروز" وصولًا إلى "أوماج"؛ كنت أمر أثناء هذه الرحلة على نوع آخر من الحياة الاشتراكية التي لم يعرف سوى القليل باحتمالية وجودها. ولكن في "تريستا"، عندما كنت منتظرًا في سيارتي أثناء الاهتمام بها، كنتُ أتابع المشهد مذهولًا من منظر الميكانيكيين الذين يؤدون وظائفهم مرتدين معاطف مختبر بيضاء نظيفة، سأنزل بفندقٍ فارهٍ وأشاهد المدينة نفسها وأولئك الناس نفسهم، سأنظر إليهم من منظوري الخاص الأجنبي عنهم.
كان لعامة الزوار مصدر راحةٍ آخر؛ يُقال إن "تريستا" تعيش على حساب يوغوسلافيا وإنها "ستفلس لولانا" (أي بفضل السياحة والتجارة اليوغوسلافية في "تريستا"). ولكن لسوء الحظ لا يظهر الوجه الآخر/ الحقيقي للمدينة إلا "عندما لا نكون بها". ومع هذا، فإن هذه الحقيقة جزئية؛ أرى الآن من نافذة المقهى ساحة انتظار للسيارات تغطي تقريبًا نصف هذا الميدان المهم بالنسبة لنا/ لي، ولكن باقي الإطلالة كانت مثيرة للانتباه. لقد حصل المهاجرون من البلدان الأفريقية على النصف الآخر من الميدان. كانوا يبيعون في أكشاكهم بضائع من بلدانهم، ولكنها أيضًا منتجات ذات جودة رديئة كتلك

التي اعتاد الإيطاليون بيعنا إياها. ويتجول الباعة الجائلون بعرباتهم المتنقلة لبيع الفاكهة المحلية. الفارق الوحيد هو أن هؤلاء الناس الذين توارثوا "بونتيروسو" ليسوا على عجلة من أمرهم ليعودوا إلى أوطانهم، فهم يقيمون هناك، وليسوا مجبرين على المغادرة للحاق بأي قطار مسائي. الأمر الوحيد الذي لم أستطع فهمه هو نجاحهم في بيع بضائعهم (بالرغم من عدم وجود الزبائن اليوغوسلافيين): هل كانوا يبيعونها إما "لبعضهم بعضًا" وإما "لأي شخص آخر"؟ مَن تُراهم أولئك الذين يشترون منهم؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل الخامس عشر

لم يكن "باجيكا" حتى ليخمن هذا عندما عرض فكرته بخصوص الحمامات لـ"سنان"؛ لم يكن في الواقع يفعل شيئًا سوى أنه يحاول أن يجعل الأمور في مصلحته.
بعد نهر "درينا" في "فيشجراد"، نهرا "السافا" و"الدانوب" في بلجراد، ونهر "بروت" ونهر "ماريكا" وبحيرة "فان"، آن الأوان لتخطي البحار. لكل شيء سببٍ من الصعب فرض السيادة على الأنهار، لأن الأنهار كالقطط؛ لكل قط طبيعته وإرادته المستقلة، وكلٌّ يريد أن يكون محبوبًا أثيرًا. أما البحيرات فكانت هادئة وبدت كما لو كانت جمادًا. والبحار بدت مُرَوَّضة أكثر من الأنهار، وهذا غالبًا بفضل مساحتها الشاسعة التي ليست لها نهاية. ولذلك فإن تهديدها أكبر وبلا سبب. ومع ذلك يمكن أن يكون البحر بإخلاص الكلب؛ وأقل ميلًا إلى الأنانية، ومن ثَمَّ يمكن توقع أفعاله. ولكنه مالح بأشكال متعددة. لا يمكنه أن يدَّعي الشيء نفسه عن الأنهار؛ فمياهها كلها عذبة بالدرجة نفسها.
كان يفكر كيف يمكن للماء أن يتسلل تحت جلده بشكل غير محسوس، فعلى سبيل المثال، في كل الأنهار التي خطا أو أبحر بها، استطاع السباحة أيضًا، بالطبع إذا سمحت الظروف. تذكر كيف كان ينظر إليه الناس بدهشة بالغة سواء عندما كان طفلًا أو عندما كان في الحملات العسكرية، لأنه كان من القليلين الذين يعرفون السباحة. وقد كانت الدهشة أقل في طفولته، ولكن كان يرى هذا الذهول بالأكثر في المعركة؛ لقد رأى الكثير من الناس يغرقون في المياه نفسها التي حررته. وكلما اتسعت مساحة المياه، خشي الناس على أنفسهم أكثر. لذلك، لاحظ أن عدم خوفه وراحته في التعامل مع البحار جعل الناس يخشونه.
ربما وصلت هذه القصة بخصوص "شجاعته في مواجهة المياه" إلى السلطان أيضًا عندما دعاه الحاكم ليراه قبل مجلس الوزراء. وبمجرد استلامه دعوة السلطان له، هيمن الخوف على "باجيكا" لأول مرة منذ مدة طويلة. ربما أتى دوره الآن ليشعر بالخوف في هذه اللحظة. ولنكون منصفين، لماذا لا يخاف؟ إنها المرة الأولى في حياته حيث يُدعى علنًا ليمثل أمام كل كبار الضباط بالإمبراطورية. رد الفعل الطبيعي في هذا الموقف، وأول خاطرة لا يمكن إيقافها سترد على ذهنه هي بالتأكيد: "تمت دعوتي لأنني ارتكبتُ خطأ ما، وسوف أُعاقب عليه".
وعندما وقف أمام الديوان و"البادشاه"، اشتعل خوفه أكثر من ذي قبل، لأن أول ما قاله له السلطان كان:
- "محمد آغا"، لقد حان الوقت لكي تُغادِر البلاط.
فتسمر "باجيكا" في محله وخدرته هذه الجملة وشلَّت تفكيره. لم يسمع أي كلمة تنم عن أنه ارتكب خطأ ما، فكانت هذه صدمة مهولة له. ومر أمامه بسرعة البرق شريط لكل ما فعله حتى أصغر التفاصيل التي ظن أنها من الممكن أن تكون سببًا في غضب سيده عليه. لكنه كان دائمًا ينفذ الأوامر دون اعتراض، وكان يوظف خياله وفكره في تنفيذها على أكمل وجه، وقد كان دائمًا يتلقى الثناء على هذا.. حاول بكل الطرق التي يعرفها أن يتوصل إلى هذا الخطأ الذي ربما يكون قد وقع فيه، ولكن دون جدوى. ولم يبقَ أمامه سوى أن يستسلم للقدر، ويترك نفسه لمجرى الأمور، وهذا باتباع الأمر الجديد الذي تلقاه من السلطان الذي قال:

- لقد تَوُفِيَ قائدنا المخلص "خير الدين بارباروسا"، ويجب أن يحل محله أحد لا محالة، ولذلك سأحرم نفسي من قربك مني وأعينك "أدميرال" الإمبراطورية العثمانية. أريدك أن تكون سيد البحار كما كنت سيدًا في خدمتك لشخصنا.

الآن فقط التقط أنفاسه. الآن فقط استعاد هدوء نفسه وراحة باله. لقد كان مُخَدَّرًا تمامًا حتى فهم السبب وراء دعوته. إذن، هذا ما كان يقصده بـ"مغادرة البلاط"؛ أن يتقلد أول منصب له خارج أسوار البلاط الملكي. لقد كوفئ بالفعل.

ولكن مع هذا، ما لبث أن سكن عنه خوفه الأول، حتى انتابه خوف من نوع آخر؛ إنه لم يرَ نفسه قط شخصًا قادرًا، أو شخصًا مُدَرَبًا ومؤهلًا لقيادة أسطول الإمبراطورية كله، وخاصة بعد شخص أسطوري مثل "بارباروسا" اليوناني الأصل، ذلك الذي جعل من أسطول قرصنة متغطرس أسطولًا عثمانيًّا قويًّا مُكَرَّمًا خلال السنوات الطوال التي خدم فيها الدولة بكل ولاء وإخلاص. هذا غير أن أعظم قوى البحر المتوسط التي كانت تَعدُّ "خير الدين" و"قراصنته" خطرًا كبيرًا، بدأت هي نفسها تشكِّل خطرًا محدقًا بهذا الأسطول. وقد قرأ السلطان أفكار "باجيكا"، فقال له:

- سيطرتنا على البحر المتوسط ليست كافية. أريد أن نحكم كل المياه والبحار التي تطل عليها "روملي".

وفي عام 1546، لم يكن لدى "سوكولوفيتش" مشكلة في التعامل مع لقبه الجديد كونه "أدميرال" الأسطول، ولا مع ما يتطلبه منه هذا المنصب، ولم يعد يخشى أيضًا فكرة أنه يجلس مكان "خير الدين بارباروسا" الذي ترك وراءه إرثًا يصعب مضاهاته. لكن، وراء كل هذا، كان يكمن خوف حقيقي من نفسه. لم يكن واثقًا إذا كان باستطاعته أن يحقق أكثر مما حققه القائد السابق الشجاع الواثق من نفسه، والمحارب الموهوب. ولذلك لم يكن خائفًا من ذلك الرجل الأسطوري الذي أتى بعد الكثير من الرجال العظماء المشهورين الآخرين، ولكنه كان يخشى ألا يستطيع الوصول إلى ما وصل إليه هذا الشخص، أو ألا يستطيع أن يبلي حسنًا في وقت الحرب. ثم بعد ذلك، مُنِحَ الحرية ليقرر الطريقة المُثْلَى - وإن كانت مختلفة - ليحقق النتائج المرجوة. وقد كان هذا ممكنًا.

وقد كان. لقد أسس "باربار وسا" قوة بحرية لا يمكن الاستهانة بها، ولكنه لم يستطع أن يجعل هذه القوة تعمل بكفاءة كافية، وهذا لأنها لم تكن منظمة جيدًا. وقد كانت هذه الثغرة هي فرصة "باجيكا" لإثبات ذاته. وبالفعل، بدأ على الفور في اتخاذ إجراءات واضحة كخطوة أولى لتحقيق خططه بشأن إعادة تنظيم الأسطول، بمساعدة السلطان، رفع الضرائب وبدأ في بناء سفن كبيرة في "بيرا" على طول الطريق من المدينة إلى البلاط الملكي. عمل بضع مئات من المهندسين والمشرفين في ثلاثة عشر خليجًا مختلفًا، ليبنوا العدد المطلوب من السفن في الميعاد المحدد. وبالفعل، تم إنشاء خط جديد من السفن بهذه الطريقة، وبأبعاد أكبر وعلى الطراز الحديث. وبمجرد أن يتم إطلاق سفينة جديدة، يبدأ العمل على الفور في التي تليها. وفي غضون أشهر قليلة، كان لدى الأسطول عدة مئات من السفن الجديدة. وفي الوقت نفسه، تم تدريب الوحدات العسكرية ليصبحوا أطقمًا على هذه السفن. تمت إعادة هيكلة التسلسل الهرمي لقادة الأسطول بالكامل، وقد كان التغيير الأساسي هو أن كل القادة كانوا تحت إمرة القائد الأعلى مباشرةً؛ أي تحت قيادة "محمد سوكولوفيتش". وقد تم ترويض حتى أولئك القادة الذين اشتهروا بانعدام الخوف وميلهم للتمرد، فدخلوا في الصفوف وتم ضبطهم؛ وذلك لأنهم أدركوا أنهم سيصبحون أقوى باتحادهم وجمع كلمتهم إلى كلمة قائد واحد، بدلًا من العمل كحرفيين

يفتقرون إلى التنظيم والتنسيق الداخلي. ولم يقلل هذا التنظيم من فرصهم في صيد فرائسهم المستقبلية، وقد كان هذا أحد الأشياء التي أثارت قلقهم. لكنهم وجدوا أن مصالحهم لم تتعطل بخلاف ما توقعوا.

لم يكن على "محمد" أن يقلق بشأن النصر في البحر. فقد كان لديه بين القادة والقباطين مئات من البحارة الذين زادتهم الحروب صلابة. وقد كان لديه ما يكفي منهم للمعركة. أما الأمر الذي استحوذ على تفكيره، وكان مشغولًا بعمله كان أكثر أهمية؛ لقد جعل من تحقيق الفوز شيئًا ممكنًا لهم. فلولا إصراره، وعمله الممنهج المنظم، وقراراته الصائبة التي كان يتخذها بكل هدوء أعصاب، ووضوح الفكرة في ذهنه بخصوص ما يجب فعله، لما حققوا أيًّا من تلك النجاحات على المدى الطويل.

في النهاية، جلب له الموت حياة جديدة. لقد روَّعَته تجارب الموت التي مرَّ بها حتى ذلك الحين، ولكن هذه كانت المرة الأولى - ولكنها ليست الأخيرة - التي كان الموت فيها مفيدًا له لدرجة أنه لم يبذل جهدًا على الإطلاق لكي يقلب الأمر في مصلحته ويستفيد من الموقف. لقد فعل الموت كل هذا لأجله.

في الواقع، أسر هذا الموت أفكاره، وهذا ما أصابه بالإحباط، لأنه كان دليلًا على أنه لا حصانة لأحد عنده ولا مهرب لأحدٍ منه. وقد أسرته هذه الفكرة عندما تم خنق صديق طفولة السلطان، الصدر الأعظم "إبراهيم باشا"، حتى الموت في الغرفة المجاورة لغرفة صديقه السلطان الذي أصدر الأمر بقتله. وقد تعمد السلطان أن يتم قتل "إبراهيم باشا" بالقرب منه، حتى يعلم الجميع أنه لا يخشى أحدًا.

حق سلب الحياة كان ملكًا له هو فقط.

وقد اتضح - وخصوصًا بعد قتل شخص مقرب منه - أن أفضل صديق للسلطان كان الموت نفسه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

16

لقد استفاد مقهى "جويس" من حقيقة أن هذا الكاتب العبقري قد بدأ حياته الصعبة مستأجرًا في الطابق الثالث للبناء نفسه في مارس عام 1905، وظل هناك مدة شهرين فقط (وذلك لأنه تم طرده بسبب حَمْل "نورا"، الذي صار واضحًا، خارج زواج رسمي). على أي حال، الرمزية التي نشأت من حقيقة أن هذا كان أول عنوان له من التسعة الآخرين اللاتي أقام بها في "تريستا" على فترتين من حياته (1905 - 1915)، و(1919 - 1920) قلل من هذه الربحية التي تم تصورها بعقلانية. ومن بين أمور أخرى، أصبح من الجدير أن تدفع مقابل فرصة للاستمتاع بالإطلالة نفسها، ومن المكان نفسه اليوم (ولأكون صادقًا، ليس في المكان نفسه تمامًا، لأنني كنتُ في الطابق الأرضي) الذي كان ينظر منه "جويس" إلى الأشياء في زمنه. ربما كانت هذه الإطلالة على قناة "جراند" وميدان "بونتيروسو" هي ما ألهمه لكتابة نهاية "سكان مدينة دبلن" أو لرسم صورة لفنان شاب، أو لكتابة قصيدة "جياكومو جويس"، ومسرحية "المنفى" ورواية "يوليسيس" وخصوصًا أنه قام بكل هذه الأعمال أو تم تصورها، في حين كان يعيش في تلك العناوين المختلفة التي أقام بها في "تريستا"، ابتداءً من اللحظة التي وصل فيها من "بولا" ليقوم بالتدريس في مدرسة "بيرلتز" الشهيرة للغات، والتي كانت تقع على بعد عدة شوارع من ميدان "بونتيروسو". وُلِد ابنه "جيورجي" الذي أنجبته له "نورا" هنا في 1905، وبعد ذلك وُلِدت ابنته "لوسيا" في 1907.

أكثر ما حمسني وأثار انتباهي هو علاقة الناس في "تريستا" الحديثة مع "جويس"، وعلاقته هو مع المدينة في عصره، حيث عاش فيها بطرق متعددة. وفي كل الأحوال، لم تكن تلك الحياة سهلة على الإطلاق. لقد كانت الوظيفة هي ما أحضرته إلى "تريستا"، ولكن لا يمكن القول بأنه أُجْبِر على الذهاب إلى هناك؛ لقد قدم للحصول على الوظيفة بإرادته الحرة. ولم يكن احتياجه الدائم إلى المال هو ما دفعه إلى ذلك. فعلى كل حال، كان شقيقه هو ضامنه في كل مكان، فكان ضحية ديون "جويس" المستمرة. من العجيب أيضًا أنه ظلَّ مصرًّا على الإقامة في "تريستا"، وفي الوقت نفسه ظلَّ مهووسًا بدبلن وأيرلندا اللتين غادرهما طوع إرادته. ما أريد قوله هو أننا يمكننا النظر إلى حياته في "تريستا" بطريقتين. الافتراض الأول هو أنه لو لم يكن مرتاحًا بالمدينة لما استطاع بالتأكيد أن يكتب مثل هذه السطور الرائعة بها. وهنا تكمن الحقيقة الأخرى الجَلِيَّة، وهي أنه حين يقيم في إحدى المدينتين، كان دائمًا ما يكتب عن المدينة الأخرى. وقد يبدو هذا مُحْرِجًا بعض الشيء لمدينة "تريستا". ومن ناحية أخرى، علينا أن نأخذ بعين الاعتبار أنه منح أولاده أسماءً إيطالية. هل كان هذا مجرد تعبير عن الامتنان لمن استقبلوه وفتحوا له بلادهم؟ (في خطاب منه إلى "نورا"، في أحد الأوقات التي لم يكونا يعيشان هناك، قال بالفعل إن "تريستا" مدينة احتوتهما بشكل وقائي. وليس هذا فقط، بل عبَّر عن مشاعره تجاه المدينة بكل صراحة في أكثر من خطاب كتبه باللغة الإيطالية). يبدو أن هذين الاحتمالين هما الأقرب إلى حقيقة "جويس". وعلى أي حال، لقد بادله أهل "تريستا" حبه هذا بعشرات الطرق الرائعة بعد وفاته فقد تجاهلوا أي جانب سلبي له، وعدُّوه واحدًا منهم. وضعوا تمثالًا نصفيًّا له في حديقة عامة، كما أطلقوا اسمه على أحد السلالم العامة، ووضعوا له تمثالًا آخر من البرونز بالحجم الطبيعي على كوبري "بونتيروسو"، يتجه التمثال ناحية منزله الأول واضعًا إحدى يديه في جيبه، وحاملًا كتابًا تحت ذراعه الآخر، ومرتديًا قبعة على رأسه. بالنسبة للسياح، هناك

أربعون منطقة تمثل "تريستا" الخاصة بـ"جويس"، لقد علقوا لوحات باسمه على كل الأماكن التي لها أي صلة به من أي نوع، كما نشروا كتابًا إرشاديًّا عنه. وقد جاء كل هذا ضمن مشروع خاص قامت به الجامعة المحلية بعنوان "مختبر جويس". علاقة الكاتب بالمدينة، وعلاقة المدينة به تشبه العلاقة بين مجموعة من الرجال النبلاء الذين تقوم العلاقة بينهم على التقبل والاحترام والاعتراف المتبادل. وبهذا أصبحت هُويَّته مسألة لا جدال فيها. وقد تم تعزيزها من خلال عناصر السياحة الثقافية هذه. ولذلك أصبح من الطبيعي أن يكون في "تريستا" أكثر من ستة عشر كاتبًا من جنسيات مختلفة مقيمين ويعملون بها الآن، وعلى الأقل هذا ما تم إخباري به. وبأخذ هذا في الاعتبار، فلا عجب أن رئيس مركز "القلم" عندهم هو شخص أرجنتيني لديه ابنتان وُلِدا في بلجراد من بين كل مدن العالم.
وكما اعتاد أن يكون "جويس" و"تريستا" كالمغناطيس بقطبيه السالب والموجب، فإن اليوم أيضًا هناك قطب مشترك يُعرف باسم الدُوَلِيَّة، وهو يجذب حجَّاج الأدب وجمهور "جويس" وفوق كل ذلك أتباعه أيضًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس عشر

بالنظر إلى منصب "محمد" الجديد من الخارج، يبدو كأنه كان مفاجأة، وحُقَّ أن يكون كذلك. فالناس - عامة الشعب - اعتادوا رؤيته دائمًا عند قدمي السلطان. وبالنسبة لهم كان هذا الاختيار اختيارًا عقلانيًّا؛ إذا جعله الحاكم بهذا القرب منه، فلماذا لا يُعَيِّنَه في مثل هذا المنصب المهم؟ فمن وجهة نظرهم إنه من العجيب أن يكون هناك قرار يمكن أن يجعله أقرب من هذا للسلطان. ولكن بهذه الطريقة، كان كل شيء بخير. في الواقع، لقد تبادلا المسافة بالمنصب. أولئك الذين ما زالوا على مقربة من البلاط الملكي نفسه، ومن ثَمَّ كانوا على علم بما يجري هناك من أحداث، لم يكن لديهم حتى سبب واحد كي يعارضوا مثل هذا القرار. لم يأخذ "محمد" حتى خطوة واحدة خاطئة في قربه من الحاكم. ومع ذلك، لم يتمكنوا من رؤية أي سبب مميز وراء اختيار "سوكولوفيتش" لمثل هذا المنصب الرفيع. إذا تم جمع "الإيجابيات والسلبيات" معًا، يتضح أن هذا المنصب لا يُشكِّل فارقًا بخصوص "باجيكا" على الإطلاق.
أما من لهم الحق في إبداء رأيهم بخصوص هذا القرار هم أولئك الذين سيقع تأثيره عليهم مباشرةً، وهؤلاء هم القباطنة والقادة البحريون والبحارة بكل أنواعهم ورتبهم. هذا بالإضافة إلى القادة العسكريين ذوي الخبرة بأمور الحرب، وهؤلاء لم تكن لديهم أي شكاوى بشأن "محمد" أثناء الحملات العسكرية. اقتنع العديد منهم بشجاعته، كما رؤوا ذكاءه وإبداعه في التخطيط، وهو ما ساعده في كل شيء بوضوح، وحفظه من الاندفاع في مواطن قد تنتهي بوفاته إن لم يتجنبها في الوقت المناسب. ومع ذلك، كان للضباط البحريين سبب للغيرة منه، وأيضًا لعدم ثقتهم في قدرات "صقللي" المستقبلية، لأنه بالفعل لم تكن لديه أي خبرة بخصوص الإستراتيجيات البحرية في الحرب.
ولكنه استطاع بنفسه أن يبدد مخاوفهم وقلة ثقتهم هذه على الفور؛ قال لهم: "إنه لن يتدخل في الشئون التي لا يفهم فيها، ولكنه يفضل تمكينهم من تحقيق أفضل ما يستطيعون بأسرع وقت ممكن". ولذلك، كانت المعارك والانتصارات محفوظة مكفولة لهم. وفي النهاية يُنْسَب هذا المجد لهم، ثم بعد ذلك ينسب إليه بالطبع. وفق الجميع، يُنسب الفضل للسلطان العظيم. ومن فوقه يعود الفضل لله القاهر.
بعد أن أنهى إعادة تنظيم الأسطول وبَنى السفن الجديدة، قام بدعوة كل القادة. وبعد أن أبلغهم بانتهاء هذه المهمة، قال لهم:
- الآن، أصبح النصر بأيديكم. بتوفيق الله القاهر وعونه، وبأمر من السلطان العظيم "سليمان القانوني"، سوف آمركم إلى أين تبحرون، وسأخبركم بمَن عليكم أن تغزوا لنعزز مجد الإمبراطورية. حتى الآن، ما زلت أعمل على خطط لأجل اليوم الذي سنغزو فيه الهند وما بعدها. حتى يأتي هذا اليوم، علينا فرض سيطرتنا على البحر المتوسط، والبحر الأحمر، والبحر الأسود، وكل البحار الصغيرة التي تأتي أمامنا. من الآن فصاعدًا، لن يتمكن أحد من أن يختطف شهرتكم، أو أن يسلبكم أمجادكم وعظمتكم. إنه واجبكم أن تحكموهم أولًا وتفرضوا عليهم سيطرتكم قبل أن يفعل ذلك أحد آخر.
بهذه الكلمات، لم ينجح فقط في أن يغير رأيهم فيه، ولكنه نجح أيضًا في أن يكسب دعمهم، لدرجة أنهم أصبحوا يُقسِمون باسمه. الآن، يمكنه القول إنه أصبح قائدًا للأسطول.

ما زال السلطان "سليمان" يتابعه ويراقب تحركاته، أحيانًا بالسر، ولكن في معظم الأوقات بكل وضوح. ولقد كان سعيدًا، لأن توقعاته بشأن "صقللي" كانت في محلها. الآن، بات واضحًا أن "محمد" أثبت أنه منظم ممتاز، وخطيب (متحدِّث) مقنع، وإستراتيجي جيد (وهو ما كان يُعدُّ إحدى نقاط ضعفه). وعلى كل، ألم تكن كل هذه الإنجازات التي حققها في الأسطول نوعًا خاصًّا من المعارك؟ وقد أثبت أنه كان أكثر من جيد.

ابتهج قلب السلطان؛ لقد شكَّل له خادمًا من الطراز الرفيع وعبدًا مثاليًّا.

للإمبراطورية.

وله هو نفسه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

17

لكن ما الذي سنفعله الآن بعدم وجود اليوغوسلافيين؟ مائة كتاب عن موضوع هذه الهُويَّة والبحث للوصول إليها لم يعطوا إجابة واضحة تمامًا مثل أولئك الذين كتبوا عنها بالفعل. وهذا يعني أنني أيضًا لن أستطيع أن أفعل شيئًا أفضل في بضع جمل.

في الوقت الحالي، وحتى يدحض التاريخ نفسه في المستقبل كما يفعل دائمًا، ستبقى يوغوسلافيا مصطلحًا جغرافيًّا تقريبًا، أو اسمًا "إثنوغرافيًّا" ذاب وانصهر بين آلاف آخرين مثل "جنوب السلاف" القديم. أو سيستخدم بشكل أوسع ليعبر عن مجموعة من الناس أو قبيلة ما مثل السلافيين Slavs. ومن ثَمَّ ستبقى يوغوسلافيا كذلك إلى أن تنشأ مدينة فاضلة أخرى على أرض البلقان، أو حتى تُغتال بعض الشخصيات الهامَّة، أو حتى يبزغ بين نخبة المفكرين مزيج جديد مهجن من الرومانسية.

أو لو اعترف أحد بوجود اليوغوسلافيين القدامى الجدد، ولو حتى على الورق مثل السبعة وعشرين قومية من الأقليات في صربيا. وتُطرح مثل هذه المطالب علانية في برلمان "فويفودينا"؛ المقاطعة الصربية التي تضم أكبر عدد من القوميات. ومع هذا، فإن التفسيرات القانونية لهذه الفكرة لا تفيدها؛ ينص القانون على أن القومية التي يمكن اعتبارها أقلية هي تلك القومية التي لها لغة مستقلة، وليست مجرد إحدى لهجات اللغات الموجودة بالفعل. ولكن رسميًّا، اللغة التي كان اليوغوسلافيون يتحدثون بها، وهي الصربية الكرواتية، ليست موجودة حاليًا، حيث اختفت مثلما اختفى كل شيء خاص بقومية اليوغوسلافيين ودولتهم.

وإلى إشعار آخر، اليوغوسلافيون في حالة سبات.

اليوغوسلافيون مفهوم افتراضي.

اليوغوسلافيون ذكريات. ليس فقط ماضيًا. ما زال بعض منهم أحياءً بيننا. بتعبير أدق، أحياء موتى. شيء ما مثل مصاصي الدماء (تمامًا كما يحدث عندما يستخدم السياسيون شعاراتهم المفضلة مع أعدائهم؛ "مصاصو الدماء الذين أُعيد إحياؤهم"، أو غالبًا لأي ظواهر سلبية مجردة؛ "قوى مصاصي الدماء المتجددة").

ماذا لو كانت هناك رغبة للدماء...؟

وعلى كلٍّ، فإن أوروبا القرن التاسع عشر الفائقة التطور عاملت مناطق البلقان كما لو كانت مكانًا غير موجود، وأطلقت عليها اسم "روريتانيا" ربما من أجل طهوها عدة مرات أخرى في قِدْر لحوم البشر. أم هل كان هذا الدور عرضيًّا ومفاجئًا بشكل غير مستحق؟ ربما لم تكن البلقان في هذه المأدبة السياسية هي الطبق الرئيس، وربما كانت فقط إحدى المقبلات. ألم تخلط أوروبا في خِضَمِّ افتقارها إلى الاهتمام القليل من كل شيء موجود في موطن "كُونْت دراكولا" (بدءًا من مصاصي الدماء وصولًا إلى المستذئبين) بين مَنْ وُجِد أين، ومِنْ جاء من أين؟

في أدغال أسماء الأماكن ("الدانوب"، "الكارباثيانز"، رومانيا، "روملي"، صربيا، "ترانسلفانيا"، "شوماديجا"، بلغاريا...) وجدت هذه "الروريتانيا" موطنًا بسهولة. ومما يدعو للدهشة، هذه تقريبًا هي الحالة الوحيدة التي يكون فيها للخيال والأدب "الأنجلو – ساكسوني" تأثير فعليٌّ في الواقع، ثم إن هذه هي الحالة الوحيدة التي تُحوَّل فيها فكرة أدبية خيالية إلى حقيقة، بل ويجعلها جزءًا من التاريخ الواقعي. لقد نجح في تحقيق شيءٍ يُعدُّ مستحيلًا، على الرغم من أن الكثير من الكتَّاب والألوان الأدبية

سعوا إلى هذا، ولكن دون جدوى. ولذلك اكتسب الحق في أن يفتخر بنفسه. ومع هذا، يبقى السؤال: لماذا كان عليهم استخدام مصطلح "البلقان"؟

ربما يكون التاريخ مثل أي نوع من الكائنات الحية، أو كشخصية من عمل أدبي هو مَن خطط لذلك كمبادرة ذاتية منه، وذلك بتكرار التوسعات الكبيرة، ثم بعد ذلك بتقليصها للتركيز على الحجارة وتربة "الدبال" التي اشتهرت بها البلقان. يبدو أن وجود هذه الخطة هو شيء شبه مؤكد، وأن تداولها لن ينتهي. أمَّا السؤال الذي ليست له إجابة مؤكدة فهو لماذا؟ الأسباب جدلية؟ أم من باب الطمع؟ ألأن هذا ما يجب أن يكون؟ ألأنهم ظنوا أن هذا هو الصواب؟ أبسبب القوى العليا؟ أمن أجل المرح فقط؟

كانت مهمة اليوغوسلافيين توسيع أراضي البلقان، وبعد ذلك تقليصها. المهمة الأولى جرت ببطء وأتت بثمارها بعد الحروب، والثانية جرت بسرعة وبمساعدة الحروب (بسرعة شديدة لدرجة أنها ربما حدثت قبل الحروب). ولهذا لم يكن واضحًا على الدوام كيف يصنع المرء أدوات من الأدوات، أو كيف يصنع الآلات التي تهدف إلى تحريك آلات أخرى. هل كان تصميم وتطوير السبائك وما ترتب عليه من مزج أنواع متعددة من المعادن لتصبح أقوى من أي عنصر منها بمفرده ضروريًّا؟ قوى الطبيعة متحدة في مقابل نوع واحد وحيد منها؟

كيمياء تُبتكر من أجل التدمير.

مثل البشر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل السابع عشر

كانت قيادة "محمد" للأسطول هي الفترة الأولى التي يمارس فيها بعقله وصوته المستقل اتخاذ القرارات المهمة، على الرغم من خضوعه وتبعيته للسلطان الذي لا يُقهر، والتي لا جدال فيها. على الرغم من أن منصبه الرفيع الجديد فصله وأبعده جسديًّا عن سيده، فإنه قام بحركة ذكية ليخفف من هذا التغيير؛ فقد قرر أن يقود الجيش من إسطنبول، لا أن يخرج بنفسه على رأس الحملات والمعارك التي كان من المفترض وجوده فيها. وبهذا، استطاع تمكين قادته الذين اشتد عودهم في الحروب ليعودوا إلى الموانئ وهم يقودون سفنهم العظمى بإحساس رفيع وعزة بما أنجزوه من نصر. وبذلك حافظ على إمكانية رؤية السلطان والتشاور معه، بالإضافة إلى القليل من الحديث الذي لا يتعلق بأمور القيادة والخضوع، وكل هذا لا يقدَّر بثمن لدى "باجيكا". لقد كانت الخمس سنوات هذه مهمة لكليهما، لأنهما استطاعا أن يُري أحدهما الآخر إمكانياته. كان من الجيد أنهما امتدحا بعضهما بعضًا في تقييم الأحداث، وبالمثل أيضًا بخصوص القرارات القيادية المقترحة التي كانا يتبادلانها. كان "سليمان القانوني" يتحدى "أدميرال" أسطوله، وينتظر ليرى ما سيكون قراره بخصوص مسألة ما قبل أن يخبره برأيه أو أمره بخصوص هذه المسألة. من الغريب أن هذا النوع من الحُنكة لم يخلق بينهما غضبًا أو قلقًا أو خوفًا، سواء علني أو خفي أو أي شيء من هذا القبيل في نفس "باجيكا". ومن الناحية الأخرى، كان "سليمان" معجبًا بهدوء "محمد"، والذي لم يختلط بالغطرسة، ولم يسئ تفسيره أيضًا على أنه افتقار إلى الاحترام أو الطاعة. بل على العكس، لقد قربهما هذا من بعضهما أكثر. في الواقع، تفاجأ كلاهما من هذا القرب الذي نشأ بينهما. لم يحلم "باجيكا" يومًا بأن يصبح بهذا القرب من الحاكم، بل ولم يجرؤ على ذلك قَطْ، بصرف النظر عن كمِّ الوقت الذي كانا يقضيانه معًا، وبصرف النظر حتى عن مدى ثقة السلطان التي كان يبديها تجاهه. والسلطان - من جانبه أيضًا - لم يكن يعلم أن بإمكانه أن يبني مثل هذه العلاقة مع شخص لم يكن رفيقه منذ الطفولة، ليست صداقة حقيقية (لأنها لا يمكن أن تكون) ولكن توجد بينهما ثقة غريبة، حتى إنهما في بعض الأحيان يلاحظان أن أفكارهما تكمل إحداها الأخرى بشكل تآمري. لا يمكن القول بأن علاقتهما كانت تبدو كلعبة، ولكنها بالتأكيد كانت تدريبًا من نوع ما.

كمكافأة له على عمله، قام السلطان بترقية "محمد" من "آغا" إلى "باشا". وبهذا عزز "باجيكا" منصبه الحكومي بلقب لم تكن له أي صلة بالعسكرية. وهذا المنصب الجديد ساعده في زيادة ثروته وأملاكه. وقد كان هذا ما مكنه من جلب أبناء إخوته ضمن العديد من أقاربه الآخرين إلى إسطنبول. تفوق "إليجا" و"مصطفى" و"درويش" و"محمد" - الذي سُمِّي على اسمه - في مدارسهم، وفي جميع المواقع التي كانوا يخدمون بها في الإمبراطورية. وقد زاد "باجيكا" من ثقته بنفسه بفضل مساعدتهم، ثم إنه بوجودهم عزز إحساسه بقربه واتصاله بموطنه. اعتدال كفتي ميزانه بهذا الشكل كان عادلًا له وجعله يشعر بتحسن.

هذا بالإضافة إلى حضور لغته الأم على لسانه بشكل متزايد.

وهذه الأخيرة زادته تمكنًا وقوة كما أحزنته لعدة أسباب. السبب الأول هو أنها ذكرته بأن والدته كانت الشخص الوحيد الذي لم يبدِ رغبة في الانتقال إلى إسطنبول أو تبديل دينها. كانت دائمًا تقول إنه على الأقل يجب أن يبقى حتى لو فرد واحد من عائلة "سوكولوفيتش" بالوطن، وأنها ستكون هذا الشخص

وبرفقتها أحد أولادها. لقد تخطت تحول زوجها من "ديميتريجي" إلى "جمال الدين بِك"، وباركت ولدها "باجيكا" أثناء زيارتها القصيرة له، كما أخبرته بأنها تشعر بأن أخته "ستتزوج تركيًّا"، وبأنها على الرغم من ذلك لا ترغب في أن تبدِّل موطنها الوحيد تحت أي ظرف أو بأي ثمن.
والسبب الثاني لحزن "باجيكا" هو أن من بين جميع النساء اللائي رآهن لم تكن من نصيبه أية واحدة منهن. لقد كان مرغوبًا فيه من جميع البنات والنساء داخل البلاط الملكي وخارجه، فهو شاب طويل، ذو جسد قوي رشيق(((38) - لقد كان مظهره في البلاط الملكي هو السبب الذي جعل النساء أولًا، ومن بعدهن باقي الناس، يُطلِقون عليه لقب «الطويل»، حتى إنهم أصبحوا يضيفون هذه الصفة بعد اسمه، حتى كادت تكون جزءًا من اسمه: «محمد باشا الطويل».
)). حتى من دون منصبه في البلاط الملكي، فهو جذاب أيضًا بالقدر نفسه، فقد كان محترمًا من قِبَل الجميع، حتى قبل كل ما وصل إليه. الفتيات الشابات - المتزوجات أيضًا - جعلنه يعرف أنه بفضل صغره في السن، ووضاءته، وخدمته المخلصة للسلطان، لم يأخذن أفكارهن بشأنه بجدية. لقد كان مثاليًّا فقط لمتعتهن الجسدية دون أي عواقب وخيمة لأي شخص؛ هذا يعني أن تلك العلاقات لم تكن ملزِمة لأي أحد. لا يمكن القول بأن "باجيكا" رفضهن، ولا حتى يمكن القول إنه لم يقضِ وقتًا ممتعًا معهن، ولكنه لم يجد مع أيٍّ منهن أيَّ راحة أو سلام. افترض وسمع أيضًا أنه يمكن أن يجد نوعًا من الهدوء أو الراحة في مثل هذه العلاقات. لم يكن يعلم حينها أن هذا الشعور يمكن أن يُطلق عليه أيضًا الحب.
كانت الفتيات يحببن التفاخر في محادثاتهن مع بعضهن بعضًا عن كيف أنهن جربن "محمد الصغير" (كانوا يسمُّونه الشاب والصغير، على الرغم من أن هذا لم يعد حقيقيًّا بعد). وبعض السيدات المتزوجات كن يُشِرن إلى هذا، لكن بحذر وبكل غموض. لم يبدِ "باجيكا" أي علامة تدل على أنه كان يفكر بشأن الزواج أو على عجلة من أمره في شأنه. هذا الإصرار على رفضه اختيار شريكة حياته أصبح سِمَة يعرفها الجميع عنه، فأعلنوا أنه سيظل عَزَبًا إلى الأبد.
في البداية، ثار "باجيكا" غضبًا عندما وصلته هذه الشائعات. كيف يجرؤ أي شخص على قول مثل هذه الأشياء! ولكن عندما فكَّر في الأمر مدة - مُدْرِكًا أنه ليس بيده شيء يستطيع أن يفعله ليوقف تلك الشائعات - تقبلها كشيء مفيد له؛ بفضل هذه الشائعات، سيتركونه وشأنه. وعندما يرغب في أن يثبت العكس، سيكون حفل زفافه هو رده الأمثل وقوله الوحيد بخصوص هذا الشأن. ومن بين أسباب أخرى جعلته يصمت أنه من الصعب جدًّا عليه أن يذكر السبب الحقيقي وراء عدم إيجاده زوجة حتى الآن؛ إنه يريد أن يتحدث معها باللغة الصربية. لا، لا يعني هذا أنه يريد أن يتخذ من امرأة صربية زوجة له، ولكنه يريد واحدة تجيد هذه اللغة كما تجيد لغتها الأم. لقد كان مقتنعًا أن نوع التناغم الذي يجب أن يتشاركه الزوجان يعني أيضًا أن تجمعهما لغة مشتركة، وليس فقط روح وجسد. هل يمكن لأي أحد أن يتفهم ذلك فعلًا؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

18

عندما تميل بعض الظواهر قليلًا (أو حتى زاوية إدراكها) فإنها تأخذ أشكالًا مختلفة، وخصائص جديدة، وتتغير أشياء كثيرة بخصوصها. تحت مثل هذه الظروف، يصبح وجود يوغوسلافيا ممكنًا. في الحقيقة، من الممكن بمرور الوقت أن تتحول ذكريات وجودها إلى شعور.
وهذا مثال لشيء يبدو مستحيلًا من النظرة الأولى، ولكنه موجود على الرغم من أنه غير موجود أساسًا.
في سوريا، حتى يومنا هذا، يوجد دير أرثوذكسي يوناني اسمه دير "القديس تيكلا" بُنِي في القرن الرابع الميلادي، حيث يُقام القداس باللغة العربية (في كنيسة بُنِيت حديثًا). (تقول المصادر إن الدير والكنيسة يوجدان في قرية "يونانية" ولكنهما كاثوليكيان). يقود الراهب والأخوات - بعضهم لا يبدو عليهم أنهم يونانيون - الموكب الذي يمكنك رؤية المؤمنين فيه من جميع الأعراق والألوان. بالإضافة إلى هذا، هناك أيضًا الحجاج المسلمون الذين يتوقفون عند الدير في طريقهم إلى "مكة" كما يفعل الحجاج المسيحيون واليهود في طريقهم إلى القدس. مضيفوهم – المسيحيون خدم الله - الذين يأخذونهم إلى القداس بذراع مفتوحة يؤمنون أنهم في خدمة كل العقائد والديانات. هذا يعني أنهم لا يخدمون إلههم وأنفسهم فقط.
لماذا يكون مثل هذا الشيء ممكنًا؟ يتلو الراهب في جزء من القداس الصلاة باللغة الأرامية، لغة المسيح. هذه اللغة في حد ذاتها تُعدُّ غير موجودة، أليس كذلك؟ أو نصف ميتة نوعًا ما؟ تُدعى هذه القرية "معلولا"، وهي واحدة من ثلاث قرى متبقية، حيث تُستخدم اللغة التي كان يتحدث بها المسيح.
لا أعرف إذا كان هذا بسبب اللغة، أو بسبب الولاء لخدمة جميع الأديان، ولكن قداس "القديس تيكلا" هو أقدم قداس مكتمل ما زال موجودًا إلى اليوم. ومن وجهة نظر عرقية، يجب أن تعيد هذه الحقيقة إعداد المعيار لجميع مجتمعات الإيمان الحديثة.
هذا التجمع الإيجابي للعقائد والأعراق، وهذا الانفتاح الفوضوي على الآخر المختلف يتعلق بأكثر حقيقة محيرة (التي ذكرتها بالفعل)؛ توجد هذه الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية والدير في قرية يونانية كاثوليكية. هناك تفسيران لهذه العبثية: الأول أن المحررين الألمان (أصحاب هذه المعلومة) كانوا على خطأ، والأخرى أن هناك شيئًا بين اليونانيين يقع على حافة المستحيل؛ مستوطنة كاملة من الكاثوليكيين بعقيدة أرثوذكسية.
من المثير للاهتمام أن طاقم التليفزيون الألماني هو مَن قام بتصوير قداس دير "القديس تيكلا" الذي يُقام يوم الجمعة العظيمة (أذيع في الثامن من أبريل عام 2006 على واحدة من القنوات الصربية)، ومن المثير للاهتمام أيضًا أن الكاميرا استطاعت التقاط أيقونة غير عادية للدير بها القديسة "مريم"، وشخصية تركية أخرى صغيرة عند أسفلها. يوضح الراوي أن هذا التصوير كان لرجل أراد في وقته أن يحول الدير إلى قلعة، وأن القديسة "مريم" أقنعته بعكس ذلك. ولنضعه بلغة حديثة؛ يبدو أنهما توصَّلا إلى حل وسط وتعاونا معًا.
لماذا يجب أن يكون رد الفعل هو الذهول عند معرفة أن هناك نموذجًا واضحًا للتصالح بين العقائد، حتى إن جسَّده رجل واحد؟ لقد ذهب "محمد باشا سوكولوفيتش" للحَجِّ تسع مرات، حتى يقنع أولئك الذين بالإمبراطورية العثمانية الذين ادعوا أنه لم يكن مخلصًا كليًّا ولم يكن مسلمًا ملتزمًا بحق. لهذا

السبب، يمكنك أن تجد أنه يُشار إلى "صقللي محمد باشا" باسم "الحاج محمد". حتى في وقتها، كان عليك أن تثبت ولاءك لعقيدةٍ ما إذا كانت لك عقيدة غيرها في البداية. وعلى الرغم من كل هذا، فكل هذه المحاولات لإثبات الانتماء إلى عقيدة معينة ليست لها أي علاقة بكونها دليلًا حقًّا على الإخلاص والولاء. هذه المحاولات لا تعدو كونها اختبارات رسمية مؤكدة ومتفقًا عليها. ومع هذا، إنه فقط هو مَن يستطيع سماع مناجاة القلب والروح يعرف أي إله (آلهة) يتوجه إليه صاحبهما بالدعاء.
المثال الذي أقدمه من خلال "الحَاج محمد باشا" لا يختلف في الواقع عن الرحلات الحديثة في يومنا هذا التي يقوم بها الناس إلى المجهول بناءً على الوجهة والأسئلة المطروحة على طول الطريق. لكل رحلة سبب وهدف. كل رحلة مُكرَّسة لشيء ما (نادرًا ما تكون لشخص ما). بعد ذلك، يسقط ثقل من جنود هذا الشخص، فيجد إجابة أو اثنتين عن تساؤلاته، شيء تمت التضحية به لخدمة سبب أسْمَى.
ظهور المفاجآت شيء متوقع. يمكنني ذكر مثالي الخاص. تحديدًا، على مر السنوات القليلة الماضية، ربما بفضل كل تلك الأميال التي خلفتها ورائي، بدأ يخالجني شعور غريب قبل بدئي بأي رحلة، والله وحده يعلم حتى إن كانت هذه الرحلة للعودة إلى الوطن. كيف؟ حسنًا، في وقت ما، كان هذا الشعور هو الحماس أو التوتر قبل المغادرة تخالطه فرحة مكتومة، ولكن بعد هذا، اُستبدل بهذا الشعور إحساس غريب من الاكتئاب بسبب المغادرة. بدأ هذا الشيء يتكرر حتى عندما يحين وقت عودتي من الرحلة؛ اللذة في فكرة العودة إلى مَن هم لي وما هو ملكي استكملها شعور حلو وحزن بسيط (وهذا الحزن إذا وُجِد) فهو بسبب أنني سأغادر المكان الذي أنا فيه. إذا طلب مني شخص أن أميِّز بين شعور العودة والمغادرة، فلست متأكدًا أنه يمكنني فعل هذا. يبدو لي الأمر أنني أتفهم الاكتئاب الذي يصيبني عند مغادرتي مكانًا كنت أقيم فيه لفترة مؤقتة أكثر من فهمي لشعوري عندما أسافر من منزلي. الاكتئاب الذي يشعر به المرء عند مغادرة منزله هو شعور معقد؛ يبدو كما لو كان يحدث مع سبق إصرار، معضلة محيرة، خضوع سرِّي.
ربما يقبع السر في تقدمي في السن. من المعروف أن كبار السن يجدون صعوبة في مغادرة أوطانهم أكثر من الشباب، حتى إن كانت الرحلة فترة قصيرة. يصحب التقدم في العمر بعض المخاوف الفسيولوجية، والتي بدورها لها تأثير نفسي، ومن ثَمَّ يكون الأمر مفهومًا؛ عندما يبدأ الجسد في أن يخذلنا، ويعتمد على الآخرين من العائلة أو المقربين، تصبح فكرة الاستقلالية المحدودة أكثر وضوحًا، لأنهم لا يكونون حولنا عندما نسافر. يُملي الجسد شروطه على الروح. حتى عندما يكبر الجسد، فالروح لا تشيب مطلقًا. وفي هذه الحالة، لا مجال للروح لتنتصر على الجسد. ادعاء عكس هذا سيكون كما لو أن مدخنًا شرهًا للزيت الأفغاني الممزوج بالتبغ ادعى أنه استطاع أن يَجري مائتي ميل في عقله، بعد أن طرحه تركيز المواد التي يدخنها على سريره دون أن يحرك ساكنًا أربعة وعشرين ساعة، في حين يعمل عقله بمعدل 200 ميل/ ساعة. أجل هذا صحيح؛ يمكن لفكرة أن تقطع هذه المسافة في ثانية واحدة، في حين لم يتحرك الجسد بوصة واحدة.
ومع ذلك، أنا لست كبيرًا لهذه الدرجة (على الأقل لم أبلغ هذا الحد). لكنني فقط دخلت في هذه المرحلة العمرية لأول مرة. أو ربما بدأت أعي هذا للمرة الأولى. على الرغم من أن جسدي لم يخذلني بعد، على الرغم من أنني لا أعلم إذا كانت هناك حدود لبداية الشيخوخة، وعلى الرغم من أنني لا أعلم أيضًا أين تبدأ أو كيف أجدها، فإنني بدأت أفكر في هذه العملية بمساعدة مَن هم أكثر مني في هذا، ولكنني استطعت التوصل إلى بعض الاستنتاجات بنفسي أيضًا. هل من الممكن أن تكون بداية التفكير في الشيخوخة هي بداية الشيخوخة نفسها؟

ولأكون مخلصًا، أتذكر عندما سألتَ شخصًا ما للمرة الأولى عن التقدم في العمر وعن الذاكرة والقدرة على التحمل، ربما لأنني محظوظ لأن آخذ الأدب على مجمل الجد والاهتمام. كان هذا في بداية الثمانينيات، وكنتُ في الخامسة والعشرين من عمري (ولحسن الحظ لم تكن هذه هي بداية شيخوختي)، بعد أن قرأت كتاب "حتى المستحيل" من تأليف اللغوي والسريالي "دوردي كوستيتش" الذي وصف فيه طفولته مع "دوردي جوفانوفيتش" و"أوسكار دافيشو" (وصولًا إلى بداية التقويم الشهير "المستحيل" في ثلاثينيات القرن العشرين).
أثناء كتابته، كان "كوستيتش" قد تقدم في العمر، في حين كنتُ صغيرًا في السن عندما قرأته، وقد أدهشتني قوة ذاكرته وقدرته على وصف مثل هذه التفاصيل الغريبة من طفولته المبكرة. كان حظي جيدًا عندما تعرَّفت صديقي "بورا دوكوفيتش"، وهو أحد أصدقائي الكتاب الموهوبين (ولكنه مع الأسف ترك موهبته على الأقل علنًا) فمن خلاله، نلت شرف تعبيري عن دهشتي هذه لـ"دوردي كوستيتش". وقد كانت إجابته مذهلة وغير متوقعة بالقدر نفسه، ربما لأنها كانت صريحة وحقيقية بضراوة. بهذه الطريقة، هذا الأكاديمي الساحر والهادئ، والذي طبع ونشر لكُتَّاب شباب في "كالكوتا" على "أوراق من الخشب" أثبت كم كان كاتبًا ورسامًا سرياليًّا بحق.
"عند التقدم في العمر، يدرك الرجل كيف يتقلص الوقت المتبقي أمامه في هذه الحياة. بسبب عدم وجود مستقبل طويل أمامه يمكنه فيه التعويض، يصبح المرء أكثر ميلًا إلى استرجاع ذكريات شبابه وطفولته. وبهذا الشكل يخلق محاكاة للوقت تدوم تقريبًا المدة نفسها، فيبدو الأمر كما لو كان استبدال الماضي بالمستقبل. تصبح فكرة عدم وجود غدٍ ضبابية، وتتضح الرؤية بخصوص السنة الماضية. ببساطة؛ كلما قل الوقت المتبقي للإنسان في الدنيا، ازداد حنينه إلى الماضي وبحثه فيه".
وقد كان هذا نوعًا من فرض الذاكرة. ومن خلالها، يمكن التوصل إلى استنتاجات جديدة. أعتقد أن الحكمة تولد بهذه الطريقة، بإعادة تفحص وبحث الماضي المعروف المألوف، ولكن باستخدام الطاقة الشخصية المتولدة من المستقبل، والتي تذوب تلقائيًّا بالماضي. وفي هذه الحالة، يصبح الفرد أكثر حساسية، ومن ثَمَّ أكثر قدرة على رؤية الظواهر بشكل أدق وأكثر صوابًا.
ومع ذلك، لا يجب أن ننسى الجزء المهم من الرحلة في التقدم في العمر. وهذه هي العودة الأبدية المتعلقة بالهجرة والشتات، والانتقال "إلى هناك إلى الأبد" والتي تنتهي بالتطلع إلى العودة "إلى هنا في النهاية" - إلى الوطن - إلى المكان الذي وُلِد به المرء. وإذا لم يعد هناك موطن، فسوف يتوجه إلى أي مكان مجرد تَحده القابلية الجغرافية. يعيد التقدم في السن الناس دائمًا إلى مواطنهم. وخصوصًا القرب من الموت. الرغبة في الموت "على أرض الوطن" هي أمنية عجيبة. وإذا تجاوز الموت الحياة، سنجد آخر الأماني لمثل أولئك الأشخاص (والتي يجب تنفيذها) هي الوصايا نفسها، وهي أن يعيد الشخص الذي سينفذ الوصية إما التابوت وإما الجرة التي تحوي رماد المتوفَّى إلى مسقط رأس المتوفَّى، ليدفن أو يُنثر رماده بموطنه. العودة هي القرار الأبدي، إن لم يتبقَّ من عمره ما يكفيه من الوقت ليعود حيًّا فسيعود ميتًا.
وهذا التعبير يتم تنفيذه بالحرف وبكل قسوة تحت أي ظرف.
الموت موجود دائمًا حيث ينتمي. إنما الحياة هي المبعثرة الحائرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الثامن عشر

إذا لم ينجح في الحديث بالصربية مع زوجته الخيالية، لن يستطيع أن يفعل ذلك مع العالم أجمع في السنوات القليلة الآتية بعد هذا، عام 1551، بصفته قائد الحملة في المجر. إذ إن قائد الأسطول لا يغادر العاصمة إلا نادرًا، قاد "محمد باشا" بكل مهارة السياسة العثمانية في الغزو بمساعدة بحَّارته المهرة الشجعان. لقد كانوا راضين تمامًا عن احترام "الأدميرال" رغباتهم (ابتداءً بالسفن والقوادس، وصولًا إلى الأموال) وأطاعوا أوامره المُحكمة والمُخططة بحذر. واختاروا الطريقة التي ينفذون بها الأوامر بأنفسهم، وفي المقابل كان مطلوبًا منهم أن يحرزوا النصر. ولأكون صادقًا، لقد كانت هناك ثروة هائلة استفادوا منها شخصيًّا. لقد ملكوا كل البحار المحيطة وفرضوا عليها سيطرتهم.
وكان السلطان راضيًا مسرورًا. فبفضل قربهما من بعضهما، كان يعرف شخصية "محمد باشا" جيدًا، والآن اتضح أنه كان حكيمًا للغاية في ثقته التي وضعها بـ"محمد" عندما رأى منذ فترة أن الباشا بإمكانه القيادة من مثل هذا المنصب العالي. وليبدي له امتنانه، قام "سليمان" بترقيته ليصبح "البيلربي" الخاص بـ"روملي". تأكد "باجيكا" الآن أن الأبواب أصبحت مفتوحة أمامه ليتقلد أهم المناصب في الدولة. على الرغم من أنه ليس من الحكمة مقارنة هذه الوظائف مع بعضها بعضًا، فإنه كان مدركًا للسلطة الهائلة التي وضعها السلطان، وتحت إشرافه بالطبع، بين يدي "باجيكا".
كانت "روملي" مُجْتَمعًا من قوى مختلفة، بما فيها المجريون، وأهل "هابسبورج"، والألمان، والفرنجة، والإسبان، والإيطاليون، والصرب، والبريطانيون الذين لا يبعدون كثيرًا عن هذه المنطقة وغيرها الكثير. ويبدو أنها مكان خطير بسبب فكرة "البادشاه" لغزوها. ومع هذا، وفي الوقت نفسه، كان هذا أيضًا السبب وراء ضعفها؛ كان صعبًا عليهم جميعًا أن يتفقوا على أي شيء، بالنسبة للعديد من الممالك والإمبراطوريات والإمارات والمدن والدول، حتى في دفاعهم ضد نوايا العثمانيين الواضحة.
ومع ذلك، دفعه الكثير للتفكير بجدية حول صعوبة التغلب على مثل هذا العدد الكبير من الأعداء، بصرف النظر عن تفككهم واختلافهم، ولكنَّ شيئًا واحدًا هو ما رسم الابتسامة على وجهه؛ إمكانية رؤيته صربيا هي ما جلبت له السعادة، فمعها يأتي اسمه الحقيقي الذي لم يعد أحد يستخدمه فترة.
سرعان ما تلقَّى أوامر من السلطان بأن يبدأ الاستعدادات سريعًا لحملة على المجر. كان هذا الجزء من وظيفته يتبع طريقًا واضحًا، بمجرد أن يبدأ في التحرك، كل الأجزاء الباقية تبدأ في العمل بآلية مثالية. كانت وظيفته تتمثل في إعداد إستراتيجية وخطة للحرب. قلبه كان يخبره بأنه إذا أصغى إلى نفسه، فسوف يقدم إستراتيجية جديدة في الحرب والمزيد من الدبلوماسية. ومع ذلك، كان يعلم أنه لو لم يثبت شجاعته في ميدان المعركة، لم يكن لينال الاحترام الحقيقي من العثمانيين. ولذلك، أبدى استعدادًا تامًا لربط موهبته في الإدارة بتنفيذها على أرض الواقع. ولنقول ذلك ببساطة، سيكون من الجيد أن نمزج قدرته على التفاوض بعدم خوفه من الدمار.
الكلمة و"اليطقان" - السيف التركي المحدب - النبيذ والدم.
كان الدخول في الحرب أسهل من التراجع عنها. كان عليه أن يستخدم كل الحكمة التي يمتلكها. في الواقع، هناك نوعان: واحد لأعدائه، والآخر لأصدقائه. فَهِمَ في الوقت المناسب أن هذه الحملة سوف تحمل اسمه، حتى إذا كان من الممكن أن تنتهي. ولذلك، لا يمكن أن يسمح لنفسه بارتكاب أي خطأ

مهما كان صغيرًا. وجد بالبحث الدقيق صيغة محتملة، وربما تكون واحدة منقذة له: من دون الصرب في هذه الحملة لن تكون لهم أي فرصة في النجاح.
بالتوازي مع استعداداته للحرب، أرسل المراسيل والرسائل إلى اللوردات الإقطاعيين، والضباط، والقادة العسكريين الصرب (بصرف النظر عن العَلَم الذي كانوا يخدمون تحته) يدعوهم لينضموا إليه في حملته، وإن لم يفعلوا ذلك، فعلى الأقل لا يخدمون تحت لواء العدو. وفي المقابل، وعد كل الصرب بامتيازات ومكانة مميزة في الإمبراطورية. وبالطبع كل الخطابات كانت مكتوبة باللغة الصربية. في البداية، قلل هذا من خطورة أن يفهم أحد محتوى هذه الخطابات إذا وقعت بالأيدي الخاطئة، وبعد ذلك اتضح أن هذه كانت خطوة سياسية جيدة. وقد رد معظم الصرب بشكل إيجابي. ولماذا لا يفعلون ذلك؟ فلأول مرة يخاطبهم أحد من العثمانيين في مثل هذا المنصب الرفيع مباشرة باسم الإمبراطورية كاملة، بل تَوجَّه إليهم بالحديث أيضًا باللغة الصربية، فقد كانوا ممزقين طيلة عقود وكانوا مضغوطين بسبب الأكاذيب والخيانة، وبالوعود الجذابة غير الواقعية التي وصلتهم بالتساوي وبالتبادل من المجريين والنمساويين والإيطاليين والروس. وإذا كان هذا أيضًا أحد هذه الوعود الفارغة، سيكون من الأسهل عليهم تقبله هذه المرة، حتى إن لم تكن وعودًا حقيقية، فقد كان من اللطيف سماعها بلغتهم الخاصة. دعمه "سنان" في هذه الفكرة، فقال له:
- كنت سأفعل الشيء نفسه إذا كانت اللغة هي الأداة الأكثر أهمية لديَّ.
كان "محمد" ممتنًا له، ولكنه ردَّ عليه مجامِلًا:
- لغة الإنشاء خاصتك أكثر جمالًا واحتواءً. وأنا أغبطك على هذا. وهي تدوم وقتًا أطول بفضل المواد التي تتكون منها.
فأجابه "سنان":
- لستُ متأكدًا من هذا. إنها تدوم فقط لأنها أكثر صلابة وأقسى ومن الصعب تدميرها. ولكن، فكر في الأمر، فكر فيما تتحمله الكلمة! كم عدد الكلمات التي نَجَتْ من الكوارث ووصلت إلينا؟ لذلك، العديد من كلماتك ستنجو أيضًا هذه المرة وستصل إلى الناس الذين لم يُولدوا بعد.
فكر "باجيكا" في هذا. أعجبته قوة إيمان "جوزيف". وأكمل "جوزيف" كأنما يقرأ أفكار "باجيكا" قائلًا:
- ليست فقط الكلمات المكتوبة التي نجت، بل أيضًا ما قيل مشافهةً وصل إلينا. أليس هذا كافيًا بالنسبة لك؟
وكأن ذلك لم يكن كافيًا بالنسبة له.
فقال "باجيكا"/ "محمد":
- لغتك الهندسية أسهل في الفهم؛ يكفي أن تنظر إليها كي تفهمها.
فأجابه "جوزيف"/ "سنان":
- أجل، لكن ما الفائدة إذا كنا نستخدمها للتدمير؟ هل تظن أنها عندئذ ستكون كافية "لفهمها"؟
فسكت "محمد". كان على "سنان" أن يبذل مجهودًا أكبر. وقد فعل. لقد افترض شيئًا تخطى كل ما يمكن أن يتخيله القائد الأعلى، فقال:
- أعتقد أنك عندما تصل إلى مقر راحتك في بلجراد، وفي حين تعيد تنظيم وجمع قواتك قبل هجومك الأخير، سيكون لديك الوقت والحاجة والضرورة لترسل إنذارك الأخير إلى أعدائك. الآن، أعتقد أن

عليك أن ترسل هذا التحذير إليهم جميعًا؛ للمجريين، والنمساويين، والإيطاليين، وأولئك الذين من "دوبروفنيك"، وعليك أن ترسله إليهم باللغة الصربية.

فنظر "باجيكا" إليه مذهولًا مما سمع. لم يعرف إذا كان هذا الاقتراح هو وقاحة فادحة، أم عبقرية خالصة نقية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

19

غالبًا ما يؤدي تصادم قضية الهُويَّة مع الأرقام إلى نتائج متضاربة. وفي أثناء المحاولة الواعية للحفاظ على الهُويَّة، تتجلى فوضى الاختلافات.

يعالج الألبان الكوسوفيون هذه القضية بأسرع وأبسط طريقة؛ بازدياد نسبة المواليد بأعداد هائلة. أما جيرانهم الألبانيون في ألبانيا فبالانتقال للصراع السياسي والثقافي، فأعدادهم أقل، ومع فروق دقيقة أكبر.

مثال: بعد انتهاء فترة عمله سفيرًا لألبانيا بفرنسا (وهذا قبل أن يكون عضوًا في البرلمان ومؤسس حزب سياسي)، استمر "بيسنيك مصطفاي" - وهو كاتب من "تيرانا" - في الكتابة والمثول أمام العامة بصفته كاتبًا، لكن مع جَرْعَةٍ من الغرور السياسي، وهذا ما مررت به شخصيًا في العديد من المناسبات وسط حماس الجمهور. لا أدري إذا كان هذا الشعور بالسلطة هو الذي ساعده ورفعه في المناصب السياسية، ولكن في هذه الحقبة من حياته كان قد أصبح وزيرًا للخارجية. ولم يدم في هذا المنصب طويلًا. كانت هناك نقطة تحول أخرى؛ أخبرني أحد معارفي الفرنسيين، وهو شخص على علاقة به هو أيضًا، أن الكاتب الذي بداخله قدم استقالته للسياسي (ولكن الاستقالة كانت لنفسه فقط حتى تتسنى له الفرصة للعودة للكتابة مرة أخرى).

الاستنتاج الأكثر أهمية من هذا المثال يتمثل في حقيقة أن "مصطفاي" كاتب جيد. ويبقى السؤال، إذا تراجع الكاتب عن استقالته للسياسي، هل سيكون النصر حليف الأدب؟

هل يمكن للأدب الانتصار أصلًا؟

مثال آخر: كاتب آخر من "تيرانا" (هذه المرة وُلِد ونشأ هناك) واسمه "باشكيم شيهو"، وقد تم إجباره على التخلي عن السياسة المحلية (وهذا لا يعني أنه أُرغم أن يحتل فيها مكانة في المقام الأول). لقد تم طرده في الواقع بسبب عائلته السياسية، وهذا يعني أنه طُرِدَ بسبب الإرث السياسي المتعلق باسمه. ظل والده "محمد شيهو" رئيس مجلس وزراء ألبانيا، وقد ورِث هذا المنصب من "أنور خليل خوجا" عام 1954 الذي أصبح رئيسًا للجنة المركزية للحزب الشيوعي في ألبانيا ورئيس الدولة. ومع ذلك، في الصراع الصعب لتأمين هُويَّة الدولة، اتخذ أفضل الأصدقاء وأقرب الرفاق سُبُلًا مختلفة بشكل يشبه طريقة السلاطين والوزراء العثمانيين (ولمدة طويلة، كانت ألبانيا إبداعًا أصيلًا حتى عندما كانت جزءًا من الكتلة الاشتراكية)؛ أَمَرَ "أنور خليل خوجا" بقتل "شيهو". ثم إن عائلته أيضًا لم تسلم من ذلك؛ جُرِحت زوجته وأولاده في السجن، أمَّا "باشكيم" عندما سنحت له الفرصة للحرية، قرر الانتقال إلى إسبانيا. وأصبح السكرتير العام للبرلمان الأوروبي للكُتَّاب، واستمر في تكريس روحه للكتابة.

على الرغم من اختلافهما الكبير عن بعضهما بعضًا، وبالإضافة إلى المعركة السياسية والمدنية، فإنه يبدو أن كلا هذين المقاتلين اللذين يدافعان عن مستقبل دولتهما قد كافحا من أجل هُويَّة شخصية وقومية من خلال البقاء طويل الأمد لهذه المعركة من خلال الأدب. على الرغم من أن الكتب أحيانًا تبدو أنها هي التذكير الوحيد للأحداث، فإن لديها قوة خارقة لتدوم وقتًا أطول من السياسة (حتى وإن كانت تصف ما حدث، أو الأشياء التي ما زالت تحدث)، الكتب الجيدة.

وعلى عكس هذه الأمثلة من جنوب أوروبا المطل على البحر المتوسط، فإن مثالاً من أراضيها المطلة على الأطلسي في أقصى الشمال - أيسلندا - لديها معركة أكثر غموضًا من أجل الهوية، إن لم تكن معركة من أجل البقاء على قيد الحياة.

لقد كوَّنتُ صداقة سريعة وسهلة مع "شون"، وهو صديق المغني "بيورك" وكاتب الأغاني، وهو أيضًا عضو في الفرقة الموسيقية "مكعبات السكر". وقد بدا لي أنه "رجل ذو عشرات المهن" وقد كان له جواب مثير للاهتمام حقًّا عن أحد الأسئلة التي سألتها بالفعل لعدد كبير من المبدعين في "ريكيافيك". كنت قد لاحظتُ أن لكل واحد منهم مهنتين أو ثلاثة في الوقت نفسه، وأنه على ما يبدو أن هذا كان شائعًا هناك، أو أن هذا هو النظام هناك؛ وهذا غريب بحق، لأن العين المجردة تستطيع أن ترى كم إن أيسلندا ما هي إلا جزيرة تتكون من الصخور البركانية، وليس بها أي نوع من الخضرة، ولا حتى الموارد الطبيعية (هذا إن صرفنا النظر عن البحر ومنابع المياه الحارة والأسماك)، ومن المفترض أن هذا يقلص فرص العمل ويقلل أيضًا من إمكانية وجود خيارات عديدة يمكن للفرد القيام بها. "شون" نفسه يمثل نموذجًا مذهلًا لهذه الشخصية المتعددة الأوجه. لقد ضاعف حتى اسمه؛ اسم "شون" مشتق من اسم عائلته "سيجورشون سيجوردسن". لذلك، بالإضافة إلى كونه كاتب أغانٍ، فهو مثلًا مؤلف أغنية فيلم "بيورك" الذي كان بعنوان "راقص الظلام" من إخراج "لارس فون ترييه"، وقد رُشِّح الفيلم لجائزة أوسكار عام 2001 لهذا النص. كتب "شون" هذه الأغنية لرباعية "برودسكي"، ولحنها له الملحن الإنجليزي "جوليان نوت". استمعت بالأمس لهذه الأغنية أو بالأحرى شاهدتها في عرض ضيفة أوركسترا بلجراد "إيسادورا زيبيليان" لأغنية "المسافر في الليل". ثم إن "شون" هو مؤلف أغنية "أوقيانوسيا" التي غناها "بيورك" في افتتاح الألعاب الأولمبية في أثينا عام 2004. وهو أيضًا منخرط في الفن والمسرح هذا غير أنشطته في الأدب.

على أي حال، كان سؤالي عن السبب الذي جعل العديد منهم يقوم بالعديد من الوظائف المختلفة في وقت واحد، ولماذا لديهم جميعًا العديد من المهن (وقد تم استبعاد أن تكون إجابة هذا التساؤل هي لأنهم في حاجة إلى المزيد من المال؛ فحتى إن لم يكن لدى الشخص وظيفة من الأساس، فقد اشتهر الأيسلنديون بأنهم يتمتعون بمستوى معيشة أفضل من السويسريين والنرويجيين).

فأجابني "شون" - وقد أكد لي هذا آخرون فيما بعد - أن السبب هو أن تعداد سكانهم لا يزيد عن 320 ألف نسمة، وأن هذا نابع من خوفهم القابع في اللاوعي لديهم من أنه من المحتمل أن يختفي شعبهم، ومن ثَمَّ تَعدُّد الوظائف التي يقومون بها هو محاولة للحفاظ على هويتهم. على الأقل للأيسلنديين المتضاعف عددهم عمليًّا بهذا الشكل.

تصادم مع الأعداد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع عشر

قَبِلَ القائد الأعلى للحملة العسكرية نصيحة المهندس المعماري الأعلى.
فبمجرد وصوله إلى صربيا تولى قيادة ديوان الباشا في بلجراد، واستخدم كُتَّابه لإرسال الرسائل في جميع أنحاء "روملي" باللغة الصربية. وقد كان الأكثر غرابة من حقيقة الخطاب الرسمي للغزاة باسم الإمبراطورية العثمانية باللغة الصربية إلى حكام ورجال الدولة الإيطاليين والمجريين والنمساويين والروس وغيرهم، هو مطالبتهم بالرد الرسمي على هذه الرسائل باللغة الصربية. وبهذا استطاع "باجيكا" أن يعيِّن لغة دبلوماسية جديدة للمراسلة، وإن لم يكن يعي ذلك في البداية. انتابه بعض القلق حول رد فعل السلطان المحتمل من هذا التحرر من جانبه. على الرغم من أن "محمد" شرح للسلطان السبب الذي دفعه إلى التصرف بهذا الشكل مسبقًا، وعلى الرغم من أنه لم يسمع أي اعتراض من الحاكم، فإنه يعلم أن أبسط التوافه بإمكانها أن تثير غضب السلطان. ولكن بدلًا من ذلك، فاجأه السلطان بتفهمه هذه الحقيقة؛ أرسل إليه رسالة يخبره فيها بأنه بهذا التصرف غير العادي، نجح "محمد" في إثارة اهتمام العديد من الحكام في "روملي"، وأنه سيستقبل قريبًا عددًا من الضيوف غير المألوفين، وأنه متأكد أن "السرعسكر محمد باشا" سيكون سعيدًا جدًّا بهذا اللقاء. كتب له نصًا:
"لقد جعلت من الصرب حلفاء، وأربكت العدو! عصفورين بحجر!".
وبالفعل، بعد مدة وجيزة، بدأ يتلقى بيانات من الأمراء والملوك والدوقات من مناطق مختلفة من جميع أنحاء الجزء العثماني من "روملي" ومناطقها الحدودية، هذا غير أنه تلقى رسائل حتى من كُتَّاب أدب الرحلات، من فرنسا و"البندقية" و"دوبروفنيك" حتى ألمانيا. وإذا خدموه كجواسيس لأسيادهم، فلم يكن لهذا أي أهمية؛ فقد أعلن "محمد باشا" أهدافه العسكرية مسبقًا بشروط الاستسلام، حتى التواريخ والطرق التي ستسير بها الحملة. يستطيع تحمل تكاليف مثل هذا الفعل؛ لديه كل القوة العسكرية على جانبه. وعلى الجانب الآخر، كان الخوف من نصيب خصمه. ومع هذا، بعث له الصدر الأعظم "رستم باشا" رسالة. لقد سمع عن اهتمام الجميع بهذه الحملة كما سمع أيضًا بثناء السلطان على "محمد باشا". وكونه صربيَّ الأصل، أراد أن يحذر "باجيكا" من أولئك "الكفار" وألا يقع في مكائدهم، وألا يسمح لهم باستفزازه، بل عليه أن يحول الموقف في مصلحته وأن يتجسس عليهم. وبهذه الطريقة، سيتحقق مما يفكر فيه رسامو الخرائط السريين خاصته.
أطاعه "باجيكا" ودعا أحد كُتَّاب الرحلات إلى البلاط في بلجراد، وقد كان عائدًا إلى فرنسا من إسطنبول مارًّا بصربيا وبلجراد (وهو شخص رشحه له الصدر الأعظم شخصيًّا). أصدر "رستم باشا" تعليماته لـ"باجيكا" عن كيف - أثناء لعبه دور المُضِيف - بإمكانه سرقة كتابه الكبير الذي لا يفارقه أبدًا ليلة واحدة فقط، فقد سَجَّل فيه كل ما مر به أثناء رحلاته. فهذا ما فعله "رستم باشا" من قبل دون أن يخالجه الندم على هذا عندما استضافه يومًا في سرايا "أدرنة". وهذا ما ساعده على تعلم الفرق بين الطريقة التي يتحدث بها الأوروبيون، والطريقة التي يفكرون بها. أرسل "باجيكا" نسخة من جزء من هذه الرحلة التي قام بها "فرانك" هذا، والتي لها علاقة بالصرب لأسباب واضحة. يقول الكتاب:
"إن الجنود الصرب "الديليجي" لديهم جرأة عالية كسِلاح فرسان خفيف، وتكمن مهارتهم في رغبتهم في بحثهم عن المغامرة في أخطر الأماكن، وحيثما أُتِيحت لهم الفرصة ليثبتوا جرأتهم وبطولتهم في

الحرب. ولذلك يتبعون جيش السلطان بسعادة دون أن يأخذوا مقابل (مثل الأكينجي). ما زال العديد منهم يعيش على نفقات "الباشوات" و"البيليربيك" و"السنجاق بك"، لأن هؤلاء جميعًا يفضلون أن يكون لديهم عدد من أشجع وأجرأ الجنود الصرب في حاشيتهم. يُوجَدون على حدود البوسنة وصربيا مع اليونان من ناحية، والمجر والنمسا من ناحية أخرى. يُعرفون اليوم باسم الصرب والكرواتيين، وهم في الواقع "الإليريون" الذين وصفهم "هيروديانوس" في كتابه الحلم الشمالي بأنهم رجال يتصفون بالشجاعة التامة، وأجسادهم قوية البنيان، ولون بشرتهم برونزي كلون الأسد، لكنهم مع ذلك خبيثون بالطبيعة، وعاداتهم تشبه البرابرة، وذكاؤهم أخرق لدرجة أنه يمكن خداعهم بسهولة. يُطلق الأتراك عليهم اسم "ديليجا"، والذي يعني المجنون الشجاع. ولكن الاسم الذي يستخدمونه هم ليشيروا به على أنفسهم هو "زاتوتشنيك"، والذي يعني في لغتهم "أولئك الذين يتَحَدُّون الرجال الآخرين". لأنه لما كان كل واحد منهم مُطالبًا بالتنافس مع عشرة رجال (إذا أرادوا أن يختاروا أحد الاسمين "ديليجا" أو "زاتوتشنيك") فإنهم يلتقون بعدوهم في قتال شرس وجهًا لوجه، إذ يعتمدون على بعض الحيل الماهرة، وبعض أساليب المكر والخداع التي تعلموها من أسلافهم، والتي ينفذونها بخفة، ومهارة، وشجاعة تجعلهم الطرف الذي ينتصر في أغلب الأحيان".

فهم "باجيكا" رسالة الصدر الأعظم جيدًا. وكان متحمسًا ومفتونًا تمامًا لما سيقرؤه في هذا الكتاب الذي لم تكتمل كتابته بعد.

استقبل "باجيكا" الكاتب الرحالة والجغرافي الذي يُدعَى "نيكولاس دي نيكولا" من "دوفيني" - وهو أحد حاشية رجل الدولة "دارمون"، وهو مبعوث الملك الفرنسي - وكرر "باجيكا" فعلة "رستم باشا" الوقحة فقام في "الكالمجدان" الخاص بالبلاط في بلجراد بنسخ الأجزاء التي أثارت انتباهه من هذا الكتاب. فقام بنسخ جزء عن الصرب وقد أثر فيه حقًّا (كما كان فيه باقي النص الذي أرسله الصدر الأعظم). يقول الكاتب:

"قابلتُ أول جندي صربي في حياتي عندما كنت بصحبة السيد "دارمون" في حضرة الصدر الأعظم "رستم باشا" والذي كان هذا "الديليجي" ينتمي إليه. وقد رافقنا إلى المقر الذي سننزل به، ليس فقط لأننا طلبنا ذلك، بل لأنه كان يأمل أن يحصل على بعض المعلومات، وقد فعل. هناك، في حين حلَّ ضيفًا علينا، انتهزت الفرصة ورسمت ملابسه الغريبة. كانت أسلحته السيف و"اليطقان"، وكان يحمل بيده اليمنى هِراوة، أو بالأحرى صولجانًا مع مسامير ذهب. ومع هذا، بعد عدة أيام، غادر هذا الجندي أدرنة في جيش بقيادة "أحمد باشا" بدلًا من السلطان، وكان هذا الجيش متجهًا إلى "أردلج" (وأحمد باشا هو الشخص الذي تم خنقه في سريره بعد ذلك بناءً على أوامر السلطان). ثم رأيته على حصان، وبدلًا من أن يكون مُغَطًّى بملاءة الحصان، كان مغطى بجلد أسد كبير مع مخالبه الأمامية، متصلة بصدر الحصان من الأمام، وتتدلى الأقدام الخلفية من الوراء. عَلَّق الصولجان بالفتحة الخلفية في سرجه. وكان يمسك في يده اليمنى مقبضًا طويلًا مجوفًا ذا طرف حاد. بشكل عام، كان هناك شيء مميز بخصوصه. وعلاوة على هذا، كنتُ فضوليًّا بما يكفي لسؤاله عن أي أمَّةٍ ينتمي إليها، وما هو اعترافه الديني. فأجابني بطريقةٍ حكيمة، إذ أخبرني أنه صربي الجنسية، ولكنَّ جده الأكبر كان من البارثيين، وهي أمة قديمة كانت تتمتع بسمعة جيدة واحترام، لكونهم اشتهروا بخبرتهم الحربية وكفاءتهم في ميدان المعركة. أما بالنسبة لعقيدته، فقد قال إنه ببساطة يتظاهر بأنه يعيش بين الأتراك وفقًا لما توجبه قوانينهم، لأنه وُلِدَ مسيحيًّا بقلبه وعقله. وليتأكد من اقتناعي بما قال، تلا عليَّ صلاة

الرب باللغة اليونانية العامية، وباللغة السلافية، كما قرأ عليَّ السلام على مريم، وأخبرني عن العقيدة النقية".

شعر "باجيكا" بالامتنان لـ"رستم باشا" الذي سمح له برؤية الصرب من وجهة نظر شخص أجنبي، ولذلك أرسل إليه نسخة من هذا النص ومن أجزاء أخرى من كتاب الرحالة إلى "أدرنة". كان يعلم مدى أهمية هذا للصدر الأعظم الذي - مثل "باجيكا" - ستساعده هذه المعرفة الإضافية في السيطرة على مشكلة الازدواجية التي يعانيان منها، والتي خيمت عليهما منذ مدة ليست ببعيدة، ولكن على ما يبدو أنها لن تغادرهما. كان كل نموذج جديد يتعرَّفانه ويشبه حالتهما بمنزلة راحة لهما من الشعور بالوحدة في غربتهما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

20

أخبرني الأرجنتيني "ألبرتو مانجويل"، وهو مواطن كندي يقيم في فرنسا، بواحدة من أكثر القصص دقة وإبداعًا وغموضًا حول موضوع الهُويَّة وتغيراتها واختلافاتها الخيالية.

بالإضافة إلى تأليفه عناوين شيقة، فإن هذا الكاتب يمتلك واحدة من أكبر المكتبات وأكثرها جمالًا في العالم، وبالطبع من الصعب العثور على مثل هذا القارئ الجيد. وبالفعل، بفضل تعدد انتماءاته، فإنه من الواضح أن "مانجويل" هو أحد أولئك الباحثين في السير الذاتية، بالإضافة إلى البحث في حياته هو الشخصية. واحدة من السير الذاتية التي درسها والتي شهدها، وكان له فيها دور أيضًا تعود لـ"خورخي لويس بورخيس".

ومع هذا، كان "مانجويل" مختلفًا عن الباحثين الآخرين من جانبين؛ كان في شبابه القارئ الشخصي لـ"بورخيس" (لقد كان يقرأ له حرفيًّا)، وعندما أصبح أكثر نضجًا، كتب عنه (انتظر بصبر مدة أربعة عقود) القليل، ولكنه أيضًا كتب عن العلماء الذين كتبوا عنه (the Borgesologists). في الحقيقة كتب عن بعضهم؛ عن أولئك الذين ارتكبوا بعض الأخطاء في كتابتهم عن هذا الكاتب العظيم، وعن أولئك الذين نسبوا كتبًا خاطئة أو خطابات غير موجودة من الأساس إليه، ولكنه درس بعمق أولئك الذين بدا تحليلهم لـ"بورخيس" كما لو كانوا يحللون شخصيات مؤلفين آخرين بكل جدية، وهم موقنون أنهم يتحدثون عن "بورخيس"، أولئك الذين نادرًا ما اعترفوا بأخطائهم وكان الكِبْر يمنعهم عن الاعتراف بذلك، ولكنهم في الوقت نفسه لم يكونوا قادرين على خداع أنفسهم حتى بعد ذلك.

قبل بضع سنوات مضت، كان "ألبرتو مانجويل" ضيفًا في مهرجان "بلو متروبوليس مونتريال الدولي الأدبي"، حيث حضرتُ أيضًا. أعدَّ صديقنا المشترك "ديفيد ألباهاري" هذا اللقاء مسبقًا على أن يكون قبل قراءتنا العلنية ونقاشاتنا مع الحضور، وقد كان "ديفيد" نفسه كاتبًا، نصفه كندي الجنسية. فهم بعضنا بعضًا بشكل جيد منذ البداية، وبسرعة وسهولة غير عادية اندمجنا في حديثنا عن الهوية، وبدأنا نذكر الأمثلة الخاصة بنا والخاصة بالآخرين. وقد كان هذا الموضوع يتكاثر ذاتيًّا مثل شبكة عنكبوتية، ينتشر في دوائر متحدة المركز ليشمل مساحات أوسع، وعلاوة على ذلك يبدأ بالتدريج بالابتعاد شيئًا فشيئًا عن الشخص الذي ينسجه، ومن ثَمَّ يحميه أكثر فأكثر. ولكن من الصعب رؤيته أو الإمساك به، لأن الضيف غير المدعو يقع في شباكه التي أحيانًا تكون غير قوية، لأنها غير مريحة.

أما نحن، فقد دُعينا.

وقد قدَّم لي أمثلة عديدة لهُويَّات تم الخطأ بخصوصها (بالإضافة إلى تلك الأخطاء التي وقع فيها البعض فيما يخص "بورخيس")، وقد أخبرني عن بعض الحالات التي ارتكبها "بورخيس" نفسه. وقد كان هذا أحد الأشياء الأخرى التي كان مشهورًا بها. ولكنه بدأ بالحديث عن مثال تَعَمَّق في الموضوع أكثر وقد قرأه/ أخبر الحضور به لاحقًا (ولكن ليس بفترة طويلة كناشره، نشرتُه أنا على هيئة إضافة خاصة لكتابه "عن بورخيس" والذي كُتِبَ باللغة الصربية تحت عنوان "التزييف". وقد كان هذا بالفعل العرض الأول في العالم لهذا النص). وها هو جزء من هذه القصة:

"عُقِد المؤتمر العالمي الثاني لـ"شكسبير" في واشنطن في شهر أبريل عام 1976. كان الحدث الرئيس لهذا المؤتمر هو محاضرة عن شكسبير يلقيها "خورخي لويس بورخيس" تحت عنوان "سر

شكسبير"، وألف خبير كانوا يحاولون إيجاد مكان في أكبر قاعة بفندق هيلتون. كان المخرج المسرحي "جان كوت" حاضرًا بين الجمهور، وكان يعاني مثل الآخرين في محاولته ليصل إلى مكان ما حيث يستطيع الإصغاء إلى المعلم، في حين يكشف عن السر. ساعد رجلان "بورخيس" في الصعود إلى المنصة ليقف أمام الميكروفون. وصف "كوت" المشهد كالآتي:

- وقف الجميع، واستمر التصفيق مدة طويلة نسبيًّا. لم يتحرك "بورخيس". وفي النهاية، هدأ هذا التصفيق الحار. وبدأ "بورخيس" يحرك شفتيه متحدثًا. لم يخرج من مكبرات الصوت سوى أزيز ضعيف. وفي وسط هذا الأزيز المستمر ذي النغمة الواحدة، كلمة واحدة هي التي بالكاد تم سماعها مرةً بعد مرة مثل تكرار كلمة من سفينة بعيدة غارقة، وهذه الكلمة هي: "شكسبير"، "شكسبير"، "شكسبير"..

تم تثبيت الميكروفون عاليًا، لكن لم يجرؤ أحد الحضور على الاقتراب من المنصة وتعديله ليصبح في مستوى الكاتب الكبير الكفيف. ظل "بورخيس" يتحدث ساعة كاملة، وخلال هذه الساعة، لم يسمع الجمهور سوى كلمة واحدة تتكرر؛ كلمة "شكسبير". وأثناء المحاضرة، لم يتحرك شخص واحد ليغادر القاعة. وعندما انتهى "بورخيس"، وقف الجميع وبدا أن التصفيق الحار لن يتوقف إلى الأبد.

تذكَّر "جان كوت" هذا وهو يتعجب. ودون شك، فعل "كوت" مثل الجميع، إذ لجأ إلى قراءة النص المكتوب حتى يبيح لكلمات "شكسبير"، "شكسبير"، "شكسبير" المتكررة هذه معنى. وبهذا، اكتشفوا جميعًا السر. ربما لم يعد هناك شيء آخر يُقال. وبمساعدة بسيطة من قصور التكنولوجيا، استطاع سيد التزييف أن يحقق هدفه. حوَّل نصَّه الخاص إلى تزييف صوتي تمت صناعته من قِبَل الجمهور".

يكمن جمال هذه القصة في طابعها متعدد الأوجه: هل اقتنعت وفهمت كل المعاني المرجوة منها؟ فأنا لم أستطع فعل هذا. فعلى سبيل المثال، هل بالفعل ترك "ألبرتو مانجويل" تعليقاته مفتوحة عمدًا، حتى يستطيع أن يرشد القارئ بالإضافة إلى تقليد "بورخيس" في ارتكاب الأخطاء؟ لم يكن "جان كوت" مفهومًا قبله. هل نتعامل مع مؤامرة شخصية أم جماعية؟ لأنه في نهاية المطاف، وبعد كل شيء، ما زلتُ غير متأكد ما إذا كانت التكنولوجيا سيئة حقًّا، أم أن هذا الساحر الأبدي الخالد كان وقحًا جدًّا في إبداعه، لدرجة أنه تجرأ على مغازلة "شكسبير" ومترجميه (الكبار والصغار).

ولكن متى ستنتهي بداية مناقشة عبادة الطالب لمعلمه، والتي حدثت بفضل نفاقٍ سادَ (بين الحضور من الخبراء ونخبة المثقفين)؟

دائمًا تعجبني بشدة فكرة وجود احتمالية أنه لا يوجد عظماء لا يضاهيهم أحد. هذا التوجه (وهو ليس توجهي أنا، بل هو توجه "بورخيس" نفسه) أمكن تطبيقه على "بورخيس" نفسه. اسأله، وسوف يخبرك هذا بنفسه.

أجل، وقد نسيت أن أضيف شيئًا لما قلته سابقًا: "ألبرتو مانجويل" أرجنتيني بالولادة، وهو مواطن كندي حاصل على الإقامة بفرنسا، ولكنه كتب، وما زال يكتب بالإنجليزية. في النهاية، حتى لو أراد أن يخفي قصور معرفته باللغة الإنجليزية، فهو لم يستطع فعل هذا؛ ففي مراسلاته معي، لم يستخدم اللغة الإنجليزية ولا الإسبانية، ولكنه استخدم لغة الأدب. ما زالت الطرق متعددة لكل من الحمض النووي وهُويَّة اللغة للكلمات التي يستخدمها مثل أولئك السحرة.

لدينا مثال آخر مهم مثل "أورهان باموك"، وهو أيضًا حلقة وصل بين الشرق والغرب. هذا الشخص هو "أمين معلوف"، لبناني من بيروت. مزج "أمين معلوف" بين أصوله وخلفيته العربية، وكاثِوليكية عائلته، كما مزج أيضًا بين الأبجدية العربية واللاتينية، وهذا ليس حيرة أو ارتباكًا، ولكنه

رَبَط بين الهُويَّتين، أو بالأحرى قام بتهجينهما. كتب كل كتبه، والتي تتناول معظمها الثقافة، والتاريخ، والحضارة العربية، بالإضافة إلى قضايا الهُويَّة باللغة الفرنسية، وهي ليست لغته الأم. وعلى هذا النحو، بمواهبه المتعددة، وعقليته المتفتحة وسلامه مع العالم، ألقى كلمته في المؤتمر العالمي للقلم، والذي أقيم في مدينة "ترومسو" بالنرويج باللغة الإنجليزية، حتى يستطيع التواصل مع الجمهور، وقد كان يتحدثها بطلاقة. وعلى الرغم من هذا، اعتذر بنهاية حديثه، لأنه لا يتحدث هذه اللغة كما ينبغي. وقبل العشاء، سألته مباشرة بعد خطابه عن السبب وراء تواضعه المتناهي هذا.

فأجابني قائلًا:

- حسنًا، ألا يجب على الناس الذين مثلي ومثلك ممن يواجهون مشكلة لإيجاد الكلمات المثالية؛ أن يعرفوا اللغة على الأقل أكثر من الآخرين؟

ماذا توقعت أكثر من هذا من رجل متواضع ورحالة عالمي حقيقي؟ أكثر من إجابة لم أكن أتوقعها (عندما عمل صحفيًّا، سافر بصفته مراسلًا إلى أكثر المناطق التي لا يمكن تخيلها في العالم، حتى إنه كان موجودًا في بلجراد لنقل جنازة "جوزيف بروز تيتو" عام 1980) ثم مرةً أخرى، اشتهر "معلوف" بجملته التي يشرح فيها خلفيته الثقافية ومحيطه: "لأي شخص يعيش في لبنان، أول دين يتعلمه هو التعايش". يمكنه تطبيق هذه الجملة بالحرف على يوغوسلافيا في عهد "تيتو". وهذا هو السبب وراء اهتمامه بهذه الدولة غير الموجودة. لسوء الحظ، بصرف النظر عن اختلافهما، فإن هاتين الدولتين دحضا مصطلح التعايش. تم تبادل التعايش المتناغم السابق للناس بدياناتهم المختلفة داخل الحدود المشتركة لهاتين الدولتين باستخدام أسوأ أداة ممكنة؛ الحرب الأهلية.

اتضح أن "ترومسو"، وهي مدينة في أقصى شمال النرويج، كانت واحدة من آخر محطات العالم "المتحضر" التي انطلقت منها الرحلات الاستكشافية إلى القطب الشمالي، وقد كانت جاذبة للكتَّاب أيضًا (أعضاء مؤسسة القلم PEN). يبدو الأمر كما لو أن مبدعي الكلمات يؤمنون أن نقاء التجديد يمكن الحصول عليه فقط في مثل هذا المكان البارد البعيد، حيث يتجه الكثيرون إلى عدم اليقين في حياتهم، ولكن أيضًا إلى يقين البحث عن المجهول. وبالتأكيد هذا الامتداد غير المأهول بالسكان أيقظ الحاجة إلى التطهير الشخصي وإلى بداية جديدة. فهو يعيد الشخص إلى مرحلة الجنين، والتي تعني البراءة والسذاجة. ولهذا جذب ذلك المكان مثل هذه الكوكبة المتنوعة من الكُتَّاب من مناطق مختلفة حول العالم. بالإضافة إلى "معلوف"، يوجد مُضِيفنا "جوستين جاردر" وأيضًا أسطورة الأدب الأمريكي اللاتيني والثورة "إيرنستو كاردينال". كان من العار عدم وجود "ألبرتو مانجويل" هناك منذ ذلك الحين، بعد أن أثار اهتمامه بحث "معلوف" عن إلغاء الاختلافات، وهو ما دفعه إلى ترجمة رواية "معلوف" "موانئ المشرق" من الفرنسية إلى الإنجليزية. وهي رواية تتناول قضية امتزاج ثقافة الفرد الأرمينية والعثمانية، وقصة حب يهودية ومسلم..

على أي حال، كل هذا مرتبط ببعضه بعضًا. ألقى "جاردر" خطابًا بالمكان نفسه، وبهذا أكد أن نرويجيته الأصيلة قد أيقظت مدينةً فاضلة وحساسية طفولية في الكُتَّاب، بكلماته هذه، وابتسامته، وتعبيرات وجهه، وإيماءاته، وكل جسده، وصوته، بدا مُضِيفنا أشبه بـ"هاري بوتر" أكثر من كونه "كاتبًا جادًّا" وكان كل هذا أمام كُتَّاب آخرين. ومع هذا، بعد عام فقط من هذا التاريخ، استنكره المجتمع اليهودي في "أوسلو"، لأنه أعلن تأييده انسحاب الجيش الإسرائيلي من لبنان (وطن "معلوف") ومن ثَمَّ حاكموه بالانسحاب الإجباري من الحياة العامة، وهذا ما أدى إلى محو الطفولة التي كانت بداخله. كل من "معلوف" و"جاردر" تحدَّث في "ترومسو"، ولكنهما لم يحيكا مؤامرة.

على أي حال، لقد طالب الكاتب الإسرائيلي "ديفيد جروسمان" حكومته بالشيء نفسه. وبعد يوم من زيارته رئيس الوزراء وتسليمه طلبًا بسحب الجيش الإسرائيلي من لبنان، تم قتل ابنه بلبنان مرتديًا الزي الرسمي للجيش الإسرائيلي.
وقد كان هذا عندما نُشر أحد كتبه، ودعوته لزيارة بلجراد. كيف تُغَيِّر الحياة نفسها في مجرد ثوانٍ؟!
الاستنتاج؟ الكُتَّاب - صناع السلام - ليس مُرَحَّبًا بهم. السياسيون وأولئك الذين يشعرون بالسيادة في السياسة يجعلون الكُتَّاب يعرفون أن دورهم لم يتغير منذ العصور الوسطى. بل وظيفتهم أن يُمَتِعوا الناس، كما لو كانوا في حفل غنائي. نقطة.
ولكن ليس هذا فقط. حديثًا، "جوزيه ساراماجو" الحاصل على جائزة "نوبل" قال (بافتقار للحكمة؟) عن وطنه البرتغال: "إنه سيصبح جزءًا من إسبانيا في المستقبل". وقد كان هذا السبب في تلقِّيه هجومًا من مدفعيات السياسيين، وليس مجرد جدال يتناسب مع طبيعة المناظرة، ولكنه واجه تجريدًا سياسيًّا من الأهلية من أولئك الساسة الذين طالبوه بأن يبقى بعيدًا عن السياسة ويلتزم الكتابة. كان من الممكن أن يكون هذا الاقتراح جيدًا لو أن السياسيين فعلوا المثل والتزموا السياسة، وحاولوا القيام بمهامهم على أكمل وجه ولم يتجهوا إلى تأليف الكتب. ولكن ليس هذا هو الواقع.
ومثال ناجح وغير اعتيادي، وهو يفعل الشيئين، كما أنه يعيش في "تروسمو"، هو الكاتب السابق ذكره "إيرنستو كاردينال". وهو الثوري الذي كون فلسفته الخاصة بـ"مسيحية الماركسية" بعد زيارته كوبا عام 1970، والذي كان قبل ذلك بمدة قسيسًا كاثوليكيًّا يساريًّا، وبعد ذلك، أصبح الشخص الذي أسقط الديكتاتور "سوموزا"، ثم صار وزيرًا للثقافة في نيكاراجوا، ولكنه كان شاعرًا في كل الأوقات، وقد طوَّر في معايير الجمال التي أنشأها "إزرا باوند"، كما أنشأ نُظمًا خاصة به. وقد كان رجلًا تخلى عن وجوده مع أخيه في حركة "ساندينيستا" التي كان ضابطًا فيها من قبل، ثم إنه لم يتخلَّ عن كونه يساريًّا، وراهبًا في قلبه، وبطلًا ضد تراكم الثروة غير الضروري.
وصديق أصدقائي هذا كان رمزًا للإصرار على كتابة الشعر. لقد كان رجلًا حقق المدينة الفاضلة؛ كونه وزيرًا مستقبليًّا، بدا مهرجًا للعديد عام 1979، لأنه قرأ الشعر للجنود والضباط وقد عرض من خلاله مفهوم الدولة، حيث "يصبح الشعر ذا فائدة تقنية للجيش والشرطة". وعندما أصبح في الخدمة المدنية، لم يتراجع. بقراءة الشعر، انتزع الأمية من جذورها في الدولة، حيث أصبحت كتب الشعر فيما بعد تُباع بالملايين لسنوات.
لقد كان رجلًا أجبر الدولة على الاستماع للشعراء.
في "ترومسو"، عند سن الثمانين، أقام معرضًا للمنحوتات، وقراءة أدبية، وقد كان خفيف الظل بشكل استثنائي بخصوص الموضوعات الجادة، وقد كان أصغر الكُتَّاب الموجودين. أتباع "جيمس لافلين" من دار نشر "نيويورك" و"نيو دايركشنز" أعلنوا أنهم يستعدون لنشر "مختاراته الشعرية وقصائده الجديدة" (1950 - 2005) في 2008. بدا الأمر كما لو أنهم كانوا يعلمون في 2007 أنه سيترشح لجائزة "نوبل" (تمامًا كما حدث في تلك السنوات عندما تلقى بعضهم خبر ترشيح أحدهم ممن تقدموا في العمر كما أنهم يتصفون بالتمرد، أشخاص عرفتهم مثل "كوهين" و"ديلان"). الشعر موسيقى، والعكس بالعكس.
في الحقيقة، كنتُ حاضرًا في ترشيح "كوهين" العلني في "مونتريال"، وقد صوتنا جميعًا لهذا المقترح. من الغريب أن شخصًا كان يتم التعامل معه في البداية على أنه مزحة بين العديد من الأصدقاء (منتجي التليفزيون، ومغني الجاز، والكُتَّاب...) يستقبلِه العامة في موطنه على أنه كاتب

بجدارة. وبعد وقت كافٍ، يصبح التراجع عن هذا المقترح مستحيلًا: قراؤه، والعامة، ووسائل الإعلام ناقشوا هذه الفكرة حتى النهاية. وبالطبع، لمثل هذه الموهبة، لا يؤدي الفوز بجائزة نوبل إلى نهاية الرحلة. من السذاجة بعض الشيء الاعتقاد بأن رجلًا جادًّا على وشك أن يصبح البديل الأبدي. ولأكون عادلًا، إنه في الحقيقة على وشك أن يصبح أقدم موسيقي في "الروك" و"البوب"، حتى إنه أقدم من "بوب ديلان"، وهو من وجهة نظر المشككين "نصف شاعر، ونصف موسيقي" بصرف النظر عن المدى الذي أكد فيه اتساقه، حتى مع تقدمه في السن، يمكن أن يكون أحد المرشحين للحصول على مثل هذه الجائزة. ومع هذا، لا أحد يعرف. حتى مصطلح "نصف سمكة، نصف عذراء" الذي كان غالبًا ما يستخدم للمضايقة، إلا أنه لأولئك الذين لديهم خيال خصب يحفزهم لفعل أشياء خلابةٍ رائعة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العشرين

احتل غزو "محمد باشا" الدبلوماسي ميدان المعركة بنجاح تام محل الطريقة القديمة - والتي كانت تُعدُّ حتى ذلك الحين الطريقة الوحيدة الممكنة، الطريقة الحاسمة - طريقة النار والسيف. بالطبع، لم تحل محل الطريقة القديمة كليًّا. ولكن على الأقل بهذا القدر، استطاع جزئيًّا حقن دماء وحفظ حياة الآلاف من كل الأطراف. ولأكون أمينًا، لقد وضع الموت جانبًا فقط لفترة من الزمن، ولكن الحصيلة الكلية جعلت من التفاوض ركنًا أساسيًّا كبديل للموت الزائد عن الحد حيثما ووقتما كان ذلك ممكنًا.
كان من المهم لـ"باجيكا" أن يقنع نفسه على الأقل أنه كان قادرًا على التمكن من مهارات التفاوض التي آمن بها هو نفسه بكل صدق. لقد أدرك أن من دون وحشية الغزو بالأسلحة، سيستحيل أن تتم الحملة بنجاح، ولكن لم يوقفه هذا من محاولة استخدام البديل؛ من خلال المراسلة والحوار وقتما سنحت الفرصة لذلك. رغبته في الإيمان بقوة الكلمة كانت قوية، لدرجة أنها لم تتركه حتى في اللحظات التي كان فيها وحيدًا وغير مراقب، لقد كان قريبًا جدًّا من اليأس. وقد كانت هناك أسباب عديدة لهذا اليأس. المفاوضات التي أخذت وقتًا طويلًا مع الحكام، والمتظاهرين بالذكاء المتعجرفين الذين لم يكتمل نضجهم بعد، والمخلوعين عن عروشهم في المجر والنمسا وأتباعهم، أدت إلى القسمة والشقاق بينهم، كلٌّ يريد لنفسه تحقيق مصالح عظيمة أو ضئيلة في أوطانهم، وقد أدى ذلك إلى طرح فكرة الحرب. وبعد أن وقعوا في مصيدة الشتاء، كان عليهم أن يوقفوا تقدمهم ويسحبوا قوات الجيش إلى مقرهم الشتوي ليستريحوا ويحصلوا على الغذاء، ويتم تحفيزهم على الاستمرار ليكملوا حتى الربيع.
غالبًا غضب السلطان من هذا القرار (انزعج من التأخير أكثر من انزعاجه من القرار نفسه، والذي كان نتيجة للتأخير)، ولكن الصدر الأعظم وضع شريكه في الوطن تحت جناحه، وفسَّر للحاكم أنه من الأفضل أن ينتظر حتى يرى نتائج عمل قائدهم العسكري الجديد، والذي كان يفكر بعقلانية، ويتصرف بشكل مختلف عن سابقيه في الفتوحات. لقد ضيَّعوا بعض الوقت في تحديد أهدافهم للسنة القادمة، ولكن لم يكن هذا بلا فائدة؛ لم يكن عبثًا. لقد ظلَّ الجيش على حدود المناطق التي استولوا عليها، ومن ثَمَّ لم تكن هناك أي خسائر في عودة الحملة. لقد بقي الجيش منتظرًا على مقربةٍ من العدو. جعل "باجيكا" معظم القوات تعسكر في بلجراد و"زيمون" وعلى سفوح "أفالا" ومحيطها. لم ينسحب أحد إلى نقطة البداية، ولا حتى في البوسنة.
حدث معه شيء آخر غير عادي. كل القادة العسكريين الصرب، بالإضافة إلى جنودهم، كانوا يتصرفون كما لو كانوا سعداء لأنهم معًا؛ ظلوا يتجمعون في مجموعات قوية، وقد أيقظ هذا بداخلهم شعورًا أنه كان هناك الكثير منهم بحق، وأنهم أقوياء وشجعان، وأنهم على وفاق، وبإمكانهم أن يحاربوا مرةً أخرى بهذا الشكل، ولكن لتحقيق أهدافهم. بعض القادة الصرب، عندما استجابوا لدعوة "باجيكا" داخل أسوار بلجراد، لم يخفوا أفكارهم هذه عنه. ولقد استقبلهم واستمع لهم بسعة صدر. يَطْرَب الجميع عند سماع أصوات الناس تتحدث لغته، وخصوصًا عند التحدث بها بصوت عالٍ، حتى في وجود أعلى ممثل للإمبراطورية العثمانية، وأيضًا معه هو تحديدًا. اعتقد القادة لوهلة أنهم في حضرة حاكمهم. و"باجيكا"، كان أمامهم؛ أمام شعبه. ولكنه مع هذا ليس حاكمًا لدولته. كم غريب هذا! هو، القائد الأعلى، وُلِد وتَرَبى على أرض وطنه، أرضهم المشتركة، حتى إنهم من النسب نفسه،

كلهم معًا على الأرض المشتركة نفسها هذه، ولكنهم جميعًا في خدمة حاكم مختلف وتحت سيطرة دولة أجنبية.
السلطان القانوني نفسه، والذي مُنِحَ لقبه هذا بفضل أفعاله، يعود له الفضل في حقيقة أن الصرب شعروا بالفعل أنهم مميزون في الإمبراطورية. وبالطبع، ما زالوا أكثر الرعايا حماية من الآخرين، ولكنهم على الأقل عايشوا وَهْمَ أنهم يحكمون أنفسهم بأنفسهم، وأنهم مَن يحددون مصيرهم كما يشاؤون. وعلى أي حال، لم يشعروا أنهم عبيد. لقد كانوا جزءًا من شيءٍ ما. في الأوقات العصيبة، كان الشعور بالانتماء أكثر أهمية من الوقوع في اليأس.
قَبِلَ "باجيكا" هذا الاتحاد الغريب والتطوعي، ولكنه لم يفصح بشيء علنًا. قرر أن يأخذ موقفًا بدلًا من ذلك. وليفعل هذا حينما تتوفر لديه الفرصة، يجب أن يكون ما سيفعله مفيدًا لهم جميعًا بشكلٍ ما.
وبمعرفته أنه سيعود إلى هذه المدينة مرةً أخرى، أمر "محمد باشا" بأن يتم إصلاح كل شيء في بلجراد وتجديده وتنظيفه على مدار الشتاء (ولنكون صادقين، ليس هذا أفضل وقت للقيام بذلك). أما لتحقيق المشروع الأكبر، فقد أمر بالتخطيط للأعمال المستقبلية، وكلف المهندسين الصغار للقيام بالمشاريع الصغيرة، وأمر الجنود الذين كان لديهم الكثير من الوقت بأن يقوموا بالعمل مع المهندسين.
حافظ العمل على النظام بين الرتب المختلفة. في الواقع، لقد كان "سنان" مثل ما يُقال عنه "حارس النار"، الشخص المسؤول عن إبقاء النار مشتعلةً دائمًا، أي الشخص الذي يُبقي العمل مستمرًّا على الدوام. كان العمل بديلًا لـ"سنان" عن أي شيء آخر.
ومن خلال مناقشاته مع القيادة الصربية، كوَّن لديه صورة أوضح عن حالة الشعب الروحية والمعنوية، وعن الكنيسة الأرثوذكسية وفقرها الذي يزداد يومًا بعد يوم، وعن احتمالية انهيارها. ورأى أن الشعب ليس لديه ما يربطه ببعضه ويوحده لما كان متناثرًا في أماكن متعددة في إمبراطوريات مختلفة. كانت الأرض هي الشيء الوحيد الذي يتصل به وعن طريقه الصرب، كانت الأرض هي الشيء الوحيد الذي يجمعهم؛ لا يمكن تحريك الأرض من مكانها. ولكن بقصد أو دون قصد، وجد الحكام الأجانب دائمًا طرقًا لتفريق وحدتهم وتشتيت شملهم. وعندما يحين وقت التحرك، فإنهم لا يمسُّون الأديرة بأذى، ولكنهم يعيدون إحلال الناس. وبطرق شتى، وبمهارة ودون خجل، وإما طواعيةً وإما بالإكراه، يمكنهم تهجير قرى كاملة أو مناطق وقتما دعت الحاجة إلى ذلك. كانوا يُهَجِّرُونهم إما بالطرد وإما باستخدام أساليب التخويف، لدرجة أن الناس كانوا يتخذون قرار المغادرة "طواعيةً"، وأحيانًا كانوا يشترون فردًا ما، وكانوا يجبرونه على خدمتهم، ولكن في معظم الأحيان، كانوا يجندونه في الجيش. وفي مثل هذه المواقف المحبطة، ليس للعامة طاقة بهذا. لا يمكنهم حتى أن يخلقوا وهمًا بأفكارهم، ولا حتى لديهم قدرة جسدية ليساعدوا أنفسهم على مقاومة مصيرهم. وكل ما يتبقى لهم هو عقيدتهم، والتي لم تكن الكنيسة تدعمها، لأن الكنيسة كانت تحتضر بالتدريج وفي طريقها لتصبح رمادًا أمام أعينهم.
إذا كانت المباني في طريقها للانهيار، فعلى المرء أن يحافظ على الأفكار على الأقل. بأقرب وقت ممكن. ولكن كيف؟
ربما لا يمكن إعادة تجديد الأفكار والعقيدة بالطريقة نفسها التي يتم بها تجديد بناء، ولكن من الممكن تجديده من خلال بناءٍ معين!
مرةً أخرى، شعر بالأسى لعدم وجود "يوسف سنان" بجانبه الآن. ليس "يوسف" ولكن "جوزيف". وليس فقط هو، بل إنه يريد أوجه شخصيته الثلاثة؛ إنه في حاجة أيضًا إلى "معمار"؛ ليس "معمار

سنان" التركي ولا اليوناني، بل المهندس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

21

كنتُ أنتظر شريكي في هذه المحادثة. كنتُ أبحث عن شخص على دراية، ليوضح لي لماذا لم يسمِّ العثمانيون غزواتهم أوروبا، ولم يشيروا إليها حتى في كتاباتهم على أنها حرب. كانوا دائمًا يشيرون إليها على أنها حملة. كان الأمر كما لو أن كلمة "حرب" كانت بالضرورة تعني أن في مثل هذه المواقف يجب أن يكون على الجانب الآخر خصم ند لهم، أو على الأقل تتقارب قوته مع قوتهم. لن أقول إن هذا التعريف يجبرهم على الاعتراف من جانبهم أنه يمكن لشخص ما (لا قدر الله) أن يكون أفضل، أو أقوى منهم، ولكن كل ذلك يشير إلى أنهم كانوا يتصرفون بشكل غير ناضج؛ كما يحدث عندما يتمتم الأطفال لأنفسهم وبعد ذلك بصوتٍ عالٍ، ليحاولوا مطاردة خوف عظيم بتكرارهم لقول كلمات بذيئة. كلماتٍ مُحَرَّمة ذات قوة علاجية في المواقف الاستثنائية.

يبدو أنه بدلًا من تسميتهم بأسمائهم الحقيقية، أعطوا أنفسهم أسماءً تناسبهم، ومن ثَمَّ امتثل الجنود لهذا التقليد القديم الذي توارثوه منذ عصر السلطان "محمد الفاتح". كانت هناك معارك، ولكن لم تكن هناك هزائم، ومن ثَمَّ لم تكن هناك حرب، كان فقط غزوًا، أو ربما فتحًا. ومن ثَمَّ، المنتصر الذي لا يُقهر لا يخوض حربًا، لأنه فقط يغزو ويحتل. حملاته العسكرية كانت للغزو. مفهومٌ آخر جديد من المجموعة نفسها، والذي يمكننا اليوم تسميته "أيديولوجيًا"، وهو مفهوم يبدو لغويًا: الكفار. لم يكن لهذا مبرر؛ أن تسمي الأشخاص الذين ينتمون لدين آخر كفارًا.

أكان عدم "التمييز" بين ثلاث دياناتٍ قائمة بأكملها صعبًا لهذه الدرجة؟ هذه الصلة ليست عن طريق المصادفة. كلا المصطلحين الحملة والكفار ظهرا في اللحظة نفسها، عندما استولى "محمد الفاتح" على الإمبراطورية البيزنطية التي يعود تاريخها لقرون، عندما غزا عاصمتها العظيمة "القسطنطينية".

ومرة أخرى، نعلم أن قبل وبعد ذلك، التاريخ يعيد نفسه للإرهاق والتضليل. لقد قضى الوافدون الجدد على آثار أسلافهم من الماضي. ولقد حاولوا أن يفعلوا الشيء نفسه مع مستقبلهم دون تخطيط، كان الأمر كما لو أنهم لم يهتموا لأمر ورثتهم هذا غير أولئك الذين سيُخْضِعُونَهم يومًا ما. وكأن كل شيء بدأ وينتهي في الحاضر.

الحاضر؟ لماذا تُعَدُّ هذه الكلمة مرادفًا آخر للأنانية؟

الغطرسة؛ هذه مرادفة للدمار! يجب الاعتراف أن العثمانيين تخطوها بالتجربة التي مروا بها عندما تعرضوا للهزيمة في معركة "ليبانتو". كانت هذه هي المعركة التي فهموا فيها الخطأ الذي ارتكبوه، وتعلموا الدرس منذ المرة الأولى وللأبد. فكِّر في أفضل ما لديك وقَلِّل من شأن الآخرين. لقد كان هذا موقفًا لم نرَ له مثيلًا من قبل، عندما واجه السلطان "سليم" - ابن السلطان "سليمان العظيم" (كما كان يدعوه الأوروبيون) أعظم السلاطين، حتى أعظم من "محمد الفاتح" نفسه - أزمة أدت إلى أنه واجه نوبة ذعر حقيقية، إذ خشي أن تتفكك الإمبراطورية، وأن يتم الاستيلاء على إسطنبول في غضون أيام. ومَن أنقذه بالكلمات والأفعال؟ مَن قام بإقناعه أن بإمكانهم استعادة كل شيء؟ مَن قام بسرعة بتجديد الأسطول الذي تم تدميره؟ إنه صدره الأعظم في ذلك الوقت (والذي كان يومًا "أدميرال الأسطول) "محمد باشا سوكولوفيتش"/ "صقللي محمد باشا"، واحد من أبناء الشعب الكافر، تم إحضاره من البوسنة - صربيا - أثناء غزوٍ ما.

ينبغي الآن أن أعود إلى اللغة، ولماذا لم يُطلق على كل هذا حربًا.
لقد تواصل شريكي في هذا الحوار، أو من الأفضل هذه المرة القول بأنه ضيفي، "أورهان باموك". وجوده ساعدني على التفكير بأن هناك احتمالية أخرى للإجابة عن هذا التساؤل. وهذه الإجابة كانت مع "باجيكا". بالاشتراك في الحملات والمعارك، كان مجرد جندي عادي في البداية، ثم بعد ذلك أصبح ضابطًا، ولكنه عندما أصبح قائد الحملة، وخصوصًا على أرض "روملي"، لم يكن لديه الانطباع بأنه يخوض حربًا. غريب، على الرغم من أن كل شيء اتخذ طابعًا عسكريًا، على الرغم من موت العديد من البشر، على الرغم من وقوع الكثير بالسجن أو الأسر، واحتلال الأراضي، وتغيير الحدود والحكام وكل الباقي، على الرغم من كل هذا، لم يكن مستعدًا ليسمي كل هذا "حربًا".
ولكن كانت لديه أسبابه لذلك. بدأتُ الحوار قائلًا:
- ساعدتْه حقيقة أن الجيش العثماني دائمًا يبدأ فتوحاته في الربيع وينهيها (أو حتى يقاطعها) في نهاية الربيع؛ مفهوم طبعًا أن هذا لأسباب مُناخية. وقد جعل هذا حملاتهم موسمية، مثل الفاكهة، أو مثل شيء مؤقت، شيءٌ يبدأ ثم يتوقف، يوجد ثم يختفي، مثل صيحات الموضة. وهذه النظرة "للحرب" تجعل من السهل التفكير بأن حرية صربيا والبوسنة كانت مقيدة لفترة مؤقتة (دون القول بأن هذا موسمي). على الرغم من أنه كان واعيًا مدركًا أنه يخدم أسياده العثمانيين، ما زال "محمد" هو "باجيكا". وبهذه الطريقة، كَوَّنَ اعتقاده بأن صربيا والبوسنة، وربما أيضًا سلافونيا سوف تصبح جزءًا من إمبراطورياتهم السابقة أو المستقبلية. لا يستطيع أن يتصالح مع فكرة أنهم سيظلون إلى الأبد عبيدًا وخدمًا لشخصٍ آخر.
لم يردْ "باموك" أن يستمع فقط، فاشترك في الحديث قائلًا:
- أو كالسياسة، بسبب الإيقاع، يسمي الأمريكيون معركة الانتخابات الرئاسية.. "حملة". وهي كلمة لها سعة خاصة بها؛ كلما اقترب الهدف أكثر، يزداد الضغط أكثر فأكثر، وبعد ذلك ينفجر إما بالنصر وإما الهزيمة. ومن ثَمَّ، ما كان معروفًا عنه منذ البداية، إنه شيء يحدث لمرةٍ واحدة، وفي لحظةٍ معينة يتوقف ويختفي. لهذا فإنهم يستخدمون هذه الكلمة في لغتهم، ويحتفظون بها ليشيروا إلى حملات الحروب التي لا يسمونها حربًا.
لقد أصاب الهدف.
كان لديَّ مثال أيضًا، فقلتُ:
- لقد نسيتَ أن التفجيرات التي حدثت في صربيا عام 1999 تمت تسميتها حملةً أيضًا. وفي الحقيقة إنني أفكر أنه ليس لأن الأمر كله يأخذ وقتًا قصيرًا، فقط "ثلاثة أشهر" (بالمقارنة بالوقت الفعلي الذي يمكن أن تستغرقه حرب ما)، ولكن أيضًا بسبب الدعاية التي هي بحكم العادة جزء مهم لمثل هذه الحملات. ولكن علاوة على ذلك، حتى لا يصبح الصراع (وهي كلمة أخرى ترادف الإحلال) حربًا. الحرب دائمًا تكون في مكانٍ آخر. (في الحقيقة، الحروب التي كانت تحدث قبل ذلك على أرض أسلافنا، وطننا الأكبر، كانت تحدث أيضًا من أجل رئيس الدولة في ذلك الوقت، وهو مكان آخر). لا أدري إذا كنتُ تعلم أن حملة 1999 كانت تحت الاسم النموذجي "ملاك الرحمة". لقد كان هذا مسيحيًّا جدًّا منهم. هدية كاثوليكية لأخوانهم الأرثوذكسيين.
ثم تذكَّرتُ شيئًا آخر أكثر حداثة، فقلت:
- ولما كنَّا نتحدث عن ذلك الإعلان الأخير، الذي طال انتظاره، من قِبَل رئيس الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، البابا "بنديكتوس السادس عشر" - والذي لم يلاحظه أحد تقريبًا أثناء زيارته للبطريرك

في إسطنبول في شتاء عام 2006 - فقد قال إن تقسيم المسيحية إلى شرق وغرب كان.. فضيحة!
أما "باموك" فقد رجع بنا في الحديث إلى الماضي وقال:
- بصرف النظر عن أن حيوات "باجيكا" و"جوزيف" كانتا في الوقت الذي تحملت فيه "روملي" الحكومة العثمانية، عليك ألا تنسى أن أوروبا بقيت تحت هذا الحكم المؤقت الذي تتحدث عنه مدة نصف الألفية تقريبًا.
فقلتُ:
- صحيح. "لم يكن "باجيكا" ليعلم هذا بالاستناد على حياته فقط، بصرف النظر عن المدة التي استغرقها حكمهم. كما أنه لم يكن لديه هذا النوع من البصيرة ولم يكن نبيًّا. إنما نحن فقط مَن يمكننا رؤية ذلك من منظورنا الخاص.
فقال "باموك" ممازحًا إياي:
- ليس لأن لدينا هذا النوع من البصيرة، ولسنا أنبياءً أيضًا، ولكن لأن كل هذا حدث في الماضي.
∞ ∞ ∞ ∞ ∞
فريق متميزون E-BOOK

الفصل الواحد والعشرون

وجد السلطان والصدر الأعظم حلًّا وسطًا لتستمر الحملة العسكرية حتى تصل إلى "تيميشوارا" و"بودا" و"فيينا". ولأنهما لم يكونا راضيين تمامًا عما أنجزه "محمد باشا" من نجاحات، قاما بتكليف "أحمد باشا"، وهو الوزير الثاني - وهو من "بورتا" - ليصبح القائد العسكري الجديد. ولم يتطرقوا لفعل أي شيء مبالغ فيه. لم يذهب السلطان "سليمان" إلى الحرب بنفسه (ولكنه أمر بها رمزيًّا من إسطنبول) ولم تكن هناك أي علامات تشير إلى أن "محمد باشا" سوف يتلقَّى عقابًا ما من أي نوع، بل استمر "محمد باشا" في كونه الذراع اليمنى للـ"سرعسكر" الجديد، وقد كان حكيمًا بما يكفي ليستغله كما فعل القائد السابق الذي احتل مناطق من "بانات". ولم يكن هذا أصغر مما خططوا له، ولكن تم تنفيذه بشكل أبطأ. ولكن تم إنجازه على أي حال. وعمومًا، لقد كان لدى السلطان العديد من الخطط الأخرى بخصوصه.

أما "باجيكا" فلم يؤلمه كثيرًا هذا التبديل الذي حدث، ولكن عليه أن يتقبل الحقيقة؛ فكما كان واضحًا للجميع، لقد كانت هذه أولى حملاته العسكرية العظيمة، وأن أحدًا لم يتوقع منه أن يؤدي أداء المخضرم المحنك القديم، وقد كان واضحًا أيضًا أن مفاوضاته الدائمة اختصرت الوقت اللازم لتحقيق نجاحات أكبر وأعظم. وهذا بالطبع لا يمس التفاوض كونه وسيلة لتحقيق مكاسب على أرض الواقع بسوء.

كل من "سليمان القانوني" و"رستم باشا" كانا في الواقع راضيين تمامًا عن هذا. فقد فتح "محمد باشا" بابًا آخر أمامهما، أكثر أساليب الحكم دقة؛ لقد غرس الذكاء في السياسة. لن يعود العنف هو الصفة الوحيدة التي تتصف بها السياسة والتخطيط العثماني؛ لقد اكتسبت الآن السياسة العثمانية اسمًا جديدًا؛ وهو التفاوض. لقد بدأ أعداؤهم يتحدثون باحترام عن دبلوماسيي السلطان وبدؤوا يمدحونه، وجعلوه يعرف أنهم مستعدون للتعاون معه. وبالنسبة للحاكم ووزيره الأول، هذا يعني أن بإمكانهم في المستقبل تحقيق النصر بطرق ملتوية عوضًا عن إراقة الكثير من الدماء. وعلى أي حال، بالطبع كانت هناك حالات لم يكن سقوط المزيد من الجثث يتناسب مع أهدافها. وهناك شيء آخر؛ لقد رؤوا أن الحد الذي وصل إليه "باجيكا" من احترام الرعايا الصرب له كان كافيًا لإبقاء العلاقات طيبة معهم، فهؤلاء هم أقوى جنودهم وأكثرهم شجاعة.

وفي هذه الحالة، من أجل الجمهور الأكبر، وبسبب الفشل الجزئي الواضح في ميدان المعركة، تحتم عليهم أن يسحبوا منه القيادة العليا للجيش، حتى تنجح باقي الحملة.

وكانت سمعة "باجيكا" بوصفه محاربًا محط جدل وتساؤل. لم يكن لهذا شأن بالشعور بالرضا عن الذات غير العملي. لقد فهم كم كان مهمًّا أن يثبت نفسه جنديًّا بين العثمانيين. مثال شخصي! لقد تذكر. لم يكن سهلًا عليه الانتقال من الانطباع السيئ الذي تركه لدى الحاكم والعامة إلى حالة الاستعداد والإرادة القوية لإعادة تحقيق نجاحات أخرى. ليس لأن هذا مستحيل. بالتأكيد، في مكان ما في الأعماق، كان ينتظره رضا الحاكم عليه من جديد.

ومع هذا، لقد كانت رحمة السلطان وتسامحه مع "باجيكا" هما ما دفع بعض الباشوات والآغوات والبهوات من كل أنحاء "روملي" يحقدون عليه. ومن بين مثل هؤلاء الرجال مَن كان يؤمن بمبدأ أن العنف في القتال والمنافسة هما فقط ما يمكن الاعتراف بهما، وهما فقط ما يعبِّران عن قوة الفرد. ومن

ثمَّ، اعتبروا "محمد باشا" ضعيفًا، مدللًا من قِبَل البلاط الملكي، ولذلك فكلما كان ذلك ممكنًا، فإنه من وجهة نظرهم يحتاج إلى أن يرى ماذا تصنع الشجاعة وزرع الخوف في الخصم. ومن ثَمَّ، بعض الحاشية العثمانية الحاكمة في البوسنة والمجر لم يستطيعوا الانتظار حتى يتم تغيير القائد الأعلى، وفي شتاء 1552 دون حتى الانتظار للقائد الجديد أن يغادر إسطنبول أو يصل إليهم، بل اندفعوا للغزو والهدم كمبادرة منهم. كان الأسوأ لـ"باجيكا" في هذا هو حقيقة أنهم حققوا نجاحًا حتى في ذلك، وأن "أحمد باشا" - "السرعسكر" الذي تم تعيينه جديدًا - قد أثنى عليهم.
هذا التحايل الصامت على "البكلربك" - أي حاكم إحدى المقاطعات العثمانية - كان طريقتهم في السخرية من "باجيكا"، لأنهم عندما كانوا تحت قيادة "باجيكا"، لم يعطهم حرية التصرف بقدر ما أرادوا. ومع ذلك، لقد بالغوا كثيرًا في إعطاء أنفسهم هذا القدر من الحرية وهذه المتعة بالطبع؛ لم يكونوا حكيمين بما فيه الكفاية ليعرفوا تحفظ السلطان على هذا التصرف، وأن يستنتجوا أن هذا سيعيدهم مرة أخرى تحت قيادة "محمد باشا" في الحرب عدة مرات بعد ذلك، إن استطاعوا النجاة. هذا غير نسيانهم المكلف لحقيقة أن "باجيكا" هو "بكلربك"/ حاكم "روملي"، وهذا ما يعني أنهم خاضعون له في وقت السلم. بالطبع، كانت لهم أهمية لدى السلطان والصدر الأعظم، لكن هذه الأهمية تدوم فقط ما داموا يخدمون لتحقيق الأهداف المرجوة منهم، غالبًا في أوقاتٍ محددة. بصرف النظر كيف كانوا يرون هذا، لكنهم كانوا في غاية السذاجة، وهذا لا يعني أنه يجب الإشفاق عليهم. على العكس. بصرف النظر عن أن هذا يبدو فظًّا، لكنهم كانوا هم الطرف الذي وثب على جسد جريح لينتهزوا الفرصة، ويفرضوا سيطرتهم على جثةٍ هامدة، وهذا ما رؤوه بعين قلوبهم. لقد كان هذا خطأهم. لأنه بعد كل حرب أو حملة يسود السلام مرةً أخرى. وفي هذه اللحظة، عاد مرةً أخرى - "بكلربك"/ حاكم "روملي" - "صقللي محمد باشا" المعروف أيضًا باسم "باجيكا سوكولوفيتش". وفي هذه الحالة، كان معروفًا أن كلا الاسمين في منتهى الخطورة عليهم.
لم يخجل السلطان ولا الصدر الأعظم من السمعة التي حصل عليها العثمانيون في مقاطعات "روملي"؛ أنهم كانوا غُزاة قساة ومتفاوضين سيئين. ولكنهما أيضًا تفهما أن الزمن يتغير، وأن بالإضافة إلى الخوف الحالي الذي غرسوه في النفوس بقوة السلاح، لم يكن من السيئ طرح خوف جديد لم يكن من الممكن رؤيته وتوقعه. وقد اعترفا فيما بينهما أن الثناء الذي تلقوه بخصوص "محمد باشا" أسعدهما. وعلى أي حال، لقد أتيا إلى "روملي" ليقيما بها. وقد أقاما بها مدةً كافية، لدرجة أنه لم يعد هناك شكٌّ ببقائهما بها. على العكس، كانت خططهما هي أن يستوطنا في صميمها. لم يكن هناك حد للفتوحات التي ما زالت تلوح في الآفاق. ولكن الحملات العظيمة والخطط بعيدة المدى كانت تتطلب أوقاتًا وأماكن للاستراحة، والعديد من المقترحات والحلول، وخططًا وإستراتيجيات متنوعة من شأنها أن تربك عدوهما وتبقيه متأهبًا مستعدًا على أصابع أقدامه، حتى ولو لم تكن قوة الأسطول المهيبة تتجه نحوه. لمثل هذا النوع من التخطيط، كان "محمد باشا" هو الخيار المثالي لهما. من الممكن ألا يكون سلاحًا جديدًا بقدر ما هو شائع الاستخدام، ولكنه سلاح لفظي، والذي سيكون من الصعب التعامل معه. الكلمة التي يتفوه بها هي إلزام وعهد قطعه على نفسه، ومع ذلك يمكن النكث وعدم الالتزام بها. يمكن التعبير عن الشيء نفسه بمئات الطرق، ويمكن فهمه بشكل صائب، أو يمكن إساءة فهمه بالعدد نفسه من المرات. لقد بدأ "بكلربك" "روملي" بتحسين سمعة الإمبراطورية بالفعل؛ رأى الكفار فيه فرصة لوضع حد للكثير من الأشياء، وللانسحاب، وللمساومة السياسية، وحتى للخداع. ولكن حتى "محمد باشا" لم يكن متوهمًا. لقد استخدم هو أيضًا النهج والمنطق نفسيهما لتحقيق

الأهداف نفسها، ولكنه اعتمد على احتمالية أن حتى في مثل هذا النوع من المعارك سيكون النصر حليف الأفضل. بمعنى آخر، يمكن للمهارة أن تغلب العنف. كان هذا كافيًا لـ"باجيكا" كبداية. ما آمن به بأعماقه ولم يجرؤ على إبدائه أو حتى البوح به بالطبع هو في العلاقة بين الكلمة والسيف، كانت السيادة للكلمة.

إذ لم يكن هناك شيء آخر، فبسبب هذا الموقف، كان عليه أن يبقى هادئًا، وأن يحاول التغلب على قلقه واقترابه من نفاد صبره. فكر حول الأمر كالآتي: إذا كان هذا صحيحًا، وإذا أثبت أنه كان كما رآه الآخرون جميعًا بشكل أو بآخر، فإنه لن يجرد نفسه من هذه المهارات. بل إنه قادر على أن يركز جهده في تحسين تلك المهارات والقدرات التي أجمع كثيرون أنه سيئ بها، على الرغم من امتلاكه إياها، بل ويمكنه أيضًا أن يكتسب المهارات التي يفتقر إليها من الأساس. ولما كانت هذه سمات شخصية وسلوكيات يمكنه تعلمها، فقد قرر أن يجعلها جزءًا من شخصيته. ربما يمكنه أن يخدع الآخرين بامتلاكه هذه الصفات والقدرات المتنوعة، ولكنه سيعلم في قرارة نفسه لماذا وُجدت كل صفة منها، وما الغرض منها وأي منهما يمكنه إبقاؤها تحت سيطرته. لم يرغب في تغيير نفسه. لقد كان هذا أصعب تمرين مرَّ به؛ أن يكون شخصًا آخر في حين يبقي طبيعة جوهره كما هي.

ألم تلقِ به الحياة داخل هذه اللعبة القاسية منذ زمن بعيد؟ لقد كان هذا التمرين أطول، وأكثر أهمية وأخطر؛ سيتحتم عليه أن يمارسه بقية حياته. وأعظم أسراره بخصوص هذا التمرين كان أقلها في احتمالية تحوله إلى حقيقة. كيف يمكنه أن يقدم جانبين مختلفين من نفسه بصدق لنفسه وللعالم دون أن يشعر بأنه مخادع، ومزيف، وكاذب؟ وألا تكون هذه الأشياء حقيقة.

ربما لو استطاع أن يثبت أن الاختلافات غير موجودة في الواقع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

22

أتذكر استعداداتي البحثية الطويلة، وكل شيء آخر قبل كتابة روايتي عن "الدرويد"، وهم كهنة الشعوب "الكلتية" خاصة في بلاد أوروبية مثل فرنسا وبريطانيا. كانوا يمارسون الطب بالأعشاب، وسيطروا على العقول بفضل شعائرهم الدينية التي تقوم على عبادة الشمس، والاعتقاد بخلود الروح. أُطلق عليهم جماعة السحرة الأشرار بعد ظهور المسيحية لمعارضتهم لها.
في واحدة من رحلاتي خلال الأراضي "الكلتية" في "بريتاني"، تحقق أحد أحلامي. ولكن أولًا، كيف خطر لي هذا الحلم..؟
لقد نتج هذا الحلم عن الصلة التي تربط الموسيقى بالعمارة. وتحديدًا، عندما كانت موسيقى "الروك أند رول" تُعدُّ اللون الموسيقي السائد في العالم، وبالموازاة معه، كان هناك نوع آخر من الموسيقى قد ساد العالم في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي، ولم يكن له اسم حينها. رسميًّا، كان أحد ألوان "الروك"، ولكنه كان - دعونا نقول - أكثر اتساعًا وشمولية، أو على الأقل كان مختلفًا قليلًا. تأسست جذوره في الفردية المذهلة للموسيقيين/ الملحنين الذين ابتكروه أو في تعليمهم الذي حصلوا عليه في الموسيقى الكلاسيكية (لقد كان منهم أناس تتلمذوا وتعلموا المعايير الموسيقية في مدارس وجامعات الموسيقى الكلاسيكية). اللون الأول من هذين اللونين سيتميز باسمين مثل "دونوفان" و"بوب ديلان"، والآخر، الذي يثير اهتمامي في مناقشته الآن، كان يعتمد على موسيقى شخصيات غريبة مثل "إيان أندرسون"؛ الرجل الأول في الفرقة الموسيقية "جيثرو تول" Jethro Tull. إنهم كانوا كمجموعة "العمالقة اللطفاء" أو كآخرين يشبهونهم، والذين تم تصنيف أسلوبهم في معظم الأحيان على أنه "روك سيمفوني" symphonic rock. أولئك الأشخاص هم مَن طَعَّموا مقطوعاتهم الموسيقية بطابع الموسيقى الكلاسيكية. إذن، لقد استخدموا الموسيقى الكلاسيكية (على خلاف الآخرين ممن حصلوا على التعليم نفسه، ولكنهم لم يستخدموه). لكن اسم هذا اللون الموسيقي، "الروك السيمفوني"، لا يعبِّر بشكل دقيق عما تتكون منه هذه الموسيقى بالفعل. ومن ثَمَّ، لقد كانت أكثر تعقيدًا في تكوينها وأكثر تطلبًا موسيقيًّا من قريناتها من اتجاهات "الروك" الرائدة في ذلك الوقت. وبمرور الوقت، بدأت عناصر أخرى من التراث الموسيقي لثقافاتٍ أخرى بالدخول في هذا اللون، ولم يعد يقتصر فقط على اللون "الأنجلو – ساكسوني" فقط. في الواقع، ظهرت الجذور من شيء به عناصر موسيقية، والتي ستتفرع بعد ذلك لنوع مميز من الموسيقى يُدعى الموسيقى العالمية أو الموسيقى العرقية. وفي ذلك الوقت، لم يكن لهذا اللون الموسيقي اسم حقيقي. في "الروك أند رول" في ذلك الوقت، كان الرواج والسيادة للغةٍ موسيقيةٍ متبادلة لم تدرك بعد تميز الثقافات الموسيقية الفردية.
ظهرت أكثر الأصوات الموسيقية تنوعًا من بين هذه الفروق الدقيقة لهذه المجموعات الموسيقية، وقد خلقت كلُّها معًا فترة غنية ومبهجة من العمل الإبداعي. وقد كان هذا وقتًا حيث تنافس الملحنون والمستمعون في الاستمتاع بهذه الأعمال الفنية. لم يكن من المهم معرفة مَن سيكون الفائز. كان الشيء الوحيد المهم هو بلوغ درجة معينة من السعادة.
ولكن علينا الآن العودة للعلاقة التي تربط الموسيقى بالعمارة. في هذه القصة.

يوجد في بلجراد العديد من قاعات الحفلات الموسيقية لما يُسمى بالموسيقى الجادة، تم بناء بعضها لخدمة هذا الغرض وبعضها الآخر صار كذلك "بالمصادفة". وعلى الرغم من أنه لا توجد قاعة مخصصة للاستماع للأوبرا، فقد كانت هناك واحدة لمشاهدتها على الأقل، في المسرح القومي. كلها بشكل أو بآخر سطحية. لذا، فبالإضافة لما يسمى بقاعة في أحد المولات (بالمصادفة أحد القاعات الموسيقية)، فقد كان بالمدينة أيضًا قاعة للأوركسترا، ولأكون صادقًا، إنها على النقيض تمامًا من القاعة السابقة، وهي قاعة صغيرة جدًّا. ولكن هناك أيضًا قاعة أخرى أصبحت نوعًا ما رمزًا للمدينة، على الرغم من أنها الأقدم وليست كبيرة بما يكفي. لقد بُنيت كجزء من وقف، وهي ذات تصميم معماري رائع، حيث تمت إقامة العديد من البرامج الثقافية به لعقود، كما تم تقديم دورات في اللغات الأجنبية هناك.

قام المعماري "بيتر باجالوفيتش" بتصميمها، وهو الشخص الذي انتهى في عام 1924 من إنشاء المبنى الذي أتحدث عنه الآن، والذي استمر بناؤه عشر سنوات (والذي - إحقاقًا للحق - يُعدُّ مرتفعًا جدًّا كمبنى سكني)، وهذا البناء هو الذي بُني على أنقاض بلاط ومقر إقامة "محمد باشا سوكولوفيتش". وفي العديد من محاولاته الأكثر أهمية، مزج هذا المهندس المميز التقليد الصربي والسلافي بالتوجهات الأوروبية، ليُخَلِّف وراءه تراثًا رائعًا (مثل مبنى كلية الحقوق الفخم بجامعة بلجراد، ولكنه بسيط في الوقت نفسه). كل رموز الموسيقى الكلاسيكية الهامة عالميًّا ومحليًّا قاموا بالعزف في هذه القاعة حيث ما هو معروف باسم جامعة "كولاراك" القومية (التي كانت هبة "إليجا ميلوسافلجيفيتش كولاراك" 1800 – 1878) على مر العقود. لماذا؟ حسنًا، ليس فقط لمجرد أنه تم التخطيط ليسير الأمر على هذا النحو، ولكن لأن الجميع أقرَّ بأن الصوت بهذه القاعة الموسيقية يكون استثنائيًا. الآن، على الرغم من أن "باجالوفيتش" تلقى تعليمًا موسيقيًّا بشكل رسمي، وعلى الرغم من أنه عزف الكمان، فإن هذا لا يضمن أنه سيصمم غرفة ذات هندسة صوتية جيدة. ثم إنهم يقولون إنه لم يستعِن بخبير صوتي واحد أثناء تشييد هذا البناء الذي يُطلق عليه "كولاراك".

لذلك، من الواضح أن موهبة المهندس كانت ضرورية للصوت. وقد كانت لديه وفرة في هذا. ومن بين أمور أخرى، في مقابل مبنى كلية الحقوق الضخم، تكفي رؤية منزل "ميهايلو بيتروفيتش ألاس" الصغير (1868 – 1943) في "كوسانشيشيف فيناس" والذي بناه "باجالوفيتش" لأغراض خاصة عام 1910. وبصرف النظر عن الاختلاف الشديد في الحجم، فإن منزل عالم الرياضيات، ورائد علم التحكم الآلي، ومصمم أجهزة الحاسب الآلي (والذي يلقب بالصياد، إذ إن كلمة "ألاس" في الصربية تعني الصياد) هو منزل متواضع، ولكن به تفصيلة واحدة؛ وهي أمنية حققها المهندس المعماري للمالك جعلت هذا المنزل بهذه الشهرة في بلجراد. (يمكن القول أيضًا بأن أحد أسباب شهرة بلجراد فيما بعد هو تلك "التفصيلة" نفسها). تم تزيين الواجهة المتواضعة ذات الذوق الرفيع بشرفةٍ صغيرة (وقد كان هذا هو طلب المالك الوحيد - أيُّ شيء آخر تُرك للمهندس المعماري – بحيث يمكن رؤية نهر "سافا" من هذه الشرفة). وهذه الشرفة الصغيرة الأكثَر جمالًا بالمدينة (أو على الأقل هي صاحبة أفضل موقع) ألهمت عالم الرياضيات العبقري لتأليف كتاب رحلات، وقد كانت هذه علامة للتعبير عن الامتنان للمهندس المعماري من خلال الأدب، وهو رد جميل للإطلالة المميزة، وللموسيقى التي أحاطت بالجدران والسقف الذين منحهم المعماري "ألاس".

وأخيرًا، هنا تكمن الصلة بين كل هذا؛ العمارة والأدب.

في عام 1970، ضمن إطار عمل "الصوت العرقي" الموجود (والذي لم يكن له اسم في ذلك الوقت)، ظهر المغني "ل. ب." وقد كان مختلفًا، وغريبًا جدًّا وينتمي إلى "الروك"، ولكنه كان مميزًا بشدة. وقد كان هذا اللون غير اعتيادي في تفضيله العزف بآلةٍ واحدة؛ القيثارة. وأي قيثارة؟ لقد كانت القيثارة "الكلتية" التي وُلِدَت من جديد في القرن العشرين. وبالمقارنة بالقيثارة التقليدية، فإن هذه أصغر حجمًا بشكل ملحوظ. لديها خيوط من المعدن - في حين القيثارة العادية كانت لديها خيوط من البرونز - على الرغم من أن مالكها قال إن صانع هذه القيثارة – وهو والد صاحب القيثارة – على الأغلب صنع الخيوط من شعر الحصان. ومع ذلك، كانت الخيوط البرونزية تصدر صوتًا أعلى، وصدى ذا مدى أوسع وأعلى. كان الملحن والمؤدي من فرنسا، تحديدًا من "بريتاني". كان اسمه "ألان ستيفل" وكان اسم المسجل "ريفليه" Reflets. موسيقى إلهية! بعد أن استغرقتُ فترة فيما بعد لتعليم نفسي بنفسي، استطعت أن أعرف لنفسي ما كانت تمثله هذه الموسيقى باختصار. وبطبيعة الحال، كان هذا أقل أهمية من المشاعر التي جلبتها الموسيقى معها بشكل غير معهود، ولكن كانت هناك حاجة طبيعية بالنسبة لي إلى أن أعرف مصدر إلهام "ألان ستيفل" (بما في ذلك أصل القيثارة والآلات الأخرى التي استخدمها).

بمرور السنين، بدأ "ستيفل" بعمل تسجيلات على القدر نفسه من الاستثنائية والروعة (اسمه الفني في لغة "بريتاني" يعني النافورة القديمة، وهو يشبه اسم عائلته الحقيقي "كوتشيفيلو"). كان الوقت يجري، أصبح بالغ الشهرة، واستمرت قاعة "كولاراك" باستضافة أشهر موسيقيِّي العالم. حتى وصل "ألان ستيفل" في أحد أيام عام 1983 إلى القاعة بقيثارته "الكلتية" وبصحبته الموسيقيين، فشعرت يومها بسعادةٍ غامرة، مقتنعًا بأن كل بلجراد تعرف مَن يكون. ومع ذلك، كانت القاعة - كما يقولون - ممتلئةً نسبيًّا، ولكنها ليست مكتملة العدد تمامًا. بالنسبة لي، كان هذا شيئًا غير مفهوم. ثم بعد ذلك، تحول الحفل الموسيقي إلى سَكينةٍ حقيقية. لقد كانت هذه واحدة من أفضل مقطوعاته الصوتية والأكثر شيوعًا. كانت لديه فترات عزف فيها موسيقى إلكترونية أيضًا، كما لعب موسيقى الروك rock heavy أيضًا، وقد كان دائمًا جيدًا بما يكفي في أي لون موسيقي يلعبه. ولكن كان أكثر تألقًا في فتراته الصوتية acoustic periods. وكان أفضل ما يكون عندما يعزف على آلاته. ولكن عندما يغني، كان يغني بلغة "بريتاني" واللغة الأيرلندية القديمة (الكلتية)، واللغة الفرنسية والإنجليزية. إذن، كان يغني باللغة "الكلتية" - إذا كان هناك سبيل إلى هذه اللغة - فهي لغة توحد الدول والقبائل والشعوب "الكلتية" السابقة. لديه بالفعل في سجله عشرات الألبومات، وأقام حفلات موسيقية في "أوليمبيا" باريس وفي إستاد "دبلن". ولهذا كنتُ فخورًا أنه كان يبدو رائعًا في حجرةٍ صغيرة مثل قاعة "باجالوفيتش". يجب أن نضع في الاعتبار أن مثل هذه الموسيقى كانت تُقدَّم في حفلاتٍ موسيقية تُقام في الهواء الطلق، ابتداءً من الحقول، حتى الإستاد، حتى في الأماكن المغلقة، في أكبر المساحات الممكنة. أتذكَّر أن في ذلك الوقت حَكَمَ "الروك" الجماهير. ذلك كان من حسن حظ موسيقى "الروك". من حسن حظ الجماهير.

هل هذا هو حلمي الذي تحقق؟ لا.

لقد كان حلم الشباب هذا متعلقًا بـ"ستيفل"، ولكن يبدو أن كل شيء متعلقًا به يستغرق وقتًا قد يمتد إلى عَقْد.

في ذلك الوقت، كان حُلمي هو أن أتحدث معه. ولقد نجحت في تحقيق هذا الحلم بعد عدة سنوات، لكن ليس قبل بداية التسعينيات من القرن العشرين في قلب "بريتاني"، في "رينيه". احتوت بداية هذه

التجربة كل عناصر السرية والتآمر والمسارات الخاطئة والاختباء والاجتماعات السرية.. ليس بسبب "ستيفل"، ولكن بسبب اختلاط الجو السياسي المضطرب في فرنسا (وليس هناك فقط) بطبيعة سلوكات وأنشطة مجموعة من أهل "بريتاني" الذين عرفتهم في ذلك الوقت.
التطرف. القومية الجديدة. الانفصال. وأشياء أخرى عديدة.
بفضل أحد أصدقائي (وهو من "بريتاني") الذي أخذ بيدي بكل حماس إلى العالم "الكلتي"، الحديث المخفي في "بريتاني"، وهذا جعلني أشعر أنني مميز. وقد واجهت أمورًا من هذا النوع قبل لقائي بـ"ستيفل". وقد سبقهم سفري إلى أماكن أعادتني بشكل لا يقاوم إلى ماضي الشعر الملحمي. ثم بعد ذلك كنتُ حاضرًا في تجمعات ليست رسمية، ولا شبه طائفية، ولكنها كانت اجتماعات أصدقاء خاصة خلقت مناخًا يشبه أخوية، أو مجتمعًا خاصًّا يعطي انطباع التآمر. وحتى هذا اليوم، لا أعرف كيف قبلني هؤلاء الناس وكأنني واحد منهم دون أن يرتابوا مني، أو يبدو لي أي شيء يدل على شكهم فيَّ، فقط لمجرد أن صديقي كفلني لديهم.
أتذكر أن في أحد تلك التجمعات التي تضم أشخاصًا مهمين، تمت دراستي وتحليل شخصيتي بعناية، حتى دون أن أتكلم. وعندما، أخيرًا، يوجه أحدهم إليَّ الكلام بالنيابة عنهم جميعًا، كان يُتْبِع كلامه قائلًا: "أنت كِلْتي، أليس كذلك؟" لقد كنتُ مذهولًا كليًّا بطريقتهم اللطيفة التي لم تحمل أدنى تلميح للشك أو الاعتراض. العديد منهم ليست لديهم أدنى فكرة عن مدى وجود التراث الكلتي حتى اليوم على الأراضي الصربية. فقط بعض منهم يعلم. في الواقع، لم يكن أشهر الخبراء الفرنسيين والبريتونيين في الثقافة الكلتية على علم بأي شيء. أطنان الكتب الموجودة لا تحتوي على أي شيء يخص البلقان، فيما عدا بعض التعليقات العامة عن كيفية استغلالها من قِبَل القبائل الكلتية للسفر إلى "ديلفي"، وحقيقة أن الكلتيين "السكورديك" قد أسسوا مسقط رأسي في بلجراد (في الحقيقة لقد قاموا بتأسيسها مرتين، وهذا لا يجعل الأمر محل جدال أو شك)، لم تكن في الكتب أي إشارة إلى أكثر من ذلك. هل كان هذا لأنهم لم يكونوا يعلمون بالفعل، أم هل لديهم سبب وراء جهلهم بهذه الحقائق؟
ربما يكون في هذا السؤال إفراط إذا وضعتُ باعتباري أن شيئًا مماثلًا حدث في صربيا، وإن كان قد حدث بشكلٍ أكثر اعتدالًا، لأنه لا يمكن لأحد أن يتجاهل معرفة موروثنا الثقافي الذي كان مؤكدًا بالفعل، ولكن تمت تغطيته بشكلٍ ما. لا أدري لماذا استمر عدد معين من الخبراء المحترفين بلا شك في تجاهل هذه الحقائق التي يمكن إثباتها بسهولة، ودفعها تحت السجاد حتى لا يراها أحد. فمثلًا، أي ثقافة لا ترغب في أن تتباهى بالمعرفة التي لديها عن الطبقات التاريخية العميقة التي تأصلت منها؟ وأي حضارة لا تستمتع بتقييم نفسها ومقارنتها بالآخرين؟ حتى اسم بلجراد القديم - على سبيل المثال - يوضح عدم منطقية هذه السطحية والهدف. يتفاخر العامة بالاسم الروماني للمدينة، وهو "سينجيدونوم"، والذي يشير إلى اسمها الكلتي "سينديدوم" وقد كان هذا هو اسم المدينة مدة أربعة قرون في الماضي. من المثير للدهشة أن هذا يحدث لأمة أصبحت مشهورة في العالم في الفترة الانتقالية بين القرن العشرين والقرن الواحد والعشرين، بسبب الأحداث المأساوية التي حدثت بها، ومن بين أمورٍ أخرى لأنها صممت وأصرت على الحفاظ على ملامح شخصيتها، وشعبها، وأرضها القدماء. ربماً لأن الكلتيين ليسوا صِرْبًا في النهاية. ولكن من المؤكد أننا تعلمنا أنه بالإضافة إلى الوراثة عن طريق الجينات فهناك أيضًا الوراثة التي نكتسبها عن طريق الأرض.
هذه المشكلة التي لم يتم حلها من فنائي الخلفي، لا تقلل من مسؤولية الخبراء الفرنسيين البريتانيين المتخصصين في التاريخ الكلتي الذين تجاهلوا - بطريقةٍ غير استعماريةٍ على الإطلاق - وجود جزء

من هذا التراث في مكانٍ آخر، أو إذا كنتَ سأقدر الأمر بشكل أكثر اعتدالًا، سأقول إن هذا لن يخفف مسؤوليتهم تجاه العمل على هذا الجزء من تراثهم.

هل يقع اللوم على السياسة في هذا الأمر؟

بالحكم من خلال مثال "ألان ستيفل"، فهو كذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل الثاني والعشرون

لقد تذمر واشتكى بالفعل لعدم وجود "سنان" معه، ولكنه أدرك أن هذه كانت رسالة من القدر. عليه أن يتحمل هذا العبء الصعب الناتج عن هزيمته الجزئية بصفته قائدًا عسكريًّا بمفرده، وهو فقط مَن بيده أن يحرر نفسه منه. كان "سنان" حتى الآن يحتل جزءًا من أفكاره فقط.

في الربيع التالي، عندما تم تأييد الحملة التي ستتم ضد "بانات" بقيادة الوزير الثاني من "بورتا"، أدرك أنه في بعض الأوقات على المرء أن يلغي كلمة "كبرياء" من قاموسه. عليه أن ينسى منصبه الرفيع، وأن يتصرف كجندي عادي. وقد كانت عودته مرةً أخرى لدور الجندي الذي يطيع الأوامر دون نقاش هو ما منحه فرصة أن يرى في نفسه - كما رأى في الآخرين - جنديًّا شجاعًا بشكل استثنائي. حتى إن المؤرخين كتبوا شيئًا عن هذه الشجاعة:

قام "سوكولوفيتش" بفعل أشياء مذهلة في "تيميشوارا".

كما دونوا حقيقة أن "محمد سوكولوفيتش" في هذه المعركة (حصار "تيميشوارا" الذي دام شهرًا) هاجم العدو ببسالة لدرجة "أن حصانه أصيب وهو يمتطيه، إلا أن الله حماه ولم يصبه أذى. واعتلى حصانًا آخر وعاد مرةً أخرى إلى المعركة". وبهذا أبقى على ثقة الجميع؛ ثقة الجنود عندما يصيبهم الخوف، وثقة الضباط الذين قادهم للبطولة دون أن يقنعهم أو يؤثر عليهم بشكل مباشر.

وصلت أخبار استبساله في ميدان المعركة وشجاعته إلى السلطان والصدر الأعظم أسرع من تقارير معركة "بانات". وعندما وصل التقرير الرسمي النهائي من "السرعسكر" بنجاح الحملة، مع الثناء الشخصي والعام على "أحمد باشا"، بالإضافة إلى ذكر مآثر "محمد باشا"، استطاعا أن يتنفسا الصُّعَداء. يبدو أن تسامحهما مع أخطائه السابقة بات يبرر نفسه بشكل أو بآخر، فسمح لهما هذا بالاستمرار في إظهار تعاطفهما مع "باجيكا" دون الشعور بالندم. هو أيضًا استطاع أخيرًا أن يتنفس الصُّعَداء بعد أن صدَّ السهام المسممة التي صوبها نحوه الباشوات والآغوات والبهوات الغاضبون الحاقدون. والآن، لم يعد أي شخص يجرؤ على التشكيك في بطولته.

ولكن كان لدى "باجيكا" خطة شيطانية إضافية، والآن هو مستمر في هذه الحملة في منصب يساوي منصب القائد مع الوزير الثاني من "بورتا". وقد حدث هذا تحديدًا بعد الاستيلاء على العديد من المدن المحصنة، حيث وافق "أحمد باشا" بسرعة وسهولة على الاقتراح المقدم له من طرف "خادم علي باشا" وهو "بكلربك"/ حاكم "بودا". فقد اقترح أن يتم ضم جميع قادة الجيش بفرقهم معًا، وإنهاء هذه الحرب بجهود موحدة على قلعة "إيجر" الشهيرة التي سيطرت على المجر العليا. وبقدر الأهمية والقيمة التي أولاها "السرعسكر" لهذا المقترح، فقد عارضه "باجيكا" في وجهه بشدة، ولكن بعد ذلك تراجع عن موقفه هذا عندما خشي أن يتهموه بالافتقار إلى الشجاعة مرة أخرى. فتتضح أهمية هذا المقترح من خلال أعداد وقائمة المشاركين في المعركة: خمسون ألف جندي عثماني (من بينهم بالطبع عدة آلاف من المحاربين الصرب تحت قيادة "محمد") ضد ألفي مُدافع تحت قيادة الدوق "إستيفان دوبو" (وهو مثل البطل الصربي "بيتار باكيتش" الذي كان يحارب أيضًا على الجانب المجري النمساوي). على رأس الجيش التركي، وبجانب الوزير الثاني "أحمد باشا" و"بكلربك"/ حاكم "روملي" "صقللي محمد باشا"، يوجد "حسن باشا" "بكلربك" الأناضول، و"خادم علي باشا" حاكم "بودا"، و"أرسلان بِك" وهو حائز على لقب "سنجاق" (39) "ستولني بيوجراد"، و"السنجاق"

البوسني "أولاما بِك"، و"درويش بِك"، "سنجاق" مدينة "بيتش" المجرية، و"حسن بِك"، "سنجاق" مدينة "سيميديريفو"، و"مصطفى بِك"، "سنجاق" مدينة "سيجد"، و"فيلي بِك"، "سنجاق" مدينة "هاتفان". لرغبتهم في أن يبعثوا برسالة للعدو عن إصرارهم وأهمية هذه المعركة، وقف هؤلاء المحاربون الموسميون بكل وحدات وفرق الجيش التركي خلفهم: الإنكشاريون، وسلاح الفرسان السباهية (أو الصبايحية) ([40]) ، وسلاح الفرسان "الأكينجي" ([41]) ، والمرتزقة، وفرقة "العُزَّاب" ([42]) ، وسلاح "الأرماتوليس" ([43]) ، وسلاح المدفعية. ولكن كل هذه القوة لم تكن ذات فائدة لهم. فقد حدث بالضبط ما توقعه "باجيكا"؛ الأعداد التي وصلتهم لم تكن سوى خدعة وفخ، لأن هذا الحصن كان موقعه إستراتيجيًا بشكل استثنائي، وتصميمه مبتكرًا، وتكوينه وبناؤه أفضل مما تصوروا، ومن ثَمَّ يمكن الدفاع عنه بسهولة. بالإضافة إلى ذلك، لم يرَ العثمانيون على مدى سنين شجاعة جنونية مثل تلك التي أبداها أهل هذا الحصن، ابتداءً من الجنود وكبار السن، حتى النساء والأطفال. وبعد حصار دام شهرًا، بدأت الأمطار الثلجية الغزيرة تهطل، وقد كان هذا في منتصف شهر أكتوبر، ويبدو أنها كانت إرادة الله، وكأنه يخبرهم أنه يأتي وقت يجب فيه ترك بعض المناطق وبعض الشعوب لينعموا بالسلام. وأصبح جليًّا واضحًا لـ"أحمد باشا" أن عليه أن يستدعي الجيش. لم يجرؤ أحد على ذكر عدد الخسائر والمصابين العثمانيين.

ولم يجرؤ "باجيكا" على إرسال تقرير إلى أي أحد، وها هو ذا، لقد فشل الوزير الثاني أيضًا وتلقَّى هزيمة نكراء. وقد كانت "خطته الشيطانية" هي أن يلتزم الصمت وألا يفعل أي شيء. كان يكفيه أن يعرف مسبقًا أن لا أحد سيعترض على فكرته بخصوص عدم حصار "إيجر". وقد نجح في إيصال رسالة إلى الجميع بأنه لا يوجد محارب دون أخطاء.

خفف هذا الفشل من وطأة فشل "باجيكا". هذا مع الفائدة الإضافية التي اكتسبها عندما بلغ السلطان وكل من في قصر "طوب قابي" أن "صقللي محمد باشا" هو الوحيد الذي عارض خطة حصار القلعة. يمكننا القول بأنه كان يُعلِّم الآخرين من الدروس التي تعلمها، ولكنه لم ينجح في ذلك. يبدو أن الإنسان يحتاج إلى أن يرتكب الخطأ بنفسه كي يتعلم الدرس جيدًا.

لا يمكن انتشار خبر فداحة الهزيمة وغضب السلطان فقط من خلال استبدال "بكلربك" / حاكم "بودا".

ومع هذا، لم يكن "باجيكا" راضيًا. فبعد أن أثبت من وجهة نظره بالدليل الملموس شجاعته الشخصية، كان يتطلع إلى تأكيد أكثر دقة وثبات.

ومرة أخرى يخطر "سنان" على باله.

بصرف النظر عن أي شيء أنجزه، لقد كان يغبط "سنان" لقدرته على البناء والتشييد. فمنذ أن تم إعفاؤه من الخدمة العسكرية في جميع الحملات، تلقى العديد من الوظائف من كبار المسؤولين في الإمبراطورية بما فيهم السلطان نفسه. لم يعد عليه أن يدمر أي شيء بعد الآن. كان بإمكان "باجيكا" أيضًا أن يقول لنفسه إنه يشارك في بناء الإمبراطورية، ولكن لم يرد أن يكون بهذه السذاجة. كان يعلم كَمَّ حمامات الدماء التي عليه أن ينجو منها (لما كان قد أصبح رمزًا مهمًّا بهذا الشكل) لأنه كان في جوهره جندي. والجميع يعرف ما هي وظيفة الجندي. أن يكون مستعدًّا لأن يَقْتُل أو يُقْتَل في أي لحظة. يبدو من هذا أنه لا شيء سينقذه. ولكنه ما زال يعتمد على وجود احتمالية واحدة أفضل؛ إذا كان محظوظًا يومًا ما، لن يتحتم عليه أن يفعل هذه الأشياء بنفسه، سيقتصر دوره على إصدار أمر

للآخرين ليقوموا بما يريد باسمه. وحتى الآن، لقد رافقه مثل هذا النوع من الحظ بشكل عام، العديد من السنوات التي قضاها في التعلم، وقد قضى جزءًا منها في ميدان المعركة حيث خدم في فرقة الإنكشارية، وهذا ما يعني أنه سيتقلد مناصب هامة في المستقبل، وقد تمت حمايته من قبل "البادشاه" عندما أمر بألا يقتل أحدًا، لأنه سيعرض حياته للخطر بهذا الشكل، والتي كانت ذات قيمة كبيرة في ذلك الوقت. وعلى الرغم من أنه تم إجباره على تعلم كيف يقتل بكل الطرق الممكنة، فإنه سيحتاج إلى هذه المعرفة في المستقبل، لكي يعلِّم الآخرين كيف يقتلون. وظيفته المستقبلية التي تم التخطيط لها هي القيادة عن طريق القتل. وقد حفظته مثل هذه الخطة من المبالغة في القتل. وقد كان هذا مصدر راحة له.

لقد شعر بالخجل من نفسه. لم يبدُ أي عرض من العروض التي تلقاها جيدًا بما يكفي. ثم إنه لم يفكر أن أيًّا منها كانت تعبر عنه شخصيًّا.

إذا قتل وغزا من أجل السلطان، سيكون "جوزيف" كـ"يوسف" في هذا الوقت يحتفل بانتصاراته في تشييد المباني. ولكن ما زال على "باجيكا" أن يثبت نفسه كـ"محمد". وفي الحقيقة، كان عليه أن يكون صادقًا، ويتذكر أن صديقه كان أكبر منه بعشر سنوات. ووفقًا لكل الأرقام والعمليات الحسابية بما فيها العمر، استحق "سنان" أن يسبقه. ومن ثَمَّ استطاع "باجيكا" التظاهر بأنه ما زال شابًّا صغيرًا لديه مستقبل مشرق وواعد ينتظره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

23

تكمن مشكلة التراث الثقافي في أنه يقسم الناس إلى معسكرين: معسكر يرى أنه حافظ على هُويَّة الفرد، ومعسكر آخر يرى خطرًا في موروثه الثقافي. إذن، هي المميزات والعيوب القديمة نفسها. ومن ثَمَّ، أي تعامل مع الأسئلة الفنية النقية ضمن هذا الموضوع هي عُرضة للاعتداء السياسي. وقد كان هذا بالضبط ما أخبرني به "ستيفل" عندما التقينا في حانة في "رينيه". في حالته، انقلب هذا السؤال إلى خوف. في ذروة حياته المهنية، كما يعرفها كُتَّاب السِيَر الذاتية، عندما تم بيع مليوني نسخة من حفله الموسيقي الذي سجله أثناء بثه حيًّا في "أوليمبيا" باريس عام 1972، وقع أسيرًا للخوف من ضخامة المسؤولية التي وقعت على عاتقه بهذا. التأثير الذي أحدثته موسيقاه في "بريتاني"، وأيرلندا، وويلز، وإسكتلندا، و"كورنوال"، وجزيرة "مان"، ووالله لا أعرف كيف وصلت إلى مناطق أخرى في أوروبا، حتى إلى قارات أخرى مثل: أستراليا، ونيوزيلندا، والولايات المتحدة الأمريكية، وأمريكا اللاتينية. أثار هذا التأثير الرعب في نفسه، لأنه أدرك أن العديد من هؤلاء الناس قد أساء فهم رغبته في إعادة إحياء ثقافته القديمة الميتة. مثل أولئك الناس أدخلوا السياسة في الموضوع. كل أنواع المجتمعات والمؤسسات والتجمعات ذات الأهداف المريبة بدأت في إعادة تشكيل وإساءة استخدام نصوصه، والمقابلات التي حدثت معه هو نفسه كونه شخصية عامة. لقد كانت سمعة أولئك الناس العامة معروفة، ولكنها أيضًا عدوانية. وبدأ "ستيفل" إعادة فحص كل شيء مرة أخرى بشكل جاد، وبدأ يبحث في نفسه عن شيء ليلومه، شيء لم يلاحظه مثلًا من قبل في نفسه. فحبُّكَ شيئًا ما وتفهُّمِكَ وتشارُكِكَ إياه مع الآخرين لا يعني أنه ينتمي تلقائيًّا إلى المجال السياسي. وعندما أدرك أنه نشر ما يحب بين الآخرين، خرج عن السيطرة وقرر أن يعتزل الحياة العامة. في سلام، مضى في طريقه لابتكار أعمال إبداعية، ولكنه لم يخرج معهم للعامة. اختفى.

عندما تحدثتُ مع "ستيفل" في شتاء 1991 - 1992 في مقصورةٍ خشبيةٍ مريحة (وربما حتى افتراضية) ومحمية من الحضارة الغربية، ولكنها في قلب "بريتاني" المتمردة، شعرتُ بازدواجيتي، لأن وطني في هذا الوقت كان على حافة الانهيار، حيث كان الناس يقتلون بعضهم بعضًا. كان هذا الشعور يُطْبق على أنفاسي، فحاولتُ أن أعبِّر عن هذا بالإشارة إليه مع أصدقائي، ومع "ستيفل" أيضًا، أشرتُ إلى أنني أخشى كل القوميات - بما فيها البريتونيون - التي كانت هائمة في كل زاوية في أراضي الفرنجة. ربما لن يصل البريتونيون إلى أسلحةٍ لكي يحققوا أهدافهم مثلما فعل الشعب اليوغوسلافي، ولكن الخطر يكمن في الأفق من فكرةٍ تنتشر في مكان ليس لها أي تأثير عليهم فيه، مثل التوحد تحت راية حركة معينة؛ أي إن الخطر يكمن في أكثر الأماكن غير المتوقعة. وقد كانت هناك حركة موجودة بالفعل، وكانت هذه فرصة مثالية لها لترفع رأسها وتثبت وجودها.

في الفترة التي انسحب فيها من الحياة العامة، حاول آخرون أن يحلوا محله بطريقةٍ سياسية. بالتأكيد، تاريخ توحيد الشعوب والثقافات الكلتية كان ثريًّا. تم تصور فكرة وجود حركة كلتية في القرن التاسع عشر، وقد استمرت في أشكالٍ متعددة في منظمات مثل المؤتمر الكلتي، والاتحاد الكلتي، والرابطة الكلتية وغيرها. بعضهم رأى أنه يمكن تحقيق الوحدة من خلال اللغة والثقافة فقط، ولكنَّ الآخرين رؤوا الوحدة في قيام دولة متحدة في الأهداف السياسية. وقد دام هذ الصراع طوال الطريق حتى الوصول إلى الوقت الحاضر.

بعد الوصول إلى ذروة نجاحه الذي حققه في مطلع السبعينيات من القرن الماضي، قرر "ستيفل" العودة من منفاه التطوعي ووصل مرةً أخرى إلى المكانة التي كان فيها من قبل. حتى في ذلك الحين، في بداية التسعينيات من القرن نفسه، عندما تحدثنا، ما زال ذلك النوع من البشر الذين كانوا يستغلونه لتحقيق أغراضهم الشخصية موجودًا. ولكن التوترات السياسية عامة كانت قد خفَّت حدتها، وأصبح قادرًا مرةً أخرى على التعبير عن آرائه، حتى فيما يخص أشياء خارج عالم الموسيقى. والآن كان يجرب، ربما للمرة الثانية، إعادة إحياء أو عودة (للشهرة)؛ بعض ألبوماته على أقراصه المدمجة كانت تُباع بمعدل ألف نسخة في اليوم (حقق هذا من قبل في مطلع الثمانينيات)! لقد استمر في الادِّعاء بأن "دونوفان" كان الرائد والمؤسس لموسيقى الروك الكلتي. ولأنه عدَّ هذه العبارة رمزًا لموسيقاه أيضًا، فقد أثراها بأسماء مثل العرقية الحديثة، والعصر الجديد، وحتى موسيقى الشعب. ولكنه لم يتقبل قيادة حركة "الكلتية الحديثة" بصرف النظر عن نوع التحدي الذي تفرضه عليه هذه المكانة. فعلى سبيل المثال، إذا أخذ الأبطال السياسيون للدولة الكلتية في الاعتبار كل الأراضي التي سكن بها الكلتيون على مدار فترة زمنية معينة، فسوف يشكلون دولة تتنافس في مساحتها مساحة دول الاتحاد الأوروبي مجتمعة. هذا دون أن يكون عليهم الأخذ في حساباتهم حقيقة أن - منذ مدةٍ طويلة - كونهم جنودًا مرتزقة في جيش "الإسكندر الأكبر"، الذين شاركوا معه في غزو آسيا حتى وصوله إلى الهند، جعلهم نوعًا ما "مالكي" الشرق الأوسط.

كم كانت الحركة الكلتية قريبة من الانفجار على مدار فتراتٍ عديدة، وفي تلك الفترة التي كنتُ شاهدًا فيها، كان أعضاء الحركة الكلتية المتشددون مشهورين بتعاطفهم تجاه "الحركة الانفصالية الباسكية" ([44]) ، وهي مثل حركة "الإيتا" ([45]) (ETA) الباسكية اليسارية المسلحة في يومنا هذا. وإحقاقًا للحق، يمكن تفهم هذا؛ لقد تداخلت دوافع الحركة الكلتية والباسكية التاريخية والعرقية بشدة، فجغرافيًّا إنهم جيران، ويمكن القول إن برامجهم السياسية متداخلة أيضًا بفضل دعمهم المتبادل لبعضهم. تعاونت حكومتا البلدين بحماس لتفككا الفصيل الإرهابي في حركة "الإيتا". كانت جبال "البرانس" هي الحاجز، ولكنها أيضًا كانت ممرًّا لفِناء الدولة الأجنبية؛ استخدم الهاربون الإسبان الأراضي الفرنسية كقاعدة لوجستية، ومستشفى حزبي، ومحطة مؤقتة للاستراحة والتجمع.

أدركتُ ذات صباح أو مساء كم كانت هذه العلاقات عميقة. اصطحبني صديقي البريتوني إلى مدينةٍ مجاورة وهو يبتسم بشكل غامض عند الإجابة على سؤالي عن المكان الذي قصدناه، وخصوصًا عندما سألته عن الطريقة التي سنصل بها. كنا نقود السيارة مدة طويلة في طريق دائري، ومن المفترض أننا كنا نتوجه إلى القرية المجاورة، وهذا ما جعل الأمر يبدو جادًّا بالنسبة لي: كنا نحاول أن نضلل أي شخص من المحتمل أن يراقب طريقنا! ثم بعد ذلك، قابلنا صديقًا ما في مكان ما، وبدلنا سيارتينا وعدنا لنسير على الطريق نفسه مرةً أخرى؛ نقود السيارة في طرقٍ دائرية دون التوجه مباشرةً إلى المكان الذي نقصده. وبمساعدة ظلمة الليل الدامسة التآمرية، استطعنا الوصول إلى منزل مضيفتنا التي كانت تتولى قيادة الأمر كله.

مرَّ المساء بالطريقة المعتادة لجلسة فيها ثلاثة أشخاص، كانت أمسية ممتعة، ولكنها لم تكن مريحة جدًّا. وبعد القليل من الوقت اتضح السبب. لقد انضم إلينا رجلٌ وسيم في أوج شبابه، ذو بشرةٍ داكنة ويتحدث الإنجليزية والفرنسية بشكل ممتاز، ولكنها متأثرة باللغة الإسبانية. بدا منفتحًا وودودًا. لم يُسهب في الحديث عن التفاصيل الدقيقة التي يستخدمها الناس عادةً عندما يلتقون شخصًا للمرة

الأولى، أو عندما يتحتم عليهم التعرُّف إلى بعضهم بعضًا. لقد كان مباشرًا وواضحًا أكثر من كونه لطيفًا. وفقط بالقرب من نهاية الليلة، عندما سبقتنا مضيفتنا من غرفة السفرة واتجهت مع "راؤول تي" إلى غرفة المعيشة، أخبرني صديقي أن هذا الضيف كان أحد القادة الأربعة لحركة "الإيتا"، وأن مسؤوليته كانت تكمن في نقل أعضائها عبر الحدود من خلال جبال "البرانس". أعلم أن رجفةً أصابتني حتى النخاع. فكرتُ في أن أولئك الأشخاص هم أكثر الأشخاص المطلوبين للقبض عليهم في القارةِ كلها من قبل الدولة، والشرطة، وأجهزة المخابرات.

ومنذ أن أدركت مَن هو، تغير هذا الرجل تغيرًا ملحوظًا، حيث بدأ يحدثني بصراحةٍ عن حركتهم وأهدافها، والأدوات التي يوظفونها لتحقيق تلك الأهداف. ثم إنه أجاب عن كل أسئلتي. لقد كان تفانيه خالصًا إلى حد الموت. كان يعامل الموت كما لو كان حدثًا عاديًّا كأي حدث آخر في حياتنا اليومية، حتى إنه لم يفرِّق بينه وبين الحياة. ثم بعد ذلك، وعند لحظةٍ ما، أدهشني. لم يعد ما قاله أمرًا يتعلق بتقبله لي، ولكنه كان مُولَعًا بشعبي، وكان يعبِّر عن ذلك بطريقةٍ غريبة عندما سألني:

- لكن، لماذا أنتم أيها الصرب لا تبدؤون بالقيام بأعمالٍ إرهابيةٍ ضد أعدائكم؟

فلم أفهم قصده. كان شعبي في تلك اللحظة يخوض حربًا أهليةً دموية! حربًا شرسةً بدت عند لحظةٍ معينةٍ كما لو أن "كل رجل يقاتل لنفسه". لقد كان قتلًا أكثر فظاظة وضراوة من أي نوع من أنواع الإرهاب. لم يكن الغرض من عرضه هذا واضحًا لي. ولكنه اتضح فيما بعد عندما استطرد قائلًا:

- لا أقصد أنه عليكم تنفيذ هذه العمليات في يوغوسلافيا. ولكنني أقصد الدول الأجنبية المُعادية لصربيا، مثل أولئك الذين يدعمون الكرواتيين والبوسنيين والمسلمين.

لم أستطع أن أصدق ما سمعته أذناي. فقلتُ له:

- لكنني أريد لهذه الحرب أن تنتهي لا أن نصدرها إلى مكانٍ آخر.

ومع هذا، أصرَّ "راؤول" على موقفه وقارن وضع "الباسك" بالصرب (لم يزعجه التناقض في أن "الباسك" كانوا يسعون إلى الانفصال، في حين يسعى الصرب إلى الوحدة) فتوصل إلى استنتاجاتٍ لا تُصَدَّق، ثم إنه عرض عليَّ تدريبًا للقيام بهجماتٍ إرهابية. لقد رأى في التعاون بيننا مستقبلًا مشرقًا. قال:

- إذا دربناك للقتال في الحرب الأهلية، يمكنك تدريبنا كجيش حقيقي، والذي سنحتاج إليه لاحقًا بالتأكيد.

لقد كان "راؤول" متأكدًا أن هناك حربًا تنتظرهم.

ولكن كيف أُقنِعُهُ بخلاف ذلك؟ إنه يستخدم أمثلة وأحداثًا من موطني ليثبتَ أنه على حق. ألم نلجأ نحن إلى قتل بعضنا بعضًا على نطاق شامل في بحثنا عن جذورنا وهويتنا؟ بالإضافة إلى ذلك، وقد رأى أن العدالة كانت تنصف الصرب في هذا الصراع، ربما لأن الجميع ادَّعى أن كل هذا نتيجة لخطأ الصرب. وعليَّ أن أعترف - أنا بالتأكيد لا أقدر أن أكون قاتلًا أو قائدًا لجيش أي أحد - أنني شعرتُ في السنوات التالية بأن لعنة الانتماء إلى شعبي تجري في عروقي، وخصوصًا أثناء وجودي خارج أرض الوطن، بصرف النظر عما كان يُطلق عليه في ذلك الوقت. لسوء الحظ، لقد كنتُ "صربيًّا ملعونًا مذمومًا" للعديد من الناشرين والمؤسسات الأدبية.

كان تعاطف "راؤول" الحماسي مع "القضية الصربية" أكثر غرابة، لأنه كان يعرف كما أعرف أن صديقتي التي كانت معنا في هذا اللقاء كانت مؤيدة للمسلمين الذين في الحرب، سواء في البوسنة أو في كوسوفو. وعلى الرغم من أنه يمكنني أن أبرر لها هذا ببعض الأسباب الخاصة العائلية، فإنني لا

أستطيع أن أجد لهذا مبررًا بالنظر إلى الأمر من زاوية أخرى؛ أيد الفرنسيون المسلمين بسبب ضخامة مجتمع المسلمين في بلدهم، والذي ورثوه من ماضيهم الاستعماري لكي يحافظوا على السلام في وطنهم. بالإضافة إلى ذلك، بجانب الدواعي الديمقراطية، وجدت أيضًا الحاجة الفرنسية إلى النفاق لتحمي أقلياتها على مرأى ومسمع الجميع. وفي هذا، كانت صديقتي البريتونية (دعونا لا ننسى أن هذا يعني أنها من الانفصاليين) فرنسية. ولكنها ما زالت صديقتي، لأن السياسة لا تخلق صداقة، أو لأقول هذا ببساطة: الصداقة ليست سياسة.

كانت حماية "راؤول" لجانب، وتطرفه في حمايته للجانب الآخر بمنزلة نوعٍ آخر من المعارك، وإن لم يكن هذا في سبيل البحث عن هوية، فهو على الأقل لاستعادتها. وعلى كلٍّ، ففي كل هذه المواقف الراديكالية المتطرفة، كان من الباعث على الراحة أنهم لم يكونوا مستعدين للتضحية بحيوات الآخرين في سبيل الأفكار، بل إنهم كانوا مستعدين أيضًا للمخاطرة بحياتهم والتضحية بها.

أما فيما يتعلق بحياتي، فقد كانت هذه إحدى المناسبات النادرة التي لم أحتفل فيها بالعام الجديد (1991 - 1992) ولم أحتفل فيها أيضًا بعيد الميلاد المجيد (الغربي والشرقي) مع عائلتي، ولكنني احتفلت مع أولاد شخص آخر وسط عائلةٍ فرنسية. برؤية أنني كنتُ أحاول أن أخفي كآبتي، قام مضيفوني الرائعون "بإعداد" كل شيء حتى تكون العملة الذهبية في رغيفي (لا أتذكر إن كان هذا تقليدًا وثنيًا، أم إن له علاقة بالاحتفال المسيحي) كما أنهم أعطوني الهدايا، وكانوا بديلًا لسعادتي الافتراضية.

عدتُ بعد شهرٍ إلى وطني الذي انعدمت ملامحه، والذي كانت المدينة التي ترمز للحرية أو الاحتلال به (على حسبِ الجانب الذي تقف في صفه) تُدْعى "فوكوفار"؛ وقد كانت هذه المدينة تنتمي إلى كرواتيا وفقًا للحدود القائمة حاليًا، ولكن أغلبية سكانها من الصرب. تم تدمير المدينة بشكلٍ مرعب حتى بدت كمدينة أشباح. وبدلًا من اسمها الأصلي، "فوكوفار" Vukovar، أصبحت معروفة دوليًّا باسم آخر يتناسب مع حالتها الجديدة بشكل أفضل وهو "فوكووار" Vukowar.

وبعد شهرٍ من عودتي، أُرسلتْ إليَّ صديقتي البريتونية خطابًا بشفرتها الخاصة، تنبئني فيه بخبر متوقع ولكنه حزين؛ لقد أُلقي القبض على مضيفتنا التي استضافتنا في تلك الليلة، وتم اكتشاف مخبأ "راؤول" السري، وقد تم قتله أثناء إلقاء القبض عليه.

موتٌ في كل الجهات.

موتٌ على جميع الجبهات.

هل للموتِ هُويَّة؟

هل يحمينا الموت كما يفعل التحنيط للجثة؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل الثالث والعشرون

حقيقة أنه لم يبقَ أمام "سنان" سوى القليل حتى يصل إلى ذروة التفوق في مهنته ليصبح أفضل معماري في السلطنة؛ لم تمنع "باجيكا" من مقارنة نفسه به من وقتٍ إلى آخر. وعندما اتخذ "محمد" فارق السن بعين اعتباره، بدأ يفكر فيما ينتظره إذا تمت ترقيته من منصبه هذا، ولكنه لم يجرؤ على قول أي شيء بخصوصه بصوتٍ عالٍ. ولكن الاحتمالية غير المنطوقة بأنه من الممكن ألا يقدر على مضاهاة صديقه، كانت كافية لتجعله يتغلب على كل حالات الموت والقتل التي كان يفكر بها.
لقد وصل "سنان" إلى ذروة التفوق في وظيفته بالفعل، ولكن ليس ذروة عمله. ليس بعد! وقد كان هذا هو الشيء الذي أعطى "باجيكا" القوة ليؤمن بأنه كان من الممكن بالنسبة له أن يلحق بركب صاحبه في لقبه الوظيفي وفي عمله. ولم يكن هذا كثيرًا بدافع المنافسةِ، أو من أجل تحقيق أي نوع من الانتصارات، ولكنه كان بهدف تخليص نفسه وتحريرها من حالة الحرب التي كان يعايشها. اكتشف ما كان ينتظره قريبًا جدًّا.
في البداية، كان مُحبطًا، لأن عليه أن يغادر بلجراد. لم يكن مُجْبَرًا على ذلك، لقد كان مقر حكمه لـ"روملي" كـ"بكلربك" في "صوفيا"، ومن ثَمَّ كان عليه أن يستقر بها، كي يدير شئون الجانب الأوروبي من الإمبراطورية منها. ومع ذلك، وكما كان يحدث في كل مرة، حيث إنه لم يكن يستقر في "صوفيا" لفتراتٍ طويلة، لأنه كان على الدوام يتم تكليفه بالقيام بمهام معينة، فقد حدث هذا مرةً أخرى هذه المرة أيضًا. بناءً على أوامر السلطان، استدعاه الصدر الأعظم بعد عدة أيام إلى إسطنبول ليتلقَّى أوامر جديدة، ويجهز للحملة ضد بلاد فارس.
ولكنه لم يذهب إلى الخطوط الأمامية مباشرةً. لقد أبقوه في البلاط. وبالمراقبة، استطاع أن يلاحظ عن قرب - ولكن دون أن يكون في قلب الحدث - دوافع البلاط التي تم تحفيزها لحسن الحظ مؤقتًا، إن لم يكن من قبيل المصادفة، وذلك دون التورط فيها. وبالتحديد، عندما بلغ السلطان الشيخوخة، بدأ السلطان يتصرف بغرابة من وقت إلى آخر، ومن الجانب الآخر، بدأت زوجته "روكسيلانا" التي فقدت جمالها، وشبابها، وإعجابها، تصرف اهتمامها عن زوجها إلى تأثيرها على البلاط. انطلق الصدر الأعظم "رستم باشا" على رأس الحملة المتجهة إلى بلاد فارس، حيث أحرز نجاحًا جزئيًّا. وكونه صهر السلطان والسلطانة وزوج ابنتهما "مهرماه"، لم ينقذه من الاتهامات الفورية، وفي لحظةٍ واحدة، نتيجة قرار غير عقلاني أو منطقي، أطيح به من منصبه كرجل الديوان الأول، وعيَّن السلطان وزيرًا آخر محله، وهو "أحمد باشا" فاتح "تيميشوارا"، وشقيق "باجيكا" في القتال حتى وقت قريب. وعلى الرغم من أنه ارتبك من الأحداث الجارية حوله، فإن "باجيكا" كان محميًّا ببقائه في الظل. لو لم يبقَ في الظل لكان سيجد صعوبة كبيرة في اختيار الجانب الذي سينحاز إليه، كان "رستم باشا" شقيقه في الوطن الذي طالما دافع عنه وحماه، في حين خاض مع "أحمد باشا" واحدة من أشرس المعارك، والتي أعادت إليه احترامه واعتباره كجندي. وبمجرد إعلان الخبر بأنه سيلتحق بالجيش الذي يحارب ضد بلاد فارس، قضى "باجيكا" الشهر الذي تلا هذا الشهر في القيام بمهامه المتعلقة بأوامره الجديدة بين "صوفيا" وبلجراد. وقد أراحه هذا من العديد من المتاعب. عاشت عائلة السلطان فترة مأساوية، تلقى السلطان قصة غير صحيحة حول محاولة الإطاحة به من قبل ابنه الأكبر "مصطفى" (وهو ليس أحد أبناء "روكسيلانا"). كانت هناك مشكلة أخرى، إذ كان هذا الشاب

هو المفضل في الجيش، وهذا يعني أن قرار "سليمان"، وبعد ذلك إعدامه لينحيه ليس فقط من منصبه، بل أيضًا من الحياة نفسها، لم يلقَ استحسانًا بين الجنود.
صُدِم "باجيكا" لسماعه الخبر. على الرغم من أنه كان على علم بحالات مماثلة من فترات سابقة في تاريخ العثمانيين، فإنها كانت المرة الأولى له ليشهد مثل هذا النوع من القسوة عن كثب؛ وهو أن يقتل الشخص ابنه. في العصور السابقة، عندما كانت هذه الظاهرة أكثر شيوعًا - على الرغم من تبريرها بأنها من أجل الحفاظ على العرش، وهو سبب هام من وجهة نظرهم - فقد كان يتم بشكل سري، أو يتم العمل على أن تبدو بأنها ليست الحقيقة كاملة. لم يجرؤ أحد، حتى الحاكم نفسه، في تلك العصور على البوح علنًا والتصريح بأن الأب قتل ابنه. ومع هذا، صرَّح "سليمان" بما فعله علنًا دون أن يبدي أي ندم، حتى إنه كرر قوله هذا بشكل مؤكد. وكأنه كان فخورًا بما فعل! حتى مع كل التفسيرات المحتملة، لم يستطع "باجيكا" أن يفهم هذا التصرف. أن يقتل أب أعز شيء امتلكه على الإطلاق! والحق، لقد كان لـ"باجيكا" أيضًا تجربة سرية مع الأطفال؛ لقد أنجبت اثنتان من جواريه طفلين له، وما زال يخفيهما جزئيًّا عن العامة، لا يدري إن كان سيعترف بهما علنًا أنهما أولاده أم لا. وقد كان هذا السر إيجابيًّا؛ فلم يكن أحد مهددًا بقرار شرير أو خاطئ مهما كان.
الشيء الوحيد الذي حققه السلطان - إذا كان هذا ما أراده - كان إثارة الرعب في كل مَن حوله، وبالطبع باقي الدولة أيضًا. وقد وصلت هذه الأخبار إلى أعدائه. وقد رؤوه مرةً أخرى على أنه همجي معدوم الرحمة، ولكنهم أيضًا أصبحوا أكثر خوفًا منه من ذي قبل.
وكما لو كان يريد تعزيز هذه الصورة عن نفسه، أمر "سليمان" بإعدامٍ علنيٍّ آخر، بعد عقد أحد الدواوين (الذي اطلع عليه السلطان من نافذته الصغيرة بأعلى قاعة الوزراء بقصر "طوب قابي")، أصدر أمره بقتل الصدر الأعظم "أحمد باشا" بمجرد أن انتهى الديوان. وفي تلك اللحظة، تم خنقه بخيط السلطان الحريري في منتصف البلاط الملكي، وأمام مجلس الوزراء. أما جريمة القتل هذه، فقد أعطى لها تفسيرًا، وهو نَهْب الوزير لمصر، على أيدي "الفاليا" (46) المصرية، والذين تم تعيينهم من قِبَلْ الوزير. ومع هذا، ومرةً أخرى كشاهد، بدأ "باجيكا" يربط الخيوط ببعض؛ كانت السلطانة "روكسيلانا" دائمة الظهور في كل مكان وفي كل موقف. وعلى الفور، بعد استعادة "رستم باشا" منصبه صدرًا أعظم، أصبح جليًّا أنه تنحى جانبًا فترةً قصيرةً حتى لا يُقْتَل "مصطفى" ابن "سليمان" وهو في هذا المنصب. وبهذا الشكل، تكون السلطانة "خُرم" قد حفظته من أي شك يمكن أن يتوجه إليه بتورطه في هذه الجريمة. كان دور صهر "روكسيلانا" يقتصر على ضمان أن يرث أبناؤها العرش؛ الآن أصبح أولادها المرشحين الوحيدين لتولي الحكم.
وعندما تلقى "محمد باشا" الأوامر من السلطان بالمُضي قُدُمًا لمتابعة شئون "صوفيا" وبلجراد، حمد إلهيه لسماحهما له بمغادرة زوبعة الموت هذه. لقد كان من الأسهل عليه تقبل الموت في ميدان المعركة، سواء كان الضحايا مجهولي الهُويَّة أم لا؛ لأنه من الأسهل أن يجد له سببًا. أما حالات القتل الموجودة بالعاصمة، فقد كانت حالات إعدام مناسبة لتوصيل رسائل معينة للآخرين حول أخلاقيات معينة، ولتعليمهم دروسًا وما إلى ذلك. حتى إنهم كانوا بديلًا للتهديد، أحيانًا كان يؤجل القتل حتى يحين الوقت المناسب لتعليم درس جديد. وقد كان الجميع مجبرًا على فهم هذه الرسالة بشكل صحيح. وإذا لم يفلح الشخص في تعلم الدرس، فمن المؤكد أن العقوبة والضرائب ستكون من نصيبه، هذا إن لم يكن الموت هو نفسه ما ينتظره. وعندما استقر بالفعل في "صوفيا"، ورده تفسير أكثر إثارة

للاهتمام بخصوص الدافع وراء أحدث حالة قتل، وهذا قد بينه له الصدر الأعظم الجديد/ القديم في خطابٍ أرسله له. من حيث الجوهر، فإن "أحمد باشا" وعامله "دوقة كين زاده محمد باشا" - والي مصر - كانا من أصول ألبانية، وقد قرَّرا أن يؤسسا سلطة ألبانية داخل الحكومة باستبعاد الوزراء من الأصول السلافية خارج الديوان الإمبراطوري، وإلا ما كانوا ليصبحوا أغلبية. وقد انتهى الخطاب بعبارةٍ مبهمة تقول: "لم نستطع أن نسمح لهذا أن يحدث". على مَن يعود ضمير "نا الفاعلين" في تلك العبارة؟ مَن المقصود بالإضافة إلى "رستم باشا" (الصربي) و"روكسيلانا" (الروسية)؟ لم يستطع "محمد باشا" أن يخمن مَن المقصود. لكنه أيضًا لم يرِد أن يسأل، لأن هذا سوف يستدرجه إلى لعبة استطاع بأعجوبة أن يبقى بعيدًا عنها. على أي حال، كانت الكلمة الأخيرة بخصوص لون المشنقة الحريرية، وطوله، وخامته، وموعد استخدامه بيد "البادشاه" فقط، هو مَن يقرر متى يُستخدم. لم يكن أهم شيء هو ما إذا كان لأحد التأثير عليه مسبقًا ليتخذ قرارًا ما، ولكن المهم ألا يستطيع أن يفعل هذا أحدٌ بعده.

ثم بعد ذلك، غمرته بهجة وسعادة لاستقبال زيارة شخص ما؛ "معمار سنان". لقد أتى امتثالًا لأوامر السلطان ليبني عدة مساجد في "صوفيا" وضواحيها. أول مسجد يُبنى هناك - من صنعه أيضًا - بالفعل له اسم: "بانيا باشي" (47).

وفجأة، ودون تحفظ وبدافع اللطف الجَم، أخبر "باجيكا" "سنان" كم كان فخورًا به. قال:

- انظر إلى المسافة الطويلة التي قطعتها! لقد أرسلك السلطان وفقًا لخططه لكي تترك أثرًا ودليلًا على مهارتك عبر الإمبراطورية. أجل، جِدْ لي رجلًا يجرؤ على ألا يكون سعيدًا بك وبما حققته فقط لأنه يغبطك.

فأجابه "سنان" قائلًا:

- حسنًا، الكثير من الناس مدينون لي بالفعل، وربما قد بدؤوا أيضًا في رد ديونهم؛ بنيتُ للصدر الأعظم "رستم باشا أوبوكوفيتش" استراحة للمسافرين ومدرسة في "جلاطا". وعلى الرغم من أننا نحاول أن نكون عادلين، فقد وفَّر لنا كلينا دعمًا منذ قدمنا معه من صربيا. وما زلنا على الأرجح مدينين له. وفي "أسكدار"، بنيتُ لزوجته وابنة السلطان "مهرماه" كل شيء أرادته ابتداءً من مسجد وقصر، إلى منتجع صحي ومشفى. ولما كان الجميع يموتون، فقد بنيتُ الأضرحة أيضًا للعديد منهم، وإحقاقًا للحق، لقد تأخرتُ على بعضهم، وأنهيتُ العمل مبكرًا مع بعضهم الآخر.

ضحك "باجيكا". فجملة "جوزيف" الأخيرة لا تعني أنه كان سريعًا جدًّا أو متأخرًا عن عمد في القيام بالمهام المسندةِ إليه، بل تعني أن "العديد" منهم كان قد مات بالفعل عندما طُلب منه بناء المقابر لهم، في حين طلب منه بعض الأشخاص الآخرين بأنفسهم أن يبني لهم مقابرهم، فقد تعلموا دروسًا من تجارب الآخرين، لذلك يطلبون أن تُبنى لهم مقابرهم وهم على قيد الحياة دون المخاطرة بتأخير دفنهم بعد موتهم في انتظار أن تبنى لهم مقبرة.

ثم غيَّر "سنان" الموضوع فقال:

- اسمع، أريد أن أذكرك بخططنا السابقة، خصوصًا خططك. بالشكل الذي تسير به الأمور، لن تأخذ وقتًا طويلًا حتى تبني وقفًا. لذلك عليك أن تفكر بخصوص ما تريد أن تبنيه وأين، أما بخصوص الوقت، فسوف نقرر هذا معًا بعد أن يبدؤوا في مكافأتك.

تفاجأ "محمد" قليلًا من اليقين الذي يتحدث به "سنان" بخصوص شيء لم يبدأ "محمد" نفسه بالتفكير فيه بجدية. ثم أكمل "سنان" بالمقدار نفس من الثقة بالذات وقال:

- لا أستطيع مقاومة اقتراح شيء عليك. في الواقع، لم يعد هذا بعيدًا حقًّا. ولكن، ما زال.. لما كنت قد شاهدت العديد من الأماكن وفكرتُ بها كمهندس، يمكنني مشاركتك في شيءٍ لاحظته، وهو شيء تفرد بطبيعته عن أي شيء آخر.. لقد قارنتُ موقع بلجراد وإسطنبول على عدة خرائط، وبالتحديد المنطقتين المعروفتين باسم "كاليميجدان" و"القرن الذهبي"، وهذا ما استنتجته: تقع بلجراد بين نهري "سافا" و"الدانوب"، في حين تقع إسطنبول بين "البحر الأسود" وبحر "مرمرة". ولأكون أكثر دقة، يفصل أحد فروع "البوسفور" الخليج الضيق المعروف باسم "هاليتش"، وهو يقع بالضبط قبل "القرن الذهبي"، ثم بعد ذلك يصب النصيب الأكبر من مياهه في بحر "مرمرة". خليج "هاليتش" هو نهر "سافا" الخاص بإسطنبول، وينتهي مضيق "البوسفور" عند نهر "الدانوب". ولبلجراد "أسكدار" خاص بها عبر مدينة "زيمون"، وجزر الأمراء التابعة لها الموجودة جميعًا في النهر.. لا تنزعج لأن إحدى المدينتين محاطة بالأنهار، والأخرى بالبحار. لن يغير هذا شيئًا. المياه هي المياه. كان على الدوام الشيء الأكثر أهمية بخصوص المياه هو عمقها واتساع سطحها. بالإضافة إلى ذلك، عندما تتفحص خرائط ورسومات كلتا المدينتين، ستكتشف العديد من الأشياء المتشابهة بينهما. ولكن إذا لم تكتشفها، فبإمكانك أن تخلق هذه التشابهات بنفسك.

كان "باجيكا" مذهولًا. ربما تمادى "سنان" في أفكاره. فإما أنه كان يبعث إليه بهذا الكلام رسائل معينة على مدى ضيق، وإما أنه كان يمازحه. لم يفكر من قبل على الإطلاق بخصوص الموقع الجغرافي لبلجراد بهذه الطريقة؛ أنها كانت مدينة "تقع بين نهري سافا والدانوب.." فعندما يتعين على أحد - الجميع بما فيهم "محمد" نفسه - وصف موقع بلجراد المتميز، كانت دائمًا توصف على أنها "المدينة التي يلتقي بها نهرا سافا والدانوب" أو على أنها "المدينة التي تقع على الدلتا المكونة من النهرين". وقد كان هذا حقيقيًّا، ولكنه لم يكن مبهجًا إلى هذا الحد، ربما لأنه في الواقع كان من المفترض أن يبدو رومانسيًّا، وحالمًا، وجميلًا وشاعريًا. وقد كان هذا على كل حال أقل دقة. وقد أخبر "سنان" بهذا. فأجابه "سنان" باقتضاب وقال:

- عذرًا، ولكن هذا هو أبسط وصف لبلجراد وأكثره دقة. ولكنني لم أكن الشخص الذي فكَّر فيه، على الرغم من أنني أتمنى ذلك، لأنني أحببته، لقد وجدتُ هذا الوصف في مخطوطة لـ"مارتن فيميت" وهو أحد حاشية دوق "أنجو"((48)). أرسل الدوق هذه المخطوطة إلى سلطان دولتنا هديةً، وقد سلمني إياها. والآن، أنصت إليَّ جيدًا.

وهنا، توقف قليلًا ونظر إلى "باجيكا" في عينيه، ثم أكمل قائلًا:

- "البادشاه"، السلطان "سليمان القانوني"، أخبرني أن أعطيها إلى "صقللي محمد باشا"! ولكنه لم يقل لماذا. إذن، ماذا ستفعل الآن؟

كان "سنان" يستمتع بهذا الشك وعدم التأكد.

والآن، هذا يحدث أيضًا! لم يكن عقل "محمد" قد استوعب فكرة التشابه بين إسطنبول وبلجراد بعد، والآن عليه أن يستوعب رسالة السلطان ويفهمها. ولكن ما حدث هو أنه تم إنقاذه من رسالة (خفية/ مبهمة المعنى) من السلطان. قال "محمد":

- حسنًا، بالطبع أرسلها إليَّ. فأنا "البكلربك"/ حاكم "روملي". والجميع يعلم أن مركزها غير الرسمي هو بلجراد.

على الرغم من أنه ليس بالضرورة أن يكون هذا هو قصد السلطان من هذه الرسالة، وربما يكون هذا السبب هو الأقل أهمية، فإنه ليس من الضروري أن يكون متعلقًا بـ"باجيكا". لقد كان أكثر انزعاجًا من ملاحظة "جوزيف" الفَطِنَة، والتي عبَّر عنها بالإشارة إلى التشابه بين "كاليمجدان" (ذو القرن) في بلجراد، و"القرن الذهبي" في إسطنبول.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

24

ربما تعاملتُ مع قضية الهُويَّة وتقلبها وتغيرها وإبدالها على الأغلب (ربما يُفضَّل في هذه الحالة أن أقول: على الأغلب "بعمق") أثناء سنوات اهتمامي بالبوذية، وخصوصًا بوذية "زِنْ" Zen Buddhism، المعظم والأقل. الأقل لأن هذه الفلسفة الشرقية طبقًا لتفسير مبسطٍ لها (ولكنه ليس تفسيرًا خاطئًا) ترى التعامل مع الظاهرة على أنها فعل، حيث عندما نركز بأنفسنا بالضبط على هذه الظاهرة، فإننا في الواقع لا نتعامل معها. فالشيء الذي يلفت انتباهنا هو الشيء الذي لا نوليه اهتمامًا.
وبالنسبة للمنطق الأوروبي والشمال أمريكي العقلاني، فإن التناقض غير المقصود بين البوذية (في الهند) والمنطق، ومذهب "التشان" الصيني الذي يبدو منطقيًّا وعمليًّا، و"الزِنْ" في اليابان التي تتكر الظواهر بعبثية مبسطة لا يمكن فهمها بسهولة. يمكن دراسة وتعلم فلسفات الشرق الأقصى. العديد من أصحاب العقول المشهورين والمجهولين من الغرب عبروا كل حواجز الفلسفة الآسيوية. والعديد منهم لم يكونوا فقط مجرد أتباع للتعاليم الجديدة، بل أصبحوا أيضًا مفسرين لها، وعاملين على نشرها والترويج لها.
وبالطبع، فإننا نتحدث هنا عن فلسفة، وقناعة ومذهب فلسفي، أو من الأفضل أن نقول عنه إنه نمط حياة يعبر عن منظور معين تجاه الحياة، ولكنه ليس دينًا، وليس سياحة ثقافية.
وبالمصادفة، شاركتُ في "إنقاذ" أحد هذه الحيوات والعقول من مخاطر السياحة الثقافية. (علامات التنصيص هنا ضرورية لأن في البوذية يجب على الفرد الاعتناء بتواضعه الشخصي، وألا يتعالى بإعطاء نفسه قيمة كبيرة). ومن ثَمَّ، هذه هي الطريقة للوصول إلى "الخلاص".
تدور القصة حول رجل من "زغرب" (في الواقع هو من سكان القرى) اسمه "شيدوميل فيلجاشيك"، وهو فيلسوف من حيث التعليم، وأستاذ جامعي من حيث المهنة، ودبلوماسي سابق بفضل قدرته على الاستفزاز. وهو أحد أعظم الخبراء في الفلسفة الآسيوية في العالم، وبوذي من حيث المذهب الذي اختاره لنفسه.
لم يكن الأمر أن مثل هذا الخبير يحتاج إلى مساعدة شخص مثلي. البوذية عامة (كما فعل البروفيسور "فيلجاشيك") تختلف عن التخصصات النظرية والفكرية العامة الأخرى، لأنها قدمت إجابات عملية على العديد من التساؤلات. ومن ثَمَّ، فإن طريق حياة "شيموديل فيلجاشيك" تكون من اختبار المُسَلَّمات الفلسفية الخاصة به. لقد وصل إلى الحدود الخارجية للاستبطان وتحليل الأفكار، والذي تميز بالامتناع عن أشياء معينة للعثور على أشياء جديدة. وبهذا الشكل، سيعثرون في طريقهم على شيء مختلف تمامًا بدلًا مما امتنعوا عنه. في الوقت الذي بدا فيه الأمر كما لو أنه يخسر، كان في الحقيقة يتلقى ويحصل على المزيد. وعندما لا يوجد "بديل"، تبقى بقعة فارغة والتي بالطبع لم تكن فارغة. ومن ثَمَّ كان واضحًا أن مساعدتي كانت حتمية، ولكننا تبادلنا الأفكار واستشارة بعضنا بعضًا في المواقف المختلفة، سواء من خلال المحادثات أو بالكتابة، وتبادل خططنا واتفاقاتنا كانوا جزءًا من عالمه السابق الذي ما زال على تواصل معه. إنني أتحدث عن الفترة بعد عام 1965 عندما استغنى عن أساتذيته بجامعة "زغرب" وفي الجامعات الهندية. وقال القسم والوعود في سريلانكا في أكثر الطوائف البوذية تقشفًا، وهم "البهيكوس" Bhikhus؛ أي المتسولون. من ذلك الوقت فصاعدًا، ولثلاثة عشر عامًا بعد ذلك الوقت، عاش في مجتمعٍ معزول مكون من هؤلاء الرهبان بعيدًا عن العالم

والمساكن المتحضرة (هل عليَّ أن أستخدم علامات التنصيص هنا؟). ومع ذلك، حتى بعد اسمه الجديد "بهيكو نيانادجيفاكو"، لم يتوقف عن التفكير بقضية انسحابه من الحياة؛ لقد عزل نفسه عن مجتمعه وقضى الثمانية عشر عامًا التالية وحتى وفاته في 1997، وهو يعيش وحيدًا تمامًا ("حياة حقيقية في كوخ وكهف" سيكون العنوان الذي سأعطيه لصورةٍ له). كان يتقبل الطعام من السكان المحليين الذين يؤدون هذه المهمة عن قناعةٍ واحترام، وكانت وظيفته هي أن يتأمل ويكتب النصوص والكتب. فيمَ كان يختلف عن الرهبان الآخرين في ممارسته هذه العقيدة؟
يوجد الجواب على هذا السؤال في مقدمة النسخة ذات الثلاثة أجزاء للعمل الرائد "مقالات في بوذية زِن" والذي كُتِب منذ قرابة النصف قرن بقلم أعظم خبير، والأكثر جدارة في بناء الجسور بين الشرق والغرب "دايستز تيتارو سوزوكي". وفي لحظة تواضع تامة (بما يتناسب مع عقيدة الزِن)، وفي حين كان يبرر نفسه، ويدافع عنها لكتابته كل هذه الكتب - العشرات - حول الموضوع نفسه، قام برثاء أعظم الرواد في الأديرة، والذين رفضوا على الدوام كتابة أي شيء بخصوص معرفتهم غير العادية وغير المفهومة، والذين لن يفكروا على الإطلاق لفعل هذا؛ أي لأن يكتبوا. لم يذهبوا أبدًا إلى أبعد من أن يكتبوا أي شيء غير "الكوان" kōan، وهو قصة أو حوار أو سؤال أو بيان يُستخدم في مذهب "زِن" لإثارة "الشك الكبير"، ولممارسة أو اختبار تقدم الطالب في هذا المذهب، على الرغم من أنه كان لديه شعور عميق بالشك حول إمكانية تبرير فعله هذا؛ الكتابة. ولكن الحمد لله، ألقى "سوزوكي" بنفسه إلى هذا العالم، وكل الجنس البشري مدين له. والآن، من هذه المسافة البعيدة، يمكننا رؤية أنه التنوير الذي مر به عدة مرات لم يشوش عليه أو يشتته، بل على العكس من ذلك.
ومن ثَمَّ، كان الشخص الآخر من ضمن ذلك العدد الصغير من الرهبان الذي تجرأ على أن يمسك بقلم رصاص وورقة، ويبدأ بالكتابة ليثري العالم بالمعرفة هو "بهيكو نيانادجيفاكو". ولأكون أكثر دقةً، استمر في النشر والكتابة تحت هذا الاسم. كان قد كتب في السابق كتابًا ونشر "عجائب" من مجلدين تحت اسمه الأوروبي، الكتابان هما: "فلسفة الشعوب الشرقية" و"حدود الفلسفة الآسيوية"، وعددًا كبيرًا من الكتب الأخرى. من المحتمل في حالته أن المسافة التي قطعها كونه مؤلفًا كانت العامل الحاسم الذي جعل من الممكن بالنسبة له أن يستمر بعمله النظري والأكاديمي في ظل هويته الجديدة، ولكن مع وصف دقيق وذي قيمة لتجاربه في العزلة. ساعده الوصول إلى النضج على تجنب الوقوع في أخطاء وفخاخ ادِّعاء المثالية التي وقع بها آخرون، كما ساعده حصوله على الأستاذية، وتجربته كونه أستاذًا جامعيًّا على تجنب الوقوع في خطأ أن يصبح معلمًا جوَّالًا (معلم دائم؟) يصبح صدق نواياه محل شك بمرور الوقت.
ربما كان الأمر أسهل بالنسبة له، لأن البوذية لم تقبل "بوذا" نفسه على أنه إله، ومن ثَمَّ يتمكن الناس من توجيه الخطاب إليه بشيء من الراحة. وهكذا تم التخلص والارتياح من الخوف من الإله وفكرة العالم الآخر. ولذلك تمكن "بهيكو" من التعامل مع وجودية "سارتر" دون تكلف أو إرهاق (حسنًا، لقد تناول "فيلجاشيك" لُبَّ الموضوع وتناول مصدر الفكرة نفسه) أو مع مواضيع "نيتشه" الغامضة (فكرة "الأوبرمينش" وهو الإنسان الأعلى موجودة في البوذية بالفعل).
كنتُ على تواصل بالبروفيسور "فيلجاشيك" (لم أستطع منع نفسي من مناداته هكذا) من الوقت الذي كانت فيه مدينة "كولومبو" - عاصمة سريلانكا - ومدينة "كاندي"، وهي أقرب مدينة له، قريبتين جدًّا من بعضهما بعضًا، فترك المجتمع البوذي وانسحب إلى عزلةٍ تامة في كهف وكوخ دون أن يقابل أي أحد تقريبًا، ولكنه كان يستقبل ويرسل الخطابات، ويبقي على مراسلاته. وقد شعرتُ بالامتنان

والتميز كوني واحدًا من القلائل الذين كانوا على تواصلٍ معه. وقد أعلن "فيلجاشيك" بعضًا من هذه التجارب الشخصية للعلن في كتابٍ نشره لاحقًا (مثل كتاب "من نيبال إلى سيلان" و"خطابات من الجزيرة المهجورة"). وقد كان هذا هو "الفيلجاشيك" - "نيانادجيفاكو" الذي أثار اهتمامي. ومن ثَمَّ لا يوجد سوء فهم، كل تلقيه وفهمه للبوذية كان شخصيًّا. هذه الكتب والنصوص الفردية خارجهما لم تكن ذات طابع أكاديمي نظامي، ولكنها كانت تعبيرًا صادقًا عن قصة شخصية، وعن قصة انسحابه من العالم، وعن منظوره الخاص بتجافي البوذية الشديد والشهير للعالم، والذي نبع من الانطوائية الهندية المطلقة، ولكنها لم تكن معادية للاجتماعية والأخلاق. كتب "رادا إفيكوفيتش"، تلميذ "فيلجاشيك"، جيدًا عن هذا في التعقيب الذي كتبه "قارئ" البروفيسور الزاهد، بعنوان "قصائد متسول ومتسولة". هذه المختارات والمقتطفات - الشاهدة على تقهقر بوذي من العالم، وحياة الناسك، والزهد، وإنكار الذات - تفتتح بقصيدة كُتبت من نحو ألفين ونصف عام في الماضي تحت عنوان "وحيد القرن". تكرار آخر سطر في كل مقطوعة هو الحقيقة المكثفة لهذه الفلسفة، ولكن أيضًا للحياة التي تبناها والدافع والشعار الفلسفي لـ"بهيكو نيانادجيفاكو": تمضي بمفردك كوحيد قرن.

ووفقًا لتصريحه، لقد اختبر "فيلجاشيك" تحوله بالتدريج، ومن الجذور، وطوال حياته ابتداءً من سن الرابعة عشرة وحتى نهايته (إذا كان هذا ممكنًا) عند الموت. وبذلك، لم يكن هذا التغير هو نوع التغير نفسه من الاشتراكية إلى المجتمع الطبقي، ومن يوغوسلافيا وصولًا إلى الهند، ومن المسيحية إلى البوذية. إنها الحركة من حالةٍ إلى أخرى، وهو تغيير متكامل لشخصيةٍ واحدة داخلها، وتحويل البغضِ من الاحتقار إلى رحمة خاملة. إنه حركة التحول إلى حالة ومهنة المتسول المِعْطَاء ومهنته والتي تُسَمَّى "بيكهو".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع والعشرون

وعندما اكتشف أن "سنان" قاده إلى مستوى ثالث من التفكير والاحتمالات، أدرك "باجيكا" كم كان مشتاقًا إلى هذا الرجل.
بالإضافة إلى التفكير في المخطوطة التي أرسلها إليه السلطان وخرائط "القسطنطينية" وبلجراد، فهو الآن يفكر أيضًا في الموت. أخبره "جوزيف" أن "الجميع يموتون"، ولكنه تفاجأ من نفسه عندما وجدها مأخوذة بمثل هذه الحقيقة الشائعة والمعروفة. ثم توقف: لماذا فُتِح هذا الموضوع (مثل الموضوعين الآخرين) لينتج عنه شيء ما...
فقام "باجيكا" بسؤال "سنان":
- ماذا قصدت بقولك إن الجميع يموتون؟
فأجابه "سنان" قائلًا:
- ماذا تعني "بما أقصد"؟ حسنًا، يجب على الجميع أن يولدوا ويجب عليهم أيضًا أن يموتوا. أعتقد أن هذه قاعدة يعلمها الجميع، وهي واحدة من الحقائق التي لا يمكن إنكارها.
فنظر إليه "محمد" بِشَكٍ. ثم قرر أن يفوقه في الفطنة فقال:
- لا، القاعدة الأكثر صوابًا ودقة من هذه القاعدة هي: لا يتحتم على الجميع أن يولدوا، ولكن كل مَن يولد.. عليه أن يموت يومًا ما.
وقد كان هذا بالضبط ما توقعه "سنان"، فقال:
- ها أنتذا، أرأيت الآن لمَ أنت جدير بكل الأشياء الجيدة التي ستحدث معك في المستقبل؟ على الناس أن يصغوا إليك أكثر مما يصغون إلى بعضهم، على الرغم من أنك تقول مثل هذه الأشياء لأنك تصغي إلى الآخرين باهتمام. أريد أن أقول، مهما ابتعدنا أنا وأنت، يبدو أننا لا نستطيع أن نستغني عن بعضنا بعضًا. أو على الأقل على الأمور أن تكون كذلك بمشيئة الله.
نظر إليه "باجيكا" بدهشةٍ فترةً وجيزةً ثم بعد ذلك سأله:
- هل نحتاج إلى إذن من السلطان حتى نذهب إلى بلجراد؟
جزء من الإجابة كان أكثر أهمية من هذا السؤال المفاجئ؛ إذا وافق "جوزيف"، فبإمكانهما أن يذهبا.
ترك "محمد باشا" رسالة للسلطان بقصر الحكم في "صوفيا" في حالة إن طرأ أمر ما. ذهب ليتفقد أحوال بلجراد والصرب، وأخذ ضيفه معه ليستطيعا إيجاد أماكن تناسب الأوقاف المستقبلية التي سينشئها السلطان.
ذهبا إلى نهر "الدانوب"، ثم توجها إلى أعلى النهر، حيث استقلا أحد المراكب من أسطول "البادشاه" الشخصي. كل السفن، بما فيها تلك التي استقلوها، تقف منتظرةً سيدها في كل الأحوال، وترسو على مسافة كافية من بعضها بعضًا، بحيث تكون مستعدة ومتاحة للحاكم وقتما كان ضروريًّا. نادرًا ما كانت تُستَخْدَم. رحلتهما النهرية معًا جعلت "باجيكا" يتذكر أيامه عندما كان قائدًا على الأسطول العثماني كله. وفي الحقيقة، كان يبدو مثل أحد قباطين الأنهار، قائد سفينةٍ واحدة و"سيدًا" على نهرٍ واحدٍ لعدة أيام. وقد استمتع بهذه النكتة الساخرة جزئيًّا عن نفسه؛ فهي لم تجعله ينسى أيام عظمتهِ ومجده، وأيام بؤسه وشقائه، لم تجعله ينسى ماضيه أو مستقبله.

بعد هذا الإبحار المُرَفه الذي يكاد يكون خاملًا أيضًا عبر النهر، وبعد يومين، لاحت بلجراد على الضفة من ناحية اليسار، ويرتفع حصنها المنيع خلفها. وبعدها بمسافةٍ قصيرةٍ للأمام، تقع مدينة "زيمون" الصغيرة. قاموا بإسقاط المراسي في ميناء "دورتشول"، والذي كان دائمًا وفي هذا الوقت تحديدًا يتم توسيعه بواسطة حرفيين من بلجراد ومن العثمانيين. بعد كل المعارك وبعد النزول بتلك الموانئ وإحداث هذا التدمير فيها، كانت جديرة بأن يُبذَل فيها مجهود لإعادة بناء وهيكلة مراسيها بشكل جاد. وهنا، أدَّى المنحنى الذي يلي نقطة التقاء نهر "سافا" بنهر "الدانوب" دوره كواقٍ طبيعي من الرياح للسفن. ومن ثَمَّ، كان هذا المكان مثاليًّا للاختباء. بدا الأمر لكليهما كما لو كانا يتسللان إلى المدينة، إذ إن هذه كانت المرة الأولى لهما التي يذهبان فيها إلى بلجراد عن طريق نهر "الدانوب"، حيث دخلاها من الخلف، فرآها كل منهما بصورةٍ مختلفةٍ عن التي عرفاها. وقد نال كل ما شاهداه هنا استحسانهما وإعجابهما، وخاصة ما توقعاه.

ما قاله "جوزيف" كان صحيحًا؛ إن منطقة "دورتشول" بالفعل تشبه "القرن الذهبي"، وخصوصًا بسبب تنوع أطياف، وجنسيات الناس التي تعيش وتعمل هناك. والإطلالة من "دورتشول" على المدينة و"الكاليميجدان" ذكرتهما بأن الإطلالة تقريبًا هي نفسها من "كاديرجا" الخاصة بقصر "طوب قابي" والمساحة التي أمامه. لقد ربط "باجيكا" هذا التشابه الواضح حقًّا بنقطة ضعفه فيما يخص أصله الصربي. ولحسن الحظ، فإن أفضل خبير بالمساحة والإنشاء كان واقفًا بجانبه، ومن ثَمَّ يمكنه أن يسأله بخصوص هوسه الفريد. هدأ "جوزيف" من روعه وأراحه، حتى أكثر من ذلك حين قال:

- أولًا، إنك ترى هذا التشابه لأنك ما زلت متأثرًا بما قلته لك. لقد كنتُ أنا الشخص الذي أشار إليه أمامك، كنتُ أنا مَن لفت انتباهك إلى وجوده. لقد أقنعتني رحلاتي السابقة إلى بلجراد بأنني كنتُ محقًا. ولكن في الواقع لقد استقصيتُ عن هذا شخصيًّا، حتى قبل أن أخبرك عن أفكاري حول التشابه بين المدينتين. والآن من ردود أفعالك أرى إلى أي مدًى كنتُ على حق، وهذا يجعلني أشعر بشيء جيد، لأنه عند لحظة معينة، بدأتُ أعتقد أنني أتخيل تشابهًا غير موجود من الأساس.

فأجاب "باجيكا" قائلًا:

- وثانيًا..؟!

فردَّ عليه "سنان":

- حسنًا، في الواقع لا يوجد ثانيًا، لقد اعتقدتُ أنني - كما أفعل في بعض الأحيان - أقنعتُ نفسي بشيء أريد أن أصدقه، ولكنه في الحقيقة لا يعدو كونه مجرد خيال. تمامًا كما اعتقدتُ أننا في بعض الأوقات "ننجذب" بشدة في اتجاه شيء ما، لدرجة أننا نقنع أنفسنا بأننا في النهاية في طرف الجانب الذي انتصر، وفي الحقيقة لا يحدث شيء من هذا، ولكننا لا ندرك ذلك. ومع هذا، بعد أن قمت بوزن وقياس كل شيء بطرقٍ متعددة، توصلتُ إلى طريقة معتدلة لإثبات أي شيء. ثم بعد ذلك، كل ما تبقى لي هو أن أستمتع بأوجه الشبه العَرَضِيَّة أو المُتَعَمَّدةِ هذه، وأتشاركها معك، لأنها تعني الكثير لك.

قرر "باجيكا" الإقامة في "المدينة السُفْلَى" عند "فرحات باشا"، وهو ابن المسؤول السابق لسنجاق "سميديريفو"، والذي كان يحمل الاسم نفسه من 1523 إلى 1524، واللذين كانا مقيمين في بلجراد. وعلى الرغم من أن أقدامه وأفكاره جذباه نحو "دورتشول"، فإنه أطاع "جوزيف" ابتداءً من اللحظة التي رآه فيها يتحدث مع مضيفيه. وقد كان ذلك هو الوقت الذي أدرك فيه أن "سنان" في مهمة إلى

بلجراد (والتي ربما لم يكلفه بها السلطان) وأنها على ما تبدو مثيرة للاهتمام. ولكن علاوة على ذلك، لقد اتضح أنه تعلم درسًا جيدًا من كل هذا.

وهذا جزء من الحوار الذي دار بينهما.

قال "سنان":

- هل تتذكر يا "فرحات باشا" عندما طلب والدك من "البادشاه" أن يضع اسمك على المسجد القريب من منزلك؟ من المحتمل أنه تجرأ على أن يطلب منه هذا، لأنه علم كم كان السلطان يقدر إسهاماته في الغزو على بلجراد. وعلى هذا، تفاجأ عندما سُمِحَ له بهذا. وعلى صعيدٍ آخر، علم أنه يستطيع أن يغير القاعدة التي تحتم أن يكون أول مسجد يُبنى في أي بلد يفتحونها يجب أن يحمل اسم السلطان العظيم؛ لقد اتخذ والدك مسجدًا من كنيسة في دير تابع للفرنسيسكان. وعلى أي حال، هذه هي الطريقة التي حصل بها على العديد من المساجد، مثل مسجد "زين الدين آغا" و"أحمد آغا". وهذه المساجد كانت كنائس جرى تحويلها إلى مساجد، ومن ثَمَّ لم يكن من الجيد أن يتم تشريفها بأن تُسمى باسم السلطان.

وبكل حكمة، لم يذكر "سنان" السنة التالية من حياة هذا الباشا الذي تمت دعوته إلى "القسطنطينية" ليتم إعدامه على الفور، لارتكابه العديد من الانتهاكات. وبهذا الشكل، فقد جرده السلطان من امتنانه له، ولكنه مع هذا لم يغير اسم المسجد الذي سُمِّي على اسمه.

ردَّ "فرحات باشا" قائلًا:

- "سنان" القدير، هل هذا يعني أنك أخيرًا جئت إلى بلجراد لكي تبني مسجدًا كما ينبغي؟

- ليس واحدًا، بل اثنين.

- هل هناك حاجة إلى مثل هذه المهمة الضخمة؟

قالها "فرحات باشا" وهو يعض على لسانه، في حين ينهي سؤاله الغبي والوقح والخطير هذا. مَن هو كي يستفسر عن الأعداد ويفندها، وهذا شأن سيده السلطان وحده؟

لم يأخذ "سنان" سؤاله على محمل خاطئ. كان من الأهم أن يذكره بالإطار الزمني الذي وجدت به المشكلة فقال:

- لا يمكنك أن تتذكر، لكن عليك أن تعلم هذا؛ في عهد والدك، عندما استولى "سليمان" على بلجراد في عام 1521، كان عليه أن يحوِّل إحدى الكنائس المسيحية في "المدينة السُفلى" والتي كان غير المسلمين يتعبَّدون لله القدير، تخيل هذا! حسنًا، كم عدد الكنائس التي يجب تحويلها إلى مساجد لأجل الجيش؟ على الجيش أن يتعبَّد أيضًا، وقد مر الكثير من الوقت. لذلك، ربما ستكون فكرة جيدة أن يصحح هذا الخطأ الفظيع ببناء مساجد جديدة مناسبة.

كان "باجيكا" عمليًّا يسترق السمع على هذا الحوار. وابتسم للعب "جوزيف" بالأرقام. وبعد ذلك تدخل في الحوار قائلًا:

- كان "خوجة سنان" الشاهد على أول خدمة عبادة حضرها السلطان هنا، أما أنا فلم أكن حاضرًا. ومع ذلك، بصفتنا تابعين سابقين للكنيسة الأرثوذكسية، كان من الغريب لكلينا أن يصلي الحاكم العثماني بإحدى كنائس المسيح، فقط بمجرد إعلانه مسجدًا. حتى بعد خمس سنواتٍ من ذلك، عندما كان كلانا في الحملة التي تم شنها ضد المجر ومررنا ببلجراد، كان الوضع كما هو؛ كل المساجد جاءت من كنائس كاثوليكية وأرثوذكسية تحولت إلى أماكن لعبادة الله. ولا يوجد أي مسجد ملائم في الأرجاء.

نسي "فرحات باشا" الأصغر أن ضيفيه زارا بلجراد عدة مرات في السابق، ففوجئ حقًا بما سمعه، فقال:
- حسنًا، إذن، إنكما تعلمان الكثير من التفاصيل بخصوص مثل هذه الأشياء.
قال "مثل هذه الأشياء" لأنه خشي أن يقف على مسألة الدين، وخصوصًا موضوع امتزاج دين بآخر.
فأجابه "محمد باشا" على هذا:
- بالطبع! فعلى أي حال، هذه دولتي وموطني. وما زلت معروفًا هنا باسم "باجيكا سوكولوفيتش".
و"معمار سنان" لا يختلف كثيرًا عن هذا؛ فأسلافه كانوا على هذا الدين نفسه، ومن مناطق أعمق في الجنوب. وما زالوا ينادونه "جوزيف".
ثم تدخل "جوزيف" الذي لم يستطع مقاومة رغبته في حث صديقه وتشجيعه:
- أكمل يا "محمد"، دعه يرى ما تعرف من الدراسة التي تلقيتَها في دير "ميليشيفو"! دع مضيفنا يتعلَّم شيئًا ما. سوف تُحسِن إليه صنيعًا إذا تعلم شيئًا بخصوص المسجد الذي يذهب إليه عادةً؛ المسجد العظيم للسلطان "سليمان". وإحقاقًا للحق، ربما لا يذهب إليه بالمعدل نفسه الذي يذهب به إلى مسجد والده.
ضحك "باجيكا" مرةً أخرى، ولكن هذه المرة ضحك بصوتٍ عالٍ، لأن "فرحات باشا" كان مُطالبًا بالذهاب إلى دار عبادة السلطان، لما كان أحد القادة في منطقة "الكادي" ببلجراد.
وقد وافق "سنان" على أن يخبرهما بما ينوي أن يفعله. قال:
- المسجد العظيم في "المدينة السُفلى" كان في الأساس كنيسة رقاد السيدة العذراء المتروبوليتانية الصربية. وعندما تم الاستيلاء على المدينة، وبعد خضوع مركزها في التاسع والعشرين من أغسطس 1521، ذهب السلطان "سليمان" على الفور في اليوم التالي ليصلي الجمعة هناك.
ثم استطرد "سنان" قائلًا:
- لكن هل تعرف مَن الذي بناها في الأصل؟
فأجابه "محمد":
- بالطبع أعرف. لقد تعلمنا من الرهبان الكثير عن الأوقاف والحكَّام. وقد بناها الملك الصربي "دراجوتين" في نهاية القرن الثالث عشر. وأحد مؤسسيها (الذي قام بتجديدها لاحقًا) كان الحاكم الصربي "ديسبوت ستيفان لازاريفيتش"، عندما أعلن أن بلجراد أصبحت عاصمة الدولة الصربية في عام 1402، أعاد بناء وهيكلة مركز وأطراف المدينة، والضواحي، والأبراج وجميع التحصينات. بنى القلعة وأضاف سورين مزدوجين جديدين تفصلهما الخنادق، ثم بنى المصارف على جانب المدينة بطولها، هذا بالإضافة إلى الكباري المتحركة، والمنازل الإقطاعية، ومكتبة، وكنيسة صغيرة، وخزانة. وقد ذُكِرَت المدينة فيما بعد من قِبَل كاتب سيرة "ديسبوت" الذاتية "كونستانتين فيلوزوف".
تنهد "سنان" بارتياح ورضا. وأخذ يحرك نظره بين "محمد باشا" و"فرحات باشا"، ثم قال، وكأنه يوجه الحديث إلى "فرحات باشا":
- أترى؟ لقد تعلم تلميذي دروسه جيدًا.
ولكنه كان يريد أن يقول إن كل شيء حديث يعتمد على شيء تم بناؤه سابقًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

25

لم يرغب "فيلجاشيك" في أن يصبح مثاليًا. ببساطة، اتبع طريقًا قاده إلى وجهاتٍ محددة حيث توقف. وهناك، سيستريح، ويُقَيِّم المكان، ثم ينطلق مرةً أخرى في طريقه. الخيط الرفيع الذي يربط أجزاء رحلته معًا يتمثل في تتبعه فلسفة "غاندي" المثالية، والمُطبقة عمليًّا في رفض العنف. وفي هذا، قد بدا "فيلجاشيك" يشبه رفيقًا آخر عزيزًا، وهو الأمريكي "جاري سنايدر". وهذا بالطبع لم يكن مصادفة. لقد حصل عالم الإنسانيات هذا على تعليم استثنائي (وهذا شيء من بين عدة أمور أخرى). وعلى الرغم من أنه كان واحدًا من أعظم الخبراء في ثقافة قبائل السكان الأصليين في شمال أمريكا، وفي ثقافة "التبت" وبوذية "الزِن"، فإنه كان مشهورًا في العالم بأنه أحد أعضاء جيل "البيت"، وأنه شاعر استثنائي.

استغرق "سنايدر" عَقْدًا كاملًا في اليابان في أحد أديرة بوذية "الزنْ" ليستعد لتغيير مذهبه. وبمروره خلال النظام اليومي الصارم للمتقشف الزاهد، كان قادرًا على أَن يكرس حياته ليحول النظرية إلى تطبيق، بالإضافة إلى الدبلومة الرسمية التي حصل عليها. وبالعودة إلى موطنه، عاد إلى المناطق التي يتعذر الوصول إليها في "سييرا نيفادا" من حيث انطلق ليجول أمريكا مع الحفاظ على خصوصية عائلته في معزل (زوجته اليابانية وأولاده). ومن ذلك المكان، درس الأساطير، الصين والهند القديمة، وكتب محاضرات ومقالات عرقية. لقد عمل مع الأرض، مع الطبيعة.

لا أعرف كيف، لكن في مراسلاتي مع "شيدوميل فيلجاشيك" (ولأكون أكثر دقة في مناقشاتي مع "بهيكو نيانادجيفاكو")، اتفقنا على أن نكتب كتابًا معًا عن "جاري سنايدر". أعتقد أننا شعرنا في الوقت نفسه بالحاجة إلى إلقاء الضوء - من وجهة نظرنا - على هذا الشخص المتعدد اللغات. واحد من أصدقائي وأصدقاء "سنايدر" (أظنه "جانزبرج"، أو "أورلوفسكي"، أو "ميشيل ميكلور"، لا أذكر مَن منهم بالضبط) أعطاني خريطة مرسومة باليد، لأستطيع الوصول إلى مخبئه الذي يسمى "كيكيدزا". كانت الخريطة تشبه تلك الخرائط اللاتي يستخدمها الشخص في بحثه عن كنزٍ. من المثير للشفقة أنني لم أعثر أبدًا على الكنز..

ولا عجب في ذلك، فقد كانت السبعينيات فترة مضطربة للغاية، وقد طُرح بها عدد هائل من الأفكار مصحوبة بالرغبة في تطبيقها عمليًّا في الحياة. ومع ذلك، لتحقيق معظمها، قد يستغرق الأمر ثلاثة أضعاف عمر الفرد. ولكن هذا لا يعني أن يستسلم المرء ويتخلى عن كل أهدافه.

تقبل هذا التواضع في اختيار الأهداف، فبنهاية السبعينيات، كان العديد منا مشهورًا بإصراره (مثل "د. ألباهاري"، و"م. ريستوفيتش"، و"ب. شوكوفيتش"، وعدد قليل من الآخرين) وبدؤوا في إصدار "سفيسكي" (Sveske) (وهي دفاتر ملاحظات وليست كتبًا، دليل على افتقارنا إلى الادِّعاء) والتي ربطنا فيها الشرق الأقصى - الذي دائمًا ما يمكن إيجاد صلة بينه وبين الغرب - بالغرب. الجزء الأكثر أهمية من العمل، الذي لم يكن واضحًا تمامًا، هو تواصلنا مع العديد من الأشخاص المبدعين والمتنوعين من شتى أنحاء العالم. وعلى كلٍ، ما الذي سيكون ألطف من توسيع آفاقنا ومشاركة ما توصلنا إليه مع الآخرين؟ لذلك، لقد قمت باستغلال الفرصة المتاحة أمامي بالفعل عن طريق مراسلتي مع البروفيسور "فيلجاشيك" (وأيضًا في مناسبة نشر مجلة "هايكو"، يوغوسلافيا في ذلك

الوقت)، وفي عام 1978، وردني منه نص بعنوان Rala-hamiyeva aranya - أي "الغابة المقدسة تحت الأحجار السوداء" - والذي نشرناه بعد ذلك بوقت وجيز.

اعتقدنا أنه كان من المهم بالنسبة للجمهور اليومي - فضلًا عن المتحمسين - أن يتعلموا شيئًا عن الحياة الانفرادية المنعزلة للناس الذين رفضوا تيارات الحضارة تمامًا. وقد أصبح "نياناديجيفاكو" هناك، بين كل هؤلاء المتقشفين الزاهدين في "سيلان"، واحدًا من العظماء، لأنه ذهب إلى أبعد الحدود في الكثير من التفاصيل. ولكن من المثير للاهتمام أن "المرض" الذي يصاحب التقدم في العمر تفوق عليه، ثم إنه اقترب أكثر من الخدر النهائي في حياة الإنسان؛ بدأ يفكر في مكان راحته الجسدية؛ أي موته. بعد عقود من الإقامة خارج وطنه، بدا له أنه من الممكن أن يكون ضمن اختياراته لوجهته النهائية. ووفقًا لمعتقداته، كان يبحث عن المكان الذي سيموت فيه، وليس مكان مقبرته. الموت بالنسبة له هو جزء من الصمت، جزء من الفناء المطلق، أي أنه جزء من حالة "النيرفانا" البوذية. وسألني عن رأيي، ولكن بدافع احترامي الهائل له، لم أجبه على الفور. ثم بعد أن فهم، بدأ في ذكر بعض الجزر في بحر "أدرياتيكا" كاقتراحاتٍ ممكنة. لقد توقعتُ ذلك؛ فقد كان من سكان الجزر في جوهره (لقد قضى تقريبًا كل فترة الحرب في الأربعينيات على جزيرة "فيس"). اعتقد أن "ملجيت" أو "كورشولا" ربما تكون امتدادًا لإقامته في سريلانكا. شهدت حقيقة أنه حتى بداخل جزيرة "سيلان"، استطاع أن يجد لنفسه جزيرة حقيقية على الدرجة التي أصبح بها معتمدًا على الجزر والبحار. كما لو أنه لم يكن كافيًا أن يعزل نفسه عن العالم، بل وجد لنفسه جزيرة - وهذا ليس رمزيًّا بل حرفيًّا - حتى وإن كانت هذه الجزيرة محاطة بالأنهار وليس البحار من كل الجهات. ولذلك فقد استجمعت جرأتي لأقول له ما أظنه حقًّا بخصوص هذه الفكرة. وقد فعلتُ هذا بطريقةٍ حادَّة؛ عبَّرتُ عن فهمي اختياره للجزيرة الأكثر جمالًا وعُزلة، والأقل سكانًا، ومن ثَمَّ أكثرها طبيعية، حيث لم يغير في معالمها بنو البشر كثيرًا، واختار فيها مكانًا يكون بعيدًا عن الطريق. ولكنني ذكَّرته بأن جزر "أرخبيل" الموجودة ببحر "أدرياتيكا" كانت جزءًا من أوروبا، وهي قِبْلَة السياح. بصرف النظر عن نوع الكهف الذي وجده، فلن يستطيع أن يخفي موقعه. سواء أراد ذلك وسمح به أو لا، وعاجلًا أو آجلًا، سوف يصير محط اهتمام السياح وعامل الجذب الرئيس لهم، إذ سيضعونه كوجهة (كما يقولون في لغة السياحة) ذات معالم حصرية ونادرة مثيرة للاهتمام. وحقيقة أنه سيصبح "وجهة"، حتى ولو لرحلات اليوم الواحد، فلن يختلف كثيرًا عن الحيوانات التي يتم عرضها في حديقة الحيوان.

وقد أصغى إليَّ. وعندما حان وقت مغادرته الأخيرة، تركنا في عام 1997، كما يجب أن يكون؛ وافته المنية في المكان الذي عاش فيه. إذن، من منزله، من وطنه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل الخامس والعشرون

اكتشف "باجيكا" لاحقًا أن إصرار "جوزيف" على التحدث بشأن المسجد العظيم وتاريخه القديم، ما كان سوى مقدمة لخطة أعدها صديقه المهندس في عقله، والتي جلبها معه، ليس فقط إلى بلجراد، بل كانت في عقله منذ وقتٍ سابق منذ وطأت قدماه "صوفيا".
كلَّف قائد المدينة بعض الرجال الذين كانوا على دراية بالمنطقة بتتبعهما (وليس لقيادتهما) ولكن بشكل سري، في حين كانا يسيران في الأرجاء. على الرغم من أن "محمد باشا" و"معمار سنان" قد أتيا إلى المدينة دون أي حاشية؛ كانوا عمليًّا في وضع التخفي، مما يعفي مضيفيهم من أي التزاماتٍ تجاههم، فإنهما حمَّلا الآغوات الكثير من المشكلات. وهذا لأن أولًا لم يَرِد في الذاكرة الحديثة أو في التاريخ الحديث أن قام أيٌّ من كبار المسؤولين في "بورتا" بزيارة المدينةَ في مثل هذا التخفي، وثانيًا، لأنه لا مثيل لسلوكهم. كيف يمكن لأحد أن يحميهم دون أن تكون هذه إساءة أو إهانة؟ ثم إنهما سيزعجونهم بالقدر نفسه إن لم يولوهما أي اهتمام، أو إن بالغوا في اهتمامهم. إذا لم يفصحا عن وجودهما هنا علنًا، فلن يكون من الملائم أن ترافقهما حاشية ضخمة، ولكن مرةً أخرى لن يكونا بمأمن. لم يكن "باجيكا" و"جوزيف" على علم بأن الليلة التي سبقت عقد ديوان المدينة دامت ساعات لمناقشة موضوع واحد؛ ما الذي يمكن فعله في مثل هذا الموقف غير المعهود، وهو وجود "بكلربك"/ حاكم "روملي" بصحبة كبير المهندسين المعماريين في الإمبراطورية؟ حتى إن آغوات وبهوات بلجراد ظنوا أن هذه الزيارة المفاجئة قد تكون اختبارًا. ولم يستطيعوا التفكير في أي شيء حاذق فَطِن. وقد رفض كلا الضيفين أي شيء قُدِم لهما، وإن كان رسميًّا لأسباب لا يعلمها إلا هما. فعلى سبيل المثال، كانا يتحركان في الصباح الباكر تقريبًا بمفردهما ليتجولا بالمدينة (بصحبة عدد قليل من الحراس الشخصيين المتخفيين الذين كانوا يبقون على مسافةٍ آمنةٍ منهما).
وفجأة، أخبر "سنان" "باجيكا" أن عليه الآن أن يعترف أنه تلقى أوامر من السلطان. وبينما هو في بلجراد، فإن مهمته تقتصر على اختيار مكان مناسب لتشييد مسجد "البادشاه"، وأنه انطلق إلى صربيا من خلال "صوفيا" لهذا السبب، وأن "محمد" اقترح أن يذهبا معًا في هذه الرحلة قبل أن يخبره "سنان" بخططه، وأنه سمح له بأن يكتب خطابًا للحاكم ليبرر مغادرتهما إلى بلجراد، حتى يسليا نفسيهما! ثم أكمل قائلًا:
- ليس أمامنا العديد من الخيارات لبناء أهم مسجد هنا. هناك أماكن معينة حيث يمكن بناؤه، وبالطبع يجب أن يكون المسجد في أكثر الأماكن أهمية وفي أكثر المواقع تميزًا، وإذا كان ممكنًا، يجب أيضًا أن يكون أغلى وأكبر مبنى في المدينة. لا يمكن أن يضاهيه شيء. يجب ألا يوجد أي مجال للمنافسة. ومن ثَمَّ، سأجد حلًّا بسرعة وبسهولة. والنقطة الثانية بعد ذلك هي أن أرسم خطةً وتصميمًا لبنائه. لن أفعل هذا في حين أنا هنا.
ظل "باجيكا" صامتًا، حتى في اللحظات التي توقف فيها "سنان" عن الكلام. كان من الواضح أن "جوزيف" قال كل هذا كمقدمة لخطَّة أخرى. أيعقل أن يكون ما سيأتي هو الأكثر أهمية؟
أكمل "سنان" قائلًا:
- أعتقد أن هذه فرصة رائعة لأتعرَّف هذه المدينة بشكل أفضل، فعلى الرغم من أننا أتينا إليها عدة مراتٍ من قبل، فإنه من الواضح أننا لم نأتِ كثيرًا بما يكفي. وفي حين أنه لا شيء آخر يشغل عقولنا،

وفي حين أننا في الوقت نفسه لدينا مبرر القدوم امتثالاً لأوامر السلطان العليا، يمكننا أيضًا أن نجهز خططنا..

والآن انتظر "سنان" ليرى رد فعل "باجيكا" الذي قال:

- ما هي خططنا التي تتحدث عنها؟ ألديَّ خطط أنت ستخبرني بها؟

فأجابه "سنان":

- في الحقيقة، نعم. أقصد، إنها بالطبع خططك، ولكنك لم تفصح عنها بعد. أنت تريد تحقيقها، ولكنك لست متأكدًا ما إذا كان الوقت مناسبًا لتفكر بها أم لا. أنت حذر، هذه هي الطريقة التي يصفك بها معظم الناس الذين يعرفونك. قد تكون أيضًا حَذِرًا للغاية. لذلك سيكون من الأسهل أن أخبرك أنا بها.

وقد فعل. قد قال:

- أنت مرتبط ببلجراد وصربيا بالعديد من الطرق. ليس فقط لأنك من البوسنة أساسًا. أنت تريد أن تقدم شيئًا لهذه المدينة وشعبها. إنك تود أن تقدم الكثير للصرب في الحقيقة، ولكننا لا نتحدث عن هذا الآن، وليس لي شأنٌ بهذا. الشيء الذي لي شأنٌ به هو الآتي؛ التجول حول المدينة وضواحيها عدة أيام، حتى نرى كل شيء، ونحفظ ما نراه في ذاكرتنا، وندون الملاحظات، والرسومات، وأنت عليك أن تعرف أفضل وأجمل ما يمكنك أن تقدمه لهم وأين. وهديتي لك ستكون أن أحول أحلامك من كونها مجرد أماني إلى حقيقة، بالطبع تلك الأحلام التي أستطيع تحقيقها. ها أنتذا، قد نلت تقريبًا مبتغاك.

لم يستطع "باجيكا" التقاط أنفاسه. لقد منحه "جوزيف" أحلامه. عجبًا لصداقتهما هذه، هل ما زال بإمكانها أن تصبح أعمق؟ ما يعرضه عليه "جوزيف" يعني سنوات من العمل الشاق وبذل المجهود. وهو يعرض عليه هذا وهو "سنان" الذي بنى أعدادًا لا تُحصى من المساجد، والجسور، والمستشفيات، والمدارس، والحانات، والإصطبلات، والحمامات، والأسواق، والاستراحات، والمدافن، والعوامات. وهو نفسه "سنان" الذي يبني للحاكم المساجد الضخمة التي هي أكبر من أكبر المساجد في "القسطنطينية" (دون أن نأخذ بعين الاعتبار "آيا صوفيا" المسيحي) والعشرات من المباني حولها؛ مجمعًا بأكمله.

استمر "سنان" بعد ذلك في الحديث، وكأنه يقرأ أفكار "باجيكا"، فقال:

- لقد أمرني السلطان بالعديد من الأشياء بالطبع، ويمكنني أن أرى أنه يستعد للمزيد. وقد بدأ بالفعل يسألني عن إمدادات المياه للعاصمة، وعن قنوات المياه الرومانية، وعن قصر "طوب قابي"، وغيرها من العديد من الأشياء. ومع ذلك، حتى لو لم أذكر لك الأشياء الكثيرة التي أقوم بفعلها، فهذا لا يعني أنه يتحتَّم عليَّ الوجود شخصيًّا في كل موقع، ولا يتحتم عليَّ البقاء هناك طوال الوقت. أعرف تحديدًا أين يجب أن أكون. وعلى أي حال، سيستغرق الأمر بعض الوقت حتى تصبح ثريًّا. فقط حينها، ستتمكن، وبكل حذر وحرص كما هي عادتك، أن تطلب مني أن أبني لك ما تحلم به. إنني فقط أمنحك وقتًا كي تفكر فيما تريد.

وأخيرًا استطاع "باجيكا" الكلام، فقال:

- حسنًا، لقد توقعتَ حتى سبب تفاجُئي! أنك تسمح لي بالبقاء صامتًا وتتحدث أنت (بدلًا مني؟)، حتى تسمح لي أن أخفي حماسي، ولو حتى قليلًا، حتى أخفف من شعوري بعدم الارتياح. ليست هناك أي طريقة بالطبع أستطيع أن أعبر بها عن شكري لك. الشيء الوحيد الذي أستطيع فعله هو أن أكون صريحًا معك كما أنت معي، وأن أريك على الأقل شيئًا ما من هذه المدينة وأهلها. فعلى كل حال، إنني

أعرفَ بعضًا من أسرارها، ثم إن العديد من الناس هنا يشعرون بالامتنان لي للأشياء الجيدة التي قدمتُها للمدينة من تجديد، ومهارة، وتغيير، وإنعاش حركة التجارة بأنواعها.
فردَّ عليه "سنان" قائلًا:
- ها أنتذا، لديك بالفعل ما تعطيه بالمقابل، ثم إنك أخيرًا تعترف أنك قد فعلتَ شيئًا جيدًا. إنك لا تملك فقط حقًّا في أن تعرف هذه الحقيقة، بل لديك مسؤولية تجاهها أيضًا. وقد يكون عرضي هذا نابعًا من شعوري بالحرية، لأنني أعلم أن العديد مدينون لي لأعمالي، ومن ثَمَّ لديَّ حق في اللحظات التي أفقد فيها تواضعي أن أصنع شيئًا جيدًا للآخرين، ولكن باختياري.
وقد كان هذا صحيحًا. وببناء مسجد السلطان الذي كان قائمًا بشموخ على "القرن الذهبي"، والذي بُني هناك وفقًا لأوامره، نال "خوجة سنان" ثقة السلطان الكاملة، ومن ثَمَّ نال ثناءً على كل ما بناه حتى تلك اللحظة. وقد كان هذا هو مصدر حريته في عرض فكرته لشخصٍ قريب منه جدًّا. وبهذه الطريقة، نجح أيضًا في إشباع حاجته إلى أن يتخذ قرارًا مستقلًا، وفي الوقت نفسه تكون له علاقة بالمعرفة التي لديه في حرفته.
ومن منطلق إحساسهما المتبادل بالواجب، تجولا في مركز المدينة أولًا. المساحة التي كانت تحتله كانت كبيرة بشكلٍ استثنائي، وقد كان بها العديد من المواقع الاستثنائية المناسبة لبناء مسجد "البادشاه"/ السلطان. الموقع الطبيعي لبقعةٍ مرتفعةٍ بشكل فريد فوق نقطة التقاء نهر "سافا" بنهر "الدانوب" كانت ملائمة لدرجة أن أي مبنى سيشيَّد بهذا المكان يمكن رؤيته من على بعد أميال من الأربعة اتجاهات إذا كان الطقس جيدًا والهواء صافيًا. لم يرَ "سنان" منطقةً مثلها في أي مكان آخر، أي شيء سيُبنى فيها سيصبح عَلَمًا وأثرًا. وقد كان على حق في ألا يصيبه القلق.
وجد "محمد" نفسَه ينظر إلى هذه البقعة بعين الجندي. القلعة في هذا الجزء من المدينة ستبدو لأي فرد كما لو كانت لا تُقهر (على الرغم من أنه تم الاستيلاء عليها أكثر من مرة). ولكن بالعديد من التحسينات، من الممكن أن تصبح قلعة لا يمكن غزوها أو قهرها. هذا المكان المميز بشكل ملحوظ كان سيمثل تحديًا لأي قائد عسكري. وبالطبع كان هذا هو السبب وراء الهجمات المتكررة للحصن، لقد كان لا يُقاوم. وأصبح الأمر كما لو كان فتحه والاستيلاء عليه مسألة تشريف وتكريم. منذ قديم الأزل في بلجراد، كان الادِّعاء غير المنطقي بأن الأشياء، التي يبدو أن أقل شيء واقعية هو الحصول عليها أو جعلها تحدث، تحفز الشجاعة داخل الناس ليحاولوا بجهدٍ أكبر لتحقيقها، أي لتحقيق المستحيل.
وأراد أيضًا أن يسأل "جوزيف" ليعرف ما إن قابلته مثل هذه التحديات وهو يستعد لبناء شيء ما، فقال:
- إنني على علم بالخطط التي أعدَدْتَها للمدينة الصغيرة الموجودة حول المسجد المستقبلي للسلطان في إسطنبول. فقد قمتَ ببناء مدرسة لتعليم الطب والعلاج من ضمن أشياءٍ أخرى قمتَ بالتخطيط لها. كما أنك بدأتَ في بناء مشفى. وسوف تحيط المسجد بمدرستين أخريين واستراحة. وعلى الأرجح أنك بنيتَ ضريحًا أيضًا. هل تؤجل بناء المسجد للنهاية، حتى تجعل التحدي أكبر بالنسبة لك، أم لأنك خائف من التحدي القائم أمامك؟
وقد فاجأ هذا "سنان"، فقال:
- حسنًا، هذا سؤال صعب. كل ما قلتَه حقيقي، ولكنَّ هناك شيئًا عمليًّا بخصوص الإجابة: هذا هو أعظم وأصعب عمل قمتُ به، وليس لي فقط، فحتى الآن، لم يخضع أحد في الإمبراطورية العثمانية

لمثل هذه المخاطرة العظيمة والتحدي الصعب. إذا حدث أي خطأ بأي شيء، فليس لديَّ شك في أن رأسي سوف تسقط من على كتفي في الحال؛ أي ستُقْطع رأسي على الفور. ومع هذا، رغبتي في بنائه جامحة وشديدة جدًّا، لدرجة أنني لستُ خائفًا. بناء كل شيء حول المسجد يُكسِبني المزيد من الوقت للعديد من الاحتمالات الأخرى، ولأصلح الأخطاء الفنية الموجودة في المخططات، ولأن أنظم العمل بشكلٍ أفضل، ولأن أستدعي أفضل الحرفيين والمواد الخام. هل تتصور شكل العمل الذي يتحتم عليك فيه التوفيق وإحداث تناغم بين خمسة آلاف شخص ليقوموا بالبناء، وأن تجعلهم جميعًا وتجعل كل شيء يعمل معًا وفي آنٍ واحد، حتى تؤدي كل مرحلة من العمل للمرحلة التالية وفقًا للتخطيطات ودون توقف؟ على الجميع العمل دون توقف، ودون ارتكاب أي خطأ، ودون كللٍ أو ملل، ودون أن ينفد المال؛ والأهم في تناغم ونظام. ولا سبيل أمامي لأتعلم كيف أتفادى الأخطاء سوى بالتدرب على كل تلك الأشياء التي قمتُ ببنائها بالفعل. أجل، سيظل "آيا صوفيا" نموذجًا أمامي، ولكن ليس لديَّ المهندس الذي قام بتصميمه وبنائه بجانبي، حتى أستطيع أن أسأله في أي وقت كيف أصمم وأنفذ الأشياء التي لم أفعلها من قبل. ومن ثَمَّ يصبح حلمًا أن أنفذ بناءً أفضل منه أصعب؛ كشيء غير مسموح به. الشيء الوحيد الذي أستطيع فعله هو التحلي بالإيمان. فما زال الكثير من التفاصيل في الهندسة لا يمكن اكتسابها سوى بالممارسة. عليك أن تمزج الخيال والفن بالحسابات والأرقام والدقة. وهذا يحميك من البداية من أن تصاب بالذعر خشية أن تفشل. فمثلًا للعمل على مسجد "السليمانية" (كما نسميه بين بعضنا بعضًا) اتخذت ثلاثة آلاف ونصف عامل مسيحي، وألفًا ونصف ألف عامل مسلم. لديَّ ثقة أكبر في العمال المسيحيين. قلتُ للسلطان إنهم عبيد نوعًا ما، ولذلك ستكون تكلفتهم أقل. ولكن في الحقيقة إن السبب هو أن عملهم سيكون أفضل. ويجب أن تعرف أن معظمهم من الصرب، ولكنهم الجيل الثاني لأولئك الذين تم إحضارهم إلى إسطنبول لبناء شبكات المياه بعد سقوط بلجراد. ولما كانوا قد قاموا بعمل جيد في ذلك الحين، حصلوا على إذن من السلطان لتسمية المنطقة التي يعيشون بها "غابة بلجراد". وأنا كلَّفتُ أبناءهم، لأنهم سينفذون العمل بشكل أفضل من أي شخص آخر.

تذكر "باجيكا" الشيء الذي كان يريد أن يقوله أو يطلبه من "سنان" عندما كانوا في بيت مضيفيهم، فقال:

- "آيا صوفيا" هو نموذج يُحتذى به للمهندسين. لقد ذكرت هذا بالفعل لِتَوِّك، وقد خطر على بالي عندما كنا نتحدث مع "فرحات باشا" عن دور العبادة التي لم تكن من الأساس مساجد. ولكن، ألم يكن هذا المسجد من بين كل المساجد، وأفضل نموذج على الإطلاق، كنيسة بيزنطية أيضًا؟ ظل الناس مدة خمسمائة عام يصلون للمسيح هناك، وفي المائة العام الأخيرة، كانوا ينحنون لله به. الجميع يعلم ذلك، ولكنهم يظنون أنه من الطبيعي أن يصبح هذا البناء المسيحي (الجذاب جدًّا في حجمه وجماله وأهميته) النموذج الذي يرنو إليه كل المعماريين المسلمين منذ سقوط "القسطنطينية".

أجابه "جوزيف" بشكل حاذق، فقال:

- ربما لأن هذا النموذج يظل صعب المنال؟! ربما لأنه من الصعب بناء مثله؟! لماذا يفعل السلاطين ما يشاؤون؟ لأنه لا يستطيع أحد اللحاق بركبهم أو مضاهاتهم، لا يمكن لأحد أن يصل إليهم أو أن يُعلِّمهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

26

الميل إلى العودة إلى الأصول أو جذور الإنسان هو شيء مُحَيِّر. وأنا أرى ذلك بمرور الوقت، أرى أن هذا الميل ينمو بداخلي. ماذا أريد أن أقول؟ إنني أنجذب بشكل رهيب إلى أوجه الشبه التي تتحول إلى مصادفات في مواقف متعددة ليست بينها أي صلةٍ واضحة ولا أي رابط حقيقي. ولكنني لا أستطيع المقاومة عندما تسنح الفرصة لربطها ببعضها. أدرك طوال الوقت أن هذا ربما يكون مجرد تأصيل (كما فعل المهندس "سنان" مثلًا) للجانب الذي يناَسبني، ولكني دائمًا أميل في اللعبة إلى الجانب الذي يجلب في النهاية - وإن كان لي فقط - اكتشافات رائعة.

ولحسن الحظ، لستُ الشخص الوحيد الذي يفعل ذلك.

مثال؟ في الأيام الأولى من يناير عام 2008، اتجهتُ إلى النمسا مع كومة من الكتب والأوراق التي كان من المفترض أن تساعدني في محاولاتي لإنهاء كتابة شيء ما، كان من المتوقع أن يصبح رواية. لماذا وافقت أن أفعل هذا؟ وقد خططتُ في ذلك الوقت بأي كتاب من كتبي الثلاثة سأبدأ بتأليفه أولًا (وقررتُ ذلك عندما وجدتُ نفسي جالسًا حرفيًّا فوق أساسات الاستراحة التي بناها "محمد باشا"، فبدأتُ بهذا الكتاب)، ربَطت التفاصيل والصور بعضها ببعض. في بعض الأحيان، تقوم الحقائق بإثبات نفسها بفعل أشياء خاصة بها، وأحيانًا يحدث لي أن أجعلها تبدو حقيقةً بهذا الشكل بالطريقة التي أعرضها بها. إذن، كنتُ قد قضيتُ نصف عام كامل قبل مغادرتي، عندما رفضتُ العديد من المنح الجذابة، وقبلتُ تلك التي أتحدث عنها، لأنني اكتشفتُ الآتي: يقع المكان الذي دُعيتُ إليه واسمه "كريمز" على بعد خمسين ميلًا شمال غرب فيينا، وعلى ضفة نهر "الدانوب". مثل "نوفي ساد"، وهي المدينة التي أرتبط بها بعدة طرق، والتي تقع على بعد خمسين ميلًا شمال غرب بلجراد، وعلى ضفة نهر "الدانوب" أيضًا. (من بين العديد من الأمور الأخرى التي حدثت على الدرجة نفسها من المصادفة، مثل التقاء "القرن الذهبي" وبلجراد، وقصر "طوب قابي" وحصن "كاليميجدان"). يوجد هنا أكثر من مجرد تداخل الموقع الجغرافي والتشابه في المسافات. وبإمكاني إعطاء العديد من الأسماء للأسباب التي تكمن وراء قراري قبول هذه المنحة، ولكنني سأختار الآتي: اللاعقلانية. وماذا يمكن أن يكون المبرر عندما يرفض الكاتب جميع الظروف والمواقف الأخرى - والتي هي أفضل بشكل ملحوظ - من أجل تقبل شيء لا يمكن الدفاع عنه منطقيًّا؟

قبل مغادرتي بالضبط، وردتني مجلة سويسرية مطبوعة في ثلاث نسخ منفصلة بثلاث لغات، وهي منفصلة لكي تتمكن من ربطها ببعضها (الألمانية والفرنسية والإنجليزية). كان بها أحد نصوصي، ولكنها أيضًا احتوت على نص بقلم الكاتب البلغاري "أليك بوبوف"، مستوحى من المكان نفسه الذي كنت متجهًا إليه "كريمز".

ثم بعد ذلك، ركبتُ في السيارة وانطلقت. وبالمصادفة، توقفتُ في "نوفي ساد". ولا، لم أفعل أي شيء جنوني مثل أن أكون قد أقمتُ هناك قائلًا لنفسي: "هذه هي كريمز". سرتُ على طول الطريق الذي سار فيه أبطال كتابي، سرتُ عبر سهل "بانونيا" المَجَري الصربي، ومنها إلى "بودا" و"بيست"، ثم إلى فيينا. هذه المرة، لم أستولِ على فيينا، بل عبرتُ خلال أسوارها الخيالية وتبعتُ نهر "الدانوب" وصولًا إلى "كريمز". في الشقة التي كنتُ مقيمًا بها، كنتُ أرى نهر "الدانوب" من النافذة. الإطلالة.. كانت كما لو كنتُ بموطني.

لقد بدا كل هذا كتكرار للنمط نفسه.
أمَّا عن الاختراق العثماني لأوروبا، فما هو إلا تكرار مساوٍ لأفعالهم هم أنفسهم: تبدأ الحملة في الربيع، تمامًا كما حدث في المرة التي سبقتها، مرورًا بالطريق الطويل مرةً أخرى، وبعد ذلك حصار المدن المحصنة المنيعة في الربيع والصيف، والذي يدوم مدة الحصارات السابقة نفسها، ثم المعركة مع الشتاء القادم، والعودة الناجحة أو الفاشلة إلى نقطة البداية.. أو في أفضل سيناريو، العودة إلى بلجراد في الشتاء. وبعد ذلك، يعود كل شيء للبدء مرة أخرى.
تربط قضايا وأمور الدولة العثمانية الأشياء التي لا يمكن أن تجتمع أو ترتبط ببعضها بعضًا، أليس كذلك؟ مَن يمكنه ممن يملكون عقولًا مستنيرة ذات فكرٍ سليم أن يفكر في ربط إسطنبول وفيينا بجعلهما في دولةٍ أو إمبراطوريةٍ واحدة؟ حسنًا، يبدو أن مِثل أولئك الناس موجودون بالفعل، ثم إنهم كانوا مُصرِّين بالفعل على تحقيق ذلك. لقد آمنوا بشيءٍ معين داخل هذه الفكرة. فإنني لا أعتقد أنهم حاولوا خلق هذه الصلة من خلال الحرب فقط لكي يستولوا عليها وينهبوها ويدمروها. فما النفع الذي سيعود عليهم إن أُزيلت فيينا من الوجود؟ حسنًا، لقد دمروا بلجراد أيضًا، ولكنهم بعد ذلك جددوها وأنعشوها. ومن بين آخرين، فعلوا تمامًا كما فعل النمساويون والمجريون. في هذا الشأن بالذات، فعلوا ما فعله كل شخص آخر.
وأنا "أبرِّر" ربط هذه الأحداث والأشياء التي لا يمكن وجود صلة أو رابط بينها، سواء ما يخصني أو ما يخص الأتراك؛ والأمثلة على ذلك لا تحصى. العديد منها غير واضح، وخصوصًا إذا كان الناس متواضعين ولا يفتخرون بما صنعوا أو يتحدثون عنه..
أذكر مثالًا رائعًا لرجلٍ استثنائي يُدْعى "فلاديمير ديفيد". كان بروفيسور في علم الرياضيات بجامعة "زغرب"، وقد كان خبيرًا فريدًا ومميزًا في هذا التخصص، ولكنه كان من أولئك الذين لديهم حظ غير اعتيادي في أن يشتهروا عالميًّا لشيءٍ مختلف تمامًا. حتى يمكن أن نقول إنه على النقيض من تخصصه. لقد كرَّس جزءًا من حياته لكتابة شعر "الهايكو" الياباني التقليدي. ولنكون واضحين، لم يفعل ذلك لأنه كان مُضَارًّا من الرياضيات (أو كما نقول لأنه لا يحب "وظيفته الأساسية")، بل إنه بصفته دارسًا هاويًا لليابان، شعر بوجوده في هذا الشكل من شعر القرون الوسطى، وبعد أن عرفه ومارسه بنفسه، لم يتخلَّ عنه بعد ذلك. أي شخص في مثل هذا الموقف سيبدأ بالطبع بالتعجب من الأمر: حسنًا، هل هناك أي صلة بين الرياضيات والشعر؟ وبالطبع لن يصل إلى الإجابات على الفور.
ولأكون منصفًا، في شعر "الهايكو" هناك لعبة صغيرة من الأعداد والحسابات: يتألف شعر "الهايكو" من ثلاثة سطور مكونة من سبعة عشر مقطعًا. يحتوي السطر الأول على خمسة مقاطع، والثاني على سبعة، والثالث على خمسة. يمكن في اللغة اليابانية تقطيع الكلمة بكل سهولة ووضوح، ويمكن للصربية وبعض اللغات الأخرى أيضًا أن تفعل ذلك. ولكن بعض اللغات تفعل هذا بصعوبة، وفي بعضها الآخر يستحيل تقريبًا فعل ذلك. يُعدُّ هذا النوع من الشعر في غاية الأهمية لليابانيين، لأنه بقواعده الصارمة التي لا يمكن تغييرها أو تجاهلها، قد نبع أصيلًا من هذه اللغة، وللتوصل إلى قمة التمكن من كتابة هذا اللون الشعري، يجب احترام واتباع عدد المقاطع وطريقة نظمها كما هي القاعدة دون أي استثناء. ومع هذا، كل هذا ليس كافيًا بالتأكيد للتدخل الجاد للرياضيات به، لأن هذا السبب يجعل الأمر كله مقتصرًا على عملية الجمع (مثل الحصول على الدرجات المنخفضة في المدرسة الابتدائية).

تحفز البروفيسور "ديفيد" بشكل ما إلى أن يبرر كتابته شعر "الهايكو" بوصفه هاويًا ليست لديه دبلومة في تخصص ما، ولم يكن خجولًا من هذه الكلمة؛ لقد كان دائمًا يستخدمها في الإشارةِ إلى نفسه. وقد كان استخدامه هذه الكلمة للإشارة إلى نفسه عبثيًّا، لأنه لم يكن هناك في السبعينيات في دولة يوغوسلافيا الشاسعة أي شخص يضاهيه في معرفته، سواء معرفته النظرية بهذا اللون الشعري، أو في معرفته العملية بكتابته له. وسوف نرى لاحقًا أنه لم يكن في العالم كله غير عدد قليل جدًّا ممن لديهم هذه المعرفة والخبرة بشعر "الهايكو" في ذلك الوقت. ولحسن الحظ، لقد عملتُ معه مدة طويلة في تلك الفترة، ولذلك كنتُ شاهدًا عن كثب على عبثية محاولة إثبات الذات المتكلفة هذه للآخرين. ولكن بسبب عائلته وبعض الظروف الأخرى الخاصة بنشأته، بدأ في نشر بعض النصوص حول العلاقة بين شعر "الهايكو" والرياضيات، حتى يقنع غير المؤمنين به بأنه عمل على كتابة هذا الشعر بمرور الوقت لأغراض جادَّة عميقة. فما الذي حدث؟ لأن النصوص كانت "جادَّة بحق" (بعيدًا عن أن هذه الفكرة في الأساس بدأت كمزحةٍ معقدة عند "الزن")، بدأ المشككون في الاعتراض على وجود علاقة بين الشعر والرياضيات. ولم يهتموا إذا أثبتت النصوص بالفعل وجود صلة، تم أخذها (أعني الأدلة) على أنها مسلمات، ولكن بالنسبة لهم لم يكن من الممكن وجود أي صلة. أريد أن أقول إنه كان هناك دليل على وجود هذه الصلة، ولكن لم تكن هناك صلة. لكن "فلاديمير ديفيد" لم يدخل في أي نوع من الجدل حول هذا مع أي شخص، وعوضًا عن ذلك، قام بتأليف العديد من الكتب عن هذا الشعر، وعن اليابان، وعن الثقافة، وعن الرياضيات. وقد حصل في اليابان على أهم الجوائز في العديد من المسابقات الدولية في شعر "الهايكو"، أي إنه حصل حتى على أهم جائزة موجودة في العالم لهذا اللون الشعري، ومن ثَمَّ هو أفضل شاعر "هايكو" من بين - دعنا نقول - ما يقرب من عشرين ألف شاعر، وشعره هو الأفضل من بين ما يقارب الخمسين ألف قصيدة. فضلًا عن التقدير والجوائز التي حصل عليها من الحكومة اليابانية.

كانت مجلة "هايكو" (التي حرَّرتُها بكل تفانٍ بفضل عصا التدريس السحرية لـ"الزن" الخاصة به، ودون مالٍ كافٍ، وعلى ورق ذي جودةٍ رديئة تم تجهيزه على آلة كاتبة، وطُبِع بتكنولوجيا العصور المتوسطة "مما يعني أنه هاوٍ") هي أول فخر حقيقي ليوغوسلافيا، وأصبحت واحدة من أفضل المجلات في العالم. حتى إنه كان هناك شعار شهير:

"وأخيرًا اعتبر العالم دولتنا قوة عظمى في شيءٍ ما" يوغوسلافيا - قوة "هايكو" Haiku power.

هذا يبدو جيدًا.

ويبدو أنه كل هذا بفضل العلاقة الموجودة بين الشعر والرياضيات، بفضل ربط ما لا يمكنه ربطه ببعض.

ولكن لسوء الحظ، الدولة ليست كالولاية. أولئك المتشككون - كشك القديس توماس في قيامة المسيح من القبر - على الأرجح سيتقبلون هذه الصلة بعينها بكل سعادة. وربما حتى سيقاتلون من أجلها إذا كان هذا ضروريًّا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل السادس والعشرون

فقط من إجابات "جوزيف"، اتضح لـ"باجيكا" كيف وبأي طريقة - بعيدًا عن امتلاكه موهبة فذة - استطاع "جوزيف" أن يصبح "خوجة معمار سنان" الناجح. واضح أن السبب في ذلك هو نجاحه في كل الوظائف التي أُسنِدَت إليه بصفته جنديًّا. ما الذي كان بهذه الأهمية؟ إن أكثر الخصائص أهمية - مرةً أخرى بعيدًا عن موهبته - هي أنه يعرف كيف ينظم العمل بشكل جيد. وأين عساه أن يكون تعلم ذلك إلا بصفته جنديًّا في الجيش العثماني، في الحملات جنبًا إلى جنب مع "باجيكا"؟ كانت هذه هي الطريقة التي ساهمت في نجاحه بهذا الشكل، ليس فقط لمجرد أنه غيَّر دينه، بل لأن "جوزيف" قد أصبح "سنان" بحق.

لقد تعلم التخطيط ليقلل نسبة المخاطرة، وتعلم أيضًا أن يخاطر ويجازف عندما يتطلب الأمر ويكون ذلك ضروريًّا، كما تعلم أن يُنْشِئ خطة وإستراتيجية، بناءً على توقُّع النتائج المحتملة، وأن ينصح الآخرين، وأن يشجعهم من خلال إعطائهم مثلًا جيدًا من نفسه ليحتذوا به، تعلَّم كيف يكتسب ثقة الآخرين، وبعد ذلك تعلم أن يطلب ويأمر، وأن يتَّبع الأوامر أيضًا، تعلم أن يتابع سير الأمر ويتفحصه، وتعلم كيف يعاقِب ويُكافِئ. تعلَّم أن يعرف مسبقًا ما النتائج الآتية، ومن أين، وما الذي ستأتي به الأيام، وماذا يعني ذلك، وأن يعرف ما هو النصر، وما هي الهزيمة. تعلَّم أيضًا أنه عندما يصل القائد العسكري إلى الولاية بكل تلك الأدوات في يده، حتى لا تصبح هناك أي مفاجآت في انتظارهم، حينها يمكن أن يُقال إن لحم أكتاف أتباعه من خيره. وإذا تحتم الأمر، فإنهم مستعدون للموت من أجله (وليس فقط لمجرد الموت في سبيل الهدف الأساسي).

الآن "سنان" يُعدُّ قائدًا على رأس جيش، حيث يشبه فيه كل شيء الجيش الحقيقي باستثناء.. الموت. إذا وُجِد الموت بين قواته، فإن الأرواح ترتقي لتقابل خالقها بسبب المرض، وأحيانًا بسبب الحوادث، ولكن من بين كل الذين يغادرون الحياة.. لم يُقْتَل أحد.

ولما كانت هذه الأفكار قد أراحته، تمكن "باجيكا" الآن من التركيز على جولتهما حول أطراف المدينة. وقد قام بهذا جزئيًّا من باب إحساسه بالواجب، لأن كليهما كان يعلم الأشياء المهمة بخصوص هاتين المنطقتين في بلجراد من زياراتهما السابقة. كان الجزء الخاص بأطراف المدينة هو الأكثر جاذبية لـ"باجيكا" (ليس أقل من "جوزيف")، لأنه كان ينتمي حصرًا إلى الجزء الذي يطل على نهر "الدانوب" من المدينة، والذي يُدْعى "دورتشول". وشعر "باجيكا" أنه يريد أن يكون دليل "جوزيف" ومضيفه هنا. شعر وكأن "دورتشول" تنتمي إليه.

الأصوات هي أول ما يجذب انتباه أي شخص. يمكن سماع التمتمة والاضطراب الآتيين من "دورتشول" في مناطق أخرى من المدينة. ومن هذا يمكن استنتاج أنه من المستحيل أن يكون العيش في مثل هذا المكان مملًا. ثم يأتي الانتقال بين "دورتشول" العليا والدنيا، أو حتى يمكن تسميتهما الحي الأساسي منها، والحي الذي يقع في الأطراف (يستخدم السكان هذه التقسيمات، ليقولوا إن هذا الجزء من المدينة في الحقيقة منفصل عن المناطق الأخرى في المدينة، ولكن ليس ليقولوا بأن هناك مناطق أفضل وأكثر قيمة من الأخرى). هذه "المناطق المنفصلة" كانت منفصلة أو متصلة بالحي الطويل. يعبِّر اسم هذا الحي عن كل شيء، فإن طول هذا الحي يبلغ ثلاثة آلاف قدم. يدعمه سوق السمك الذي يقع على الدلتا في "المدينة السُفلى"، وينتهي بداخل الحي، حيث يمكن للمرء أن يمشي

هذا الطريق حتى يصل إلى "القسطنطينية" حيث العاصمة العثمانية. ولما كان "الدانوب" يسير بمحاذاة هذه المنطقة (ليس فقط "المدينة السُفلى") فيجب أن تُسَمَّى هذه المنطقة باسمه: منطقة "الدانوب". كان مليئًا بورش الحرفيين، والأكشاك، وكل أنواع المتاجر، والمقاهي، والنوافير، والبسطات، ومتاجر الحلوى والشاي، والحمَّامات الصغيرة.
ومن ثَمَّ، فقط عندما انغمسوا في هذه الفوضى من البشر، والحيوانات، والشوارع الضيقة، والضوء، والظلام، حينها أدركوا ما الذي يُعطي هذه المدينة هذا الطابع المميز، وعرفوا ما الذي يخلق لها هذه الروح. على كل حال، إنه الشعب. الجميع يحيُّونهم هنا، ولكن ليس بطريقةٍ لافتة مثل التجار العرب، وليس لكي يعرضوا بضائعهم. إنهم يحيُّونهم بدافعٍ من الترحاب اللطيف الذي يكلله الاحترام، وقد لاحظ بعضهم "البكلربك"، ثم أشاروا إليه ليقدموه لجِيرانهم. كانوا يشيرون إليه على أنه "الرجل الذي أصبح تركيًّا"، أو على أنه "الرجل الذي يساعد الصرب". وباستماعه لهذا عدة مرات وهو في طريقه، كان "سوكولوفيتش" مأخوذًا بما سمع. ولكنه توقف وقال لنفسه: "نعم، هذا أنا. إنني كلا الرجلين. ومَنْ خِلتُ نفسي أكون؟".
لقد بدا له، بسبب تنوع واختلاف البشر الذين يعيشون بهذه المدينة، أنها نسخة من إسطنبول، أو من أي مدينة كبيرة أخرى في العالم. من ملابسهم واللغة التي يتحدثون بها، وبضائعهم وحديثهم وسلوكهم، يمكن ملاحظة أنه، بالإضافة إلى الصرب من أهل بلجراد، فإن بالمدينة أناسًا من مناطق أخرى: صرب من البوسنة، وكاثوليكيين وأرثوذوكس، ومسلمين وأتراك أيضًا، ويونانيين ويهود وأرمن، وبلغاريين، ومجريين، ورومانيين، وناس من "دوبروفنيك". كلهم كانوا سكانًا مقيمين إقامة دائمة في بلجراد. وفي أكشاكٍ ومتاجر مستأجرة منفصلة، رؤوا وسمعوا عربًا، وفُرسًا، وتتارًا، وأناسًا من كل الألوان واللغات من جميع أطراف الشرق المسلم، وكلهم قد وصلوا حديثًا. معظمهم أتى إلى بلجراد لأغراض معينة، وآخرون جاؤوا فقط للتجارة وهم في طريقهم إلى مكان آخر. وكما أطلق عليهم أحد التجار "أصبحت بلجراد في "روملي" في أوروبا مثل مِصر بالنسبة للعالم" ([49]).
وعندما ينحرفون قليلًا عن أحد المتاجر التي بجانبهم أو خلفهم، كانوا يرون جانبًا جميلًا آخر لهذا الحي؛ تقريبًا كل المنازل لها حدائق خاصة بها كروم. كان الحي كله ممتزجًا بحدائق المنازل الفاخرة، والتي تنبض بالحياة بألوانها الخضراء. هذه الخلفية جعلتهم يشعرون بالهدوء والارتياح، كما لو كانت كل قوى الطبيعة الموجودة فقط على بعد خطوات من فوضى السوق وضجيجه قد أزالت كل ما خلفته مئات الأصوات والخطوات من اضطرابات.
ومع هذا، يجب الاعتراف بأن الآن أصبحت بلجراد تملك أشياء أكثر بكثير من مجرد الصوت والحركة، بشكل لا يقارن مع سابق عهدها كما كانوا يرونها في زياراتهم السابقة. لقد أصبحت هذه المدينة بشكل ملحوظ في هذا الوقت مركزًا هامًّا وتقاطعًا لكثير من الطرق بفضل "محمد باشا سوكولوفيتش" جزئيًّا: في السياسة والمال والحملات والمعرفة.
وجد العثمانيون الأثرياء - مثل "محمد باشا يحيى باشيك" وهو "سنجاق بك" مدينة "سيميديريفو" وأخيه "بالي بِك"، وقد كان أول آغا من بلجراد، وهذا في عام 1521 (وكلاهما من أصول صربية) - أسبابًا لكي يتركوا علامة في بلجراد. ترك "محمد باشا يحيى باشيك" وراءه مساجد ومعاهد دينية ومدارس ونوافير. حتى إنه أيضًا شيَّد فندقًا أو استراحة تحولت إلى مطعم للفقراء؛ أي نزل. كانت تُعدُّ "ملكيةً لله" - أي وقف - لأن أي شخص بإمكانه النزول والإقامة بها مدة شهر كحد أقصى دون أن

يدفع مليمًا واحدًا، "ولكن فقط عليه أن يدعو لفاعل الخير الذي أنشأه". ولم تكن هذه هي الاستراحة الوحيدة من هذا النوع. هنا، توجد أيضًا استراحة السلطان "سليمان القانوني" كما يلقبونه في تركيا والملقب بـ"العظيم" في أوروبا (في "المدينة السُفلى" بجانب نهر "سافا"، كما يوجد أيضًا حمَّامه الإمبراطوري (على ضفة نهر "الدانوب")، ولكن أيضًا يوجد القصر والحمَّام اللذان أنشأهما الصدر الأعظم "بيري محمد باشا" عندما استولى السلطان على بلجراد، وهما بالقرب من مسجد "فرحات باشا".

بدت "دورتشول" كما لو كانت الجزء الأكثر كثافة من حيث السكان بسبب الضجيج والزحام. حاول "باجيكا" مدفوعًا بفضوله أن يتخيلها من دون كل هؤلاء البشر. ثم بعد ذلك، وصل إليهم مقترح سيساعدهم بالفعل على رؤيتها بهذا الشكل. وصَّل إليهم شاب متدرب، قدَّم نفسه على أنه عامل لدى الدوق "راديشي دميتروفيتش"، دعوة يدعوهم بها لزيارته ذلك المساء بالعنوان الذي أعطاهما إياه. استقبله "باجيكا" بلطف، وبعث برسالة إليه مع هذا الشاب بأنه سيأتي.

وفجأة، وكما لو كان استيقظ من حلم ما، توقف "جوزيف" عن رسم مناطق المدينة المختلفة وسأل بمفاجأة:

- كيف لك أن تقبل دعوة من صربي بهذه السرعة والانفتاح، ودون أن يرمش لك جفن؟

فقال "محمد":

- أنت تعرف أنه ليس مواطنًا عاديًّا. إنه دوق صربي. ولكن يبدو أنك لم تسمع بوضوح أنني، بصفتي "بكلربك"، وبناءً على أوامر من السلطان، قد قمتُ بتكليف بعض الدوقات المحليين في المدن الصربية ليشاركوني في القيام ببعض الواجبات، أو يمكنك أن تقول في السلطة جنبًا إلى جنب مع الآغوات المحليين. وهذا الدوق هو أحدهم. وهناك شيء آخر؛ إنني أتفهم قلقك، ولكن حتى لو لم يكن هذا هو الحال، فلن أفكر كثيرًا قبل أن أوافق على مقابلة صربي. فكوني أقابلهم علنًا، لأن هذا يعني أنه ليس على الصدر الأعظم أن يقلق بخصوص أيِ شيء.

وفي الموعد المحدد، وصلا إلى العنوان الذي أُعْطِي لهما. لم تكن "دورتشول" نائمة بعد، لكنها كانت هادئة. كل المناطق تهدأ وتستريح باستثناء اثنين من المقاهي التي تصبح بشكل شبه سري خمَّارة في المساء تصدر منها أصوات خافتة مختلفة عن الموجودة بالنهار.

وبكل تواضع، رحب بهما مضيفهما ولكنه كان يتصرف بشكل رسمي نوعًا ما. وطلب منهما ألا يأخذا استضافته لهما على الطريقة الصربية كإهانة وأنه لهما مطلق الحرية في أن يرفضا هذا إن أرادا. ولكنه وجدهما لا يتصرفان بشكل رسمي، وخصوصًا لأنه يريد أن يريهما شيئًا سوف ينصحانه لاحقًا بأن هذا يجب أن يكون علانية.

والآن، حان دور "باجيكا" ليخبر "سنان" بخططه السابقة. فعندما استأذن الدوق "دميتروفيتش" لكي يذهب ويسمح للشخص الذي يريدهما أن يقابلاه بالدخول، اعترف "باجيكا" لـ"جوزيف" قائلًا:

- لقد كنت أراسل هذا الدوق رسميًّا وأحيانًا بشكل غير رسمي. هذا اللقاء مدبَّر منذ مدة، ولكننا كنا ننتظر إلى أن تأتي مناسبة، بحيث لا يتوقف الأمر على كلينا فقط.

نظر إليه "جوزيف" رافعًا حاجبه متعجبًا، ولم ينطق بأي شيء. الآن أصبحا متعادلين.

عاد الدوق بصحبة رجلين آخرين. الأول شاب في زي لورد إقطاعي من "دوبروفنيك"، والثاني كان يتقدمه سنًّا نوعًا ما، مختبئًا داخل لحيةٍ طويلة ويرتدي زيًّا كراهب أرثوذكسي. قدم مضيفهما الشاب

على أنه "تروجان جوندوليتش" من "دوبروفنيك" سليل عائلة "جوندول" الشهيرة من "لوكا"، والآخر على أنه الراهب "مارداريجي" من "مركشينا كركفا" بالقرب من "كوجيريش".
بدأ "دميتروفيتش" قائلًا:
- والآن، لماذا اجتمعنا كلنا هنا؟ لقد تولى "جوندوليتش" دار طباعة كنتُ قد اشتريتُها منذ مدة. لقد نجح في هذا ليس لأنه كان حرفيًّا خبيرًا، بل لأنه بدأ يستغل مهارات التاجر ببراعة في هذا العمل. ويمكن لهذا أن يكون عملًا جيدًا لم يعتقد أحد يومًا ما أنه كان ممكنًا. ومع هذا، ففي السنوات القليلة الماضية، بدأ هو وشقيقه في الوطن "ديميتروفيتش" (كما ترى، يوجد حرف زيادة بعد الحرف الأول من لقبه، وهذا يعني أننا لسنا أقارب)، المهم، لقد بدآ في استيراد كتب ذات غلاف جلدي من "أنقونة". هنا، وفي آخر طلبية، استورد مائتي كتاب، كلها من الجلد، وكلها باللغة الصربية، وقد تمت طباعتها في دولةٍ أجنبية، لقد باعوا كل النسخ.
توقف الدوق ثم نظر إلى الباشا كما لو كان يطلب إذنًا ليستكمل الحديث. لاحظ "جوزيف" هذا وبدأ يبتسم.
أكمل الدوق "دميتروفيتش" قائلًا:
- وبعد ذلك، في أحد الأيام، ولأنه يعرف طبيعة عملنا هذا، سأل "محمد باشا"، أو في الواقع لقد اقترح: "لماذا لا نطبع كتُبنا الصربية بأنفسنا؟"، وفي الوقت نفسه، دعوتُ "جوندوليتش" الشاب، والراهب "مارداريجي" ليجهز لنا مثل هذا الكتاب. وبعد الكثير من العمل الجاد، صنع لنا أربعة أناجيل مستخدمًا في ذلك أناجيل "ماكاريجا" Makarija البلغارية السلافية التي تعود لعام 1512 نموذجًا ليصنع مثله. ولقد نسخه بمفرده، وصنع قوالب النسخ الخشبية والحروف أيضًا، وقام بطبع المائتي واثنتي عشرة صفحة كلها بنفسه.
إذن، ها نحن ذا، في الخامس عشر من أغسطس لعام 1552، لنحتفل بأول كتاب من بلجراد، أو بالأحرى، أول كتاب يخرج من دار طباعة في بلجراد.
ثم بعد ذلك، أحضر الدوق والراهب عدة نسخ من الكتاب الضخم المُغَلَّف بشكلٍ جميل، الأناجيل مطبوعة بحروف رائعة، ومكتوبة بخط اليد، لتعكس هذا الفن الجميل.
شكرهم "مارداريجي" على مباركتهم له والثناء على عمله فقال:
- أشكركم يا إخواني. أرجو أن تسمحا لي هذه المرة يا ضيفينا الكريمين، ومن بين الآخرين، أن أخاطبكما هكذا الآن. لا تأخذا هذا عليَّ. إنني راضٍ لكوننا نجحنا في أن نُرِيَ الناس أهمية الكلمة المكتوبة، فقد اشتركت اللغة الكنسية واللغة الأدبية في التنقيح الصربي للكنيسة السلافية القديمة. منذ أن اخترع "جوتنبرج" هذه الآلة عجيبة الشكل من نحو مائة عام تقريبًا، هناك العديد ممن يفتخر بامتلاكه الكثير من الكتب المطبوعة، ابتداءً بالبندقية و"سيتينجي" Cetinje ومن بعدهما "تيودوسيجي" Teodosije في دير "روجنو" الصربي بالقرب من "أوشيسي" منذ خمسة عشر عامًا، والآن نحن هنا في بلجراد. ليست لدينا مجموعة من حروف مصبوبة لترشدنا مثل تلك التي يمتلكها مَن هم أكثر ثراءً منا، ولكنَّ حروفنا الخشبية قد أغنتنا عن هذا، وساهمت في إخراج عمل جيد.
لقد أثَّرت هذه الكلمات في "باجيكا". كانت هذه لحظة مهمة للمعرفة ولنشر القراءة والكتابة ليس للفرقة بين الديانات واللغات. ولذلك لم يتردد في أن يُذَكِّر الموجودين بأنه هو نفسه قد تعلم هذه الأبجدية في بداية نشأته، وأنه من عائلة "سوكولوفيتش"، وأن هذا هو السبب الذي دفعه ليقترح فعل

شيء ما بخصوص هذا الشأن. إذا أصبحت بلجراد مركزًا للتجارة والنقل، إذن يجب على الأقل أن تكون لديها كتب خاصة بها. قال "باجيكا":

- لقد أصبحت بلجراد أيضًا مركزًا للحروب منذ زمنٍ بعيد. لكن أظن أنه، كما حدث في الثلاثين سنة الماضية، ستبقى مياه "سافا" و"الدانوب" هادئة للمزيد من الوقت أيضًا. صحيح، ظلت الجيوش تأتي إليها وتجول حولها في أثناء تلك المدة، ولكن لم يتسبب أيٌّ منها في اضطراب أحوالها أو مهاجمتها. وسيظل الوضع هكذا، سيستمرون في القدوم إليها والمغادرة منها، ولكنهم لا يأتون للحرب، بل للاستراحة وللاستعداد للحملة القادمة. لن توجد حروبٌ هنا، على الأقل للمائة عام القادمة. أقول كل هذا كما لو كنتُ درويشًا من نوع ما، حتى أعطي هذه الأناجيل أسماءً في حين أتنعَّم بشعور من السلام والرخاء: أناجيل بلجراد الأربعةً.

على الدوام، يوقظ السلام والرخاء في الناس رغبةً إضافية في بذل المجهود لتحقيق التناغم والسكينة. ولذلك في بلجراد، في عصر السلام هذا، سمح الموقف لرجل من "دوبروفنيك" أن يبدأ في تقليد الكتب المطبوعة بالصربية. بالإضافة إلى ذلك، جعل أيضًا مستعمرة كاملة من تجار "دوبروفنيك" يكتبون بالصربية وبالكريلية الصربية. أمَّا الحي المسيحي (أو اللاتيني) الذي حمَّسته المكاسب الجيدة، كان مُحرِّكًا لحياةٍ أفضل لكل الأحياء الأخرى. حتى سوق السمك العادي بدأ يقدم كمية أكبر وأكثر تنوعًا من السمك، ابتداءً من سمك الحفش الثقيل الضخم، والشبوط، والحيتان البيضاء، إلى سمك الكراكي، والبربوط، حتى سمك السلور، وسمك السلمون المرقط، وسمك الفرخ كما لو كان نهرا "سافا" و"الدانوب" بمرورهما عبر المناجم المالحة قد امتصا العديد من المواد التي يحتاج إليها السمك ليتكاثر بنسبةٍ أكبر من ذي قبل.

وببقائهم عدة أيام أُخَر في بلجراد، قام كلاهما - كلٌّ بصفته الرسمية - بمناشدة شيوخ القبائل الصربية والعثمانية للقيام ببناء العديد من المنشآت بأسرع ما يمكن. فالمدينة تحتاج إلى أرصفة أكثر للسفن في الموانئ، ومكاتب جمارك، ومدارس، ونزل، وفنادق، إذ إن أعداد الزوار والضيوف - سواء الكفار أو المؤمنين - في ازدياد مستمر، وكمثال على ذلك ازدياد أعداد الزوار من "جمهورية دوبروفنيك" التي تعطي تجارها القروض للذهاب إلى بلجراد وصربيا لتأسيس بعض الأعمال هناك، كما ناشدوهم أيضًا أن يفكروا في طرق لدعم رجال الأعمال. ووعد "باجيكا" بأنه سيقوم شخصيًّا بتوصية السلطان ببناء ورشة لترميم وبناء السفن في بلجراد مثل تلك الموجودة في "القسطنطينية". وهذا سيوفر المزيد من فرص العمل للمزيد من الناس، وسوف يُدِرُّ أموالًا أكثر. وعلى التجار أن يبدؤوا بالفعل بتصدير المزيد من البضائع إلى أوروبا وآسيا، وألا ينتظروا حتى تحدث لهم الأشياء من تلقاء نفسها، وخصوصًا فيما يخص أعمال السوق. كما يمكنهم أيضًا التحسين من حال سوق البضائع المستعملة ليصبح أكثر تحضرًا.

اجتمع "باجيكا" بالعديد من كبار قساوسة الكنيسة الأرثوذوكسية، وقد أحضرهم له الراهب "مارداريجي". وقد وضَّحوا له أن الكنيسة الصربية كانت في خطرٍ مزدوج؛ فأولًا، بسبب عدم وجود دولة صربية تجمعهم تحت رايتها، اتجه الشعب إلى الكنيسة الصربية التي رؤوا فيها بديلًا من الدولة. وثانيًا، ليس لدى الكنيسة مال كافٍ لحماية الكنائس المتهالكة من السقوط، وبالطبع هذا يعني أن بناء كنائس جديدة هو أمر لا يستطيعون التفكير فيه حتى، لافتقارهم إلى الموارد. وبالإضافة إلى ذلك، كانت البطريركية على وشك أن تنهار. كانوا خائفين من ألا تصمد عقيدتهم وتندثر. فكيف ستمارس

عقيدتك وشعائر دينك إن لم يكن لديك مكان لتتعبد فيه؟ لا يمكن أن يكون الإيمان بالله دائمًا مقره بالروح، وخصوصًا إن كان لا بدَّ من مشاركته مع الآخرين.

فأخبرهم "محمد" بأنه يجب على الكنيسة أن تنشغل فقط بأمور العقيدة، وعليها ألا تتدخل بشئون الإمبراطورية والدولة، ومن ثَمَّ يمكن للأرثوذكس أن يتوقعوا تحسنًا في أحوالهم عما قريب. فهو من ناحيته سوف يساعدهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ربما كنتُ في بعض الأحيان أجد المبررات لتفاخري بنجاحي في ربط الأشياء التي لم ينجح أحد في إيجاد صلة بينها بكل براعة وفن. ولكن بالدرجة نفسها من التبرير، كنتُ أيضًا أنتقد نفسي وأحاسبها بحدة عندما أتغاضى عن فهمي لأي صلةٍ أراها واضحة.
واحدة من أكثر التجارب البغيضة التي خضتها بسبب افتقاري إلى المعرفة أو سرعة البديهة، كانت عند تناولي موضوعًا في كتابي عن قضية الهُويَّة في الإمبراطورية العثمانية في القرن السادس عشر، في حواري مع الكاتب المصري "جمال الغيطاني". التقينا في منزله بالقاهرة في خريف عام 2007، في الوقت الذي اتضح لي كيف سأختم هذا الكتاب. ولكن لم يكن للكتاب المعنى نفسه بالنسبة لي إن لم أورِد جزءًا من حديثي معه حول هذا الموضوع المهم: كيف ترى الشعوب المسلمة الأخرى الإطاحة (وهي الكلمة التي أستخدمُها أنا) أو مصادرة (وهي الكلمة التي يستخدمُها هو) بأجزاء من هُويَتِهم القومية والثقافية عندما تم استعبادهم من قِبَل العثمانيين.
كانت الأسباب وراء حديثي مع "الغيطاني" حول هذا الموضوع متعددة. لقد كان أحد المشهود لهم بأنهم على قمة الخبراء بالحضارة المصرية، وخصوصًا ثقافة القاهرة. لقد كتب الكثير من الكتب من منظورات متعددة ابتداءً من المنظور التاريخي، وتحديدًا التصوير الواقعي للتاريخ، وصولًا إلى مقالات النقد الأدبي [50] (belles lettres) معتمدًا على رؤية جمالية للماضي(([51])). في تلك اللحظة، وفي غياب الكاتب "نجيب محفوظ" الحاصل على جائزة "نوبل"، كان "الغيطاني" هو أكثر الكتاب المصريين على قيد الحياة وقتها احترامًا وتقديرًا، إن لم يكن أفضل كاتب عربي أيضًا. في بداياته، كان مشهورًا حتى بين العامة، لأنهم كانوا يشاهدون من فترة ليست ببعيدة مسلسلًا تليفزيونيًّا قام بتصويره عن مصر والقاهرة، وقد ظهر فيه مرشدًا سياحيًّا. وقد كنتُ شاهدًا على هذا الاحترام له ("المكتوب والمنطوق") فكنت أرى ونحن نسير في شوارع القاهرة الناس يقتربون منه ويسلمون عليه، ويقبلون يده شكرًا على هدية تاريخ مدينتهم ودولتهم التي أهداها لهم من خلال برنامجه. لم أرَ هذا القدر من الاحترام في أي مكان إلا في حالة "أورهان باموك" - إلى حدٍّ ما - في دولته أيضًا، ولكنني أعلم أنه بمجرد ذكر هذا المثال، سيتذكر الجميع التهديدات التي كان يتلقاها "باموك" من منتقديه. وبالطبع لا يمكن تجنب ذلك الجانب المظلم من آراء المعارضين. على العكس، سوف أعززه متخذًا من "الغيطاني" مثالًا على ذلك. فعلى الرغم من وطنيته غير المشكوك فيها، والتي تزداد بمرور الوقت، بل وبشكلٍ مبالغ فيه بعض الشيء أيضًا، وعلى الرغم من أنه يناقش صورة واضحة ونقية وصحية تجاه الإسلام، فإنه أصبح عُرضةً للتهديد مثل زميلنا التركي. بالإضافة إلى ذلك، تظل الشرطة تحرس منزله مدة أربعة وعشرين ساعة في اليوم. ولقد شهدتُ كيف يغيرون نوباتهم كل اثنتي عشرة ساعة. فالسيارة والحارس الشخصي اللذين معه صباحًا ومساءً ليسا من باب الوجاهة، بل أرادت الدولة أن يعلم المتطرفون في الدين أن الدولة تحميه وتقف وراءه. من المنطقي أنه قد أحسن صنيعًا لثقافته وعقيدته، التي لا يرفضها ولا يشكك فيها، باتصاله بالعالم على الأقل من خلال أعماله المترجمة إلى لغات العالم. لم يكن عشقه الرهيب الذي كان واضحًا عليه وهو يشرح لي تفاصيل العمارة الإسلامية عندما اصطحبني في جولة حول القاهرة في المساء - كانت طريقته في الشرح والوصف أفضل من أحسن المرشدين السياحيين في العالم - كافيًا للمتعصبين ليقدروه ويُجِّلوه. ولكي

نستطيع الخروج مساءً في تلك الليلة، أو يستطيع الخروج من الأساس، كان عليه أن يوقع بيانًا تطوعيًّا بأنه يرفض ما يُسَمَّى بـ"الدواعي الأمنية".

وعلى أي حال، لنعود إلى حواري معه. كانت المناسبة التي افتتحت الكلام هي جملة عن المصادفات وتزامن الأحداث في مصر وصربيا بشكل غير مباشر، والذي كان موضوعًا مثيرًا للاهتمام لكلٍّ منَّا. وقعت بلجراد تحت سلطة وحكم الإمبراطورية العثمانية عام 1521، وذلك بعد سقوط القاهرة تحت حكمها بأربع سنوات. في روايته "الزيني بركات"، يتحدث عن استبدال الحكَّام المماليك بالعثمانيين، وعن فترة حكمهم الأولى في القاهرة، ومن ثَمَّ في مصر. وروايتي (التي كنتُ أكتبها) تتحدث جزئيًّا عن بلجراد وصربيا في ذلك الوقت أيضًا تحت حكم العثمانيين. لقد سمعتُ العديد من الأشياء المفيدة في هذه المناقشة، ولكن ما فاجأني حقًّا - وأنا الآن أعود إلى القضية التي طرحتها في بداية هذا الفصل - هو رد فعله الحاد والسلبي تجاه نتائج هذا الاحتلال. بالطبع لقد كان يتحدث عن القصص المتوقعة من القتل والاضطهاد، ولكن الشيء الذي كان له التأثير الأقوى عليَّ هو الآتي: لكي يعطي مثالًا لا يُنسى، أضاف معلومة في سياقٍ حقيقي، وهو موجود بالفعل في أحد كتبه أن الأتراك قاموا بأخذ نحو خمسةٍ وثلاثين حرفة ونقلوها إلى بلادهم، ولكنه لم يقصد بقوله هذا أنهم تعلموا هذه الحرف ونقلوها إلى بلادهم، بل إن الأتراك قاموا بنقل الحرفيين أنفسهم إلى بلادهم. أخذوهم كلهم أجمعين! أخذوا أفضلهم وأمهرهم، ابتداءً من المعلمين إلى مساعديهم، والمتدربين على أيديهم، وطلابهم. وبهذا الشكل، لقد محوا وأزالوا أي أثر لوجود مجال كامل من المعرفة وما يصاحبه من تاريخ! لقد جرَّفوا مصر منهم، وأزالوهم من الوجود على أرضها! (علامات التعجب هي محاولتي للتعبير عن الغضب الذي تحدث به "الغيطاني"). وقد حاولت أن أهدئ من روعه بإخباري له بأن هناك بعض الدلالات على أن العثمانيين عندما استولوا على بلجراد قاموا بإرسال من ثلث إلى كل السكان إلى مدينة إسطنبول كعبيد (تختلف الأرقام على حسب المصدر)! والدليل على هذا هو وجود شبكات المياه في العاصمة التركية، والتي قام ببنائها جيش من المدنيين من بلجراد، والذين كوفئوا بالسماح لهم بتسمية الحي الذي استقروا به بلجراد. وهذا لعلم الجميع.

وعندما رأى أن غضبه هذا يمثل مفاجأة لي لم أستطع إخفاءها، أعطاني تفسيرًا منطقيًا. قال:

- لديَّ الحق في أن أكون أكثر غضبًا من هذا أيضًا، لأننا ننتمي إلى العقيدة نفسها؛ نحن والأتراك. إن الأمر يصبح أكثر سوءًا عندما يصيبك الضرر بفعل شخصٍ ينتمي إلى عقيدتك نفسها. هل تعتقد أن المسيحيين فقط هم مَن لديهم هذا المثال من الماضي - دعنا لا نقول هذا الامتياز - هل المسيحيون فقط هم مَن مارسوا الاضطهاد والظلم على أبناء عقيدتهم؟

وقد اتفقتُ معه على سؤاله الاستنكاري: "فلدينا أمثلة على ذلك من الحاضر أيضًا".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

الفصل السابع والعشرون

عادا إلى "صوفيا" معًا. أعدَّ "سنان" مخططات وحدَّد مكانين يمكن بناء مسجدين بهما. ثم عاد إلى إسطنبول حيث تابع الإشراف على مسجد السلطان، أو بالأحرى المجمع الذي سبق بناءه تشييد المسجد. وفي الوقت نفسه، وتحت إشرافه العَرَضي، كان يبني مُجَمَّعًا للصدر الأعظم "رستم باشا" في "تكيردا". يتألف هذا المجمع من مسجدٍ، وفندق، ومدرسة.
وصل مبعوث إلى "محمد باشا" بأوامر السلطان له بأن يحضر على الفور إلى قصر "طوب قابي"، وأن يترك كل أعماله في أيدي أتباعه لفترة طويلة. لقد فهم؛ يتم التجهيز لحملةٍ جديدة.
علم كل التفاصيل في قصر الصدر الأعظم "رستم باشا" الذي عينه السلطان قائدًا أعلى للجيش. بينما كان الجيش العثماني مشغولًا في "روملي" ويقترب أكثر من فيينا، بدأ الشاه الفارسي "طاهمساب" بالاستيلاء مرةً أخرى على المدن التي فقدها سابقًا واستولى عليها العثمانيون. وقام بهذا بكل ضراوة ووحشية، إذ لم يكن يقتل كل أفراد الوحدات العسكرية، بل المدنيين أيضًا. بالإضافة إلى كل ذلك، استخدم ابنه "إسماعلي ميرزا" براعته ودهاءه لهزيمة "إسكندر باشا" والي "أرضروم" فقتل عدة آلاف من الجنود. غضب السلطان وعزم على إنهاء هذا الأمر مع أولئك الكفار من عقيدته نفسها مرةً واحدة وإلى الأبد، وأمر الوزير الثاني "أحمد باشا" بأن يحرس الحدود مع النمسا، وأعطى "محمد باشا" شرف التوجه فورًا إلى "توقاد" وأن يقضي الشتاء هناك ويستعد لبدء إجراءات الحرب ضد الفرس في الربيع.
ومع ذلك، كان البلاط العثماني يعاني من تغيرات أيضًا أدت إلى توقف خطط الدولة، بسبب العلاقة السيئة بين السلطان والسلطانة التي كان قد ذاب بها عشقًا في يوم من الأيام. في الواقع، بدأت أشياء مريعة في الحدوث. بدأ السلطان "سليمان" يخرج في نزهٍ بشكل أكثر من المعتاد، وهو ما لا يتناسب مع سنه، على الرغم من أنه لم يتقدم به العمر إلى هذه الدرجة. وزوجته "روكسيلانا" بدأت تتوعك صحيًّا بشكل أكثر من اللازم، فبدأت تقلق بشأن مَن سيرث العرش بأنانية دافعها الأمومة، دون أي نوع من الاعتدال أو الإنصاف. ولما كانت "روكسيلانا" لديها ولدان من السلطان - "سليم" و"بايزيد" - فقد أزعجها بشدة حقيقة وجود ابن ثالث للسلطان من زوجته الأولى، وهو الأمير "مصطفى" المفضل لدى الجيش. كانت المشكلة التي تواجه خططها هي أنه كان أكبر من ولديها، ومن ثَمَّ كان هو وريث عرش الإمبراطورية العثمانية. ولكن السلطانة لم تكن لتستسلم؛ لقد تدخلت أكثر وأكثر بشئون الدولة، وفي هذه الحالة، أصبحت قادرة على اختلاق مكيدة ودسيسة تتهم بها "مصطفى" بأنه يحث الجيش على التمرد ضد السلطان نفسه. وبإصرارها على تحقيق هدفها، نجحت في إقناع زوجها من خلال وسطاء بأن هذا الخبر حقيقي، كما نجحت في إخفاء نفسها، حتى لا تظهر في الصورة إطلاقًا. وبالنسبة للإمبراطورية، مثل هذا النوع من التمرد يعني أن هناك محاولة للإطاحة بالحاكم الحالي عن العرش، ومن ثَمَّ فقد كان أكثر تهديدًا مباشرًا. ولذلك أوقف السلطان كل الخطط الأخرى ليقرر ماذا سيفعل. وقد اتخذ قرارًا مرعبًا. فجأة غير رأيه بخصوص عدم خوض المعارك شخصيًّا، وظهر في ساحة المعركة مع الفرس بنفسه، حيث كان على رأس الجيش. ودعا "مصطفى" وكل الوزراء إلى معسكر الجيش. ابنه الذي كان مستعدًّا للمساعدة، والذي لم يكن يشك في أي شيء، وجد سبعة رجال في خيمة والده بدلًا من والده، رجال مكلفين بإعدامه. وعلى الرغم من

أنه اتهِم ظلمًا، تم شنق الأمير في حين يسمع والده صراخه وطلبه المساعدة، وانتظر خلف ستاره في الخيمة حتى انتهاء الإعدام. وبعد ذلك، جرى مباشرةً قتل العديد من القادة المخلصين لـ"مصطفى"، وفي الوقت نفسه، خنق أحد الخدم ابن "مصطفى" الصغير لينتهي بموته نسل "مصطفى" ولا يعود يشكل تهديدًا لعرش السلطان.

وبعد مدة وجيزة من هذا الحدث، مات ابنٌ آخر للسلطان بالكاد يُسْمَع عنه وهو الأمير "جيهانجير" كَمَدًا وحزنًا على موت أخيه، لقد كان مريضًا منذ مولده، وكان دائمًا في معزلٍ عن العامة. بسبب اكتئابه وإحباطه من مقتل أخيه، رفض أن يأخذ الأدوية التي كانت تبقيه على قيد الحياة.

على الرغم من أن "باجيكا" كان يتابع هذه المأساة من بعيد، فإنه لم يشعر بالارتياح ولم ينعم بالسلام بسببها. ومع ذلك، وهو في موقعه هذا خارج كل ما يحدث، كان من الأسهل عليه أن يحكم على أدوار الأشخاص في البلاط الملكي، ومدى تأثيرهم وقدراتهم. واكتشف أن هذا لم يكن نهاية الجنون في العائلة الحاكمة. وكيف ستكون مثل هذه العائلة التي تتآمر فيها الزوجة لقتل ابن زوجها، ويستطيع الأب قتل ابنه وحفيده؟ بالطبع البقية ستأتي. رأى أن العامة قد تمت تهدئتهم ببراعة. من أجل تشتيت انتباه الجميع وتحويل اللوم من هذا الحدث، ووقف التمرد بين الإنكشاريين الذين كانوا يقدسون الأمير ويحترمونه حقًّا بصفته جنديًّا، بسبب شجاعته التي لا مثيل لها، أخذ "سليمان" فجأة ختم الدولة من صهره والصدر الأعظم "رستم باشا". لم يفهم "رستم باشا" ما الذي كان يحدث باستثناء أنه قد ارتكب خطأ ما. وتم إعطاء الختم للوزير الثاني "أحمد باشا" الذي تم استدعاؤه على الفور من "روملي".

في الحقيقة، كتب "رستم باشا" خطابًا لـ"باجيكا" قدم فيه تفسيرًا وأسبابًا مختلفة لاستبدال "أحمد باشا" به. ومع ذلك، عاد إلى منصبه بعد مدَّةٍ وجيزة صدرًا أعظم، فاتضح أن هذا التبديل كان مؤقتًا، وأن "أحمد باشا" لم يكن سوى لعبة في أيدي أسياده الأذكياء.

حتى بين الأعداء الأتراك في أوروبا، كان هذا القتل أمرًا غير معقول. لقد كان الأمير "مصطفى" تجسيدًا للخير والإخلاص والاحترام والتعلم. كان يدعم المنح الدراسية والفن، ويحمي الشعراء والعلماء والأكاديميين، حتى إنه كتب الشعر تحت اسم "مخلصي". وبسبب حبه وانشغاله بالفلسفة الجادة والشعر، قام بنفسه بتجميع قاموس فارسي وكتابة تعليقات على أعمال "الرومي" و"سعدي" و"يحيى" و"حافظ" وغيرهم الكثير. كان المثقفون هم أكثر الناس حزنًا على موته، لدرجة أنهم انتقدوا السلطان والصدر الأعظم علنًا لفعلتهم النكراء هذه، معرضين بهذا حياتهم للخطر.

حاول "محمد باشا" أن يتعلم شيئًا بخصوص الآباء والأبناء من كل هذا. على الرغم من أنه لم يتزوج علنًا بعد، فقد قرر أن يهتم بشكل أفضل من هذا بولديه - "حسن" و"كوردة" - اللذين ولدا له من جواريه. وعلى الرغم من أنه لم يستطع أن يراهما بالقدر الكافي بسبب التزاماته، فإنه شكر الله، لأنه ليس مجبرًا على إخفائهما، على الأقل ليس لأسباب سيده نفسها. ولكن بصرف النظر عن ذلك، فهو لم يكن يعرف في تلك اللحظة ما الذي لا يزال ينتظره فيما يتعلق بهما.

أحيانًا تأخذ السلطة أشكالًا مرعبة.

الشيء الذي أخيرًا أعاد الحياة إلى طبيعتها في الإمبراطورية هو الاستمرار المعتاد لحربٍ أخرى. والآن، بوجود قائد جيش جديد في وقت الحرب - وهو السلطان شخصيًّا - تلقى "محمد باشا" اعترافًا إضافيًّا بثقة السلطان العميقة فيه؛ في اتجاه أقصى الشرق ناحية "كارس"، وفي بداية نهاية مقاومة الفُرس، قاد الجناح الأيسر للجيش العثماني، وقاد الأمير "سليم" - الابن الأكبر للسلطان "سليمان" والسلطانة "روكسيلانا" - الجناح الأيمن. وقد سبق هذا الحدث لحظة مثيرة للاهتمام قام

بتسجيلها العديد من المؤرخين. وبالتحديد حدث أنه في العرض الاحتفالي عندما انطلق الجيش إلى المعركة، تُركت قوات الأناضول وقوات "كرمان" تحت قيادة الأمير "سليم" في الظل بمظهر الجنود الرائع في وقت الحرب. "كانت كل العيون مُثَبَّتَة في إكبار وانبهار على الجيش "الروملي" الخيالي الذي أحضره معه "البكلربك" "محمد سوكولوفيتش". كانت جلود الفهود معلقة على أكتافهم، وذيول الثعالب معلقة في رماحهم، وكل جندي يضع في حذائه مهمازًا طويلًا، ودروعهم ضخمة، وقفازاتهم الواقية الزرقاء الداكنة والفاتحة مصنوعة من الحديد، ولافتاتهم حمراء وبيضاء، وخيلهم مصبوغة بالحناء..".

وقد كان هذا بالطبع رمزًا خارجيًّا، ولكن كانت له دلالة؛ فهذا يعني أن "محمد باشا" تمكن من جعل الجزء الذي تحت سيطرته من الإمبراطورية أكثر ثراءً، ومن ثَمَّ أكثر رفاهية وفخامة. وأشاد السلطان بقائده وتبختره الواضح هذا، ولكنه أراد، في الوقت نفسه، أن يتفاخر بقدرته في الحكم على الأشخاص.

كل الانتصارات التالية على الفرس، ابتداءً من سوريا عبر أرمينيا وإلى بلاد القوقاز، كانت روتينية. وقد قام "باجيكا" بتأدية مسؤولياته وواجباته بالطريقة نفسها. لقد استغل كل شيء تعلمه عن الحرب والقتال. ولكنه كان يعرف أيضًا أين تنتهي البطولة، وأين يبدأ الحكم والقيادة حسب الهوى. قام بتقييم دقيق للموقف، حتى يعرف الجميع ويحترمون مواقعهم.

والسلطان الذي كان راضيًا وسعيدًا لم ينتظر حتى يعود إلى إسطنبول ليكافئ حاشيته، فعقد ديوانًا في "أماسيا"، وهناك قاد "محمد باشا" إلى المجلس الكبير؛ قام بتعيينه الوزير الثالث لـ"بورتا". كما قام السلطان بتعيين "بكلربك" آخر لـ"روملي" ليحل محل "باجيكا"، وقد كان هو الآخر ذا أصول صربية، وهو الآغا "برتاو محمد باشا".

عندما عاد إلى إسطنبول، كان هناك خيار من بين عدة أماكن لقصره. والآن، كونه أحد أعضاء مجلس الوزراء، عليه أن يكون في متناول يد السلطان وفي خدمته وخدمة الدولة كل يوم. اختار مسكنًا متواضعًا، وأكثر بعدًا من بين المساكن التي عُرِضَت عليه من قصر "طوب قابي"، وقد كان على ضفاف "السوتليجا" بالقرب من الميناء، وبجوارِ مسجد "أيوب". ولم يكن آسفًا على ذلك. كان جاره هو أحد معارفه القُدامى، وهو "أبو السعود أفندي العمادي". كان رجلًا حاصلًا على تعليم عالٍ، والذي يحب هذه المنطقة من الإمبراطورية العثمانية على وجه الخصوص، لأنه قضى وقتًا طويلًا كونه "قاضي عسكر" في "روملي"، وهذا بعد عام 1537. ومنذ عام 1545، أصبح "شيخ الإسلام"([52]). وقد كان هذا الرجل هو الشخص الوحيد تقريبًا الذي يصغي إليه السلطان "سليمان". حتى إنه اعترف علنًا بتفسيرِ "أبو السعود أفندي" الجديد للقرآن الكريم ولكل التقاليد الإسلامية([53]). ثم إنه أقرَّ قوانينه الجديدة وأُعْجِب بتعليمه. وقد احترم السلطان اهتمامه باتساق وكرامة قانون الدولة، ولم يكن هذا لحظيًّا أو لفترةٍ من الزمن وبعد ذلك يمكن أن يتغير. وربما من باب المودة، لقبه السلطان بـ"العِمادي"([54]).

وقد أظهر كل من "باجيكا" و"العِمادي" سعادة غامرة لحقيقة أنهما سيتمكنان من قضاء بعض الوقت معًا في المستقبل.

كان "جوزيف" أول زائر له في منزله الجديد، حتى قبل أقرب جار إليه؛ المفتي المعظم. وقد مر به ليثبت له أنه كان يعلم مسبقًا، وأن قد أشار له بهذا عندما قال له إنه سيصبح مقربًا من العائلة الملكية

بسرعة. وفي الوقت نفسه أيضًا، قدم لـ"باجيكا" شرفًا آخر وهذا لأنه أحضر معه أولاده وبناته. ولكي يبرر هذه الزيارة القصيرة، أخبره متفاخرًا بأنه قد أتم بناء مسجد السلطان بدمشق بحديقته السورية الجميلة. ثم إنه انتهى من بناء المشفى القريب من مسجد السليمانية المستقبلي، وأن السلطان بدأ يضغط عليه، لأن العمل استغرق وقتًا أكثر من المتوقع. كان كل شيء يسير وفق الخطة، ولكن الخطة في الواقع ضخمة جدًّا. قبل مغادرته سريعًا إلى دمشق لكي يكون هناك أثناء افتتاح مسجد المؤمنين، تمكن من رؤية أبناء "باجيكا" اللذين استقرا أخيرًا مع أمهاتهما ببيت "باجيكا" الجديد. كما عيَّن أيضًا "سكرتيرًا"، وهو متعلم، ومخلص، واسمه "فريدون"، بناءً على توصية جاره المفتي. والآن وأخيرًا، لقد أصبح مُحاطًا بكل الناس الذين يريدهم أن يكونوا حوله.

وفي طريقه إلى الباب أثناء مغادرته، همس "جوزيف" في أذن "باجيكا" قائلًا:

- يبدو أن قلبك عامر بالسعادة.

فأجابه:

- قلبي، نعم. لكن روحي.. ليس بعد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

28

عندما تجولنا أنا و"باموك" في منزل "إيفو أندريك" في بلجراد، والذي أصبح الآن متحفًا، تصادف أن واحدة من صديقاتي من أيام الجامعة وهي "تانيا. ك." كانت مضيفتنا. وهي خبيرة من المؤسسة المعروفة باسم "المتحف البلدي". كانت خبيرة ممتازة عن الماضي (على سبيل المثال، حياة وعمل "ديسبوت ستيفان لازاريفيتش"، وخاصة مكتبته في بلجراد من مطلع القرن الرابع عشر)، وقد أخبرتني بمهارة عن العديد من الأشياء غير العادية عن الفائز بجائزة "نوبل"، وأشارت إلى بعض التفاصيل المهمة. مع كل سحرها وعلى الأرجح بالتجاوب معه، اتضح أن "باموك" مُهتم بكل شيء، وفي حين إصغائه إليها، كان يلتقط صورًا لكل الأشياء والأوراق الموجودة في واجهات العرض والمعلقة على الجدران. هذا التركيز على حياة واحد من كُتَّابه المفضلين. لقد كان كاتبًا كما ينبغي أن يكون، وقد اتضحت موهبته عندما كتب مثل هذا المؤلف من صربيا/ يوغوسلافيا ببراعة عن ثقافته. وقد دفعني هذا إلى أن أتوقف عن عرضي له جائزة "نوبل" التي حصل عليها "أندريك" عام 1961، ثم بدأت أقول شيئًا جعله ينفجر ضاحكًا، ولا سيما الأخذ بعين الاعتبار التاريخ (مايو، 2006) حيثُ قلت:

- والآن عليَّ أن أخبرك لماذا أحضرتك إلى هنا.

ثم وقفة درامية. تراجع للوراء قليلًا منتظرًا الذي سأقوله. قلت:

- لأن هذه هي الفرصة الوحيدة في حياتك التي يمكنك فيها أن ترى كيف تبدو جائزة "نوبل" للآداب.

كانت هذه المزحة رائعة، ولكن أيضًا "باموك" كان كذلك. فالجائزة التالية كانت تحمل اسمه. ولقد حملها بيده بعد عدة شهور من هذا.

وبين هاتين الجائزتين، كنا نتجول حول بلجراد، وقمنا بزيارة متاجر الكتب، وتنزهنا حول حصن "كليمجدان" ونظرنا من شرفته (وهذا بصحبة رئيس منظمة "بين" القاسي العنيد الصارم والرائع "فيدا أوجنينوفيتش") على التقاء نهر "زيمون" وسهول "فويفودينا"، تمامًا كما فعل "باجيكا"/ "محمد" و"جوزيف"/ "سنان". بين حين وآخر نذكرهما.

تذكرتُ وصفًا لهذا المكان الذي نقف عليه الآن. مؤلف هذا الوصف كان "قسطنطين فيلوزوف" في كتابه "سيرة ديسبوت ستيفان لازاريفيتش الذاتية"، وهو اسم الرجل الذي جدد بلجراد وأعلنها عاصمة الدولة. ولما كانت محاطة بالماء من ثلاث جهات، فهذا يعني أن من وجهة نظره أن بلجراد اشتركت في بعض التفاصيل الأساسية مع "القسطنطينية" التي تقع على "القرن الذهبي" و"البوسفور".

عندما أطلقنا العنان لخيالنا مع البقاء واقعين فيما يخص الحقائق الموجودة، استطعنا ربط بعض المواقف التاريخية التي لم يتم إثباتها بعد.

تحدث "باموك" عن حاكم محدود الشهرة لإمبراطورية "مغول الهند"، وهو "جلال الدين أكبر"، والذي يعود إلى النصف الثاني من القرن السادس عشر، وهو أصغر حاكم معاصر لأبطال كتابي، وقد كان من أصول تركية. غزا شعبه الهند عام 1526 (وهو الوقت نفسه تقريبًا الذي سقطت فيه القاهرة وبلجراد) وأعلنوا دلهي عاصمةً لإمبراطوريتهم. وبعد كل الجرائم التي احتوت عليها هذه

الحرب بكل تأكيد، حان وقت السلام والرخاء والازدهار. عندما ورث "جلال الدين أكبر" العرش، نجح في تحويل حلمه إلى حقيقة؛ لقد وحَّد المسيحيين، والبوذيين، والمسلمين.
لماذا كان "باموك" يتحدث عن كل هذا؟ لأنه كان يعرف أنه بالتأكيد "صقللي محمد" و"جلال الدين أكبر" كانا يعرفان أحدهما الآخر. ربما تقابلا أثناء إحدى حملات "سليمان" الحربية على بلاد فارس عندما هاجم "محمد باشا" العدو على الطريق الذي سار فيه "الإسكندر الأكبر". لقد بدا له أن كليهما محاربان خاضا الحرب لكي يتحدا، وليس للانشقاق؛ تمامًا مثل الذين كانوا مقتنعين أنه من الممكن أن تحيا أممٌ متعددة داخل رجل واحد، كما تحيا الأمة الواحدة (نفسها) داخل العديد من البشر (المختلفين).
قال "باموك":
- في السنة التي تُوُفِيَ فيها "محمد"، أو يمكنك أن تقول السنة التي تُوُفِيَ فيها "باجيكا"، 1579، أرسل "جلال الدين أكبر" بيانًا مكتوبًا بنظرةٍ متسامحة للإسلام - كعقيدة إلهية - تحت عنوان غير متسامح، وهو فرمان النجاح المؤكد. هذا المثال أيضًا يشبه حقًّا التوحيد غير المنطقي بين فيلسوف دقيق وجندي أبكم. ولكن يبدو أيضًا أنه تحدث مع "محمد باشا" عدة مرات قبل أن يتم إصداره. حسنًا، لن أقول إنهما كتباه معًا. ولكنني سأقول إنهما تحدثا عن الحرية الدينية والحق في اختلافات الهُوِيَّة.
وقد كان لديَّ مثالي الخاص، فقلت:
- أسس "هيرود العظيم" مدينة وميناء "القيصرية" التي تقع جنوب "حيفا" الموجودة فيما تُسَمَّى اليوم بإسرائيل بنهاية القرن الأول قبل الميلاد. أعلنت الإمبراطورية الرومانية أن هذه المدينة هي مقر المقاطعة الرومانية التي تُدْعى "يهودا". من خلال القتل والمعارك، غزا "هيرود" أورشليم/ القدس، وأصبح ملك "يهودا" في عام 37 قبل الميلاد، وبعد ذلك، ولأسبابٍ غير معروفة، قام بقتل ولديه وزوجته. واستمر في حياته بشكلٍ طبيعي؛ قام بتجديد المعبد في القدس، وبنى مسرحًا، ومُدَرَّجًا، وحصنًا، وبعض المدن الجديدة أيضًا. والسبب في شهرته هو أفعاله المتنوعة بشكلٍ فريد، ابتداءً من مشروعاته المعمارية وبناء ميناء "القيصرية"، إلى مقاومة اليهود، إلى "تَهَلُّنِهِ" الإجباري؛ ومن ذبحه الأطفال في بيت لحم (وهذا مرتبط بميلاد المسيح) إلى نجاحه في توحيد الرومانيين واليهود واليونانيين والعرب.
وبالتأكيد الخمسة عشر قرنًا التي تفصل بين هذا الزمن وزمن "باجيكا" جعلت من المستحيل أن يلتقي كل هؤلاء، ولكن هذا لا يعني أن المفتي المعظم "أبو السعود العمادي" لم يقرأ عنه عندما كان يفكر في مساعدة صديقه "محمد"، ليحمي البطريركية الصربية من الانهيار.
فقال "باموك":
- لم يكن فقط من المحتمل، ولكنه بالتأكيد قرأ شيئًا. تعتمد المعرفة كليًّا على ما سبقنا في التاريخ. هل تريد دليلًا على المعرفة المُكتَسبة مما حدث في الحقبة نفسها؟ "أغريبا" هو أول بنَّاء لحمَّام روماني، والذي بُني عام 33 قبل الميلاد، وقد قام ببنائه في روما، وفي كل المدن الكبيرة في الإمبراطورية. وكل الحمامات الأخرى، ابتداءً من تلك التي في "قرطاجة"، إلى تلك الحمَّامات العثمانية قد انحدرت من حمَّامات "أغريبا". ولكنه بالطبع لم يكن هو مَن اخترعها. لقد أحضرهم وتعلم كل شيء عنهم من الحضارة "الهيلينة". ولكن من أين تعلم الهيلينوين هذا؟
بدأتُ أفلسف الأمر:
- من على مثل هذه المسافة البعيدة، وفيما يتعلق بهذه الأحداث المهمة، إنني متأكد تقريبًا بشكل أكبر من أي مرَّةٍ سابقة أنَّ لأولئك الناس قلوبٌ نصفها من الثلج ونصفها من العسل. قاموا بسكب كل

أسرارهم العظيمة في العسل. وكما ترى، فإنني كلما أفكر بكل هؤلاء الآغوات والباشوات والوزراء العثمانيين الذين حكموا هنا - عند نقطة التقاء النهرين - والذين تركوا كل هذا الوقف وراءهم (ولأكون أمينًا، فقد تم تدمير معظمه)، يصيبني حدس عن الأسباب التي تكمن وراء أفعالهم. لم يكن الأمر فقط لمجرد ترك أثر لهم يتذكرهم الناس به من بعدهم، ولم يكن الأمر لمجرد التخلص من الثروة التي إن لم يتم إنفاقها في المنفعة يتم إعطاؤها للسلطان بعد وفاتهم، ولم يفعلوا ذلك أيضًا من باب الغرور أو من الجهل.

فردَّ "باموك" ممازحًا إياي، وفي الوقت نفسه أعطاني الإجابة الصحيحة:

- حسنًا، حسنًا. بدافع ماذا؟ يمكن بدافع النصف الآخر من قلبهم؟

فقلتُ:

- نعم، هذا صحيح. بدافع من ذلك الجزء الذي ذاب. ومن ثَمَّ، هذا يعني أنهم شيَّدوا كل هذا بدافع الحب المحبوس وراء سبع بوابات، لأنهم كانوا خائفين من الحب، كانوا يخشون أن يعبِّروا عنه علنًا أو بانفتاح، كانوا يخشون أن يظهروا للآخرين أنه يمكنهم أن يكونوا ضعفاء. وكلهم - أولئك الذين أتحدث عنهم الآن - وقعوا ببساطةٍ في عشق هذه المدينة، وإذا كانوا مدينين لها، فقد تركوا أوقافًا وراءهم لتسدد هذا الدين.

فقال "باموك":

- من المثير للاهتمام أن تتخذ موقفًا كهذا. بلجراد كبنك. إممم، حسنًا. على أي حال، أعتقد أن بعد الشمس والعجلة، فإن البنك هو الاختراع الثالث في الترتيب من حيث الأهمية، بالطبع، على حسب مَن يمتلكه.

فقلتُ:

- نعم. من المحتمل أن بعض المسيحيين المترفين سوف يحولون مثل هذا الثلاثي إلى الثالوث المقدس. ومن المحتمل أن البنك واضح للغاية بالنسبة لك، ولكن من الممكن أن تتساءل عما يدفعك إلى تقبل الثلثين الآخرين.

ثم تباهيتُ قائلًا:

- حسنًا، إنني أقبل الشمس، حتى لا نتخلى عن البيئة، والعجلة، لأنها تمثل التكنولوجيا، بصرف النظر عن كم تبدو بدائية الاختراع.

ثم عدتُ إلى التحدث عن موقعنا، فقلت:

- إلى حدٍّ ما، إنني أتفهم أولئك الأفندية في الإمبراطورية ذوي الأصول الصربية. لا بدَّ من أن لديهم نوعًا من الشعور المعزز لعلاقتهم بهذه الدولة، واللغة، والأرض، وعائلاتهم، وهذا بالطبع معتمد على الشخص.. ولكن لم يكن هذا شيئًا جوهريًّا بالنسبة لهم، والمثال على ذلك هو عائلة "يحيى باشا". لقد كانوا ذائعي الصيت، وكان أشهر ما يميزهم هو مهاراتهم الاستثنائية كونهم جنودًا. لقد كانوا شجعانًا، ومقدامين، وحاسمين، وذوي عزيمة وإصرار على النصر، وكانوا ثابتين راسخين على عقيدتهم الجديدة دون شك، وقد كانوا مخلصين صادقين في إيمانهم بها. لقد رفضوا المسيحية، ولم يشككوا، حتى مرةٍ واحدة في عقيدتهم الجديدة؛ الإسلام. لا الأب ولا أيٌّ من أولاده الثلاثة تزعزع إيمانهم منذ إسلامهم. كان "بالي بِك" أول حاكم عثماني لبلجراد بعد الاستيلاء عليها عام 1521. وعندما كلفه السلطان بهذا المنصب، لم يكن يخشى تحوله إلى المسيحية "مرةً أخرى"، لأن عائلة "يحيى باشا" كانوا أكثر تمسكًا بإسلامهم من أكثر المسلمين تمسكًا بدينهم. ومن ناحيةٍ أخرى، كان

يتجنب بأي ثمن أن يعيدهم إلى المناطق التي أتوا منها. صار "غازي محمد باشا" "سنجاق" "سيميديريفو" مرتين (من 1527 إلى 1533، ومن 1536 إلى 1541)، وأصبح "بكلربك"/ حاكم "بودا" في عام 1543، وبعدها بعام، استولى على "فيشجراد". وقد ترك وراءه العديد من المباني أوقافًا في بلجراد، لدرجة أن عددهم غير معروف (كما مدحه الشاعر الشعبي)، لكن لماذا؟ حسنًا، كما تعرف، لأنه في أحد الحمَّامات التي سُمِّيت على اسمه في "فيشجراد"، أنت نظفت وطهرت جسدك من الأقذار التي يحاول الآخرون أن يلوثوك بها. كنت أطهر روحي من هذه الأشياء نفسها إذن. عملٌ صالح مثل هذا الحمَّام يتم تركه للآخرين من بعدك بدافع الحب النقي الصادق الخالص!

فقال "باموك":

- أود أن تكون على حق، لأن هناك الكثير من الأفكار الخاطئة، ومن ثَمَّ الكثير من الجهل بخصوص عالمنا اليوم، حتى بخصوص مساحات الماضي.

ثم بعد ذلك، قدم "باموك" مثالًا آخر:

- وعلى أي حال، فإن مفرداتنا الحديثة لا تلائم قصصنا التاريخية، ولكن إسطنبول وبلجراد كانتا أكثر انفتاحًا، كانتا كما يقولون اليوم مدينتين عالميتين، مدينتين "كوزموبوليتانيتين" كما يتخيل أو يتمنى أي شخص. الناس بالفعل يقولون هذا عن "القسطنطينية"، على الرغم من استمرار تَحَكُّمْ التحيُّز إلى أطرافٍ معينة. ولكنك بالكاد ستسمع عن أي شخص يقول عن بلجراد على سبيل المثال أن في زمن "محمد"/ "باجيكا" عام 1557 ورشة السفن التي أنشأها بها "صقللي"/ "سوكولوفيتش" قد أنتجت سنويًّا خمسةً وثمانين سفينةً - وهذا ليس إنجازًا هينًا - كما أنتجت قوادس بثلاثة صفوف من المجاديف، وهي ما تُسَمَّى بالسفن ثلاثية المجاديف. ومن حيث الحجم، فيمكننا القول إنها مدمِّرات وفقًا لمعايير اليوم. وهذا الرقم لا يمكن أن يعادل إلا الترسانة في إسطنبول. ولأكون منصفًا، مثل هذا العدد الضخم يمكن تحقيقه فقط من خلال الخبرة التي اكتسبها "محمد سوكولوفيتش" كونه "أدميرال" البحرية العثمانية بأكملها. لقد علَّم كلتا المدينتين كيف يمكنهم إنشاء أسطول بحري أو نهري كامل أو إعادة تأسيسه إذا لزم الأمر في وقتٍ قياسي.

كنتُ سعيدًا لأن "باموك" يعلم هذا وأضفتُ:

- هل تعلم أن في كتب تسجيل المراسم التي في البندقية يمكن أن تجد شعار ميناء بلجراد الذي يعود إلى القرن الخامس عشر بين شعارات الموانئ المهمة؟ هذا يعني أن ميناء بلجراد قد اشتهر بالفعل في تلك الحقبة على أنه أحد أهم الموانئ في العالم.

كان الأمر كما لو كنا نتنافس في هذا البحث عن الحكايات المنسية الغريبة، واستمر "باموك" في جلب المزيد من الأحجار الكريمة من أعماق صندوقه. كنا مثل الأطفال عندما يبدؤون في المنافسة دون أن يدركوا ذلك حقًّا، ومن دون انتظار نهاية القصة التي تجري، بل يتدخلون فورًا ويبدؤون في تكملة ما بدؤوه. قال "باموك":

- وهل تعلم.. هل تعلم أنه فقط في السبعينيات من القرن العشرين تم إعلام العامة بوجود القاموس المكون من ست لغات الذي تمت كتابته في القرن الرابع عشر، ولأكون أكثر دقة بين عام 1363 وعام 1377؟ قام بتجميعه الحاكم اليمني "الأفضل العباس" سليل الأسرة الحاكمة؛ العائلة الرسولية. يوجد به ألف ومائة مصطلح فارسي وما يوازيه في اللغة التركية، والإغريقية (اللغة البيزنطية الحديثة)، والأرمينية، والمنغولية، والكيليكية (وهي فرع من اللغة الأرمينية التي تم التحدث بها في جنوب شرق تركيا اليوم على المنطقة الساحلية في "أضنة"). تم الاحتفاظ به حتى اليوم في صنعاء

باليمن. هل يمكنك أن تتخيل طرق التجارة في ذلك الوقت، والثقافة والحضارات التي كانت موجودة حينها التي دفعت شخصًا ما ليحاول الربط بين هذه اللغات؟ بالتأكيد لم يفعل ذلك بدافع الكسل أو الهوى، ولكن لأنه كان متطلبًا ضروريًّا!

واستمر "باموك في اختباري:

- ما المصطلح الذي تظن أن القاموس قد بدأ به؟

وبالأخذ بالاعتبار، الزمن الذي كُتِب فيه هذا القاموس لم يكن من الصعب استنتاجه فقلتُ:

- على الأرجح بدأ بكلمة "الإله"، الكلمة الشائعة والأكثر أهمية لهم جميعًا.

فقال لي:

- إجابة حاذقة. عامة، يتم وضعهم جميعًا بالقائمة: من الله بالعربية إلى "خداي" khuday بالفارسية، و"تنجري" بالتركية Tengri، و"أو ثيوس" بالإغريقية O Theos، و"أستاوتس" بالأرمينية Astuats، و"تنجري" بالمنغولية (ولأنها الكلمة نفسها في اللغة التركية، فلم يقم بإدراجها في القاموس). ومع ذلك، يمكنك التوصل إلى العديد من الاستنتاجات من خلال بعض الكلمات. فعلى سبيل المثال، كلمة "معطف المطر" توجد لها كلمات موازية في اللغة المنغولية وهي "داكو" daqu، وفي اللغة الفارسية هي "باراني" barani، وفي اللغة التركية هي "يغمورلق" yagmurlug.. في حين لم يكن لهذه الكلمة مرادف في اللغة العربية، ولا عجب في عدم وجود هذه الكلمة في اللغة العربية.

فقلتُ له:

- هل تقصد لأنهم لم يكونوا بحاجةٍ إليه في بلادهم بسبب الحر وندرة نزول المطر، فلم تكن الكلمة نفسها ضرورية من الأساس؟

ومع ذلك، فبِقَدْر ما فاجأني وجعلني سعيدًا بهذه الحقائق، فقد أحزنني أيضًا عندما قال:

- ولكنني لسنوات كنتُ أبحثُ عن قاموس في هذه الفترة ذي خمس لغات مثل هذا القاموس، ولكنني لم أجد. وهو شيء مهم بشكل استثنائي بالنسبة لي، خصوصًا إذا كان صحيحًا أنه يحتوي على اللغة الصربية القديمة بجانب اللغة التركية (العثمانية)، والفارسية، والعربية، واللاتينية. ولكن حتى الآن لم يحالفني الحظ. إما أن قصة وجوده هذه غير حقيقية، وإما أنني لستُ ماهرًا بما يكفي في البحث وإيجاد الأشياء، لذلك فإنها تفلت من قبضتي باستمرار.

يجب الاعتراف بأن مثل هذه الحقائق كانت ذات أهمية استثنائية. أهميتها تتعدى حدود الشعور بالراحة أو تعزيز الثقافة. بل على العكس، إنها تتحدث عن ثقافات التي - لأسباب متعددة - نسيت أمر "الثقافات الأخرى المنسية".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن والعشرون

"متى حدث لي أن شعرتُ بأنني خالق أو صانع شيء ما؟" كان هذا ما يدور بخلد "باجيكا" منذ اللحظة التي صار فيها "محمد". لم يجعله التفكير بـ"سنان" ينعم بأي سلام، لأنه دائمًا يذكره بتوجهه الذي لا يقبل المساومة تجاه التدمير. بصرف النظر عن كم حاول أن يفعل ذلك، لم يستطع اجتثاث غيرته من "سنان" لمقدرته على البناء من قلبه، وقد شعر بهذا بكل صدق ولكن دون أي حسد. ومن فرط إحباطه، ذهب إلى السنوات التي خلَّفها وراءه ليبحث فيها عن قشَّةٍ من عمل مبدع قد يكون قام به ليتمسك به. فلماذا إذن والآن بالذات بعدما تم تعيينه في هذا المنصب الرفيع نجح في قمع هذا الشعور؟ حسنًا، بكل دقَّةٍ حدث هذا لأنه أصبح جزءًا من المجلس الذي يتخذ كل القرارات بخصوص كل الأمور المهمة في حياة الأفراد، والأمور المتعلقة بإدارة الإمبراطورية كلها بشكل مباشر. ولأنه لم يخفِ مطلقًا مسؤوليته الشخصية، فبالتالي لم يكن ليخفيها وهو في مثل هذا المنصب. وقد أجبرته على أن يُقَيِّم موقفه الحالي. ولكن النظر إلى التنظيم الكلي لإدارة الدولة من مسافةٍ بعيدة جعله يدرك أنه قد استقل سفينة لا يستطيع أن يترجَّل منها طوع إرادته، حتى يعلن "أدميرال" كل "الأدميرالات" أن السفينة قد رست على الشاطئ. بدت الرحلة طويلة جدًّا، والسفن الدخيلة لم تكن مستحبة. والركاب، بصرف النظر عن درجة أهميتهم، يمكن فقط إلقاؤهم في عرض البحر. كل هذا بناء على ما يفرضه صوتٌ انتخابيٌ واحد.

ساعدته المياه مرةٌ أخرى! تذكر عندما اعتاد أن يكون صانعًا مبدعًا! حسنًا، في ذلك الوقت، لم يكن يعرف الكثير بخصوص المعارك في الماء، وقد كان ذلك هو الوقت الذي كُلِّفَ فيه بقيادة الأسطول وتَحَمُّل مسؤوليته، والقيام بشيءٍ ما بعد وفاة الأسطورة اليونانية "خير الدين بارباروسا"، القرصان الذي أصبح فيما بعد قائد القوات البحرية العثمانية كلها. وبعد أن عينه السلطان في المنصب الذي احتله "باربروسا" من قبل، قدَّم الكثير للإمبراطورية والسلطان نفسه بالتأكيد. فقد أنشأ ورشة وحوضًا للسفن، حيث جرى بناء أسطولٍ كاملٍ جديد في عدة أشهر. لقد أثبت أنه يستطيع التجهيز والإعداد لكل شيء، ابتداءً من السفن إلى تنظيم الأسطول بأكمله للحظات الهامة الحرجة حين الغزو أو الدفاع. ولكنه ترك صنع المعركة والقيام بها لأولئك الذين هم أفضل منه في ذلك. على الأرجح كان ذلك هو الوقت الذي لاحظ فيه "البادشاه" (السلطان) أي نوع من الرجال كان بجانبه؛ لقد كان من النوع صاحب الذهن الصافي والعقل الحاضر، حتى عندما ترى الخوف في عينيه. وقد كان في هاتين العينين، حيث لاحظ السلطان وجود شيء أقوى، حتى من الخوف؛ الشعور بالمسؤولية تجاه الثقة التي توضع فيه، حتى وإن كانت مسؤولية مفروضة.

والآن، بسهولةٍ أكبر وبغيرةٍ أقل، تذكَّر ما ذكره "سنان" من أسماء المهندسين والحرفيين والمساعدين الذين قاموا بالبناء معه بالفعل، أو بالاستمرار في البناء وإنهاء الأعمال التي بدأها وخطط لها ورسم لها التصميمات، أو قاموا بتنفيذ أفكاره التي اقترحها. كبير مساعديه كان اسمه "هدايت" Hidayet وقد كان هو الشخص الوحيد الذي لديه إذن خاص بمباشرة العمل والإشراف عليه في الأوقات التي لا يكون "سنان" موجودًا بها، ابتداءً من أكثر الأعمال حِرَفيَّة، وصولًا إلى الأعمال التي تتطلب اتخاذ قرار من النوع الذي يُسَمَّى قرارًا فنيًّا. أمَّا بنَّاءوه، فقد كانا "محمد تشافوش" و"محمد مصطفى". كبير عمَّال الرخام كان اسمه "قاسم مرمري" (حتى إن اسم عائلته يعني رخام أيضًا) وكان معه

"مصطفى نبي". وكان "هاشي مصطفى" مسؤولًا عن الزجاج، و"سفير" و"أحمد" و"علي" كانوا مسؤولين عن متاجر الحرفيين، و"باقي" المسؤول عن النقل، وهو مالك الأرض التي عليها الأحصنة، و"حسين" كان أيضًا أحد ملاك الأراضي، ولكنه كان مسؤولًا عن العمال. هذا بالإضافة إلى آخرين مثل التاجر "تاشير" الذي أشرف على الإمدادات من المواد الخام، و"جورجر" اليوناني، والصربي "سيمو"، وقد كانت وظيفتهما.. مهمات سرية. ومن وقت إلى آخر، كان "إيمره" حاضرًا كمساعد إضافي لـ"سنان" عندما كان يحتاج إلى دعم من مساعديه الاحتياطيين، وهذا عندما يزداد العمل عليه كثيرًا.

تذكر "باجيكا" هذه الأسماء، ليس فقط لمجرد أن "جوزيف" كان كثيرًا ما يذكرهم في أحاديثهما معًا، ولكن لأن لديه سببًا آخر مميزًا للغاية؛ لقد كان يرغب بشدة في أن يكون لديه مثل هؤلاء الخبراء الذين يمكن الاعتماد عليهم حوله، والذين يربطهم هدف واحد صالح مشترك، والذين سيُخْرِج منهم أفضل ما فيهم. فبعد كل شيء، كانت هذه هي أكثر الطرق التي تضمن لرجل أن يحيط نفسه بكل أولئك الناس الذين يمكن الثقة فيهم والاعتماد عليهم. ومع ذلك، تم تطبيق بعض القواعد الأخرى التي يجب أن تطبق في طريقه. لما كانت الترقيات تعتمد على الفتوحات في زمن الحرب (وهذا بالمناسبة يعني أن تأخذ ما ينتمي إلى الآخرين - الأحياء والأموات - في طريقك في هذه الحملات)، فقد تم بناء مفهوم الغزو على حسب شخصيات المشاركين. ومثل أولئك الناس كانوا يرون، حتى الذين في صفوفهم كأعداء، ومن ثَمَّ كانوا يعاملونهم بناءً على هذا المنظور. وفيما يتعلق بالشعور الجذاب الذي لا يقاوم في الرغبة في فرض السيطرة والتحكم بالآخرين، والإسراف في استخدام الثروة، بدت الحكومة والخدمة العسكرية كميدان معركةٍ خفي. وفي هذا الميدان وبالاعتماد على طرق مختلفة، يقومون بارتكاب الظلم والشر نفسيهما اللذين يمارسونهما في الحملات. الفرق الوحيد هو أن هذا الشر يتم ارتكابه هنا بينهم، وهذه الأعمال الشريرة لا يسبقها القتل، بل تسبقها المكائد والتدخل في شئون الغير والكذبات الفاضحة. ومن حين إلى آخر، تنتهي الحيلة في الواقع بموت شخصٍ ما. وإحقاقًا للحق، في كل هذه القضايا، أولئك الضباط المخلصون في مهنهم والموظفون في الدرجات العليا لديهم في عائلة السلطان مثل وقدوة يحتذون بها في مثل هذا السلوك.

بالإضافة إلى مساعده الشخصي "فريدون"، لدى "باجيكا" ولداه بجانبه أيضًا. وربما أصبح جاره "العمادي" عمودًا وسندًا له تمامًا كما بدا له أن "جوزيف" وجد شخصًا مشابهًا له في زياراته المتكررة إليه، وهو الشاعر الكبير "ساي مصطفى شلبي" الذي كان معلم السلطان "بايزيد الثاني" يومًا ما في مدرسة "إنديران". والسلطان "سليمان" الحالي أيضًا لم يكن يستطيع أن يقاومه، لأنه مثل "بايزيد" كان هو أيضًا يدعم الشعراء والفنانين. حتى إنه كتب بعض الشعر بنفسه تحت الاسم المستعار "مُحبة"، وتحدث عن أعماله الشعرية مع "شلبي". كان كل من "العمادي" و"شلبي" أكبر بكثير في السن من كبير مهندسي الإمبراطورية والوزير الثالث، ويبدو أن خبرتهما الهائلة كانت تعني الكثير لكل من "محمد" و"سنان" في محاولاتهما للبقاء على درجةٍ عاليةٍ من الوعي والعملية في عملهما. ومن ناحية أخرى، اعتقد هذان الرجلان الحكيمان "باجيكا" و"جوزيف" أنهما أفضل خيار لهما كشركاء في الحديث، لأنهما كانا مختلفين عن الآخرين في أنهما كانا يرغبان في التعلم.

ومع ذلك، لم يستطع "محمد" أن يُبْقِي كل أولئك الأشخاص الذين يود أن يبقوا بقربه حوله كما فعل "سنان". الأشخاص الذين احترمهم - والذين لم يكونوا كثيرين - تقلّدوا مناصب متنوعة في وظائف لا تربطها أي صلة. اكتشف أن مثل هذا القرب يتطلب جهدًا أكثر جدية وديمومة مما ظن. ولذلك بدأ

بملاحظة الأمور ومراقبتها وتحليلها بشكل أكثر حذرًا، على الرغم من أن هذا ما كان يفعله طوال حياته. وفي كل الأحوال، لقد كان ممتازًا في هذا. وبتقدير تقييم معرفة وسلوك وخبرة ودوافع وأهداف أولئك الأشخاص الجديرين بجذب انتباهه، بدأ ببطء في إعداد خطط لجعلهم أقرب إليه. ومرةٌ أخرى، هذا يعني أنه من تلك اللحظة فصاعدًا عليه أن يقيم نفسه والأشياء التي عليه القيام بها بشكل أكثر عملية. وهذا يعني أنه يجب أن يكون له تأثير على الأحداث، وألا يدع كل شيء خاضعًا للمصادفة، وألا يتصرف وكأنه ليس له دور بأي شيء. وهذا لا يتطلب تأسيس أي رغبة جديدة من أي نوع أو تغييرًا في أي من صفاته الشخصية. ولكن هذا يعني أن عليه أن يراقب ويتصرف وفق منظور جديد سيذكِّره بين حين وحين أن لأفعاله تأثيرًا على مستقبله. وساعده على ذلك حقيقتان: الحقيقة الأُولى، هي أنه أقوى رجل في الدولة - وبناءً على أفعال "باجيكا" - كان هذا واضحًا، فقد قام بتقييم إمكانيات "باجيكا" وصفاته جيدًا، ومنصبه الجديد هو الدليل على ذلك. نية السلطان الجيدة ومشاعره وانطباعاته كانت واضحة؛ يمكن رؤية هذا بالطريقة التي - على مدار الثلاثين سنة التي قضاها "باجيكا" في الخدمة في محيط الحاكم بكل اتساقٍ ومثابرة - كلَّفَ بها "باجيكا" بالعديد من المناصب بشكل منهجي تمامًا، وببطء، ولكن دون توقف أحيانًا يعاقبه، وأحيانًا أخرى يقلل رتبته. استمر تقدمه مدةً طويلة بشكلٍ استثنائي، وكان يُكافأ على ذلك خطوةً بخطوة، ولم تكن أيٌّ منهم كبيرة، وفي الوقت نفسه لم يتم تخطِّي أيٍ منها، خصوصًا التي حصل عليها عندما كان يتقلد المناصب الدنيا. كانت كل ترقية جديدة مُسْتَحَقَّة بفضل المجهود الضخم المبذول للوصول إليها. وفي هذا، أظهر السلطان موقفًا مسترخيًا غريبًا تجاه الوقت؛ كأنه متأكد من أنهما سيعيشان مائة عام!

وبينما هو جالسٌ مُنَعَّم بسلام منزله، وفي حين يلخص في عقله كل ما تم القيام به بالفعل، رأى "باجيكا" خطًّا طويلًا، ولكنه مستقيم. والآن من الأفضل التفكير في شيء يربط الماضي بالمستقبل على وجه الخصوص لمزيد من اليقين والأمن.

وقد توصل إلى بعض الاستنتاجات. كان الرابط هو عائلته الكبرى. عائلة "سوكولوفيتش"، وبالأخص الصغار منهم، أولئك الذين ما زالوا بأرض الوطن! "عليهم أن يكونوا هنا. لأنهم عندما كانوا كلهم هنا، حسنًا، كانوا كلهم في صفنا. وعندما يكونون كلهم في صفنا، سيصبحون أقوياء"، هذا ما كان يدور بخلده.

والآن، عندما وصل إلى منصب الوزير الثالث للإمبراطورية، فلا بدَّ من أن يكون لهذا الرقم الموضوع بعد لقبه دلالة. لم ينسَ الأرقام التي تخطاها بالفعل. ولكن عليه أيضًا أن يفكر بشأن هذين الرقمين اللذين ما زالا يقفان أمامه. ربما، كان بعضهم مُقَدَّرٌ له أيضًا.

اتضح أن بِدْءه في تنفيذ خطته بإحضار أبنائه، وكل الذكور في عائلته - الصغار والكبار - من البوسنة وصربيا إلى إسطنبول و"أدرنة" كانت خطوة في منتهى الذكاء والعملية أيضًا. وبانتشار الشائعات في "القسطنطينية" حول وصول المزيد من مسيحيي عائلة "سوكولوفيتش"، لاحظ "باجيكا" أن هذا أحدث جلبةً جديدة حوله في البلاط، كما ازداد الخوف منه. وعلى الرغم من أنه لم يكن سعيدًا بهذا، فإنه تقبل هذا الوضع، لأنه أمَّن له قدرًا من السلام؛ لم يعد الناس يقتربون منه بسهولة، ولم يعودوا يشغلونه عن عمله دون داعٍ. وبسبب إحاطته لنفسه بأقاربه، بدا للآخرين أن "محمد" كان ينشئُ جدارًا يختبئ وراءه، حيث يضعٍ الأساسات لسلطة مستقبلية. لقد ساعدوه؛ بدا هذا جَلِيًّا واضحًا على مدار السنوات القادمة العاصفة من حياته.

كان يقضي كل وقت فراغه في التمشية مع المفتي "عمادي" على الشاطئ، في حين يتناقشان في أمور نظام الدولة، والقانون، والمستقبل، والعلاقات مع أوروبا، وفارس.. ولكنهم أيضًا استمتعوا بالحديث عن الفنانين والشعراء، وخصوصًا عن إسهامات "سنان" العظيمة في بناء الإمبراطورية. في بعض الأحيان، كانوا يتجولون على الهضبة، حيث كانت المباني تُشَيَّد تكريمًا للسلطان، الواحد تلو الآخر: مطبخ عام، ومستشفى (مع صيدلية وحمام ومخبز)، وفندق، وحمام عام، وأربع مدارس، وتكية للدراويش.. وفي وسط كل هذا، يرتفع المسجد الذي أوشك بناؤه أن ينتهي في شموخ. الأشياء الوحيدة التي يزداد ارتفاعها عن ارتفاع المسجد هي الأربع مآذن. امتدت هذه الإطلالة من الهضبة نفسها ليراها مَن هو في ميناء إسطنبول و"أوسكودار" عبر المياه.

باقتراب الانتهاء من بناء مسجد "السليمانية"، بدأ هذا يُسبِّب توترًا لدى السلطان. وقد أدت الأحداث الجديدة في الأسرة الحاكمة إلى اضطراب أكثر جِدِّيَّة في سلوكه الطبيعي. زوجته "روكسيلانا" التي اشتد عليها المرض، والتي بدأت تشعر بأن نهايتها قد اقتربت، فسارعت في هوسها الجديد. على عرش الإمبراطورية العثمانية، أرادت أن ترى ابنها الصغير "بايزيد" حاكمًا، الذي اتضح أنه كان أكثر قدرة على الحكم من شقيقه "سليم". ومع ذلك، كان القانون يقف في صف الابن الأكبر. الحق الذي لا يمكن إنكاره أو تغييره هو أن العرش من حق الابن الأكبر؛ أي من حق "سليم". وعلى الرغم من هذا، لم تستطع الأم أن تتصالح مع هذا، وأنشأت الخلاف بين ولديها، حيث كانت تثني على ابنها الأصغر وتشجعه ليقاتل ليحصل على العرش. هذه المرة، انسحب صهرها "رستم باشا" وزوج ابنتها "مهرماه"/ "مريم" من هذا الخلاف العائلي، إذ كان قد تعلَّم الدرس من تجربته الحديثة. ومع ذلك، أعطى هذا للآخرين مجالًا للتدخل في الأمر كله، ومطاردة مصالحهم الشخصية. رأى "لاله مصطفى باشا"، الأخ الأصغر لـ"خسرو باشا الدلاتي"، وابن عم "محمد باشا سوكولوفيتش" - وهو الشخص الذي علمه "باجيكا" بعض المهارات، وقام بحمايته في "أدرنة" - في ذلك فرصةً لنفسه.

سواء كان دافعه وراء هذا هو غضبه، لأن السلطان جرَّد أخاه من الختم عندما كان الصدر الأعظم في مصلحة "رستم باشا"، وهو ما أدى إلى وفاة "خسرو باشا الدلاتي"، أو لسببٍ آخر، ولكنه أصبح العمود الفقري في مكائد السلطان. وحتى لا يظن أحد أنه ينتقم لأخيه الوزير السابق، أتى "رستم باشا" إلى "باجيكا" ليطلب مساعدته. وقد طلب من "محمد باشا" أن يعامله كأحد أقاربه، وأن يحذره عند اللزوم. وافق "باجيكا"، ولكنه بعد ذلك ذهب إلى السلطان برفقة "العمادي" لينبئانه بالمكائد التي كانت تصير من ورائه. استقبل السلطان هذه الأخبار بهدوء؛ من الواضح أنه لا يريد أن يدمر آخر ما تبقى في نفسه من احترام لحبه السابق "روكسيلانا". ولكنه بعد ذلك صبَّ كل غضبه على "معمار سنان" وهو رجله المفضل. فأتى "سنان" إلى الجارين يشكو إليهما عدم منطقية الحاكم. أخبرهما بأن السلطان هدده بالموت، وأنه وعده أن يسلمه مفاتيح مسجد "السليمانية" في غضون شهرين. وبالإضافة إلى ذلك، أمره "البادشاه"(!) بأن ينهي تجهيز "التربة" (الضريح المقبب) له ولزوجته "هاسيكي خُرم". وبعد ذلك، ودون التراجع عن التهديد، ولكن بشكل أكثر هدوءًا إلى حد ما، أخبر "سنان" أنه سُمح له ببناء "تربة" لنفسه بجوار فناء المسجد مباشرة، لأنه كان يرى بوضوح أن "سنان" يستحق ذلك؛ يجب أن يكون أكثر المساجد التي رأتها الإمبراطورية جمالًا.

لم يكن "سنان" لينخدع عندما قال له "باجيكا":

- حسنًا، أنت ترى الشرف الذي منحك إياه السلطان بالسماح لك بأن تكون بالقرب منه بعد موتك، حتى إن كانٍ ذلك عند قدميه، وأنت قلق خوفًا من أن يأمر بقتلك!

فأجابه قائلًا:

- هذا لا يعني أي شيء. يمكنني أن أبني مقبرتي في مكانٍ ما ذي مكانةٍ رفيعة، وبعد ذلك يأمر بقتلي، ويقوم بدفني هناك بشرف. لا أدري كيف يكون ذلك القتل بشرف، ولكنه يستطيع أن يأتي بمثل هذا الشيء إن كان ضروريًّا.

وعلى الرغم من أنه قال هذا كمزحة، فإن هذه الكلمات أشارت إلى أنه بصرف النظر عن سلوكه الغريب، ما زال "سليمان" هو أقوى حاكم في آسيا وأوروبا.

وبالتأكيد، فقد أعلمه "سنان" بانتهاء أعمال البناء في اليوم الذي وعده به. وبعد ذلك، أَتَتْهُم مفاجأة أخرى من "البادشاه" المعظم. في الافتتاح العظيم، وقد كان احتفالًا لم ترَ "القسطنطينية" مثله من قبل، وأمام كل الحاشية ومن حضر من الشعب، قام السلطان بتسليم المفاتيح إلى "خوجة معمار سنان"، وقال له أن يفتح هو الأبواب. وعلاوة على ذلك، سأله بصوتٍ عالٍ أمام الجميع:

- ولماذا لم تضع اسمك على المسجد؟

كان "سليمان" جادًّا. أراد أن يثني على "سنان" ويمدحه أمام الجميع بكل الطرق الممكنة، وربما تمادى في إظهار رحمته تجاه "سنان".

لم يرتبك "سنان" وقال:

- مَن أنا لأضع اسمي على بيت الله؟

رفع السلطان رأسه بفخر بالحاشية التي عنده.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

29

لم أعد أستطيع أن أتذكر كم مرة ذهبتُ إلى تركيا لأجمع مادة علمية لتأليف هذا الكتاب، حتى عندما كنت أسافر إلى هناك مع عائلتي في الإجازات. فبالإضافة إلى المتعة التي كنا نجدها في ذلك البلد الرائع والاستثنائي، كنتُ أختلس بعض الوقت من حقي في التنعم بالراحة كسائح للبحث عن المزيد من المعلومات. كانت الاستنتاجات التي توصلتُ إليها في بعض الأحيان غير متوقَعَة. مثل الفترة من حياتي التي وجدتُ نفسي فيها بسهولة في الموسيقى، فانجذبتُ إليها وفقدت إيماني بالأدب، لأن الموسيقى كانت أكثر جاذبيةً بالنسبة إليَّ. ولذلك، في مهمة البحث عن المزيد عن أبطالي، كنتُ مفتونًا بما أرى أكثر مما أقرأ. لحسن حظي أن الشخصية الرئيسة في كتابي، بالإضافة إلى "خوجة معمار سنان"، كان سياسيًّا (كما نقول في يومنا هذا)، وهو "محمد باشا سوكولوفيتش"، وليس كاتبًا. إذا كان هذا هو الحال، فإن هذا الكاتب سيكون اليوم في وضع سيئ للغاية في هذا الكتاب، مقارنةً بالمهندس المعماري. لأنني عند الوقوف أمام تلك المباني المُشَيَّدة، وعند رؤيتي قوتها وصلابتها وجمالها، فإنها ستفوز بإقناعي بشكلٍ مذهل، وسأحاول كأي أحدٍ آخر أن أصفها، ولكنني سأفشل في ذلك من فرط الإبداع الذي فيها، ولأن الكلمات لا يمكن أن يكون لها تأثير عليها. هذه الصور الحية أمام عيني، بصرف النظر عن أبعادها، كانت مهيبة ومذهلة ورائعة مقارنةً بأي عملٍ آخر، وخصوصًا بسبب التفاصيل الموجودة فيها التي تتكون منها. ربما تم دمج المرئي والخبرة معًا في فنٍّ جديد لم أكن أعرفه. فنٌّ لم يكن موجودًا من قبل. فنٌّ لا يمكن أن نصنع مثله، لأنه مصنوع من العديد والعديد من الوسائط المختلفة. كيف يمكن له أن يصنع من الحمَّام شيئًا جديدًا؟ كيف استطاع إبداع صنعه بهذا الشكل بحيث لا يكون له مثيل، ولا توجد منه صورةٌ، أو يمكن أن يُعَبِّر عنه وصف، بل ولا يزال فنًّا؟ تلك الموسيقى التي فتنتني لدرجة أن تبعدني عن الكتابة لم تكن بها هذه المشكلة، لأنه تم تأليفها بوصفها شيئًا حديثًا، بل وكانت ضمن حدود إطار فني معين، على الرغم من أنها أيضًا كانت مكونة من كلمات، ولأكون منصفًا، من كلماتٍ غير مكتوبة. حسنًا، أي نوع إذن؟ نوعٌ غير موجود! بنهاية السبعينيات من القرن العشرين، قام الملحن الويلزي " كارل جينكينز" - بعد أن قلَّد الموسيقى الكلاسيكية التي حصل على تعليم فيها - بتقديم عناصر جديدة، حيث كان معروفًا حينها بالطراز العرقي في الموسيقى الحديثة. ومثل أي كاتب / مؤلف نوتات موسيقية ماهر وذكي بعض الشيء، فقد كان يعلم أن أكثر اللمسات رقة على الروح تأتي من الآلة ذات الصوت الأكثر تشابهًا مع الصوت البشري "التشيلو"، وقد استخدمها بكثرة، لكنه أضاف أيضًا صوتًا إليها. باستخدام تقليد جوقة من الإناث تغني من أفريقيا، "كابيلَّا" capella وهي طريقة غناء كنائسية تعتمد فقط على الصوت البشري دون استخدام أي آلات موسيقية، قام بدمج هذا مع الأصوات المفردة في الإطار الموسيقي الذي كان يبنيه. ولكنه كان يريد هذا الصوت للغناء فقط وليس للفهم. اللغة أو النص الذي كانوا يغنونه لم يكن موجودًا - لم يكن ينتمي إلى أي لغة - بل كان مصنوعًا خصوصًا لمقطوعاته هذه. وبالمخاطرة بتقديم مقطوعة من الممكن أن يحدث بها خطأ ما، فبدلًا من التركيز المعتاد على الاستماع والقدرة على تفسير الأغنية، قام بجعل الأمر كله يقتصر على الاستماع فقط. لم يكن هدفه أن يفهم الجمهور النص الذي يستمع إليه. ربما - على حسب ما فهمت - كرَّس كل هذا للإله: لأي إله من الآلهة، ربما للإله الواحد الأكثر شيوعًا، أو لكل إله على حدة. "أديموس" ككلمة يوجد بها جذر لاتيني، ربما حتى

يدرك المستمع بشكلٍ أو بآخر المرجعية التي استقى منها المؤلفَ لحنَه. حسنًا إذن، لقد كان لديه الحق على الأقل أن يفعل هذا إن كان قد أخضع كل شيء آخر إلى عامل مشترك رئيس، لأنه كما يشير العنوان الفرعي لمقطوعته أنها "أغنيات من مكانٍ مقدس". طور هذه الموسيقى (في هذه الحالة تكون الكلمة المناسبة هي "المشروع") على مر السنوات، وعلى مدار مجلدات متعددة. أصبح العالم مكانًا أفضل بفضل موسيقاه. حتى إن لم يجعل من العالم مكانًا أفضل، فعلى الأقل أصبحتُ كذلك.

ومثلما وقف "جينكينز" أمام صورةٍ لإله من نوع ما، وقفتُ أنا مشدوهًا مفتونًا بأحد المباني التي شيَّدها "سنان". لم تقلل معرفتي المفضلة المسبقة عن تاريخ المبنى الذي أراه من دهشتي الطفولية. بل على الأرجح ازداد حماسي بفضل بحثي المكثف، وهذا ما جعل الأمر يتحول إلى مغامرةٍ حقيقية. لم أكن أستطيع أن ألتقط أنفاسي من فرط إعجابي بالمنشآت التي أجدها أمامي فجأةً في الأماكن المفتوحة، أو عندما تظهر من بعيد من بين الكثير من المباني الأخرى على مرمى البصر عندما تنظر من زاوية معينة، وكانت إثارتي تزداد أكثر من ذلك عندما أعثر على واحدٍ من آثاره التي بحثتُ عنها كثيرًا ولم أجدها. وعندما أجد أحدها.. تتحول سعادتي باكتشافه إلى سطحية السائح؛ أبدأ في التقاط الصور لهذا "الشيء"، وأكتب شيئًا عنه في التوِّ واللحظة، وأن أدرس تفاصيله بقدر ما يسمح لي الوقت المتاح، أو بقدر ما تسمح به القواعد، وأحاول أن أهضم وأمتص كل ما رأيته، لأحتفظ به داخلي، دون أن أعرف إذا كنتُ سأستطيع يومًا كتابة شيء عبقري يحسنُ التعبير عنه ووصفه. وبمرور الوقت، تحولتُ إلى خزانة أرشيف ضخمة، والتي أصبحت ثقيلة لدرجة أنها لا يمكن أن تتحرك. ومع ذلك، فإن جنون العظمة من جمع جبل من الحقائق لم يكن مقلقًا في حد ذاته. فلتتحرر من هذه الخزانة، يستخدم المرء القليل جدًّا من المعلومات الموجودة بها. إنني خبير في هذا. المئات من الحقائق، قد يقول بعضهم إن هذا أكثر من اللازم، ولكن دور هذه الحقائق - مثل دور الوسائد الهوائية بالسيارة – أنها تحمينا من صدمات الفشل أو الشعور بالعجز. والحمد لله، الكاتب مخلوقٌ عنيد لا يستسلم بسهولة للفشل أو لقلة الحيلة؛ على الأقل إنه يحاول ألا يفشل.

وبمرور الوقت، تعلمتُ أن أنظر إلى المباني وكأنها موسيقى. أعزل نفسي تمامًا عن الواقع، وبعد ذلك أبدأ في رؤيةِ هذه الموسيقى. عندما يبدأ العزف على الآلات الوترية (فضلًا عن "التشيلو") تبدأ النوتات الموسيقية في الانتشار باتساع، فيتحول التعقيد إلى بساطة نقية، وسيجد البناء مكانه على الرف. تختفي خزانة الأرشيف، وتزدهر الكتابة مرة أخرى، دون أعباء.

سواءً أراد أن يصبح الأمر هكذا أم لا، ظلَّ "سنان" أكثر شهرة بفضل هذه المباني العملاقة التي أنشأها. هذا مفهوم، كانت المساجد أماكن لمناجاة الله، ومؤسسوها كانوا إما السلاطين أو كبار الوزراء، فقد كانوا هم فقط حينها القادرين على منح كل شيء لما هو أعظم منهم. لا جدال في الطابع الأثري الهائل لبناء "السليمية" في "أدرنة"، و"السليمانية" في إسطنبول. المعرفة، والثروة، والعقيدة، ومهارات الإمبراطورية كلها تم استثمارها فيهما، لأنها آثار للكل في كل شيء، لأنها هدية حقبةٍ ما للأخرى.

وعلاوة على ذلك، وكما ربطت بيوت الله التي شيَّدها "سنان" عصورًا مختلفة، قامت الجسور التي بناها بربط الشعوب والجوانب المختلفة. وعلى مدار فترةٍ من عشر سنوات، قام ببناء جسرين متساويين في الروعة والعظمة، ولكن في أماكن مختلفة: أحدهما في "بيوك شكمجه" والآخر في "فيشجراد". أحدهما بُني لحاجةٍ ضرورية؛ فعندما كان السلطان "سليمان" عائدًا من إحدى رحلات الصيد إلى قصر "طوب قابي"، كاد أن يُقتل عندما سقط بخيله في البحيرات الضحلة بالمناطق النائية

بإسطنبول، حيث كانت المياه تصل إلى هذه البحيرات من نهر "مرمرة". هذا هو الموقف، ولكن السبب وراء بناء الجسر/ الكوبري هو الآتي: كان هذا هو الطريق الذي اتخذه الجيش العثماني لسنوات عند انطلاقه في حملاتٍ إلى أوروبا، وكان قد تم التخطيط بالفعل للحملة القادمة في العام المقبل، وللعودة. ولذلك، فبداعي الحاجة المُلِّحة، قام "سنان" ببناء - كوقف من السلطان - "جسرًا يبدو كالجبل" والذي يعبِّر اسمه عن سبب تميزه واختلافه عن أي كوبري آخر: "ظهور الحمير الأربعة"! إنه يتكون من أربعة أقواس، وهو في الواقع عبارة عن أربعة جسور فردية، ولكنها متصلة ببعضها بعضًا، ولكل منها سطح حيث تتجه حركة المرور، يرتفع بلطف نحو المركز وينحدر تجاه طرفيه، الأربعة بالشكل نفسه. يبلغ طوله ستمائة متر، ويرتكز على ستة وعشرين عمودًا. ومثل هذا الكوبري المميز الذي لا يشبه أي كوبري آخر في أي مكان، يبدو للوهلة الأولى أنه أقل جاذبية من الآخرين. (على الأرجح لأنه يبدو وكأن له أربعة ظهور مقوسة). ومع ذلك، فبجانب هذه الحقيقة، كان أحد عجائب العمارة في القرن السادس عشر، وهو حقًّا بناء جميل في جوهره بُني بأصالةٍ وأناقة وثبات.

كوبري "فيشجراد" في البوسنة هو عمل بدافع الحب من قِبَل الصدر الأعظم "محمد باشا سوكولوفيتش"، قام بإهدائه لمسقط رأسه، وهو حبٌّ تشاركه مع صديقه المسيحي الأرثوذكسي "معمار سنان". كان ولا يزال الكوبري ذا أهمية استثنائية، لأنه لا يربط فقط ضفتي نهر "درينا"، ولكنه أيضًا يربط جزئين من العالم ببعضهما بعضًا. يجب القول بأن هذا لم يكن على الإطلاق ذا أي أهمية إستراتيجية للإمبراطورية العثمانية في أي وقت. هذا الكوبري يبدو أنه أكثر صلابة وقوة وضخامة، ولكن به لمسةٌ من الأناقة تتناسب مع مجمله، فهو بالضبط يشبه نهر "درينا".

كِلا الجسرين عليهما توقيع صانعهما بطرقٍ مختلفة. العمل الوحيد الذي يتكون من أربعمائة مبنى (في بعض المصادر - أكثر من أربعمائة وسبعين!) والذي انتشر عبر ثلاث قارات حيث ترك "سنان" اسمه هو بالتأكيد كوبري "بيوك شكمجه". علاوة على ذلك، لقد بقيت أيضًا جملته الشهيرة عن الجسر: "هذه هي التحفة من بينِ كل الأعمال التي شيدتُها".

وعلى جسر "فيشجراد"، تركَ صديقه "باجيكا سوكولوفيتش" رسالة بدلًا منه. فبعد بنائه، ترك "جوزيف" شهرة الجسر والتصديق عليه القادمين ليكونا من نصيب "باجيكا" وتراجع ليبقى في الظل.

كل الأشياء الأخرى التي قام بها الاثنان معًا، إذ كان أحدهما المالك وصاحب الوقف، والآخر المهندس والصانع، معروفة لمعاصريهما ولمَن أتى بعدهما. لذلك، من المثير للاهتمام أن نعرف أين أرادا ترك بصمةٍ شخصيةٍ خلفهما. هناك مكانٌ آخر ولكنه يوجد خلاف عليه، أو لم يتم إثباته بشكلٍ كافٍ، حيث تم تشييد واحد من أعز أفكار "سنان" وتحويلها إلى حقيقة. وهو ليس موجودًا - كما يمكن أن يعتقد بعضهم - في نص كتاب المنشآت "مذكرات سنان المهندس" الذي قام بكتابته صديق "سنان" الشاعر "ساي مصطفى شلبي"، وهذا ما أملى عليه به "سنان" نفسه. لم يكن هذا الكتاب معروفًا لقرون، ولم يُتح للعامة إلا مؤخرًا. الكتاب في حد ذاته وما يحتوي عليه، سواء النص أو المظهر، هو تحفة فنية في حد ذاته. ومع ذلك، وجدتُ توثيقًا للعمل الذي أبحثُ عنه في كتاب مؤلفٍ آخر يحمل اسم "ساي مصطفى" أيضًا، وهو "أوليا شلبي"، وهو أحد أشهر الرحالة في القرن السابع عشر. في كتاب رحلاته عن كل دول الإمبراطورية العثمانية تحت حكم السلطان "مراد الرابع"، والذي جاء بعنوان "سياحِة نامه" Seyahatname وهو نتاج رحلاته المستمرة طوال أربعين سنة! ومن ثَمَّ، ليس

مفاجئًا أنه كان مُكوَّنًا من عشر مذكرات (مجلدات). في الحقيقة، هناك مشكلة في كتاب "شلبي"، وهي أنه في بعض الأحيان يشعر بالحاجة إلى أن يعزز الحقيقة ويثبتها، وهذا ما أدَّى إلى أن بعض الأرقام عنده مُبالغٌ فيها، أو قد تجد بعض الأسماء المتداخلة. ولكن لا يجب أن نرى هذا على أنه تصرفٌ غريب إذا حاولنا أن نتخيل أو أن نحسب عدد الكيلومترات التي قطعها، والأماكن التي رآها ودوَّنَها، والأشخاص الذين كتب عنهم أيضًا. ومن ثَمَّ، لا يمكن لهذا النوع من الأخطاء أن يقلل أهمية الإنجاز والإسهام الذي قدمه لتاريخ العالم في كتابه.

وفقط كون هذه الخصيصة في عدم دقة حقيقة أو اثنتين، فهذا يعني عدم وجود بعض المصادر الأخرى المذكورة، فالبعض يتحفَّظ حول اقتباسه عن "سنان" في هذا الكتاب، حيث يتحدث عن عمله اليدوي الذي يُسَمَّى "مسجد سليمان هان" الموجود في "المدينة العليا" في قلعة "كاليمجدان"؛ يقول في الكتاب إن "سنان" قال عن هذا المسجد:

"بهذه المئذنة الموجودة في أرض الألمان في بلجراد - عاصمة أراضي "أونجار"(([55])) - وصلتُ إلى القمة في حرفتي. إنها مهارة هائلة. دع المهندسين الآخرين يصنعون مثل هذه المئذنة ولو من الخشب إن استطاعوا" (وفقًا لترجمة "حازم شابنوفيتش").

والسبب الآخر للشك هو أن "سنان" كان يعلم جيدًا إلى أي دولةٍ تنتمي بلجراد والتي لا يمكن أن تكون هي عاصمتها.

قام "شلبي" نفسه بالثناء على هذه المئذنة أيضًا، وبطريقةٍ استثنائيةٍ في الواقع، قال:

"إنه مسجد مليءٌ بالأضواء، وله مئذنةٌ متناسقة عالية بشكل راقٍ ورفيع، والتي تبدو جميلة لدرجة أن تظنها عملًا سحريًّا".

وعلى كل حال، نصه حافل بالكثير من المدح والثناء على بلجراد التي كان يحبها بكل وضوح، وقد عاد إلى زيارتها أكثر من مرة. فقد تحدث - على سبيل المثال - عن الخمسة أبراج التي تحيط بقلعة بلجراد ("كولا نيبويشا"، و"كرفينا"، و"كرفافا"، و"زيندان"، و"شاهين")، حيث قال عنها: "إنها تبلغ السحاب" وقال أيضًا إن "ارتفاعها يبلغ ما يشبه ارتفاع برج "جالاطة" في القسطنطينية". ومن هذين الوصفين، يمكننا أن نرى "رخصته الشعرية" التي بالطبع لم يكن الغرض منها تغيير الواقع. فبالنسبة له، بلجراد "جنة على الأرض". ومن ثَمَّ، من الواضح أنه إذا كان يبالغ، فهو لم يفعل ذلك لأن هناك مَن/ ما أجبره. مبالغته تعتمد على الأغلب على إجلاله وتقديره للأشياء التي يصفها.

لقد فعل "شلبي" ما فعله أسلافه - "محمد" و"سنان" - منذ مائة عام؛ لقد ترك بصمته الخاصة، والتي دائمًا ما ترتبط بمفهوم الهُوِيَّة. ما الذي تم تحقيقه بهذه البصمة، أو على الأقل ما الذي كان يحاول تحقيقه؟ الجواب بديهي: إنه يحمي هُوِيَّتَه.

وهذا هو السبب الذي دفعهما كليهما إلى بناء الاستراحات. لقد بُنيت حتى يستريح بها الناس بعد السفر عبر الطرق والجسور. اشتهر كلا الرجلين بهذا؛ العديد من الواحدة وثلاثين استراحة التي وقَّع عليها "سنان" بصفته المهندس الذي بناها و"سوكولوفيتش" بصفته المالك الراعي لبنائها. شُيِّدت على طريق الحملات العثمانية من إسطنبول إلى البلقان (معظمها إلى بلجراد) ومن ثَمَّ استطاعوا ربط هذه البلاد. كما تم تحصين طريق تجاري مماثل (وهو لتجارة الحرير) ببناء مثل هذه الاستراحات والفنادق في آسيا من بحر "قزوين" مرورًا بـ"حلب" و"بورصة" وإسطنبول إلى شمال البحر الأبيض المتوسط.

وجد "محمد باشا سوكولوفيتش" (مرةَ أخرى بدعم هندسة "سنان") أنه من الملائم أن يبني مثل هذا الفندق المتعدد الأوجه (بجانب المسجد) تمامًا بالقرب من كوبري السلطان "سليمان" في "بيوك شكمجه". وقد فعل بالمثل بجانب الوقف الذي بناه، أي كوبري "فيشجراد". وعلى الرغم من أن الكوبري كان يحمل اسمه العثماني وهو "صقللي محمد باشا"، فإنه عندما كان يشيد أي شيء في البوسنة أو صربيا، كان يتصرف كما لو كان "باجيكا سوكولوفيتش"، وقد كان حكيمًا، وبصفته راعيًا ومانحًا للأوقاف، لم يقم ببناء أي مساجد هناك.

ومن ناحية أخرى، جعل كل الاستراحات والحانات التي بناها على حدٍّ سواء من السفر أمرًا أكثر راحة للتجارة، والإعلام، ولدبلوماسية أفضل، ولكن أيضًا لشنِّ الحرب. وانطلاقًا من وجهة نظر هندسية، فعلى الأرجح أن هذه الشراكة بين "صقللي" و"سنان" تخبرنا وتتبئنا مَن سيكونون أصحاب أقوى سلسلة فنادق في العالم في يومنا هذا لو كانا يعيشان بيننا اليوم (مع قائد الدفة بالطبع، من الواضح عمن نتحدث. والمالك؟ حسنًا، بالطبع سيكون قائد الدفة، مَن غيره؟).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل التاسع والعشرون

غيَّر الوقت من السرعات.
بدأت الأحداث بالاندفاع واحدة تلو الأخرى كما لو كانت في دُوَّامة لا يمكن إيقافها، حتى إنها بدت أسرع، وبسبب حدوث المزيد من الأشياء، ولأن هذه الأشياء بدأت تحدث في كثير من الأحيان، فقد كانت الأحداث التي نتجت عن ذلك عظيمة.. وبعد ذلك، بدأت تلك الأحداث في التتابع لدرجة أن يلحق بعضها بعضًا، ثمَّ مضت الأحداث قُدُمًا، حتى إنها في بعض الأحيان كانت تحدث في الوقت نفسه. لم يستطع العديدون الصمود في تلك الأوقات وتزحزحت أقدامهم؛ ابتلعتهم تلك الدوامة وألقتهم جانبًا، وتركتهم جَرْحَى بندوب لا تَشْفَى، ثم إن بعض أولئك الأشخاص لم يتمكنوا من العودة مطلقًا.
شعر "باجيكا" أن العاصفة قادمة في الوقت المناسب. ولقد استعد لذلك بقدر ما ساعدته وسمحت له معرفته وآراؤه. لا يمكنه الاعتماد على خبرته في هذا الموقف، لأنه مثل أي شخصٍ آخر ليست لديه خبرة بمثل هذه المواقف.
لم يكن بناء "سنان" مقبرة للسلطانة "روكسيلانا" عبثًا، وإن كانت هذه الفكرة كانت قد جاءته متأخرًا وتم تنفيذها بسرعة. لقد تُوُفِّيَت دون أن تشهد نتائج عدم اتزانها؛ معركة الإمبراطورية كلها ضد ولديها، الشقيقين من الأم نفسها؛ هذا غير نتائج الحرب بين الأمراء! لقد عاشت بالفعل لترى قبرها، بجوار أعظم عمل يدل على تفاني الإمبراطور؛ مسجد "السليمانية" الرائع المهيب.
بصرف النظر عن محاولات الوزراء للبقاء خارج الصراع الذي بداخل العائلة الإمبراطورية، أتت اللحظة التي عليهم فيها أن يختاروا أحد الجانبين. كانت الوالدة "هاسيكي خرم" محقة عندما أكدت أن ابنها "بايزيد" أكثر جدارة، وأقدر على تولي منصب السلطان. وقد أيَّدها صهرها الصدر الأعظم "رستم باشا" ومعه "سوكولوفيتش" سرًّا في ذلك. ولكن يجب احترام القانون والنظام في الإمبراطورية. ولذلك، "باجيكا" الذي كان من المفترض أن ينفِّذ هذا النظام، اختار جانب الإمبراطور الشاب "سليم". أيَّد القانون الأعلى لوراثة العرش مبدأ أن الأخ الأكبر هو وريث العرش الشرعي. وعلى أي حال، يجب أن يكون احترام القانون هو الحل الأسهل. على الرغم من أنه اتضح أنه الخيار الأكثر صعوبة.
أعطى السلطان "سليمان" ولديه الفرصة لصنع السلام. وكونه صانع السلام، اختار أكثر أتباعه نقاءً في ذلك الوقت، والذي لم يشك بعدالته وإخلاصه، كما أنه من القلائل الذين لم يتدنسوا بعد، والذين أثبتوا مقدرتهم على الحسم بما يكفي، هذا بالإضافة إلى أنه ليس متقلب المزاج؛ فاستدعى وزيره الثالث "محمد باشا سوكولوفيتش" و"برتاو محمد باشا" الذي عيَّنه وزيرًا رابعًا على الفور. وكلَّفهما بمهمة التوفيق بين ولديه، أو تهذيبهما، حتى إن وصل الأمر إلى إعدام أحدهما. هذا يعني أنه حدثَ بالفعل، وبشكلٍ استثنائي، أنْ وجد وزيران من أصولٍ صربية مصير الإمبراطورية العثمانية كله بأيديهما.
وقبل المغادرة لبدء العمل في هذا التكليف، والذي من الواضح أنه سيستغرق وقتًا، قام "سوكولوفيتش" بفعل شيئين: نجح أولًا في إحضار ثلاثة من أولاد عمومته من البوسنة وصربيا ودعاهم إلى الإسلام، وتركهم في المدرسة التي بقصر "طوب قابي". كان مضيفوهم هم ولداه "حسن" و"كورد" اللذان كانا يرتادان هذه المدرسة منذ وقت طويل.

والأمر الثاني المهم الذي قام به كان مع المفتي "عمادي"؛ لقد حصل على دعم كامل منه حول مسألةٍ تناقشا حولها عدة مرات من قبل في الأوقات التي كانا يتمشيان بها معًا، وقد ناقشا كل ما يشمل هذا الموضوع، وهو أن الكنيسة الأرثوذكسية الصربية قد بدأت تجدد عملها بشكل منظم، وقد نالت قسطًا من الاستقلالية؛ بالطبع كل هذا بموافقة من السلطان. الكنيسة بالطبع ستعترف بداخلها بالتبعية لـ"القسطنطينية"، ولكنها في الوقت نفسه ستمثل بديلًا للدولة المستقلة غير الموجودة في أعين الشعب الصربي. والآن، بالطبع، لن يعتمد لا "سوكولوفيتش" ولا "العمادي" فقط على كرم السلطان.

ولكن سيكون هذا ساذجًا. أجل، لقد كانت إرادته الطيبة ضرورية، وكان يبدو أن ذلك كان الوقت المناسب للاستفادة منها، لأن الحاكم كان يتوقع مساعدة حاسمة وضرورية من وزيره الثالث (بمساعدة الوزير الرابع) في قضية حساسةٍ جدًّا متعلقة بأولاده. وبالإضافة إلى ذلك، لقد وافق بالفعل على اقتراح "محمد باشا" بأن يتم نفي "لاله مصطفى باشا" بهدوء إلى خارج الإمبراطورية، بسبب تورطه في المؤامرة. من تقارير "باجيكا" حول إقناع هذا الباشا بالابتعاد عن مثل هذه الأمور الشائكة وغير الصائبة، تذكر "سليمان" الجملة الآتية: "وكما ترى يا سيدي أنه حتى في عائلة "سوكولوفيتش" هناك أوغاد. لقد علمته وساعدته، ويبدو أنه لا يحبني على وجه التحديد بسبب ذلك!".

في هذا، لم يحب السلطان صدق الوزير فحسب، بل وأيضًا أحب المصادفة التي جعلته يقول هذه الحقيقة، في وقت كان بإمكان "سليمان" أن يقول الشيء نفسه عن ابنه!

كان واضحًا لـ"البادشاه" أنه من بين كل الشعوب الذين فتحوا بلادهم، كان الجنود الصرب هم الأفضل والأكثر عددًا. لقد شاركوا في كل الحملات العثمانية وحاربوا فيها ببسالة. حتى عندما كانوا يحاربون في صفٍّ جانب العدو، كانوا يكتسبون احترامًا كمحاربين. وابتداءً من اللحظة التي صار فيها "محمد باشا" "بكلربك" "روملي"، كان الثناء مبالغًا فيه. نال "محمد باشا" احترامًا استثنائيًّا من الصرب، وتحوله إلى الإسلام لم يُحْمَل ضده. والسلطان كان يوافق بصمت على الامتيازات التي منحها للصرب، لقد احترم صراحة "سوكولوفيتش"؛ فهو لم يفعل شيئًا في الخفاء. كان يتخذ كل القرارات العائدة إليه وينفذها بوضوح وصراحة، وعندما تكون القرارات شديدة الأهمية، كان يرجع إلى الصدر الأعظم والسلطان شخصيًّا ويطلب موافقتهما.

تبادل الرسائل مع أخيه "ماكريجي" الذي كان يشغل منصب "أرشمنديت"([56]) دير "هيلاندر" في "أثوس"، فكان يستشيره حول فكرة تجديد كل الكنائس والأديرة الصربية، ويُعِدُّه لهذه المهام الجديدة. كان أهل "البورتا" على علمٍ بكل هذه الإعدادات، حيث جرت العديد من لقاءات الأخوين بين إسطنبول وبلجراد.

استشار "سليمان" المفتي بخصوص الامتيازات التي بدأ يعطيها للصرب بالتدريج. وقد كان هذا هو السبب الذي دفع "العمادي" و"محمد باشا" لتقديم خطة استقلال الكنيسة الصربية عن السلطان معًا.

قدَّم شيخ الإسلام الفكرة من منطلق القانون والتشريعات، ولكن أيضًا من منظور العقيدة الإسلامية. ولم يرَ أي حاجز من شأنه أن يمنع الحاكم العظيم من أن يقدم الشكر لرعاياه، وأن يمنحهم مثل هذه الراحة بخصوص إلههم وعقيدتهم. بالإضافة إلى ذلك، سيصبح الصرب أكثر تنظيمًا من ذي قبل من خلال الكنيسة، ومن ثَمَّ سيصبح تعاونهم مع الديوان التركي أسهل. وكونهم أفرادًا من أكثر الأمم المسيحية عددًا داخل الإمبراطورية العثمانية، فقد كان عدد الصرب الذين اعتنقوا الإسلام أكثر أيضًا من أي أمَّةٍ أخرى. ومع ذلك، تم إبداء احترام متساوٍ لأولئك الذين كانوا يبدون الرغبة في التمسك

والحفاظ على عقيدتهم الأرثوذكسية. كما تم التسامح مع حالات اختلاف العقائد بداخل الأسرة الواحدة، ويُغضُّ الطرف عن القيام بتنفيذ طقوس العقيدتين، وإن كان هذا يحدث سرًّا في إحداهما، لأكون منصفًا. وأثناء حكم هذه المقاطعة، احتاجت الإمبراطورية إلى الصرب، بصرف النظر عن عقيدتهم، لأنه يمكن توظيفهم مسؤولين على المستوى المحلي، ومن ثَمَّ يقلل العدد اللازم من العثمانيين، وهو ما كان يسبب لهم مشكلة على أي حال. وفي الواقع، كان الصرب يديرون - سواء كليًّا أم جزئيًّا - بالفعل مناطق من دولتهم، ومن ثَمَّ استطاعوا معايشة ذلك الشعور المريح، والذي كان الأكثر أهمية؛ وهو أنهم مسؤولون عن مصيرهم.

وقد ضمن الوزير الثالث بسلطته أن يتم تنفيذ الاتفاق والقانون.

وبالفعل، أصدر السلطان أوامره لـ"العمادي" بأن يجهز كل الأوراق والتفسيرات القانونية والتشريعية والدينية للسكرتير، حتى يصدر السلطان قرارًا بفرمانه. تم اختيار "ماكاريجي" ([57]) شقيق "باجيكا" وتعيينه بطريرك الكنيسة الصربية. فأُصدر أمر خاص يعلن الموافقة على إرسال مبلغ كبير من المال لتجديد عمل الكهنوت مع الفارس، وهذا ما جعل الكنيسة الصربية ورعاياها يستمرون في تنظيم تجميع التمويل المستقبلي لأعمالهم المستقبلية.

كان السلطان متأكدًا من أن أصداء هذه الأنباء سوف تُحدث دَوِيًّا عاليًا وواضحًا عبر "روملي"، ولكن على وجه الخصوص عبر الإمبراطوريات والممالك المسيحية في أوروبا. وقد كانت حركة سياسية مفيدة.

انطلق "محمد باشا" وفقًا للأوامر بقلب الجيش - الجزء الرئيسي - صوب "كوتاهية" للأمير "سليم". أما "برتاو محمد باشا"، فقد توجه إلى "قونيا"، و"بايزيد" في محاولةٍ أخيرة لإقناعه بتفكيك جيشه المكون من الأكراد والتركمان والسوريين الذين جمعهم حوله، ولإقناعه بإطاعة القانون. ولأن الأمير رفض أن يقبل عرض الباشا، غضب السلطان وعبر خلال آسيا الصغرى، ليُرِي ابنه أنه جاد بشأن محاربته، وأمر "سوكولوفيتش" بمهاجمة ابنه "بايزيد" بالجيش والمدفعية. لم يقبل الأمير حتى العرض الأخير بأن يلقي سلاحه ويستسلم، ولذلك بدأ الوزير الحرب ضده. هُزِم المتمردون في غضون يومين، ولكن نجح "بايزيد" في الفرار. فتبعه "سوكولوفيتش" حتى الحدود الفارسية ودخل في معركة معه ومع أولاده. وعلى الرغم من خسارة هذه المعركة، فإن "بايزيد" وأولاده استطاعوا بمساعدة "أياس باشا" الذي لم يكن يحب "سوكولوفيتش" أو الأمير "سليم"، الانتقال عبر الحدود إلى الأراضي الفارسية، حيث استقبله الشاه الفارسي "طهمسب". لقد تم إنقاذه مؤقتًا، ولكن تم إلقاء القبض على "أياس باشا"، كبير بهوات "أرضروم" ومعاقبته بالخنق.

وبالإضافة إلى "أياس باشا"، كان "لاله مصطفى باشا" أيضًا أحد أشد خصوم "باجيكا" عداوةً له، والذي استمر في التصرف بعدائية تجاه ابن عمه؛ استمر في المُضِي قُدُمًا في الاشتراك بكل طريقة ممكنة في التآمر على أولاد السلطان، مستغلًا في ذلك تعاطف الأمير "سليم" تجاهه. وقد رقَّاه "سليم" ليصبح "بكلربك" "تيميشوارا" وبعد ذلك أرسله إلى آسيا، حيث عينه مسؤولًا عن "فان".

استمرت المفاوضات مع الشاه الفارسي مدة طويلة، ولكنهم نجحوا في النهاية؛ فبعد مقتل ألف من أتباع الأمير المخلصين له في وقتٍ قصير، قام حاميه ومُجيرُه ببيعه وأولاده الأربعة بأربعة آلاف قطعةٍ ذهبية. وتم قتل "بايزيد" وأولاده الأربعة. حتى ابنه الخامس الذي كان في الثالثة من عمره فقط،

تم خنقه في "بورصة" بناءً على أوامر جده. وحشية وقسوة الديوان والبلاط الملكي لم تكن محل شك، يجب أن يكون مصير ومستقبل الإمبراطورية مؤكدًا وآمنًا.
حمل "محمد باشا سوكولوفيتش" الجزء الأكبر من المهمة على عاتقه، في حين أبرم ووقَّع "برتاو باشا" الصفقة لإرسال المال إلى عدوهم الحليف. وريث العرش "سليم" سيكون مدينًا لكليهما إلى الأبد، وخصوصًا إلى "محمد باشا".
وباستغلال فوائد حفاظه على العرش، استمر "باجيكا" فور عودته إلى "القسطنطينية" في إحضار عائلته إلى العاصمة. وكان "مصطفى"، وهو أكبر أولاد عمه، قد أتم تعليمه وتدريبه بمدرسة القصر بالفعل، وقام "باجيكا" بتعيينه "سنجاق" البوسنة، ليكون مسؤولًا عن إدارتها، ومن ثَمَّ أنشأ جسرًا دائمًا وراسخًا بين وطنه القديم والجديد. استغل ذلك الوقت لترتيب شئونه، وللتخطيط لأول وقف سيقوم بتمويله وبنائه، ولتعيين أكبر عدد ممكن من شعبه في أكثر المناصب والمواقع المؤثرة، ولإنشاء شبكة توفر له نسبة من التأمين خلال حكمه. وبعد ذلك، تُوُفِّي الصدر الأعظم "رستم باشا" في فترة توليه الثانية إثر مرضه، وهو الرجل الذي كان يحميه هو و"سنان". كان "سنان" قد بنى له مقبرةً بالفعل وفندقًا أيضًا في "أدرنة"، كما كان يعمل على قدم وساق في المسجد الذي يبنيه له في إسطنبول، بالإضافة إلى المسجد الأنيق في "تيكيرداج". لقد دفَع "رستم باشا" له مقابل كل هذا من قبل.
استغل "جوزيف" الفرصة ليُري "باجيكا" تخطيطاته للمسجد الذي بالنسبة له كان حِرفيُّوه قد قاموا ببنائه بالفعل في "موستار البوسنية"، والذي بناه بِناءً على طلب "محمد باشا كاراجوز". وقال له:
- مهما حدث، ستكون أنت مالك العمل التالي الذي سأقوم به في البوسنة. أتَرى كيف اقتربت خطواتك من قمة البرج؟
وبالفعل، فور موت الوزير الأول، حلَّ محله الوزير الثاني "سيميز علي باشا" وهو سلافي الأصل. وأخذ "باجيكا" محل الوزير الثاني. وانتقل "برتاو محمد باشا" إلى منصب الوزير الثالث. وأصبح الوزير الرابع هو "فرحات باشا" (وهو زوج "رومايا" حفيدة السلطان، وابنة ابنه المفضل "محمد" الذي مات قبل أوانه)، أما منصب الوزير الخامس، فقد شغله رجل آخر من أصول صربية وهو "مصطفى باشا كيزيل أحمدوفيتش".
تدخلت "مهرماه" أرملة الصدر الأعظم "رستم باشا"، وابنة السلطانة "روكسيلانا" في تحديد مصير "باجيكا" المستقبلي. لم تكن طَموحة بالقدر نفسه الذي كانت عليه والدتها؛ لقد كانت واحدة من أولئك الذين أحرقن أنفسهن باختياراتهن الخاطئة وسوء حكمهن في حياتهن المبكرة، لذلك أصبحت الآن تختار الحركة التي ستقوم بها بحذر. وهبت نفسها للخطط المهمة في الإمبراطورية، ولكن للخطط غير المباشرة. كانت تحسب الأمور لتعرف مَن يصلح لِمَن في الدولة، وبناءً على تقديرها، حصلت على إذن من والدها "سليمان" وموافقة أخيها "سليم" لتنظِّم احتفالًا ضخمًا. وأيُ احتفال! قامت بتنظيم ثلاث زيجات في اليوم نفسه، ودعت كل الشخصيات المهمة التي تعيش في "بورتا"، وأنفقت على الحفل من مالها الخاص. وفي ذلك اليوم، قام "سليم" بتزويج اثنين من بناته: تزوجت ابنته "أسمهان" (أسما) من "محمد باشا سوكولوفيتش"، وتزوجت ابنته الأخرى "جوهر" من "بيالا محمد باشا". وبالإضافة إليهما، تزوج الإنكشاري "عبد الكريم آغا" من ابنة الأمير "مصطفى" الذي تم إعدامه.
كان هذا الزفاف جزءًا من السرعة التي كانت تسير بها حياة "باجيكا". لم يكن من الممكن أن يرفض مثل هذا العرِض، على الرغم من أن السلطانة ذات الستة عشر عامًا تُعدُّ في سن أولاده أو حتى

أحفاده، ووفقًا لتاريخ ميلادها، فهي مناسبة لتكون زوجة أحد ولديه "كورد" أو "حسن" اللذين كانا من بين رجال البلاط الحاضرين الزفاف. "نوربانا" والدة "أسما" كانت من "البندقية" من عائلة "بافوس" الشهيرة، وهي زوجة الحاكم المستقبلي. و"أسما" هي أيضًا حفيدة السلطانة "روكسيلانا" والسلطان "سليمان". وبهذه الصلة والعلاقة، رُسِم خط سير حياة "باجيكا" المستقبلية بوضوح. لم يعد هناك المزيد ليتساءل حوله بعد، ولكن ليس لديه أي سبب للشكوى أيضًا. لقد وافق بالفعل على أن يكون هذا هو درب حياته من قبل. في ذلك الوقت، كان لا يزال بيده أن يغير شيئًا ما بخصوص كل هذا، لكن الآن بإمكانه فقط محاولة أن يكون أفضل ما يمكن فيما يفعله.
ولكونه صهر السلطان الحالي والمستقبلي، فقد وفَّر "باجيكا" لنفسه أكبر قدر ممكن من التأمين. يمكن أن يُحْرَم من كل هذا فقط بكلمةٍ أو قرار من رجل واحد في الإمبراطورية! بصرف النظر عن القدر الذي سممت به كلمة هذا الرجل حياة الجميع بسهولة مدهشة، وصعوبة في الوقت نفسه، يجب أن يعترف أنه لم يصل أحد من قبل إلى ما وصل إليه "باجيكا"، وأنه لم يحقق أحد من قبل مثل ما حقق. ولكن لهذا السبب، لاحظ أن هناك خطرًا جديدًا؛ بعض أصحاب المناصب الرفيعة من رجال البلاط الملكي - سواء بدافع الحقد، أو الطموح الشخصي، أو سوء التفكير، أو حتى من باب قذارة الشخصية - قد أظهروا خوفًا من "سوكولوفيتش" في البداية، والآن تحوَّل هذا الخوف إلى كراهيةٍ وتعصب. بالطبع، لقد فهموا كم أصبح أكبر حاجز ممكن أمام قذارتهم، وأنه الآن - وعلى وجه الخصوص بعد أن أصبح جزءًا من العائلة الحاكمة - قد بات ينزلق خارج مجال تأثيرهم ونفوذهم. ومن ثَمَّ، خبؤوا عدوانيتهم تجاهه تحت غِطاءٍ جديد من الدهاء. فتشكلت دائرة من المتملقين حول "محمد"، تَحَلَّقَ حوله مجموعة من الأشخاص ذوي الأفكار الفارغة والخطط الركيكة يحاولون تقديم خدماتٍ جيدة، وأبناء عمومته غير موجودين، فوجد أن عليه أن يحصِّن نفسه بصفةٍ جديدة ليست في شخصيته، وهي المكر. والأسوأ من ذلك كله هو أن اكتساب هذه الصفة ليس مهمة سهلة. ولكن عندما وجد أن أولئك الأشرار يحاولون إغراءه بمكيداتهم التي وصلت حتى إلى زواجه، قرر أن يتوقف عن محاولته تغيير نفسه. وقال لنفسه إنه سيظل كما هو دون تغيير طالما أنه استحق ذلك وكان قادرًا عليه. وقد شرح لزوجته التي كانت صغيرة جدًّا مقارنة به أنه لا يريد إجبارها على حبه لمجرد أن العائلة قررت أن يكونا معًا. ووعدها بأنه سيحترمها، وأنه لن يسيء إليها بالتورط في علاقات مع نساءٍ أخريات. وفهمت "أسما" أنه يفعل هذا لصلاحه وصدقه. وقد كانت تحترمه بالفعل دون تحفظ، وكانت قريبة جدًّا من احتمالية الوقوع في حبه. وعندما سمع "باجيكا" بهذا، لم يأسف على قراره بأن يكون ثابتًا على مبدئه.
الآن يمكن لـ"محمد باشا" أن يكرس نفسه ووقته لأعدائه داخل الإمبراطورية بهدوء، ودون اتخاذ أي خطوات خطيرة. أراد أن يمهد الطريق مسبقًا لمستقبله الحتمي، وهو أن يصبح الوزير الأول. إذا انتظر أن يحدث ذلك دون أن يكون مستعدًا سيكون الوقت متأخرًا جدًّا. أولًا، ركز على خصومه. وباعتبار "لاله مصطفى باشا" أكثر خصومه عداوةً له، قام "محمد باشا" باستدعائه وسؤاله بكل وضوح وصراحة لماذا كان، ودون أي سبب واضح، يعمل ضد "محمد باشا". وكانت إجابته التي اعتبرها "محمد" صادقة مقنعة، ولكنه لم يُظهر هذا. قال "لاله مصطفى باشا":
- لأنني يا "محمد باشا" دائمًا أراك "باجيكا". لا أخشى ازدواجيتك أو خيانتك الإسلام، ولكنني لا أطيق السهولة التي تنحاز بها إلى الجانب الصربي والعثماني، المسيحيين والمسلمين في الوقت نفسه. لا أستطيع أن أطيق حقيقة أن تساعد الكنيسة الأرثوذكسية بكل وضوح، وأن تشارك في الحج في

الوقت نفسه. الجميع، حتى السلطان نفسه يعتقد أن هذا ليس ازدواجية في الدين، ولكنه يبدو كذلك للجميع. وحقيقة أنني صربي الأصل هي ما تجعلني غير قادر على فهم كيف يمكنك أن تكون مسيحيًّا لله؛ مسيحيًّا مؤمنًا بإله المسلمين! فأنت إما هذا وإما ذاك!
فأجابه "محمد باشا" قائلًا:
- ولكنني لا أتمنى أن أكون إما هذا وإما ذاك. أتمنى أن أكون نفسي. ولما كنت لم أقدم نفسي على أنني أي شيء آخر غير ما أنا عليه حقًّا، فقد خاطرتُ بأن تتم معاقبتي فقط لأجل هذا. الأعظم بعد الله - أقصد "البادشاه" شيخ الإسلام - هما مَن يفسر قوانين السماء والأرض، وكلاهما لم يقتربا حتى مما تفكر فيه. أنا دائمًا تحت تصرفهما؛ سواء بالأفعال التي أقوم بها، أم برأسي إذا تطلب الأمر أن يتم قطعها وتقديمها لهما.
فأجابه "لاله مصطفى باشا" قائلًا:
- ولكنني أريد أن أحرر نفسي من هذه الازدواجية! لا أريد أن أبقى على ما كنتُ عليه! أريد أن أنسى ما كنتُ عليه. وأنت، أنت من بين كل أولئك الذين في المقدمة، أنت الشخص الذي يراقبه الجميع، لأنهم يرون فيك مستقبلك ومستقبلهم تُذَكِرُني على الدوام بالماضي.
فقال له "محمد باشا":
- أنا متأكد أنك لن تستطيع أن تنسى مَن كنتَ، حتى إن لم أكن موجودًا. هل تعرف السبب؟ لأن هذا مستحيل! لا أحد يستطيع مساعدتك في هذا. ومع ذلك، بإمكانك أنت فقط أن تساعد نفسك، فقط إذا نجحت في تقبل الأمور على ما هي عليه. ولكن هذا يتطلب قوة لا تُصَدَّق. يجب أن تعرف إن كانت لديك أم لا.
وبهذا انتهى الحوار بينهما. احترم "باجيكا" صدق "لاله مصطفى"، ولكنه أدرك أنه لن يتمكن من جعله صديقًا له، وأنه ربما أيضًا لن يستطيع أن يغيره عما كان عليه؛ عدوًّا له. حسنًا، وإن لم يكن استفاد شيئًا آخر من هذه المحادثة، لكنه على الأقل اكتشف أن الخوف من ازدياد نفوذ "باجيكا" سيدفع "لاله مصطفى باشا" بشكل أكثر علانية أو أقل على تشجيع الآخرين على التمرد. وعلى الرغم من أن "لاله" لم يجرؤ على الإفصاح لأحد بمحتوى محادثتهما، وخصوصًا أولئك الذين لم يكونا من أصلهما، فإنه كان كافيًا لهما أن هذا الحوار دار بينهما.
والأهم من كل هذا هو أن "باجيكا" استطاع أن يخمِّن أن الحقيقة الجوهرية في المشكلة هي أن "لاله مصطفى باشا" كان يحمل كل ذلك في نفسه؛ لم يحتمل الحب والرعاية والحكمة التي أبداها له "باجيكا سوكولوفيتش" عندما كانا صغيرين في المدرسة في "أدرنة"، عندما علَّمه "باجيكا" كل شيء، ابتداءً من الدفاع ضد فقدان نفسه، إلى الحماية الجسدية لحياته. كان "باجيكا" في الحقيقة واضحًا ومكشوفًا للغاية، وقد كان شاهدًا غير مرغوب فيه على ماهية "لاله مصطفى" الحقيقية وجوهره. ومن المحتمل أن يكون هذا قد وضعه في موقفٍ غير مريح، لدرجة أنه شعر بأنه الرجل الذي يمكن اتهامه في أي وقت لارتكابه أفعالًا هو فقط - وهو المذنب - مَن يعلم أنه كان على الدوام يقوم بها.
لم يلم "باجيكا" أي أحد من قبل على الإطلاق لتغييره دينه مثلًا أو لبقائه عليه. ربما ينتقد أحدهم بسبب دوافعه غير البريئة وراء شيءٍ يفعله، ولكن لا يلومه على الأفعال نفسها. وإذا وضع المرء جانبًا التبشير الإجباري الذي فرضه عليه القدر، سيجد سلسلة كاملة متبقية من الأسباب والأمثلة والطرق التي استغلها العثمانيون بكل مهارة لينشروا الإسلام بين الصرب. وهذا غريب، لأن مقاومة الصرب

كانت في الواقع هي الأقوى والأكثر استمرارًا. ولكن اكتشف الغزاة أن بإمكانهم الحصول على أتباعٍ لهم بشكل أكثر سهولة وأقل تكلفة من خلال الطرق السلمية بدلًا من الحرب. وقد ثبت في الحقيقة أنَّ الأفضل من محاربة الصرب هو جعلهم يدخلون الإسلام وهذا أسهل من قتالهم بالأسلحة في ميدان المعركة. وفي هذا النوع من الحروب، تم استخدام كل شيء باستثناء القتل؛ الابتزاز بكل أنواعه - من الابتزاز المادي إلى الابتزاز الأخلاقي، وشراء الناس - بالرشوة أو الإعفاءات الضريبية، وابتداءً من تقديم امتيازات صغيرة إلى تعيينهم في مناصب عليا.
وبمجرد اعتناق العقيدة الأخرى، دفع العديد من الصرب عائلاتهم بأكملها وأصدقاءهم إلى الدخول في الإسلام. لقد عرف الأتراك أن هؤلاء في الواقع هم من سيتمكنون بكل سهولة وسرعة وشمولية أن يقنعوا الآخرين بالإسلام، لأنهم يعيشون بينهم، ومن ثَمَّ فهم يعرفون جيدًا ما الذي سيوحدهم أو ينشر الفرقة بينهم. وقد كان كل هذا مناسبًا جدًّا للعثمانيين؛ فقد قام الصرب بأداء هذه المهمة عوضًا عنهم، وكانت النتائج واضحة، واستطاعوا إنقاذ أنفسهم، فلم يتبقَ هناك سوى الحد الأدنى من الأتراك الذين كان وجودهم ضروريًّا. وقد كان هذا مناسبًا للصرب أيضًا، لأنهم تمكنوا من البقاء على أراضيهم، أمَّا فيما يتعلق بما كان "لهم"، فهذا موضوع آخر. العديد ممن لم يغادروا أراضيهم للانتقال إلى تركيا عدُّوا أنفسهم كما كانوا قبل اعتناق الإسلام. وأولئك الذين لم يغيروا دينهم، والذين كانوا لا يزالون جيرانهم، كان من الأسهل تحملهم أكثر من العثمانيين الحقيقيين. وإن لم يكن هناك سبب آخر غير هذا، يكفي أنهم منهم، فهم ينتمون إلى الشعب نفسه. وفي الحقيقة، لجأ العديد من الصرب الأقوياء - أحيانًا بشكل فردي، وأحيانًا بأعداد كبيرة - إلى الهجرة، حتى لا يعتنقوا الإسلام. وقد كان هذا شكل من أشكال المقاومة للأتراك بالرحيل. ومع هذا، وبصرف النظر عن حقيقة أن المقاومة الجماعية والمتنوعة للصرب استغرقت الوقت الأطول، إلا أن إصرار الجانب الآخر كان له أثره. تم تنفيذ فكرة أسلمة كل الشعوب الواقعة تحت الحكم العثماني - بشكل أساسي على الصرب - بصرف النظر عن المكان الذي يعيشون فيه. وهذا أمرٌ مفهوم خصوصًا عند معرفة أن الصرب كانوا أكثر الشعوب المسيحية المستعبدة في أوروبا عددًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

30

كنتُ مشغولًا بشأن ما إذا كنتُ سأُكافَأ في لحظةٍ ما بإيجاد القاموس متعدد اللغات الذي اعتقدتُ أنني تخيلته. وعلاوة على ذلك، كان من المهم لي أن أرى كيف سيكون الأمر أن أشهد بنفسي العثور على عمل اعتقد الكثيرون أنه تلفيق للتاريخ وليس موجودًا، ولكن يتضح في النهاية أنه اكتشاف حقيقي بقدر ما هو خيالي، بل أكاديمي أيضًا. لم يكن هذا الانقسام غريبًا عليَّ؛ لقد عشتُ تجاربَ مماثلة من قبل. شعرتُ بأنه لا ينبغي الاستهانة بالهواة.

ها هي الأمثلة على ذلك.

منذ زمن بعيد، عندما سجلتُ اسمي لدراسة الأدب الجنوب سلافي والأدب العالمي، في ذلك الوقت، نشأ حبٌّ غير متوقع بيني وبين الأدب الصربي في العصور الوسطى. وعن طريق المصادفة العلمية، وليس من باب الاختيار الشخصي، كنتُ من بين ما يُدْعى بالطلاب الدارسين للإنجليزية، ولذلك في قسم الأدب الصربي في العصور الوسطى واجهتني مشكلة حقيقية، لأنني لم أحصل على التعليم المطلوب في علم اللغويات لتفسير النصوص الأصلية. ولكي أستطيع أن أفهم النصوص المكتوبة في الكنيسة السلافية أو التي كُتبت بأي من اللغات المتنوعة في اللغة الصربية القديمة (وفي الكنيسة الروسية السلافية)، كان يجب عليَّ أن أتعلم لغة الكنيسة السلافية القديمة. ولكي أفعل ذلك، فمن المستحب أن أتعلم الروسية. ولكن كل الظروف كانت ضدي. ولكن حبي بصفتي هاويًا تجاه قراءة هذه النصوص القديمة (التي كُتِبَت في القرن الثاني عشر وما بعده) والتي تُرجِمت إلى الصربية الحديثة لم يتراخَ أو يضعف. واصلتُ تعليم وتثقيف نفسي بنفسي في هذا المجال بمساعدة ودعم الأستاذ الرائع "دوردي تريفونوفيتش".

قرأتُ ودرستُ وكتبتُ نصوصًا، وعند لحظةٍ معينة، اندهشتُ كُليًّا! البروفيسور "تريفونوفيتش" دعاني إلى مكتبه لنتناقش بعد أن سلمته ورقتي البحثية حول موضوع "أنماط الحوار في حياة القديس سافا" من تأليف "تيودوسيجي هيلانداراك" (وهي مُؤَلَفَة تعود للقرن الثالث عشر). ولما كان معلمًا صارمًا، فقد كنتُ أعتقد أن لديه اعتراضات وتحفظات جادَّة وحقيقية بخصوص هذا البحث خلال حوارنا، أو أنه مثلًا في أحسن الأحوال سيعيده إليَّ لأعمل عليه من جديد. ولكن لا، لم تكن لديه الورقة البحثية في مكتبه أصلًا. لقد دعاني ليخبرني أن الورقة كانت في هيئة تحرير مجلة "اللغة والأدب" في الأكاديمية الصربية للفنون والعلوم، حيث كان من المقرر نشرها على الفور! ولكن ليس لأن البحث كان جيدًا، بل لأنه كان ثوريًّا! لكن كيف؟ حسنًا، لأنني بالكتابة عن أنماط الحوار - كما قال - كشفتُ عن جذور المسرح في الأدب الصربي. لم أستطع أن أصدق هذا. فعلى الرغم من كوني طالبًا مبتدئًا، فإنني رفضتُ أن أكون ساذجًا أو سطحيًّا. لا أتذكر من بين كل الأسئلة التي طرحتُها عليه يومها غير السؤال الوحيد الذي لم يستطع أن يجيبني عليه: "كيف يكون ذلك ممكنًا على الرغم من وجود العشرات من الخبراء الذين يدرسون الأدب الصربي القديم عبر كل هذه القرون؟"، ومع ذلك، كان عليَّ أن أؤمن باكتشافي عندما نُشرت الدورية إلى الملأ، وبداخلها ورقتي البحثية. وحينها بدأ العديدون يربتون على كتفي ذوي التسعة عشر عامًا، ودعيتُ من قِبل الجامعة للبقاء في الكلية بعد تخرجي معيدًا بها، لكنني رفضتُ ذلك. رفضتُ لأتمسك بحبي لهذا المجال، وللاحتفاظ بحقي في الاقتباس من أعمال أستاذي اللامع، وبحقي في قراءة الأدب القديم، واستجابةً لحدسي كهاوٍ.

هذا ضمان بأثر رجعي، ولكن دوره هو إثبات أن افتراضات الهواة يمكن تقبلها في بعض الأوقات، حتى الافتراض الذي طرحته. ربما يحدث هذا عندما يحتفظ الشخص بصدق وبراءة الأطفال. سيقول شبيهي من العصور الوسطى: "هذا ما يحدث عندما تدخل إلى عالم العصور المظلمة".

وتستمر القصة.

في يناير 2008، عندما كنتُ جالسًا في شقةٍ حصلتُ عليها من مؤسسة نمساوية، لقضاء فترة منحتي بها، وعندما بدأتُ في كتابة آخر فصول في روايتي التي تدور حول الحقبة التاريخية المشتركة بين الصرب والأتراك، بدأت قصة بحثي عن القاموس تأخذ مسارها الخاص. النسخة الوحيدة المتوفرة من هذا القاموس التي كانت موجودة في "آيا صوفيا" انتقلت دون أن يلاحظ أحد إلى مسجد "السليمانية". وكأن إسطنبول لم ترغب في أن تكشف لي عن أسرارها مباشرةً. لم يكن "باموك" هو فقط مَن أجابني عن هذا السؤال (هل هناك أي شيء معروف عنه؟) الذي كان مطروحًا أيضًا في الجانب الآخر من العالم. لم يعطني إجابة لهذا السؤال فقط، بل أجابني على الأسئلة الأخرى.

ثم بعد ذلك، وردتني عدة اتصالات من بلجراد. اتصل بي الشخص الذي يعود إليه أكثر الفضل بخصوص هذا الاكتشاف هو السيد "سافا أنديلوفيتش" وهو خبير في مجالٍ آخر، ولكنه وقع في حب إسطنبول وقصتها. وأبلغني بالرحلة التي ستقطعها المجموعة التي من المفترض أن تصلني؛ وصلت نسخة من المخطوطة - التي فُقِدت قبل ذلك من "سراييفو" ثم نُسِخَت مرةً أُخرى "من النسخة الأصلية".. وتم تركها في إسطنبول - إلى "نيش".. والآن هي موجودة في مقصورة شاحنة متجهة إلى بلجراد.. (كان قلقًا من أن يضعها سائق الشاحنة غير المثقف بجانب الموتور الساخن فيُدمر القرص المدمج الـCD) وهل يجب إرسالها إلى "كريمز" في النمسا؟ لا، سوف ألحق بها. لذلك ذهبتُ إلى بلجراد بسرعة.

وأخيرًا.. التقينا في "تيرازيجي" على المقهى الخاص بفندق "موسكفا" (حيث تركتُ "باموك" في الحديقة ليرسم بعض الرسومات عنها في مذكرته الخضراء التي يرسم فيها من المدينة والوجوه). قمت بتشغيل "اللاب توب" الخاص بي على الطاولة هناك، لأنني لم أستطع الانتظار حتى أعود إلى المنزل لأرى ما أحضره لنا القدر، وهنا جاء أول إحباط لي! كان من المفترض أن يحتوي القاموس متعدد اللغات على اللغة الصربية أيضًا بالإضافة إلى اللغات الأخرى! ولكنها لم تكن موجودة! لاحظتُ وجود اللغة العربية (اللغة السائدة في القاموس)، والفارسية واليونانية، ثم العربية مرة أخرى.. ولكن لا وجود للصربية. لم يوجد أي نص مع القرص المدمج، ولا حتى مع البيانات الأولية حول أرشفته. لم أشعر بأنني عديم الحيلة بهذا الشكل من قبل. شعرتُ بالاكتئاب والإحباط. وصديقي العزيز أيضًا أصابه الإحباط. وعلى صعيدٍ آخر.. لقد كان أمامي أحد الأمثلة النادرة على علم اللغة "الكوزموبوليتاني" الذي تم تأليفه في مكانٍ ما على الأرجح بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر، والذي يستحيل أن يكون قد تم العمل عليه كل يوم، لا في وقتها ولا حتى الآن. وهذا لأنه يحتوي على العديد من اللغات التي كانت تفسر العالم نفسه على التوازي؛ معجم به أخوية علم اللغويات. وهذا دليل على أن العالم في ذلك الوقت كان منفتحًا، وأنه كانت هناك محاولات للدمج وليس للانفصال، أو على الأقل أنه كان هناك مَن يحاول أن يوفِّق ويجمع العالم كما يوجد مَن يريد أن يُحْدِث التفرقة.

بعد ذلك، تعرضتُ لهجمات دائمة من حدسي. وجدتُ بجانب المفاهيم اليونانية (المكتوبة بحروف يونانية هنا) على مدار المائة وست وثمانين صفحة في أحد الكتب الأربعة التي تتكون منها هذه المجموعة بأكملها أنه تمت إضافة بعض التعليقات بالعربية بعدها، "وكأنها تغرد من العصور

المظلمة"، يبدو أنها تعليقات جانبية أضافها الناسخون أو الطلاب. قام شخص ما في هذا الموضع (دون قصد) بكتابة الترجمة العربية لتلك المفاهيم اليونانية! بصرف النظر عن المكان المتوقع لذلك، وبصرف النظر عن التركيب اللغوي المتناسق والمتوازي الموجود في هذا المعجم، إلا أن هذا دفعني إلى التفكير في أنني لا أرى ما أريد، ربما لأنه كان مخبئًا بأبجديةٍ أخرى!
وقد اتضح أن الأمر كذلك بالفعل. "ميرجانة مارينكوفيتش" - إحدى المستشرقات - بدأت على الفور بمحاولة تفسير ختم السلطان وتوقيعه (وهو المكان الوحيد الذي ظهرت فيه اللغة التركية)، ولكنهما كانا غير واضحين ولا يمكن فك شفرتيهما، فقد كانا صغيرين جدًّا وباهتين. لم يتم تسجيل الألوان التي كُتِبَت بها أيضًا تلك اللغات المتعددة - في النسخة الأصلية كُتِبَت كل لغة بلون - أما في هذه النسخة التي باللونين الأبيض والأسود، فقد كانت اللغات تتخذ درجات مختلفة من الرمادي. آخر كتاب في السلسلة - الكتاب الرابع - كان أكثرهم خفة وأصغرهم، ولكن يبدو أنه كان باللغة العربية (مرة أخرى). أخذت صديقتي المستشرقة نسخة من الكتاب معها - كنتُ قد أعددتها لها - إلى بيتها لتقوم بدراستها جيدًا. في اليوم التالي، اتصلت بي وكانت متحمسة للغاية، وجاءت على الفور لمقابلتي. وجدت ضمن اللغات الأخرى "لغة سيرفي" lugat servi؛ أي اللغة الصربية. كانت مكتوبة بالأحرف العربية! وهذا يعني أنها كانت مخفية على مدار المائة وستين صفحة كلها، وهو الكتاب الأكبر من بين الأربع كتب الموجودة.
كان المحتوى أكثر إثارة من الهيكل، مكونًا من مفاهيم (على أوسع نطاق)، وعبارات، وأقوال، وأنصاف جمل، وأجزاء من حوار.. كان معجمًا موازيًا نوعًا ما، ودليلًا لغويًّا أكثر من كونه مثالًا عن الفكرة القياسية للقاموس. وكل هذا في أربع لغات! والمختارات فيه كانت أكثر إثارةً للاهتمام أيضًا: "شاهدتُك لأنني رأيتك"، و"منذ متى كانوا هنا؟ منذ عدة أيام"، و"جلوس لساعات"، و"ماذا تفعل؟"، و"تحدثتُ، لم أقُلها"، و"أحبك من قلبي"، و"لا تبكِ، لا تبكِ، استمر بالبكاء".. ومقولات أخرى غريبة، وكلها بالصربية.
لمن كُتِبَ كل هذا؟ حسنًا، فكرتُ في ضحايا ضريبة الدم؛ ربما درسوا هذا في المدارس الخاصة بالانكشاريين وموظفي البلاط الملكي. مَن أيضًا؟ حسنًا، ربما لكل مَن بكى ووقع في الحب ولكل مَن عوقب، ولكل مَن أُجْبِر على الانتماء إلى الآخر: للرجال والنساء، الغالب والمغلوب، للكبير والصغير، للسيد والعبد. أيًّا مَن كانوا أولئك المقصودين بهذا المعجم، لقد أصبحوا أكثر ثقافةً وثراءً بمساعدة هذا المعجم، وأصبحوا أكثر نفعًا لأنفسهم وللآخرين.
وينطبق كل هذا على الحاضر أيضًا.
وقد كان هذا أيضًا أحد إسهاماتي كهاوٍ في المنحة. من الواضح أن خبراءنا (ويبدو أن العديدين أيضًا حول العالم) لم يكونوا يعرفون أن هذا المعجم كان موجودًا. والآن سيتمكنون من دراسته بعناية ويعرضونه للعامة. وبهذا الشكل يصبح ماضينا وحاضرنا أكثر ثراءً.
وقد أدى هذا إلى إنهاء المرحلة التي كنتُ فيها هاويًا للقرن الخامس عشر بشكل بطيء، ولكن لحسن الحظ كانت هناك مراحل أخرى. لاح لي في الأفق أمرٌ جديد في الحقيقة الجديدة التي تم التوصل إليها، حيث توجد في "آيا صوفيا" مخطوطتان من الفترة نفسها. كُتبت كلتاهما حصريًّا بالصربية المكتوبة بحروف الأبجدية العربية، ولكن ليس معها أي لغةٍ أخرى. لذلك، يمكننا القول بأنها كتب صربية.
والآن أصبح لديَّ بعض العمليات البحثية لأقوم بها.

ومع ذلك، لم يكن هذا كل شيء، ففي بعض الأحيان، يظهر مزيج غريب من اللغات والأبجديات. تم العثور على مثال رهيب للربط بين هؤلاء في مجموعةٍ مستحيلة موجودة في كتاب صلوات تم تجميعه في بلجراد 1567. حصل أحد أعضاء مستعمرة "دوبروفنيك" وهو التاجر "ماتو بورا بوزيداروفيتش" على كتاب الصلوات مكتوب بالأبجدية اللاتينية، ولكن لأن هذا التاجر أصبح أكثر اعتيادًا على الثقافة الصربية وأبجديتها، فقد طلب من صديقه "مارين نيكوليتش" أن ينسخ هذا الكتاب إلى الأبجدية "السيريلية". كان من الممكن استيعاب كل هذا وفهمه، حتى إنه يمكن استيعاب درجة الوطنية التي أظهرها شخصٌ لاتيني إذا لم يضع الناسخ بين القواعد غير الموجودة للهجات المتعددة للغة نفسها. لقد قام بالفعل إذن بكتابة الكتاب كله بالأبجدية الصربية السيريلية، ومعها كل الأجزاء الخاصة بالنصوص اللاتينية دون ترجمتها إلى السيريلية! وهذا يعني أن النص كله جمل لاتينية مكتوبة بالحروف السيريلية مثل الجملة الآتية:

"Ано салутис новстере1567"

(وهي تُوازي "Ano salutis novstere 1567" والتي تعني بالعربية "نعم، أخبار جديدة في 1567").

أستطيع فهم كمِّ الأشياء التي يجب على الخبراء أن يكونوا مستعدين لها.

وفي تلك الأثناء، توجهت إلى وجهةٍ أخرى. وفي الواقع، كانت كل الاتجاهات مفتوحة أمامي. ربما كل الأشياء التي على الهامش بالإضافة إلى الأهداف التي فرضتُها على نفسي، والأشياء التي طغت على الأحداث "الرئيسة"، ربما كان هذا كله هو جوهر الموضوع مثل الطريقة التي لعب بها الحرَّاس العُرفيون للآثار المهيبة (الكبيرة والصغيرة) ليلًا ونهارًا دورًا مهمًا في تصوري للحقائق الجديدة.

أتذكر رؤيتي الأولى لجمال مسجد "السليمية" في "أدرنة". كنت أعاني فرط تحمسي الذي كان يزداد مع كل متر أقترب فيه أكثر من المسجد على طول طريقي من بلجراد حتى وصولي إليه. كان الأمر مثل لقاء العشاق في سن البلوغ. عندما وقفتُ أمامه للمرة الأولى بفخامته ورُقيِّه كان قد حلَّ المساء، وكان المبنى عملاقًا وأنيقًا. لم أستطع أن أتقبل فكرة تحميل نفسي مسؤولية وصولي متأخرًا إليه، لقد عبرتُ ألف كيلومتر دفعةً واحدة، ومررتُ فوق حدود ثلاث دول، ولكنني بقيت عصورًا في واحدة منها؛ في انتظار شيء لا يعلمه إلا الله. ثم عندما بلغتُ هدفي، لم أستطع الدخول! ظللتُ أتجول حول بيت الله من كل الجهات مثل قطة تحوم حول اللبن، مجربًا كل الأبواب عسى أن أجد أحدها مفتوحًا.. ثم رأيتُ على الجانب الشرقي من الجدار من خلال البوابة حارسًا بالفناء. لم أقل له أي شيء. فقط وقفتُ هناك أنظر إليه. فنظر إليَّ ثم مشى. وقف هناك عبر سلسلة سميكة مثل سلاسل مراسي السفن فصلتنا مثل عالمين، نظر إليَّ في عينيَّ مباشرةً دون أن ينبسَّ ببنت شفة. ربما أخبرتْه نظرتي بكل شيء، لأنه فك السلسلة وفتح البوابة وأومأ إليَّ أن أدخل. أخذني إلى الباب الخلفي لـ"السليمية" وفتح الباب وسمح لي بالدخول.

إذا كنت حاولتُ مسبقًا، لا أعرف كيف، ولا مِمَن كنتُ سأطلب المساعدة للحصول على مثل هذا الامتياز ما كنتُ لأنجح.

لقد تم السماح لي، أو بالأحرى تمكنتُ من دخول هذا الجمال كله والاستمتاع به بمفردي.

حدثت لي تجربة مماثلة في إسطنبول بعد عدة سنوات. البحث الدائم عن تفاصيل مهمة لم يقلل من حماسي. بل على العكس، لقد كان هذا ما جعلني بعد وقت طويل أجد المسجد الصغير الذي بناه "سنان" لنفسه. كان هذا بيت صلاة أَمَرَ هو ببنائه لنفسه عندما تقدم به العمر للغاية. لم أستطع

الوصول إليه لسنوات بسبب مجموعة متنوعة من الظروف. بل خطر لي أن الحكومة تخفيه عني عمدًا. إذن، لقد بدأت بالفعل التفكير مثل المصاب بجنون العظمة. ولقد كان بالفعل صغيرًا دون قبة أو مئذنة عالية. لقد كان موجودًا ضمن عدة مبانٍ أخرى في شارع اسمه "خوجة معمار سنان". ربما تم الاعتقاد - وأنا أتحدث الآن بكل موضوعية - أنه غير مهم، ولكن بالنسبة لي، كان ذا أهميةٍ لا تُضَاهى.

ثم إنني وصلتُ إلى هناك في وقتٍ سيئ. لقد كان مُغْلَقًا، ولا أحد بداخله أو في أي مكانٍ حوله. ولم يكن حتى يومًا للصلاة. الشيء الوحيد الذي تمكنتُ من فعله في عجزي هذا هو أن أنظر عبر النوافذ مثل الأطفال، لأتمكن من رؤية ما يمكن أن أخبره لنفسي بأنني لم آتِ عبثًا. ولكن في الحقيقة، لقد كنتُ مُحبَطًا. لقد آمنتُ بشدة بأن هذا البناء المتواضع كان بمنزلة وصية "سنان" (سوف أوضح هذا لاحقًا) لشيء مهم للغاية في حياته وعمله. وها أنذا، مرةٌ أخرى أستخدم رمزية القطة التي لا تقوى إلا على أن تلعق الإناء من الخارج فقط.

ثم قال لي شخصُ ما شيئًا ما بالتركية، وأدركتُ أن الحارس كان يشاهدني طوال هذا الوقت من مكانٍ ما، ربما من البيت الصغير الذي في الزاوية، والذي ربما كان منزله أيضًا. على الأغلب فكر في أنه لم يرَ سائحًا مثابرًا ومزعجًا مدة عصور، فأشفق عليَّ. كان يتحدث طوال الوقت على الرغم من أنه كان واضحًا أنني لم أفهم أي كلمة، ثم فتح كل أركان المسجد الصغير وانتظر بصبر وسمح لي بالبقاء في كل حجرة كما أريد، دون أن يستعجلني.

إن الخير الذي يتمتع به الأشخاص العاديون، والذين يتمتعون ببساطة في تصور العالم، جعلهم قادرين على تعرُّف حاجة لا تُقاوم ولا تُشبع لشخص ما، وهذا يجعل العالم مكانًا أفضل. كما كان هذا دليلًا على أنه لا يجب أن تكون هناك إجابة بسبب لكل لماذا. يكفي الحصول على ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثلاثون

استطاع المفتي الأعظم "العمادي" و"باجيكا" أن يُخَمِّنا معًا الاتجاه الذي ستسير فيه مشكلات الإمبراطورية العثمانية فيما يتعلق بأوروبا نفسها، وفيما يتعلق بعلاقاتهم معها. ليس عسكريًّا، بل تلك العلاقات الأكثر تأثيرًا والأكثر نطاقًا على تقدم حضارة السلطنة وثقافتها، أو ركودها، أو تراجعها. داخل الدولة، بدأ يظهر خلاف وشيك بين الفهم القديم والحديث للعالم، خلاف بين الحفاظ على القديم أو البدء في التغيير، بين العمى والبصيرة، بين التأخر والتطور.

نتيجة المعركة التي انتهت بين الأميرين، والإحساس بالامتنان من قِبَل "سليم" ولي العهد، والحاكم الحالي "سليمان" وفَّرت لـ"محمد باشا" قدرًا كافيًا من الأمان، لدرجة جعلته قادرًا على التخطيط والتفكير بشكل أفضل على المدى الطويل في كل ما يخص مسارات الإمبراطورية. وهذه الاستعدادات ليصبح الصدر الأعظم منحته الفرصة على الفور - وعلى الأقل مؤقتًا - أن يثبط معظم الخصوم المحتملين من ممارسة عدوانيتهم تجاهه. لأنه حتى لمثل أولئك الناس، أشارت كل الدلائل على أنه مقدر لهذا الرجل أن يصبح أعلى وزير في الدولة، وأنه عندما يتقلد ذلك المنصب سيظل فيه مدة طويلة. فقد مرَّ زمنٌ طويل منذ آخر مرة قام حاكمان بدعم الرجل نفسه بمثل هذا الحماس، كلا الحاكِمَيْن، الحالي والمستقبلي. وليزداد تأكدًا، بدأ "باجيكا" بكل حكمة باعتبار أن شيئًا لم يحدث ولم يُقَال إلا عندما يحدث بالفعل. لقد شهد بما فيه الكفاية من المفاجآت والخطط غير المتوقعة التي يقوم بها كل من الأفراد والإمبراطورية كلها. واستمر في بقائه حذرًا دائمًا وشديد التركيز بحزم.

بمساعدة المفتي الأعظم، وبدعم السلطان في صمت، شارك "باجيكا" في وضع قوانين جديدة وخصوصًا في تفسيرها كما ينبغي. استغل كل الأماكن والفرص المتاحة، واستخدم اللغة التي تتناسب مع المكان، والمناسبة، والشخص الذي يوجه إليه الحديث، ابتداءً بالمدارس الدينية، ووصولًا إلى المناسبات العامة المتنوعة، لكي يفسر ويوضح الأخطار التي تواجه الإمبراطورية، والتي لا يجب أن تقع فيها، على الرغم من أنها كادت تنزلق إليها. كان هذا حول محاولة (سواء مقصودة أو لا) لإساءة فهم دور التعليم. وبالتحديد، بدأ بعض الحاشية، والوزراء، والعلماء، وغيرهم من الموظفين العموميين ذوي التوجهات المتخلفة بمساواة التعليم بالدراسات الدينية بشكل قاطع وبصراحة، وفوق كل هذا لقد كانوا على خطأ، ولكن ليس مع دراسة المنح. وقد كان هذا يميل إلى الجانب الذي بإمكانه أن يدفع النجاح المتراكم للإمبراطورية إلى كارثةٍ حقيقية. لذلك، تم استبدال منح في العقيدة بالمنح العامة، ومن ثمَّ حُرمتْ الإمبراطورية العثمانية من الإنجازات العلمية تمامًا في الوقت الذي بدأت فيه أوروبا تبني المعرفة بشكل مؤكد، وتثبت أنها المحرك الرئيس للتقدم. ومن هذا، نشأ صراع آخر مرئي بالفعل. بدأ العديد من المتعصبين الدينيين في الارتباط بالطوائف، وبدؤوا في التأثير على المؤمنين والجيش، وتحريضهم على الكفار الموجودين في صفوفهم، خصوصًا أصحاب المناصب الرفيعة العليا. لقد كانوا جميعًا مربكين وغير واضحين في تفسيراتهم، ولكن حتى مثل أولئك الناس يمكنهم أن يُحدثوا تدميرًا من نوع ما. بدأ "باجيكا" والديوان كله ينزعجون من طائفة حمزة، والتي أسسها "حمزة بالي أورلوفيتش". هذا الدرويش من البوسنة أصلًا طلب من أتباعه في لحظةٍ معينة أن يفعلوا المستحيل، وهو أن يجمعوا الله والمسيح في ديانةٍ واحدة، وبعد ذلك بدأ يطالبهم بالتطرف في إسلامهم الأرثوذكسي. وفي بعض الأوقات، كان لديه بين أتباعه بعض الحرفيين الذين أنتجوا القماش

المطرز في فترةٍ معينة، وفي بعض الأحيان الأخرى كانوا على الأغلب من الإنكشارية. وفي أوقات كان يقدم نفسه على أنه شخص شيعي مخلص لـ"محمد" وعائلته، وفي أوقات أخرى كان يظهر إخلاصه لجذوره البوسنية فقط. وتحديدًا بسبب هذا الارتباك الديني والفكري، وبسبب سرعة انتشار تأثيره على كل أركان الإمبراطورية، فقد أصبح يشكل خطورة بشكل استثنائي.
وعندما لم يصبح بإمكان الكهنوت الإسلامي في البوسنة تحمل المزيد، تم إلقاء القبض عليه وإرساله إلى "القسطنطينية". على الرغم من أنه تم قتله بسرية عام 1561، ليتم تجنب غضب الرأي العام وأي تمرد محتمل، فإن هذا الحدث قد أدى إلى ما هو أسوأ من مجرد انتفاضة، لقد أدى إلى شيء لم يرغب فيه أحد؛ فسَّروا موته على أنه شهيد، ومن ثَمَّ ازداد عدد أتباعه.
ذهب أعضاء هذه الطائفة إلى "باجيكا" أو "محمد باشا" عدة مرات عبر السنين، مستخدمين اسميه بالتبادل على حسب مرحلة التعصب الديني التي وصلوا إليها في ذلك الوقت. وبالتبادل أيضًا إمَّا يقومون بالثناء عليه وطلب مساعدته (للمال، والدعم، بين العامة أو على انفراد) وإما بلعنه وذمِّه، لأنه ليس تركيًّا أصيلًا، بل هو يحاول أن يكون تركيًّا. كانوا يرونه على أنه روح تهددهم، لذلك يجب الفرار منها مثلما يفرون من الطاعون. ولم يأخذ "باجيكا" أيًّا من هذا بشكل شخصي، لأنه كان يعلم أن هذه كانت طائفة غير متسقة وغير واضحة الأفكار، ولكنه في الوقت نفسه لم يغض الطرف عن أتباع هذه الطوائف.
أصبح الحذر الذي يتعامل به مع كل ما يخص عمله هو علامته المُمَيِّزَة له. احتفظ بهذه السمة كونها واحدة من أكثر سماته الشخصية التي اكتسبها وطورها كقيمة عنده، والتي سوف تحفظه من الهلاك في المستقبل كما أدت إلى ذلك في الماضي. وعلى مدار السنوات القلائل الآتية، قام بقيادة جيش السلطان في عدة حملات بصحبة ابنيه أو أحدهما، بالإضافة إلى العديد من أفراد عائلة "سوكولوفيتش" الذين يتقلدون مناصب رفيعة في السلطة بموافقة من "البادشاه". وعلى قدم وساق مع المعارك، قام "باجيكا" بتطوير جميع مناحي الحياة في الإمبراطورية، ابتداءً من التجارة وبناء السفن والتشريعات، إلى دعم الشعراء بما فيهم الحاكم الأعظم.
أدت سنوات ولائه وإخلاصه إلى تنصيبه الحتمي في منصب الصدر الأعظم للإمبراطورية العثمانية عام 1565. أمَّنه السلطان "سليمان القانوني" المعظَّم على الإمبراطورية بالضبط قبل عام من انطلاق الحملة الثالثة عشرة على النمسا. وعندما مرَّ السلطان على بلجراد و"زيمون" في السابع والعشرين من يونيو عام 1566، كانت هذه آخر مرة يرى العامة فيها السلطان على ظهر حصانه، لأنه أصابه المرض وأصبح شيخًا كبيرًا على فراش الموت. تم حمله على نقالة وتم الاعتناء به في خيمته، ولم يعد حاكمًا يخشاه الناس. تم تخليد حصار مدينة "زيجيت" بفضل "باجيكا" وحذاقته ومهارته المدهشة، عندما وافت السلطان المنية خلال الحصار بين الخامس والسادس من سبتمبر، وبعد يوم واحد من فتح المدينة الحصينة ذات القوة الدفاعية الرائعة تحت قيادة "نيكولا زرينسكي"، استمر "محمد باشا" يخدم تحت إمرة السلطان المُتَوَفَّى، ولم يُبلِغ أحدًا بموت السلطان، لا الوزراء الذين كانوا معه ولا الجيش. وبهذا، نجح في الحفاظ على الروح المعنوية للجنود، وبصرف النظر عن أنه لم يتمكن من تحقيق حلم السلطان بغزو فيينا، فإنه أنهى هذه الحملة بنجاح. ثم إنه نجح أيضًا في الاحتفاظ بخبر وفاة السلطان سرًّا لنفسه، وفي إخفاء جثمان السلطان مدة ستة أسابيع، وبالتحديد حتى الرابع والعشرين من أكتوبر عام 1566، عندما كان في اليوم الرابع مع جيشه وهم عائدون إلى إسطنبول، وتفصلهم مسيرة أربعة ليالٍ ليصلوا إلى بلجراد. أعلن خبر الوفاة إلى الجيش عندما وصله

تقرير بأن "سليم" ابن السلطان قاد بسرعة صوب بلجراد من آسيا. (استغرق الأمير عشرة أيام ليصل إلى حصن بلجراد المبني على تل منيع). كان "سليم" بانتظاره هناك في بيت "بيرم بِك". تم إعلان السلطان الجديد تحت أسوار بلجراد. فقام الحاكم الجديد على الفور بإعلان "محمد باشا سوكولوفيتش" صدرًا أعظم. ومن ثَمَّ، تم تأكيد بقاء "باجيكا" في منصبه للمرة الثانية خلال عامين متتاليين.

أثبتت الفترة التي أتت بعد ذلك أن كل التجهيزات التي قام بها "محمد باشا" استعدادًا لتقلده منصب حامل ختم الإمبراطورية العظيم كانت مبررة. ففي ظل هذا الحكم الجديد، لم يكن عليه أن يتكيف مع أي شيء جديد أو مختلف عما كان يفعله من قبل بالفعل. وعلى أي حال، قبل أن يقابل وريث العرش في بلجراد فور العودة من "زيجيت"، نجح في تعيين اثنين من أقاربه في منصبين ذي أهمية إستراتيجية في "روملي". فتم تعيين "مصطفى باشا سوكولوفيتش" مسؤولًا عن "بودا"، وتم تعيين أخيه الأصغر "محمد سوكولوفيتش" في منصب "سنجاق بك" للبوسنة. قام بتنفيذ كل أعمال الإمبراطورية بنجاح، ولذلك لم يكن السلطان الجديد قلِقًا بشأن تسيير شئون الدولة، فقد ترك ذلك في أيدي "محمد باشا" الأمينة.

ظل "باجيكا" يحكم الدولة بلا منازع طوال الثمانية أعوام التي كان فيها "سليم" سلطانًا. كيف يمكنه الفشل وقد اكتسب خبرة في كيفية خدمة الإمبراطورية طوال نصف قرن! وقد قضى نصف هذا الوقت في مناصب لصنع القرار. وقد كرس خبرته لخدمة السلطان الجديد ابن السلطان "سليم الثاني"، وهو السلطان "مراد الثالث" عام 1574. وعلى الرغم من أن "محمد باشا" كان قد بلغ السبعين من عمره حينها، فإنه لا يزال لا يضاهيه أحد في تسيير شئون الدولة. حتى "مراد" الذي لم يحب "محمد" منذ يومه الأول، لم يرغب في التخلي عنه طواعيةً، على الأقل حاليًا. لم يُقدِّر ابن "سليمان القانوني" أو حفيده خبرة "محمد باشا" وإخلاصه وولائه للحاكم العثماني الأعلى بناءً على العام الذي أصبح فيه "محمد" يده اليمنى فحسب، بل قيَّموا قدراته وإمكانياته بما يتناسب مع الخمسين سنة التي قضاها في خدمة السلطان "سليمان"، وقد فهموا أن كل المناصب التي كلفه الحاكم بتقلدها كانت تعني أنه يجب أن يبقى "محمد" قريبًا جدًّا، قريبًا بقدر الإمكان من الحاكم. كان من الواضح أن السلطان كان يريد أن يكون قريبًا منه، لذلك لم يكن يكلفه بمناصب في مناطق بعيدة عنه. حتى عندما صار الصدر الأعظم بأمرٍ من السلطان "سليمان" عندما كان حيًّا، لكي يبقى بالقرب من السلطان بأكثر طريقةٍ ممكنة، كان على "محمد" أن ينتقل ليسكن بميدان "آت ميدان"، في منطقةٍ تحت قصر "طوب قابي". كان من الصعب على "باجيكا" أن يترك جاره شيخ الإسلام "العمادي" وأن يتخلى عن الراحة والسكينة اللذين كان يستمتع بهما أثناء سيرهما معًا.

لم يرَ أحد مثل هذا الخادم المخلص لعقودٍ في أي دولة. ألم يكن في تعيينه الصدر الأعظم للمرة الثالثة على التوالي عند تولي السلطان "مراد" الحكم تكريم له، وإظهار لثقة الدولة وامتنانها بشكلٍ لم يرَ مثله أحد من رجال الديوان من قبل، ألم تكن هذه الرسالة واضحة بما فيه الكفاية؟

وهل كان هناك أي شيء آخر بإمكانه أن يتمناه؟

أن يُخَلِّف وراءه مثل هذا التراث الغني الذي لا يخفى على أحد.

أين؟

في أماكنه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

ما بعد النهاية: المياه

بمرور الوقت، بدأت العلاقة بين "سنان" و"محمد" تتخذ بُعدًا جديدًا وغريبًا نوعًا ما. بدأت التزاماتهم تتضاعف بسبب المناصب الرفيعة التي يشغلونها، ومن ثَمَّ بدآ يمضيان وقتًا أقل فأقل معًا. ومن ناحية أخرى، ولأنهما يفهمان بعضهما جيدًا، ولأنهما لا يريدان أن يُضعِفا صداقتهما في جوهرها، فقد اضطُرَّا إلى تَفَهُّم الوضع الراهن الذي لا مفر منه. ولكنهما لم يستسلما أو يخضعا له. لقد ابتكرا طريقة تمكنهما من التواصل والبقاء معًا، حتى إن لم يكونا معًا. بأي طريقة؟ حسنًا، بأن يقوم كلاهما بالأعمال المسندة لهما ضمن إطار التخطيط والاتفاقات التي أقراها معًا. "باجيكا" مالك الأوقاف والممول لها، و"جوزيف" المهندس المعماري والبنَّاء. والآن وأخيرًا، حدث ما توقعه "سنان" وتنبأ به، الآن "محمد" قادر على تحمل نفقات أفكاره. وبشكلٍ ما، اتضح لهما أن المياه تربطهما في معظم الأحيان. بالإضافة إلى كونها مصدر الحياة ومركز قوتها، فإن المياه لديها قدرة خيالية على التأثير في تطهير الإنسان جسديًّا وروحانيًّا. ولذلك بدا لهما أنها أفضل نسيج رابط لحياتيهما المشتركة (يسميها سنان "مادة لاصقة")، كما أنه أيضًا يربطهما بالحياة التي عاشها كل منهما بمفرده في الماضي، وبالحياة التي يعيشونها الآن.

في الوقت الذي انتهى فيه "محمد باشا" من بناء "السيبيلهان" الذي يقع في مركز بلجراد - بمساعدة "سنان" - كان حمَّام "باجيكا" قد اكتمل أيضًا وما زال جديدًا (بالإضافة إلى الحمَّام الموجود من قبل بالفعل)، وقد أطلقا على حمَّامه الثاني اسم "حمام ييني"([58]). بعد مائة عام من هذا، وتحديدًا عام 1658، كتب "أ. بوليه"، الكاتب والرحالة الفرنسي، ثناءً رائعًا عن المياه وسكَّان بلجراد، حيث كان يحاول شرح مفهوم الحمامات العامة مستخدمًا بلجراد مثالًا: "المنتجعات الصحية في بلاد الشام - والتي هي في الواقع حمَّامات بخار، لأن الشخص لا يستحم هناك، على الرغم من أنه يتم تنظيفه - تظهر أن أولئك الناس نجحوا في الأشياء التي لديهم أكبر ميل تجاهها، وأن أرواحهم.. حساسة ورقيقة للغاية من منظور هذه الحمَّامات، لدرجة أننا لا نستطيع تقليدهم" (ويشدد ف. ب. على هذا).

تُعدُّ كلمات "بوليه" عمليًّا تعريفًا ذا تناغم فلسفي، وهو يحدد إحدى الخصائص المشتركة بين الصرب والعثمانيين في ذلك الزمن (والأزمنة الأخرى). لعبت مثل هذه المياه واستخدامها بهذا الشكل دورًا في المتعة. لقد كانت جزءًا أصيلًا من ميل شعوب البلقان بحق إلى "الهيدونية"، مذهب المتعة، والذي يتألف بشكل استثنائي من تنوعات دقيقة حول فكرة إرضاء الذات، لدرجة تصل إلى حد تحقيق الرغبات "المازوخية"، بالحصول على المتعة من خلال فعل مؤلم، أو به ألم أو إذلال (ابتداءً من الطعام، وامتدادًا إلى ما لا نهاية). تمامًا كما قال "أوليا شلبي" في عام 1660 تقريبًا: "أولئك هم كل الناس الذين يحبون المتعة والفرح، وهم أصدقاء كل الغرباء. أبوابهم مفتوحة وفي أوقات الطعام هم أهل كرمٍ وضيافة".

كان لكلٍّ من "سنان" و"محمد" حياة مديدة وثرية([59]). ومع ذلك، حتى في الوقت الذي أدركا فيه أن حياتيهما ستكون مديدة وغنية، لم يثنهما ذلك عن فكرة أن عليهما البقاء قريبين من بعضهما بعضًا بقدر الإمكان، تمامًا كما كانوا بالقرب نفسه في بداية حياتيهما. بالحفاظ على قوة علاقتهما قاموا بزيادة فرص تكوين "علاقات" أقوى.

عليَّ أن أكشف عن افتراضاتي واكتشافاتي المحتملة لـ"أورهان باموك". لقد كان نموذجًا للموضوعية. لقد كان يعرف الشرق والغرب بشكل جيد، لدرجة أنه لم يقع في خطأ التطرف والمبالغة في مصلحة أحد الطرفين على حساب الآخر.
بالتحدث عن المياه، ذكَّرني "باموك" بحقيقة أن السلطان "سليمان" استغل "سنان" ليصلح إمدادات المياه في إسطنبول. بصرف النظر عن كيف يبدو هذا الأمر عمليًا، حيث إنه لا تستطيع أي مدينة ضخمة النجاة دون إيجاد حل دائم لإمدادات المياه، إلا أن منظور السلطان للمياه كان بعيدًا كل البعد عن كونه اعتياديًّا. في تصريح له لـ"سنان" وللناس قال: "أريد أن توجد المياه في كل أنحاء المدينة. شيدوا النوافير حيثما يكون الأمر مناسبًا. احفروا الآبار في كل مكان، حتى إن لم يكن ذلك مناسبًا. فلتتوفر المياه العذبة في كل مكان. فليستمتع بها رعاياي ليدعوا لي في كل صلاة بأن يدوم حكمي أبد الدهر". وعلى أي حال، فبفضل كليهما، حصلت المدينة على قنوات المياه: "كاغد خانة" 1557 و"كيركتشيشمي" 1564، "ماجلوفا" و"أوزون". لأكون منصفًا، وأيضًا بفضل سكان بلجراد الصرب الذين تم نقلهم إلى إسطنبول لكي يؤسسوا شبكات المياه السابقة وهذه القنوات، وهم مَن قاموا بتأسيس بلجراد الخاصة بهم في إسطنبول بعد أول مرة استوطنوا فيها، وتكريمًا لأولئك الصرب، قام مضيفوهم بإطلاق أسماء صربية على مناطق في الضواحي المحلية: "بوابة بلجراد"، "غابة بلجراد"..
بدأ "باموك" بروايةِ قصتي:
- كان للماء علاقة أيضًا بعمله في "آيا صوفيا". قام "سنان" بتعزيز الدعامات الهيكلية لهذا البناء الذي كان حلم كل مهندس معماري في ذلك الوقت، ومن ثَمَّ نجح في ترك بصمته على بيت العبادة المسيحي المسلم هذا - واليوم هذا البناء هو مؤسسة تصالحية؛ أي متحف - وبداخل هذا المجمع، بأكمله استطاع أن يقدم شيئًا جديدًا. وبالتحديد، حب "سليمان" وزوجته "هاسيكي خرم". كانت قد طلبت منه قبل ذلك بكثير في عام 1557 أن يقوم "سنان" ببناء حمام هناك بجانب "آيا صوفيا" بالضبط، وأن يكون به مناطق منفصلة للسيدات والرجال. وقد نجحت في هذا. هل تستطيع أن تخمن لماذا؟
فقلتُ له:
- حسنًا، لديَّ فكرة جيدة. استغلت الفرصة حتى يتم إنجاز هذا من قِبَل مسيحي سابق تمامًا، كما كانت هي نفسها منذ فترةٍ ليست ببعيدة "في حياتها الماضية" عندما كانت "روكسيلانا" ابنة القسيس الروسي. ساعدها القرب من كنيسةٍ بيزنطية سابقة بأن تحافظ على نوع من الاتزان في حياتها الجديدة. ومن بين أمور أخرى، هل تعتقد أنها كانت مصادفة أن يحصل "سنان"/ "يوسف"/ "جوزيف" على أمر، أو بالأحرى أن يتم السماح له شخصيًّا عام 1573 - 1574 بأن يقوم بأعمال الترميم الجادة لـ"آيا صوفيا"؟ بالإضافة إلى تعزيز الدعائم، قام بتشييد مئذنتين إضافيتين، كما قام ببناء مقبرةٍ للسلطان "سليم". هل كل هذا فقط لأنه كان الأفضل؟
- أجل، لقد بنى الحمامات عبر الإمبراطورية على الرغم من أن أكثر الحمامات التي أحببتُها من ضمن الحمامات التي بناها كان ذلك الحمام الذي بناه لـ"مهرماه" ابنة السلطان "سليمان" عام 1565 بجانب مدرسة "أدرنة كابيا".
فأضفتُ قائلًا:
- هل تعلم أنني أحب حقيقة أنه لم يكن يتباطأ في مبانيه. وهذا ليس فقط بسبب طاقته وحماسته الملموسة في كل مبانيه، ولكن بسبب السهولة التي كان ينفذ ويبني بها كل شيء في أي مكان، سواء

في العاصمة أو في باقي الأقاليم والمقاطعات. المجمع الذي زرته في "لوليبورجاز" في منتصف الطريق بين "أدرنة" وإسطنبول يبدو فاتنًا رغم بساطته، وما زال يلائم في تصميمه المحيط الذي بُنِيَ فيه في المدينة الريفية المزدحمة. أعتقد أن سر "سنان" هو أنه كان يعلم أن الهندسة لا تدور حول تشييد مبنى واحد فقط، ولكنَّ وظيفتها هي أن تملأ الفراغ المتاح بأفضل طريقة ممكنة، ومن ثَمَّ يصبح المبنى جزءًا أصيلًا من الإقليم أو الضاحية الموجد فيها. لم أكن معتادًا النظر إلى الهندسة المعمارية بهذا الشكل من قبل، ولكنني تعلمتُ كيفية النظر إلى الأشياء منه. تمامًا مثلما تعلمتُ في الماضي أن في النحت لا تصنع تمثالًا بإضافة المواد إليه، بل في الواقع بإزالتها منه.

- هناك شيء آخر فيما يتعلق بحقيقة أنه تقريبًا عاش مدة مائة عام. يمكنك أن ترى كيف سمح له الوقت بدراسة كل ما أراد، وعلى قدر ما رغب في ذلك. أعتقد أنه تعلم أهمية استغلال الوقت عندما كان في حملات المجر، في حين كان يثبت لنفسه وللآخرين أن بإمكانه إصلاح شيء تم تدميره. عندما نجح كمهندس عسكري في إعادة بناء حصن "بنات" بسرعة (وهي طريقة معروفة جيدًا في أي حملة: دَمِّر شيئًا ما لكي تحتله ثم بعد ذلك تقوم ببنائه مجددًا على الفور)، وأراد القائد أن يتركه هناك ليكون مسؤولًا عن البؤر الاستيطانية في حين يتراجع الجيش، رفض ذلك على الفور وخاطر بحياته بعصيانه الأوامر. ومع ذلك، كان واثقًا جدًّا من رؤيته المستقبلية لدرجة أنه استطاع أن يصل إلى الصدر الأعظم حتى من ميدان المعركة، ونجح في إقناعه بأن يلغي هذا الأمر. وبعد عدة عقود، وبالطريقة نفسها، استطاع بفضل قدرته على الملاحظة وتفانيه في العمل هو وأربعة عشر آلاف عامل أن يبني مسجد "السليمية" الجميل، فقط في ست سنوات (وقد كان أكثر روعة حتى من مسجد "السليمانية"). ما البناء في نظره سوى تنفيذ لملاحظاته.

لم يكن لديَّ المزيد لأضيفه، فقلتُ:

- في رأيي، هذا هو أكثر المساجد جمالًا في العالم. إذا كنت تتساءل عن السبب، فانظر فقط إلى مآذنه! فكرة أن تستطيع بناء ثلاثة سلالم في كل منها، بحيث يستطيع ثلاثة أشخاص الصعود على درجاتها في الوقت نفسه ولا يلتقون، هذا مذهل! ومع هذا، فقبل أن أُذَكِّرُك بأي شيء مما يتعلق بهذا الجمال، أريد أن أقول إن "سنان" كانت لديه روح تحدٍّ ومنافسة فيما يخص "آيا صوفيا". وقد أبقى هوسه هذا مدة طويلة، أن يقوم ببناء ضريح أكبر من هذا في مساجده التي يشيدها. وعندما نجح في ذلك أخيرًا عام 1575 في مسجد "السليمية" (وهو ما يُعدُّ انتصارًا له) عندما بنى ضريحًا أكبر بعدة سنتيميترات، فقد كان هذا يعني له أكثر من أن الإمبراطورية العثمانية كلها، بل العالم الإسلامي كله لم يشهد بيتًا لله أجمل من هذا.

ولكن "باموك" كانت له إضافته الخاصة، فقال:

- أعتقد أنه حقق أفضل ما يستطيع. لقد شكَّل مسجد "آيا صوفيا" حملًا ثقيلًا على كواهل المهندسين المعماريين المسيحيين والمسلمين الذين أتوا بعده؛ كان من الصعب بناء أي شيء يمكن أن يتفوق عليه. لا يمكن للتاريخ أن يهدي "سنان" ثناءً أفضل من هذا، وهي جملة مقبولة على نطاق عريض في تركيا، والتي لا تحاول حتى أن تقارن بينهما حيث تقول: "آيا صوفيا" هو الشمس، و"السليمية" هو القمر.

ثم تساءل "باموك" قائلًا:

- ولكنني أعتقد أنك أردت أن تخبرني شيئًا ما حول ذلك الجمال، أليس كذلك؟

- حسنًا، نعم. بعضهم يقارن مسجد "السليمية" بـ"تاج محل" في "آجرا". لا أذكر هذا الآن بسبب المقارنات، ولكن لأنني تذكرت أن لؤلؤة المعمار الفارسي في الهند هي في الحقيقة تراث "معمار سنان". توجد بعض الأسماء العثمانية والفارسية للبنائين الرئيسين لهذا لـ"تاج محل" (1632 - 1648) الذي صُنِّف أنه أحد عجائب الدنيا السبع، من بينهم: "محمد إيساجيري"، "عيسى محمد أفندي"، "أستاد عيسى"، وكلهم تلاميذ "جوزيف"/ "سنان".
والآن، أنا و"باموك" كنا نتنافس. ولكنه فجَّر الجملة الأخيرة. قال:
- حسنًا، حتى مَن بنى مسجد "السلطان أحمد" الشهير المعروف باسم "المسجد الأزرق" في "آت ميدان" بالقرب من "آيا صوفيا" كان "محمد آغا" وهو آخر تلاميذ "سنان".
وبمجرد أن اعتقد أنه قد انتصر، فاجأته بمعلومة أخرى. فقلتُ:
- كان من الممكن ألا يكون "الهيبودرومي"([60]) موجودًا، على الأقل في تلك المنطقة (ومن المعروف أن السلطان أمر ببنائه هناك فقط) لولا تدخل "سوكولوفيتش" بالأمر.
اندهش "باموك" من هذه المعلومة. لم يكن يعرف ذلك، فسأل:
- كيف ذلك؟
- حسنًا، لأن في ذلك المكان كان يقع قصر عائلة "سوكولوفيتش" الذي منحه إياهم السلطان "سليمان" بنفسه عندما أصبح "محمد باشا" الصدر الأعظم. باحترام العلاقة بين أسلافه، وخصوصًا أحد أعظم السلاطين تجاه أحد أعظم الوزراء الذين احتلوا منصب الصدر الأعظم على مر التاريخ، تفاوض السلطان "أحمد" مع ابن "محمد باشا" ليتفق معه على سعر هذا القصر ليشتريه منه. وعندما اشترى القصر في النهاية في مقابل مبلغ مالي ضخم، قام على الفور بهدمه ليتمكن من بناء مسجد السلطان "أحمد" على أنقاضه، وباعترافه هو و"محمد آغا"، فقد بُني على غرار مسجد "السليمانية" الذي بناه "سنان".
ثم أكملتُ قائلًا:
- ولكن دعنا نتحدث عن المياه. هل تعرف ما الطريقة الأخرى التي جمعت بها المياه بين صديقينا؟ إذ إن "باجيكا" ذهب إلى الحج عدة مرات كي يثبت إيمانه للمسلمين المتعصبين والمشككين، فقد طلب من "جوزيف" أن يبني له حمَّامًا بالمدينة المنورة. ليس مسجدًا، بل حمَّامًا! وقد طلب الشيء نفسه في "قونيا" و"كارابينار".
ثم ذهب كلٌّ منا في طريقه. توجه "باموك" إلى جزر الأمراء، وأنا بقيت في إسطنبول بجوها الحار، حتى أنتهي من بحثي عن وصية "سنان" الأخيرة. سيكون قريبًا من المياه، وسأحصل على هذه الوثيقة كجائزة إن عثرتُ على ما أبحث.
وفي طريقي، عبرتُ جسر "جالاطا" للمرة المائة تقريبًا (في طرفه الشمالي، حيث اتخذ أهل "جنوة" منه تعزيزًا لمقرهم، كنتُ أشتري عصير البرتقال المعصور يدويًا ذا المذاق الأفضل على مستوى العالم). وهذه المرة تذكرتُ كم سيكون الأمر سهلًا إذا قام "ليوناردو دافنشي" ببناء هذا الجسر عندما أعلن السلطان "بايزيد الثاني" أنه سيبني جسرًا على "القرن الذهبي". في ذلك الوقت، قدَّم أهل "البندقية" "دافنشي" على أنه الشخص الذي صمم له مشروعًا عام 1502، وهو الأضخم على مستوى العالم من وجهة نظره، حيث كان طوله ما بين 240 مترًا إلى 350 مترًا، وبلغ عرضه نحو 24 مترًا. رفض السلطان هذا التصميم، وأصدر أوامره لفنان آخر وهو "مايكل أنجلو"، ولكنه

رفض، لأنه لم يكن مهتمًّا للأمر. إذن، هذه السلسلة من الرفض أوقفت العمل على هذا الجسر مدة ثلاثة قرون.

والآن، الوصية الأخيرة لمهندسي التي أسميها "المسيجد" - أي المسجد الصغير - الذي كلَّف به "سنان" الممول "سنان" المهندس؛ أي كلف به نفسه؛ أو من الأفضل يمكننا القول - كما سيتضح لاحقًا - إن العميل "جوزيف" تلقى هذا الأمر من المهندس "سنان"؛ أو يمكننا القول إن الزبون "سنان" حصل على هذا الأمر من المهندس المعماري السري "جوزيف". في النهاية، لا يُشَكِّل هذا فرقًا.

عندما وجدته أخيرًا بين المباني السكنية للضواحي المكتظة بالسكان في وسط المدينة، أدركتُ لماذا كان من الصعب جدًّا أن أجده. لقد كان أكثر من متواضع وصغير. واحدة من أهم الرموز التي تدل على وجود مسجد ليست موجودة في هذه الحالة، والثانية بالكاد كانت موجودة. وبالتحديد، لم توجد قبة على السطح، بدلًا منها كان السطح يتكون من أربع أقبية مثل أي منزل عائلي في أي مكان. مسجد بلا قبة! بصرف النظر عن كم كان حجمه صغيرًا، إلا أنني وجدتُ هذا غريبًا بشدة. والمئذنة! بالكاد كانت موجودة. لقد كانت قصيرة للغاية لدرجة أنني للوهلة الأولى لم أستطع أن أميز ما هي بالضبط. بالطبع لم يكن الأمر كما لو كنت أبحث عن شيء كبير. لكنني كنتُ فقط متفاجئًا. وفي الفناء، كان يوجد صف طويل من الحنفيات للوضوء، بجانبهم يوجد فناءٌ آخر في ظل شجرة. وعلى الجدار بجانب المدخل يوجد نقش يقول "مسجد معمار سنان سيريفي 1573". ويوجد بجانب المدخل رف أحذية خشبي. وبالداخل، يوجد كل شيء في حجم الإنسان. وفي الواقع، كل شيء كان كما يجب أن يكون. الهياكل الأثرية لها أغراض أخرى. وهنا، بعث رجلٌ واحد برسالة إلى كل البشر، ليس للسلطان، بل إلى العالم أجمع(([61])). اختار هذا الرجل - "سنان" - طريقة للتفسير. فبمجرد انتهائي من التقاط الصور، وكنت قد هممتُ بالمغادرة، لاحظتُ أن المسجد تم بناؤه من أحجار بلونين، مرصوصة أفقيًا بالتبادل، تمامًا على الطراز البيزنطي.

هل كانت هذه رسائل الازدواجية التي لم يستطع أن يتخلص منها؟ لواحدة عن للثانية، أجل. لكن للاثنين معًا، لا.

شاهدتُ مؤخرًا فيلمًا وثائقيًا أنتج في الأناضول في قرية "سنان"/ "جوزيف" المعروفة باسم قرية "أجيرناس" والتي كان يسكنها اليونانيون في عصره. في الواقع، لم تتم صناعة الفيلم في القرية فعلًا، ولكن تحتها! لقد أظهرت الصور أنفاقًا لا نهاية لها، والعديد من الغرف تحت الأرض على مساحة أربعة آلاف متر مربع، والتي تم ردمها أثناء تجديد منزل ذي أهمية تاريخية في عامي 2003 و2004. المبنى الصغير الذي اكتشفوا تحته قرية بأكملها كان المنزل الذي وُلِد به "جوزيف"؛ المنزل الذي غادره ليصبح "يوسف معمار سنان".

يبدو لي أكثر من أي وقت مضى أن هذا العالم الموجود تحت قدميه (والذي لم يتم اكتشاف الغرض منه) هو الذي حدد مصير "جوزيف" ومهنته.

مثلما تم تحديد موضوع كتابي بسبب وجود أنقاض فندق "باجيكا"/ "محمد باشا" تحت أساسات المبنى الذي أعيش فيه في "دورتشول": أي إذا جاز التعبير، المكان الذي تحت قدمي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

نهاية النهاية

في الوقت الذي بدأ فيه "سنان" أن يردَّ دين محل ميلاده عليه بتواضع ببناء الأشياء، وعلى الأغلب بصناعة النوافير في "قيصري" ومنطقتي "هاسلار" و"فيزيه" (لأن النوافير ذات فائدة يومية مهمة للشعب)، غمر "محمد" نوع معين من الحنين إلى الماضي أيضًا. فبدأ هو الآخر بتواضع من خلال بناء نافورة في جزء المدينة الأعلى من بلجراد، بالقرب من مسجد "سليمان". ولديه واحدة أخرى قد بُنيت في "سوكولوفيتشِي" حيث ينتمي. وفيما عدا ذلك من خطط كبيرة أعدها للمستقبل، كان يستشير فيها "سنان". وعلى كلٍّ، لقد تجوَّل كلاهما حول المدينة وأخذوا قياساتها معًا عدة مرات.

عرض فكرته على "سنان"، فقال:

- لقد فكرتُ كثيرًا بخصوص القصة التي أخبرتني إياها في منذ زمن، عن التشابه الغريب بين موقع وشكل "القرن الذهبي" في إسطنبول و"كاليميجدان"، وما يحيط بها في بلجراد. ولأكون أكثر دقة، أنَّ قصر "طوب قابي" والأسوار المحيطة به في إسطنبول متماثلة مع المدينة العليا في بلجراد بأسوارها. ولذلك، خطرت لي فكرة بإمكانها أن تجعل لهذه التشابهات معنى، وتعطيني بمساعدتك فرصة لأترك ورائي شيئًا يمثلني شخصيًّا يكون بمنزلة رسالة أتركها ورائي.

سُرَّ "سنان" لسماعه هذا، فقال:

- إنني سعيد لأنك فكرت في هذا. يجب أن يكون لبعض المعالم التي نتركها وراءنا معنى أعمق ورسالة أكثر جدية من معظم المعالم الأخرى. لقد كنتُ أنا مَن جعلك تفكر حول كل هذا. ما هي فكرتك؟

وعندما سمع الفكرة جعله هذا يقفز فرحًا، قال له "محمد":

- لقد وجدتُ بقعةً عند "كاديرجا" لبناء مسجدي. لما كانت المنطقة جبلية، فسوف تواجه مشكلة مع الانحدارات، ولكنني أعتقد أن هذا سيكون تحديًا حقيقيًّا لك. لأنه مهما حاولت أن تسوي المكان، ستجد دائمًا جزءًا منحدرًا تقريبًا، وفي الوقت نفسه يتحتم عليك استخدامه. ومع ذلك، عندما ترى إطلالة بحر "مرمرة" من هناك، لن تتراجع أبدًا. وعلى الرغم من أن المنطقة صغيرة، فإنني أريدك أن تبني لي هناك مدرسة أيضًا بجانب المسجد، ونافورة بالطبع في الفناء. ها أنا أسلمك كل أفكاري، لأنني أعرف أنك لا تراني شخصًا مبذرًا أو رجلًا مغرورًا متغطرسًا، ومن ثَمَّ سوف تظهر قدراتك بالتوافق مع هذا ودون مغالاة. الشيء الوحيد الذي أريده هو أن تكون قطع "الموزايك" باللون الأزرق، درجة لون تكون بين لون بحر "مرمرة" ونهري "سافا" و"الدانوب".

فضحك "سنان" وقال:

- ماذا بعد أيضًا، أعلم أن لديك شيئًا آخر تخفيه، هيا هات ما عندك. أفصح!

فأجابه "محمد باشا" قائلًا:

- هل تتذكر "دونجي دورتشول" في بلجراد، المنطقة التي بالقرب من المنطقة اللاتينية؟ حسنًا، هناك، في المنطقة التي تطل على الطريق الطويل، أريد أن أبني فندقًا وسوقًا مُغَطًّى. لقد رأيتُ أن العديد من التجار والرحالة يأتون إلى هناك، وسيكون هناك المزيد والمزيد منهم، لأن بلجراد في طريقها لتصبح مدينة حيوية مهمة..

فقاطعه "سنان" بسؤال:

- ولماذا لا تبني بيتًا لله هناك كما تفعل هنا؟
فنظر إليه "باجيكا" متجهمًا، وقال:
- هل أنت جاد؟ لماذا، أليس كافيًا أنني أصبحتُ مسلمًا، والآن عليَّ أن أدعو الآخرين ليفعلوا مثلي أيضًا؟ لا، سيبقى الصرب يعيشون هناك ويؤمنون بإلههم. لن أكون الشخص الذي يجعلهم يغيرون ذلك. ألا ترى أن هذا سيجعل كل محاولاتي لمساعدة الكنيسة الصربية تذهب سُدى ومضيعة للوقت؟ وهناك شيءٌ آخر، ألا تعتقد أن هذا سيكون كما لو أصبت الصرب والمسيحيين الآخرين في أعينهم؟ لا، عليهم أن يستفيدوا من كل هذا أيضًا.
فأجابه "سنان" قائلًا:
- ولكنني قلتُ هذا فقط، لأنني لاحظتُ أن الأماكن التي تقترحها للبناء تكون متشابهة مع إسطنبول وبلجراد.
فقال "باجيكا":
- ليست متشابهة فقط، بل تكون الشيء نفسه! متطابقة! وهذا هو السبب الذي جعلني أفعل ذلك. لقد قمتُ بقياس كل المسافات بدقة، وبعد ذلك أدركتُ معنى كل هذا. وفقًا لمواقع المباني التي أنشأتُها في المدينتين، فإن أوقافي ستكون نسخة طبق الأصل من بعضها بعضًا. جوانبها الجنوبية ستقع على المسافة نفسها من بحر "مرمرة"، أي على المسافة نفسها من نهر "الدانوب". وعلى جانبها الشرقي يقع الخليج على طول أحدهما، ويطل الجانب الشرقي للآخر على نهر "سافا".. وهكذا. كل المسافات بالمثل. ولكن لديَّ طلب واحد أخير بخصوص روح كل هذا.
نظر إليه "سنان" متعجبًا. يا لها من فكرة! ثم قال:
- طلبٌ مني أنا؟ ما هو؟
- طلبي هو أن تجهز كل تصميماتك واستعداداتك لكي تقوم ببنائها في الوقت نفسه.
وقف "سنان" عاجزًا عن الرد. يا إله السماوات! لقد استطاع "باجيكا" بالفعل أن يحول فكرته الأصلية إلى تحفةٍ فنية! فقال:
- رائع! حتى إن لم أكن قادرًا على تنفيذ هذا، ما زلت أوافق عليه. يا لها من رسالةٍ تتركها خلفك!
بدأ المهندس في العمل، ولأنه كان متحمسًا للغاية، فقد جهز كل شيء بسرعة، وخلال عامين من العمل نجح في الانتهاء من تشييد مبنيين. أحدهما كان مسجدًا صغيرًا جميلًا((62)). يحتوي المسجد مدخلًا ذا سقف مقوس، ينحدر المدخل إلى أعلى بحيث يتجه إلى الفناء عبر السلالم التي تتجه إلى المدرسة. بات الآن حل مشكلة الانحدارات الكثيرة أكثر سهولة وبساطة. اختيار الحجارة الزرقاء كان موفقًا للغاية. الفصول، والفناء، والسبع أقبية الصغيرة على سطح المسجد، وحجرة الصلاة الداخلية، لقد بدا كله متواضعًا، لكن أيضًا يظهر عليه أنه مصنوع من الحب، وليس من مواد صلبة.
وفي الوقت نفسه، أنهى فريق "سنان" من المهندسين المعماريين بناء الفندق والسوق المغطى وفقًا لتصميماته عن سفح "تلة الانعكاس" في بلجراد. وعلى الرغم من أنهما كانا أكثر من مجرد نمطيين، فإنهما كانا في المدينة مثل ظاهرتين جديدتين لا يستطيع أن يرفع المرء ناظريه من عليهما لشدة جمالهما. وذهب الكثيرون إلى أبعد من هذا. بدأ سكان بلجراد يرتدون أحسن الثياب عندما يتوجهون إلى تلك المناطق الجديدة، وبهذا فقد حرَّروا الناس من العادة القديمة التي تجعلهم يرتدون الثياب الجيدة بالمنزل أكثر من ارتدائها خارجه. بمساعدة هاتين التحفتين الفنيتين الجميلتين، استطاعوا

التغلب على كبريائهم الذي عُبِّر عنه في عدم رغبتهم في إظهار جمالهم للعثمانيين. والآن أرادوا أن يظهروه. استغلوا المبنيين بحماس، وأصبحا معروفين في كل أوروبا. كل الرحالة الذين زاروا هذين المَعْلَمَيْن قاموا بوصفهما في دفاترهم وتقاريرهم وكتبهم (على حسب أي نوع من الرحالة هم، وأي نوع من الكتابات يؤلفون).

أحضر "سنان" هديةً لـ"محمد"، لوحة مماثلة لتلك الموجودة فوق مدخل فندق بلجراد، كتب النص الموجود عليها صديقُه الشاعر "مصطفى ساي شلبي". تقول: "كل من أمضى الليل بهذا الفندق قد ذهب".

ثم بدأ "باجيكا" يشير إلى بلجراد مستخدمًا كلمة "مدينة"، وبهذا فقد استفز "سنان" الذي كان دائمًا يتجادل معه حول الفرق بين كلمات مثل "كَفْر"، و"قرية"، و"قصبة"، و"مدينة".

وعندما انتهى العمل، سأله "سنان":

- ما الإنجاز الذي تظن أنك حققته بإنشاء أوقافك في مدينتين؟

كان "باجيكا" قد جهز إجابة لهذا السؤال مسبقًا، فقال:

- الآن، وقتما أشاء، أستطيع النظر إلى عملك هنا، فيخطر على تفكيري أنني موجود هناك أيضًا، والعكس بالعكس. أليس هذا رائعًا؟

فقال "سنان"

- هذا صحيح. ولكن إذا كان هذا مريحًا فهو ليس جيدًا.

وبعد خمس سنوات، أعادوا هذا الحوار مرةً أخرى.

طلب "باجيكا" من "سنان" أن يبني له مسجدًا آخر، ولكنه أكبر من الأول في "آزاب كابي" بإسطنبول. وفي الوقت نفسه أن يبني له جسرًا حجريًّا خلَّابًا رائعًا في البوسنة على نهر "درينا" في "فيشجراد".

استغرق العمل والاستعدادات له الكثير من الوقت ليرى الناس بنائين أكثر جمالًا، نتاج أفكار، ومشاعر، وعمل شاق لصديقين عزيزين([63]).

ولأنه لم يرَ "باجيكا" بمثل هذا الرضا من قبل، سأله "سنان" إذا كان الأمر فقط يبدو كما لو كان "باجيكا" قد حقق أغلى أمانيه.

فأجاب "باجيكا" أن نعم، وطلب منه شيئًا آخر. فقال:

- بصرف النظر عن أولادي، أنت الشخص الذي حقق لي أعظم سعادة في حياتي. ولهذا سأخبرك بسرٍّ آخر من أسراري وستكون مسؤولًا عن الحفاظ عليه.

فقال "سنان":

- من الطريقة التي تقول بها هذا، هل هذا الذي أسمع الآن إشارة إلى أن ما ستقوله هو نذير شؤم؟

فقال "باجيكا":

- بالتأكيد. لم أكن محظوظًا كفاية كي أُولَد في الوقت نفسه الذي وُلِدت أنت به، لن يكون لي من الحظ ما يجعلني أعيش عمرًا أطول من عمرك. ومع ذلك، يجب أن أكون راضيًا عن عدد السنوات التي عشتُها عندما أقارنها بعدد سنين عمرك؛ سنين عمرك أنت الذي ستعيش عمرًا أطول من أعمارنا جميعًا. لقد بلغتَ التسعين من عمرك بالفعل، ويبدو أنك ستعيش إلى الأبد. لذلك أنت الخيار الأفضل لحفظ سري هذا. أنت تعرف زوجتي الصغيرة "أسمهان" - إنني أدعوها "أسما" - ابنة السلطان

"سليم"، وحفيدة السلطان "سليمان" العظيم، إنني أسميه "سيد القرن"، وحفيدة السلطانة "هاسيكي خرم"، التي أدعوها "روكسيلانا". حسنًا، قريبًا جدًّا سوف تبقى وحيدة، وبصرف النظر عن أنها ستكون بأمان، حتى بعد مغادرتي، لأنها قريبة كل هؤلاء السلاطين، إلا أنني أريد أن أكون على علم بأن أحد أصدقائي سيطمئن عليها ويسأل عن أحوالها من وقت إلى آخر. ومع ذلك يجب ألا تنجب ذكورًا، لأنها ابنة سلاطين، وإن كان لها ابن ذكر، فهذا يعني أنه سيشكل خطرًا على العرش. ومع هذا، لم أستطع أن أنتزع الأمومة من هذه العروس الشابة عندما أنجبت ابننا سرًّا. أجل، إنه حيٌّ وبخير منذ مدةٍ طويلة. لقد أبقيتُه معنا، وهو يتظاهر بأنه أحد الخدم. اسمه "إبراهيم"، وأنا أناديه "جوفان". هذا هو السر الذي أردتُك أن تعرفه. لن يمسه أحد بسوء، حتى إن عرفوا ابن مَن هو، ومع ذلك، أريدك أن تتفقده بين حينٍ وآخر. أعتقد أنه لن يشكل عليك عبئًا كثيرًا. بالتأكيد، مع عصبة الأطفال التي لديك: خمس بنات، وصبيان من زوجتين؛ أظن أنك متمرس في هذا. "كورد" و"حسن" بالغان بالفعل، وليس لديَّ أي قلق حيالهما. وبالمناسبة، إنني أناديهما بأسماء مختلفة أيضًا.

اختلق "سنان" المفاجأة، ولكنه لم يتفاجأ في الواقع:

- إذن، لقد قمت بفعل كل شيءٍ في الوقت المناسب، على حد علمي، يبدو أنك ما زلت على قيدٍ الحياة، وسوف تترك وراءك ميراثًا جيدًا؛ أطفالًا، وأوقافًا، وانتصاراتٍ، وأعمالًا صالحة.. وعلى كلٍّ، أعتقد أن هذه وصيتُك لي.. على الرغم من أنني أعترف بأنني أجد هذا غريبًا، فأنا لم أوصِك بكل ما أترك ورائي.

فقال له "باجيكا":

- يبدو أنك لا تأخذ هذا على محمل الجد، ولكنني تركتُ لك بالفعل بعض الكلمات التي أريدك أن تقرأها عندما لا أكون موجودًا في هذه الدنيا. أعرف أنك تؤلف كتابًا بصحبة "ساي شلبي" تسجل فيه إرثك، وربما تكون فيه شهادة منك أيضًا أو وصية. إنك محظوظ، لأن صديقك هو رجل ذو ريشة - أي أديب - ومن ثَمَّ سيُجَمِّل جوانبك السيئة. أمَّا أنا فسوف أترك نفسي للمفسرين والمحللين.

فقال له "سنان":

- حسنًا. هل تستفزني الآن بذكر جوانبي السيئة؟ لكن، لماذا لا نحافظ على الوقت وتخبرني بفحوى هذا الخطاب؟ لن يكون لديك متسعٌ من الوقت على فراش الموت، وربما لا أكون موجودًا حينها. وأنا لا أحب أن أقرأ رسائل من أصدقائي الميتين.

فكر "باجيكا" في هذا قليلًا، ثم قال:

- حسنًا. لكن بشرط أن تأخذ هذه الجمل على أنها جزء من نقاشنا هذا. سأحاول تجنب الكلمات العاطفية، ومع ذلك إنني أتمنى أن تكون هذه الكلمات فيها شيء من الحكمة على الأقل. سأخبرك عن بعض الأفكار التي ظلت تطاردني سنوات، أو تلك الأفكار التي هي نتاج عن هذه التأملات.

فعلى سبيل المثال، أعلمُ أنني حاولتُ جاهدًا تجنب اكتساب شهرة مبالغ فيها كمحارب، لأنني لم أكن على وفاقٍ أبدًا مع فكرة الموت نتيجة عن العنف. أريد أن أرى نفسي شخصًا حكيمًا يفكر بعناية في الكلمات التي ينطق بها أكثر من أن أرى نفسي رجل دولة عظيم يفكر بعناية فيما لا يجب أن يقول. أعلم أنني عايشتُ صراعًا دائمًا للنجاة بداخل نفسي. أؤمن بأن السبب وراء هذا هو أنني أُجبِرتُ على أن أغادر وطني. ولكن هذا الجانب في شخصيتي جعلني ماهرًا في توجيه نفسي والآخرين. من الخارج أبدو حذِرًا على الدوام، ولكن بداخلي أخالج شعورين مختلفين، أعي بوجود طريقين مختلفين أبحث خلالهما عن مخرج: أحدهما داخلي، والآخر سري لم أستطع أن أفهمه. من تجاربي في ظل

حكم كل أولئك السلاطين الذين كان العديد منهم قريبًا مني، ومن تجاربي في فترة حكمي، أدركتَ أنه يمكن تصنيف الحكام نوعين: هناك أولئك الذين يحكمون بقوة السيف، وهم كُثُر، وهناك أولئك الذين يحكمون بالدرع، وهم قليلون. كان الملك الصربي "أوروش نيمانجيتش"((64)) من مثل هذا النوع؛ من النوع حامل الدرع. لقد كان عمليًّا مثلي الأعلى والقدوة التي احتذيتُ بها. ربما كانٍ كذلك فقط، ربما أجبرته الظروف على أن يصبح هكذا، ربما كان هناك سببٌ آخر. في الواقع، أميلُ إلى التفكير في أن الأمر متعلق نوعًا ما بزوجة الملك "هيلين أنجو". لقد كانت هي السبب، تلك الملكة التي تحولت من الكاثوليكية إلى الأرثوذكسية طوع إرادتها، بدافع حبها لعقيدتها وزوجها. لأنه يبدو أن من بين كل الأسباب الأخرى لتفضيله الدرع على السيف، فإن الحب هو السبب الأقوى.

لم يتراجع "سنان" عن طلبه بأن يعطيه إجابة واضحة وكاملة، فقال:

- والآن، تحديدًا وفي جملةٍ واحدة، هل كل ما تعلمته هو جوهر أولئك الذين يحكمون بالسيف فقط؟

وقد كانت الإجابة مؤلمة. قال "باجيكا":

- على الأغلب، كلهم ينهون حكمهم، وغالبًا حياتهم، وما زال لديهم شيء أرادوا أن يخبروا رعاياهم به، ولكنه كان من وجهة نظرهم رمزًا لنقطة ضعف هذا النوع من الحكم، وربما أيضًا رمزًا لفشله وسقوطه: آمركم بأن تحبوني!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

واقع بعد الوفاة: إحصائيات " خوجة معمار سنان آغا"

القائمة الأخيرة لأعمال "سنان" المعمارية، ومن ثَمَّ من الصعب إحصاء عددها بدقة. ومن أسباب ذلك هو المسافة التاريخية بين الوقت الذي عاش وعمل فيه، والوقت الذي اختفت فيه العديد من الأشياء التي بناها منذ ذلك الحين، وكذلك كثرة المصادر الأرشيفية المتناثرة، وأخيرًا درجة مصداقيتها. الأكثر دقة من بينها تتكون من ثلاث قوائم في المصادر التالية:

1- "تذكرة البنيان": وهو نص مخصص للصدر الأعظم "سيافوش باشا" 1583- 1584.

2- "تذكرة الأبنية": وهو نص مخصص لمؤلف هذين النصين، للكاتب "مصطفى ساي شلبي" الذي تُوُفِي عام 1595.

3- "تحفة المعمار": لمؤلف مجهول، تم نشر العمل على الأرجح في التسعينيات من القرن السادس عشر.

تُعدُّ المخطوطتان الأوليان سيرة "سنان" الذاتية، وذلك لأن "معمار سنان" كان قد عَهِدَ إلى صديقه "مصطفى شلبي" بكتابته لها، ومع هذا يوجد في النص خط يد مختلف عن خط "مصطفى ساي شلبي"، ولذلك يُعتَقَد بأن هذا الخط يعود لـ"سنان" نفسه. لم يخرج هذان النصان من مكتبة "السليمانية" سوى مؤخرًا، وتم نشرهما تحت عنوان "كتاب المباني (مذكرات سنان المهندس المعماري)".

لسوء الحظ، تقدم هذه النصوص الثلاثة إحصاءاتٍ مختلفة فيما يخص إجمالي الإنشاءات التي قام بها "سنان": عند إضافة الثلاثة إلى بعضها يصبح الإجمالي 477 مشروعًا. تشترك الثلاث نصوص في 314 مشروعًا، ويشترك نصان في 40 مبنى، وهناك 123 مبنى لم يُذكَروا في نصٍ واحد من الثلاثة. وهذا مثال على قائمةٍ رابعة لهذه المنشآت مصنفة حسب النوع، ويصل إجمالي العدد فيها إلى 370 مشروعًا يُقال إن "سنان" صممها ونفذها:

- 94 مسجدًا كبيرًا (جامعًا).
- 57 كلية.
- 52 مسجدًا صغيرًا.
- 41 حمَّامًا.
- 35 قصرًا (سرايا).
- 22 ضريحًا.
- 20 فندقًا (نزل/ استراحة).
- 17 مطبخًا عامًّا (محلًّا لإطعام الفقراء).
- 8 جسور.
- 8 مخازن.
- 7 مدارس لتحفيظ القرآن.

- 6 شبكات مياه.
- 3 مستشفيات (دار الشفاء).

ومشاريع لم تُبْنَ، ولكن تم التخطيط لها:

- قناة السويس.
- ربط نهري "دون" و"فولجا" عن طريق قناة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الحاج "محمد باشا سوكولوفيتش" الطويل

دون أي شك، لقد وصلت الإمبراطورية العثمانية إلى قمتها في عهد السلطان "سليمان العظيم القانوني" (1520 - 1566). وبسبب جمود حجم الإمبراطورية التي أنشأها، استمر ابنه "سليم الثاني" (1566 - 1574) وحفيده "مراد الثالث" (1574 - 1595) بالحفاظ على تراثه.
دامت فترة حكم السلطان "سليمان" مدة أربع وستين سنة، تولى خلالها عشر وزراء منصب الصدر الأعظم للدولة (ولأكون أكثر دقة هم تسعة، لأن أحدهم تولى هذا المنصب مرتين). في المتوسط، بقي كلٌّ منهم في منصبه مدة أربع سنين ونصف. اثنان منهم كانا وزراء في عهد السلطان "سليم الأول" (1520 - 1523) والد السلطان "سليمان"، وقد كانا الوحيدين من أصول غير سلافية. الثمانية الآخرين (في الحقيقة السبعة) حتى مماته كانوا من أصول سلافية، وهذا من اختياره هو.

1- "هاديم/ خادم سليمان باشا" ([65]).
2- "بيري محمد" حتى 1523: كان أحد العلماء.
3- "إبراهيم باشا" (1523 - 1536).
4- "أياس باشا" (1536 - 1538).
5- "لطفي باشا" (1538 - 1544).
6- "رستم باشا أوبوكوفيتش" (1544 - 1553).
7- "كارا أحمد" (1553 - 1555).
8- "رستم باشا أوبوكوفيتش" (1555 - 1561).
9- "سيميز علي باشا" (1561 - 1565).
10- "محمد باشا سوكولوفيتش" (1565 - 1579).

كان "رستم باشا أوبوكوفيتش" هو مَن بقي في منصب الصدر الأعظم أطول مدة على فترتين مجموعهما خمس عشرة سنة، ومن بعده "صقللي محمد باشا"/ "محمد باشا سوكولوفيتش" (أربعة عشر عامًا). ثم يأتي بعدهما "إبراهيم باشا" الذي قضى في هذا المنصب ثلاثة عشر عامًا. أما البقية فقد حافظوا على هذا المنصب فتراتٍ أقصر من ذلك بكثير.
أما الفترة ابتداءً من وفاة السلطان "سليمان العظيم القانوني"، وحتى وفاة السلطان "سليم الثاني"، وصولًا إلى عهد السلطان الثالث (1565 - 1579)، وهي مدة تصل إلى أربعة عشر عامًا، كان فيها "صقللي محمد باشا" هو الصدر الأعظم خلالها كلها. وهو الصدر الأعظم الوحيد من بينهم جميعًا الذي اؤتمن على ختم الدولة من قِبَل ثلاثة سلاطين متتابعين (لولا أنه تم إنهاء حياته بعنف في عصر السلطان الثالث).
ومنذ قتله عام 1579 (بعد أربعة عشر عامًا متتالية من حكم الدولة)، وحتى وفاة السلطان "مراد الثالث" عام 1595، وصولًا إلى حكم ووفاة ابنه السلطان "محمد الثالث" عام 1603، أي خلال ثلاث وعشرين سنة، كان هناك ما يقرب من ثلاثة وعشرين صدرًا أعظم؛ أي بمتوسط صدر أعظم لكل سنة.

في الفترة بين فتح "القسطنطينية" عام 1453 ونهاية حكم السلطان "مصطفى الأول" (ابن السلطان "محمد الثالث") عام 1623 (وهو ما يقرب من مائة وسبعين سنة من أكثر فترات الإمبراطورية العثمانية أهمية) حكم خلالها الدولة نحو سبع وأربعين صدرًا أعظم. في المتوسط، حكم كلٌّ منهم ثلاثة أعوام ونصف. و"محمد باشا" بأعوامه الأربعة عشرة في هذا المنصب يكون قد تقلَّد المنصب مدة توازي أربعة أضعاف متوسط عدد السنين؛ وهو منصب وفترة حكم تم إنهاؤها ونزعها منه بالعنف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الرواية..

الحمَّام.. أو مهارة العيش
قبل البداية
النهاية
البداية
ما قبل النهاية
بعد البداية
قبل النهاية..
1
الفصل الأول
2
الفصل الثاني
3
الفصل الثالث
4
الفصل الرابع
5
الفصل الخامس
6
الفصل السادس
7
الفصل السابع
8
الفصل الثامن
9
الفصل التاسع
10
الفصل العاشر
11
الفصل الحادي عشر
12
الفصل الثاني عشر

13
الفصل الثالث عشر
14
الفصل الرابع عشر
15
الفصل الخامس عشر
16
الفصل السادس عشر
17
الفصل السابع عشر
18
الفصل الثامن عشر
19
الفصل التاسع عشر
20
الفصل العشرين
21
الفصل الواحد والعشرون
22
الفصل الثاني والعشرون
23
الفصل الثالث والعشرون
24
الفصل الرابع والعشرون
25
الفصل الخامس والعشرون
26
الفصل السادس والعشرون
27
الفصل السابع والعشرون
28
الفصل الثامن والعشرون
29
الفصل التاسع والعشرون
30
الفصل الثلاثون

ما بعد النهاية: المياه
نهاية النهاية

واقع بعد الوفاة: إحصائيات " خوجة معمار سنان آغا"

الحاج "محمد باشا سوكولوفيتش" الطويل

Notes

[←1]

1)) - كلمة «إسترادا» في الصربية - والتي تُرجمَت هنا على أنها «المسرح الشعبي» – والتي ظهرت منذ أوائل التسعينيات كانت تحمل دلالة مهينة مشيرة إلى الموسيقى الشعبية وبعض الفنون الاستعراضية الأخرى التي كانت منتشرة في تلك الفترة والتي أثار انتشارها تَحَفُظ الجماهير بسبب الابتذال في المعايير الجمالية التي استخدموها حينها، ولقد أخطأوا عندما ادَّعوا أن ما يقدموه هو فن شعبي وبرروا ذلك بأنه يعود لجذورهم العرقية القديمة وهذه معلومة لا يمكن إثبات صحتها. ولذلك قيل إن سوء استخدامه لهذا اللون الفني يرجع سببه لقصر نظرهم في الأهداف التي كانوا يريدون تحقيقها في سياستهم القومية حينها. وهذا لا ينطبق على كل الألوان الأدبية التي كانت موجودة وقتها والتي كانت مناهضة لهذا اللون.

[←2]

(2) - تلك السفن الشراعية الصغيرة يكون بكل واحدة منها من ١٦ إلى ٢٠ مجدافًا وهي سفينة سريعة جدًا ومتوسطة الحجم.

[←3]

(3) - سفينة حربية تُستخدم لحمل المدفعية الثقيلة في البحر.

[←4]

(4) - هو مترجم دبلوماسي رسمي ويكون في معظم الأحيان مع البعثات الأجنبية في تركيا. وفي هذه الحالة يكون المبعوث هو الشخص الذي يتم التحدث إليه في الحقيقة وليس المترجم المقصود بالحديث.

[←5]

(5) - الفرمان هو أمر مكتوب من السلطان يحمل ختمه. ويتكون ختم السلطان من مونوجرام أو رسم الحروف بشكل متشابك ويتضمن اسمه ولقبه.

[←6]

(6) - تعني هذه الكلمة في اللغة الأوروبية «تل للتأمل والتدبر». وهي الكلمة التركية لاسم الهضبة التي بُني عليها الحصن.

[←7]

(7) - والمعنى الحرفي لها في اللغة التركية هو «حقل المدينة» فكلمة «كالي» تعني مدينة وكلمة «ميجدان» تعني الحقل.

[8←]

(8) - وفقًا للإمبراطور والمؤرخ البيزنطي قسطنطين، فإن القبيلة «السلافية» الصربية استقرت بهذه المدينة في بداية القرن السابع الميلادي وقد أطرقوا على ذلك المكان الذي نزلوا به اسم «بيلي جراد» أو «بيوجراد» والذي يعني «المدينة البيضاء». وقد سميت بهذا الاسم نسبة للون الحجر الجيري الأبيض الذي قامت عليه المدينة ونسبة أيضًا للحصن الأبيض الذي وجدوه هناك والذي بُنِي من نفس العناصر الجيولوجية المتواجدة بالمدينة وبنفس لونها الأبيض.

[←9]

(9) - كان يتم أخذ الأولاد الذين يتم ضمهم للجيش الإنكشاري بالقوة من أبناء العائلات الأجنبية وأبناء الشعوب المسيحية التي تم غزو أراضيها والتي تقيم بالإمبراطورية العثمانية مثل عائلة «سنان» وأيضًا من أبناء العائلات التي أسلمت حديثًا بالبوسنة وألبانيا.

[←10]

(10) - كان «سوكولوفيتش» (صقللي محمد باشا) يلقب بالطويل بسبب هيئته الهزيلة والتي جعلته يبدو أطول.

[←11]

(11) - هذه الكلمة مشتقة من الكلمة التركية «تيرازي» والتي تعني «الميزان» سواء كان المقصود الآلة أو المكان الذي يتم وزن الأشياء.

[←12]

(12) - هي إحدى أهم المعارك في تاريخ أوروبا الوسطى. أدى انتصار العثمانيين في معركة «موهاكس» أو «موهاج» إلى تقسيم المجر لعدة قرون بين العثمانيين وملكية هابسبورج وإمارة ترانسيلفانيا.

[←13]

(13) - ملك المجر وقتها. انتهت سلالة ياغيلون في المجر وبوهيميا بقتله أثناء فراره من المعركة.

[←14]

(14) - هو منصب يناظر منصب المحافظ، ويكون مديرًا على «بيليربيلوك» وفي هذه الحالة هي أكبر منطقة عسكرية إدارية في تركيا.

[←15]

15)) - يطلق على نهر «ماريتسا» في التركية «ميريك» وفي الصربية والبلغارية «ماريكا» وفي اليونانية «إيفروس».

[←16]

(16) - معروفة اليوم باسم «سفيلينجراد» في بلغاريا.

[←17]

(17) - أعضاء فريق الفرسان الخفيف وهو مكون من الأتراك والمسلمين المحليين من سكان البلقان. وقد تم تشكيل هذه الفرق على المناطق الحدودية للإمبراطورية العثمانية. وقد تم تنظيم وجودهم وتخطيطه بشكل صارم. وكانت وظيفتهم الهجوم على المناطق التي خلف حدود أراضيهم والتحرش بالعدو في الأوقات التي لا يوجد بها أي حملات عثمانية عسكرية ضخمة.

[←18]

(18) - هي أحد فرق الإنكشارية وتتكون من أربعمائة رجل.

[←19]

(19) - «رادوفان سمرديتش»، «محمد سوكولوفيتش».

[←20]

(20) - يوازي الدفتردار المعظم في يومنا هذا وزير المالية في الحكومة. يوجد في القسطنطينية العديد من الدفتردار المحليين غيره في كل مقاطعة و»باشلوك» (وهي منطقة يحكمها باشا).

[←21]

(21) - على الرغم من أن «شلبي» هو لقب يستخدم للإشارة إلى رجل متعلم نبيل الأصل، إلا أن بمرور الوقت بدأ استخدامه بشكل غير رسمي للإشارة إلى طبقة الأمراء. وبعد ذلك، وفي حالات معينة، بدأ استخدامه كاسم أو لقب.

[←22]

(22) - لقب «بادشاه» في الفارسية يعني ملك الملوك وهي مرادفة جامعة تعني الحاكم، الإمبراطور، المالك، السلطان العظيم وهي أحد الألقاب التي لُقِبَ بها بعض السلاطين الأتراك السابقين.

[←23]

(23) - هو لقب يوازي آغا الإنكشارية.

[←24]

(24) - هو لقب يُطْلَق على فرد من حاشية السلطان تكون مهمته أن يساعد الحاكم في ركوب الخيل وأن يتبعه في رحلاته حيث يمشي بجواره أثناء ركوبه الخيل. ولم يكن من الممكن له حرفيًا حتى أن يدنو من أطراف رداء السلطان. على الرغم من أن هذا الدور يبدو مهينًا وغير مهم على الإطلاق إلا أنه في الحقيقة يدل على عكس ذلك: ثقة الحكام بهذا الشخص غير محدودة.

[←25]

(25) - وظيفته الأساسية هي أن يهتم بثياب الحاكم.

[←26]

(26) - هو حامل الدرع الإمبراطوري ووظيفته هي حماية أسلحة الحاكم.

[←27]

(27) - هو المسؤول عن حجرة الطعام وعن تذوق الطعام الذي سيقدم للسلطان.

[←28]

(28) - هو الأقدم بين قادة حرس البلاط الملكي.

[←29]

(29) - هو مرسوم أو أمر يصدر بخنق أو شنق أحد الرعايا.

[←30]

(30) - هو مكتب عسكري وإداري، يُسمَّى من يعمل به «سنجاق». يوجد بكل مكتب «سنجاق» واحد. وكل مجموعة مكاتب كانت تكون ما يُسَمَّى «البيليربيلوك» أو «الباشلوك».

[←31]

(31) - هو البنَّاء/ المهندس/ المعماري الأعلى، وكلمة «معمار» هي أحد الكلمات التي تدل على هذا المنصب. وفي حالة «سنان» أصبح لقب معمار جزءًا منة اسمه بمرور الوقت.

[←32]

(32) - كان كبير حلاقي البلاط العثماني يُدْعى «بيربيراش».

[←33]

(33) - في الفترة بين ١٥٤٨ - ١٥٤٩.

[←34]

(34) - قائد ملاك الأراضي في «سنجاق».

[←35]

(35) - اسم المكان مهم لأن ابنها أخذ اسمه منه وأصبح معروفًا باسم المؤرخ التركي «إبراهيم أفندي البيتشيفي» أو «البيتسيولي»، كما عُرفت المدينة أيضًا باسم «بج» منها أتى اسمه المعروف «بجوي إبراهيم أفندي».

[←36]

(36) - تستخدم كلمة المدرسة في اللغة التركية للإشارة إلى المدارس الإعدادية والثانوية، أما كلمة مكتب فهي تستخدم للإشارة إلى المدارس الابتدائية.

[←37]

(37) - يقصد أثيرة السلطان «سليمان» وحبه العظيم التي كانت جارية له في السابق وكان اسمها «روكسيلانا» وهي ابنه قس أرثوذكسي روسي، تزوجها السلطان وأصبح اسمها «خُرِم».

[←38]

(38) - لقد كان مظهره في البلاط الملكي هو السبب الذي جعل النساء أولًا، ومن بعدهن باقي الناس، يُطلِقون عليه لقب «الطويل»، حتى إنهم أصبحوا يضيفون هذه الصفة بعد اسمه، حتى كادت تكون جزءًا من اسمه: «محمد باشا الطويل».

[←39]

(39) - هو لقب يُمنح في الدولة العثمانية للبك الذي يقود فرقة في الجيش أو الذي يكون حاكم مدينة.

[←40]

(40) - سلاح فرسان خفيف.

[←41]

(41) - سلاح فرسان خفيف غير نظامي وهم من فرق الاستطلاع والقوات المتقدمة في الجيش العثماني.

[←42]

(42) - فرقة من الجنود المشاة وغالبًا غير المتزوجين.

[←43]

(43) - سلاح خفيف غير نظامي من اليونانيين المسيحيين وهم جزء من الجيش العثماني.

[44←]

(44) - الباسك هم من السكان الأصليون الذين يعيشون في منطقةٍ تعرف لاسم «إقليم الباسك» وهي منطقة تقع على ساحل خليك «باسكاي» وتمتد من جبال البرانس حتى تصل إلى شمال إسبانيا وجنوب غرب فرنسا.

[←45]

(45) - «إيتا» هي اختصار لـ(Euskadi Ta Askatasuna) وهي حركة باسكية انفصالية يسارية مسلحة.

[←46]

(46) - مسؤول إقليمي في الإمبراطورية التركية.)

[←47]

(47) - اشتق المسجد اسمه من جملة «Banya Bashi» والتي تعني «الحمامات الكثيرة». حيث يقع المسجد الموجود حاليا على عدة برك وحمامات قديمة، حيث يمكن مشاهدة البخار يخرج من المصارف في أرضية المسجد بالقرب من الجدران. يشتهر المسجد بقبته الضخمة ومنارته العالية.

[←48]

(48) - وهي مخطوطة نُشِرَت عام ١٥٢٦ بعنوان «تاريخ التمرد في المجر وإرديلج».

[←49]

(49) - إن «مصر» هو الاسم القديم لها مثلما كان «روملي» هو الاسم القديم للجزء الأوروبي من الإمبراطورية العثمانية.

[←50]

(50) - وهي مقالات للنقد الأدبي تُكتب وتُقرأ لأغراض جمالية.

[←51]

(51) - هذا غير دراسته العلمية عن العاصمة في مصر بعنوان «ألف سنة من القاهرة» وروايته «الزيني بركات».

[←52]

(52) - في أوروبا، يُعرف هذا المنصب باسم «المفتي الأعظم». وهو الفقيه الأكبر للشريعة. وقد فعل الكثير ليجعل الفقه يتفوق على الجيش. أدت إصلاحاته في القانون إلى تضمين العلماء (في الدين والعلوم) في نظام الدولة العثمانية بأكمله.

[←53]

(53) - يقول العديدون إنه أعظم مُفسر للقرآن على مر العصور.

[←54]

(54) - أي الداعم والعمود.

[←55]

(55) - المجر.

[←56]

(56) - هذه كلمة كانت تطلق في القرن الرابع الميلادي على الدير في سوريا، وأضيفت إليها كلمة (أرخي – من أرخيغوس اليونانية) فأصبحت أرخمندريت. أي رئيس المنطرة (الصيرة: الدير) ثم شاعت في الكنائس الشرقية وتبلورت فيما بعد فصار معناها الأب.

[←57]

(57) - على مدار الثلاثين عامًا التالية، كان بطريرك بطريركية «بيتش»، ورئيس الكنيسة الأرثوذكسية الصربية، ينتمي إلى عائلة «سوكولوفيتش» «مكاريجي» (١٥٥٧ - ١٥٧١)، و»أنتيم» (١٥٧١ - ١٥٧٥)، و»جيرازيم» (١٥٧٥ - ١٥٨٦) و»سافاتيجي» (١٥٨٦).

[←58]

(58) - أي الحمام الجديد.

[←59]

(59) - كان ينقص «سنان» عام واحد فقط ليعيش قرنًا كاملًا؛ فقد عاش تسعة وتسعين عامًا. ربما لو كان «محمد» قد نجا أيضًا ليعيش عمرًا مشابهًا، أو على الأقل ليصل إلى شيخوخة عميقة لولا أنه قُتل في عامه الرابع والسبعين من حياته على يد أحد أتباع طائفة حمزة المتعصبين، في حين كان لا يزال حيويًّا ونشيطًا للغاية.

[←60]

(60) - «هيبودرومي» كلمة يونانية تعني المكان الذي يُعقد به سباق الخيل. في التركية، يناظرها مصطلح «آت ميداني» حيث تعني كلمة «آت» حصان، وكلمة «ميداني» هي الميدان.

[←61]

(61) - لبناء كل هذه المباني الكبيرة والصغيرة، ولكن التي لا حدَّ لأهميتها أيضًا والتي ظلت صامدة هذه القرون الخمسة، والتي جعلت الإمبراطورية العثمانية والثقافة الإسلامية، بل وثقافة العالم أجمع مدينة لـ»سنان»، حصل «سنان» على مكافأة كريمة من حاكمه. منحه السلطان «سليمان» عام ١٥٦٣ «أكوف» (وثيقة - مرسوم إنشاء الملكية) والتي سمح بها لـ»سنان» بتملك ثروة تتكون من ثمانية عشر مبنى، وثمانية وثلاثين متجرًا، وتسعة منازل، وحقل واحد، وطاحونة، وثلاث نوافير، ومسجد صغير ومدرسة.

«المسجد الصغير» في القائمة هو هذا بالذات.

[←62]

(62) - تم الانتهاء من مسجد «صقللي محمد باشا» في «كاديرجا» بين عامي ١٥٧١ و ١٥٧٢، وكذلك السوق المغطى و الفندق في «دورتشول».

[←63]

(63) - تم الانتهاء من بناء مسجد «صقللي محمد باشا» في «أزاب كابي» بين ١٥٧٧ و١٥٧٨، وكذلك كُوبْرِي «فيشجراد» (الجسر على نهر «درينا») في البوسنة.

[←64]

(64) - حكم صربيا من عام ١٢٤٣ إلى ١٢٧٦.

[←65]

(65) - كان «خادم سليمان باشا» رجل دولة عثمانيًا وقائدًا عسكريًا. شغل منصب نائب الملك على مصر العثمانية في ١٥٢٥-١٥٣٥ و١٥٣٧-١٥٣٨، وصدرًا أعظم للإمبراطورية العثمانية بين عامي ١٥٤١ و١٥٤٤. كان مخصيًا مجريًا، ولقبه «هاديم» يعني «الخصي» باللغة التركية.